حضارة الإسلام في دار السلام

تأليف

جميل نخلة المدور

الكتاب: حضارة الإسلام في دار السلام

الكاتب: جميل نخلة المدور

الطبعة: ٢٠٢١

الطبعة الأولى : ١٩٣٦

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

المدور ، جميل نخلة

حضارة الإسلام في دار السلام / جميل نخلة المدور

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٣١٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٦ – ٢٤٨ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٠٥٢٤ / ٢٠٢١

حضارة الإسلام في دار السلام





مقدمة

هذه رسائل وصفتُ فيها عصرًا من عصور الإسلام، قد أشرق به نور العلم، وجرت فيه أعمال عظيمة، قام بها رجالٌ كبراء ملئوا العالم بآثار جمالهم، وجعلتُ الكلامَ فيها لرحَّالة فارسيٍّ طوَّفْتُهُ معظم البلدان الإسلامية في المائة الثانية للهجرة، وطوَّقْتُهُ مناصب الدولة برعاية البرامكة، إلى أن نكبهم الرشيد كما تراهُ في موضعه من الكتاب.

فكان في النفس ومن عزم بعض خُلَّاني عليَّ أن أُبقي الحديث على لسانهِ إلى خلافة المأمون؛ لوصف ما هو حقيقٌ فيه بتجميل الإسلام من علمٍ وحلمٍ وعفاف، غير أني كنتُ أحرِص على التاريخ من أن أُدخل فيه حكاية لا يُحلِّي جِيدَها صواب، ولا يُرجَع بإسنادها إلى كتاب، إذا أبقيتُ للفُرْس مراتبهم بدولة العباسيين بعد نكْبة البرامكة؛ لأني أوجبتُ على نفسي أن أذكر الحقائق كما كانت واقتضتِ الحال أن تكون، غيرَ واصف الأشياء إلا بصُوَرها، ولا ممثل الحوادث والأخبار إلا بما كان معلَّقًا في الخواطر جاريًا على أذهان أهل ذلك الزمان، ولذلك لما أتيتُ على الأسباب التي عظَّمتِ المسلمين ونهضتْ بهم إلى فتوح العالم أعرضتُ عن ذِكْر ما دعاهم من بعدُ إلى التواني والانحطاط، كما أني وقفتُ فيما وصفت من علومهم عند حدِّ الخبر المجرَّد من غير أن أتتبع في آدابهم آثار الحكمة التي اقتبسوها من يونان، ولا أن أتقصَّى الغاية التي وصلوا إليها من الفنون والصناعات؛ لِمَا لا يخفى من حدوث ذلك كله بعد الرحلة، وما وجب عليَّ في تأليفها من النظر إلى عصر الرشيد لا إلى ما بعده من الأيام.

وقد اتخذتُ في الكتاب شواهد الإسناد للدلالة على ما وقع في حديث الرحَّالة من الموافقة لما بين أيدينا من كتب الأقدمين، وإني لأرجو أن ينتفع إخواني بما أروم لهم من الخير. واللهَ أسأل أن يرشدني وإياهم إلى الصواب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

هذا نصٌّ ما كتبتُه في مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب، وقد بدا لي بعد ذلك ولبعض أفاضل المسلمين ضعفٌ في بعض الروايات التي كنتُ عوَّلتُ عليها، وتحريفٌ في ذكر بعض الوقائع الإسلامية يرجع عيبه إلى السند الذي أخذتُ عنه، فلزم أن أرجع إلى صفحات الكتاب بشيء من التهذيب والتنقيح وتبديل الروايات الضعيفة بما هو أصح وأثبت عند أئمة النقل، وإني أشكر إدارة جريدة المؤيد الغراء التي ساعدتْني في مراجعاتي لما ورد في هذه الرسائل من آداب الدين والمِلَّة قبل الشروع في هذه الطبعة الجديدة، فكان من وراء ذلك تهذيب تكفَّل بزيادة قبول الكتاب عند خاصة المسلمين وعلمائهم، ونفى عنه ما كان يؤخذ عليه من بعض الأسانيد الضعيفة.

فجاء الكتاب – والحمد لله – بعد هذا كله رَوْضة المُطالع، وعمدة العالِم والمتعلم والمُراجِع، وصح أن يؤخذ للدرس، كما يُقتَنَى لتنزيه النفس، وقد عقدت النية – إجابةً لرغبة علماء المسلمين ممن تفضلوا باستحسان هذا الكتاب – على متابعة سرد التاريخ الإسلامي في شكل هذه السلسلة من الروايات، وتنسيقها في مثل هذا السِّمْط من دُرَر الآيات البينات، والله يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا، وهو وليُّ التوفيق والهادي إلى أقوم طريق.

جميل مدور

الرسالة الأولى

قدومي إلى العراق

أتيت مدينةَ السلام في السنة السادسة والخمسين بعد المائة من هجرة النبي ﷺ؛ لأتخرَّج في الفقه على لسان الشريعة يعقوب بن إبراهيم بن خُنَيْسٍ الأنصاري،[1] وكان خليلًا لأبي – رحمه الله – على صفاء بينهما لم يكن بين اثنين.

فركبت البحر من هُرْمُز في ريح رُخاء زجَّتْ مركبَنا إلى البحرين فأطراف العراق أهنأ تزجية، فلما حاذينا الساحل مما يلي البَصْرة طلعتْ علينا ريحٌ عاصفة، وانحدر بنا الموج إلى منعرج في البر كله رمال ومهاوي ماء، فبتْنا ليلتنا فيه على أشدِّ ما يكون من الخوف إلى أن طلع الفجر، فأقبلتْ علينا من صدر البحر سفينة حملتنا إلى عَبَّادان، وأرسلت بنا على مُطَلٍّ من خشبات تنتهي المراكب إليها ولا تتجاوزها خوفًا من الجزر؛[2] لئلا تلحق بالأرض وتغوص في الطين الذي يأتي دِجلةُ به[3] في انسيابه، وهذا البحر في مُسامَتَةِ العراق شديدٌ على السَّفْر، ولا يُحْمَد منه إلا عُمران سواحله بالناس لما فيها من مغاصات[4] الدر والياقوت والعقيق وغير ذلك، وهي باب واسع لطلاب الرزق، وللغواصين عليها أخبار غريبة فيما سمعت، حتى قيل: إنهم يشقون آذانهم للتنفس، ويجعلون في آنافهم القطن، ويصطنعون وجوهًا من الذَّبْل كالمشاقيص، ويدهنون أبدانهم بالسواد خوفًا من أن تبتلعهم دواب البحر، ويصيحون عند الغوص مثل الكلاب لتنفيرها عنهم، فإذا بلغوا القعر عصروا دهنًا يضيء منه البحر ليروا الأصداف التي يتولد فيها اللؤلؤ، وتكون مدفونة في أرض البحر رملًا كانت أو طينًا، ومما يزعمون[5] في هذا اللؤلؤ أن تولُّده من مطر نيسان إذ تكون الصدفة مفتوحة على وجه الماء فتقع عليها القطرات فتتربى فيها دررًا رائقة الصفاء.

ولما أخذت نصيبًا من الاستراحة انتقلت على سفين إلى البصرة، ونزلت بها في

موضع[٦] يُعرف بسكة بني سمرة بإزاء دار الهيثم بن معاوية أميرها، وقد طاب لي فيها المقام بما وجدت من ائتناس أهلها إلى الغريب حتى ينسى في جوارهم أهله[٧] بما يأنس عندهم من مظاهر الأنس والمودة، ووجدت لهم صبرًا على طلب العلم، يتخذون المكاتب[٨] لأولادهم، وحلق العلم لأدبائهم، وتشد إليهم رحال الطلب من جميع الوجوه؛ لأن لهم من الأدب المكان الذي لا يُرقَى، غير أني لم أرَ فيهم إلا وَهِن البنية سقيمَها وأصفر اللون كاسفه؛[٩] وذلك ناشئ فيهم من عفونة الماء ووقوع إقليمهم في مهاب الرياح المختلفة التي تتبدل في اليوم الواحد ألوانًا وضروبًا؛ فيجبرون على لبس القمصان مرة والمبطنات أخرى؛ ولذلك سميت مدينتهم بالرعناء، أنشد الفرزدق:[١٠]

لـــولا أبـــو مالـــكٍ المرجـــوُّ نائلُـــه   مـــا كانـــت البَصْـــرَةُ الرعنـــاءُ لي وطنـــا

وقد لقيت فيها جماعة كثيرة من الأدباء مثل عبد الكريم بن أبي العوجاء والمؤرَّجِ السدوسي الرواية، والحسن بن هانئ الشاعر،[١١] والنضرِ بن شميل تلميذ الخليل بن أحمد، وواصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري لمخالفة في المذهب ثم سمى الناس من ذهب مذهبه بالمعتزلة[١٢] لذلك، وشهدت حَلْقة عُتْبةَ القحوي، وأبي زيد الأنصاري، ويونس النحوي، وله أعظم[١٣] حلقة في البصرة من حلق علمائها، وسمعت الحديث عن سفيان بن شعبة الثَّوْريِّ، وشعبة بن الحجاج العَتكِّي، غير أني ما اصطفيت منهم لمحادثات الأدب إلا الخليل بن أحمد، لأني وجدتُه أوسعهم عقلًا،[١٤] وأحضرَهم رواية، لا يُساميه في علوِّ الخاطر إلا صالح بن عبد القدوس الشاعر، ولكني تحاميت مجلسه لما يتهم به من الانحراف عن السنة[١٥] ، وإن كنت لا أبخس عقله حقه من التعظيم، وقد سمعت أنه يُجهِد نفسه في طلب الدنيا والتماس السعة منها ثم لا يحصل على القليل إلا بعد عَصْب الريق وفي قوله:

لـــو يُرْزَقـــون النـــاسُ حَسْـــبَ عقـــولهم   ألفيـــتَ أكثـــرَ مَـــن تـــرى يصَّـــدَّق

إشارة إلى ما هو فيه، وأن النعمة تصيب غير أهلها، بخلاف الخليل بن أحمد فإنه متقلل من الدنيا راضٍ منا باليسير، والملوك تبذُل له المال[١٦] ولا يقبل منهم شيئًا مع

مكانه من الحاجة إليه، وقد اشتهر فضله بين الناس بعلم العروض، وضعه على دوائر خمس تتجزأ منها الأبحر الخمسة عشر، غير أن سُمُوَّه في العلم لا ينفرد بأدب الشعر وحده، إذ له في اللغة كتاب سمَّاه: العين وأودعه من عيون العلم(١٧) ما هو زينة وفخر لدولة الإسلام.

ذكر البصرة وأماكنها المشهورة

ولقد ظننتُ البصرة لأول وهلة ليست بالمفرطة الكِبر، فلما طفت في ساحاتها، وجُلْتُ في أرباضها ومَحَلَّاتها، بدا لي أنها متسعة البقعة كثيرة العمران، قلَّ أن يكون بها موضع غُفْلٌ من العمارة خِلْوٌ من السكان، ومبانيها – على الغالب – من اللَّبِن إلا ما كان من المسجد الجامع فإنه مبني بالصخر والجِصِّ على أتمِّ إحكام وأبدع صناعة، وأول من بناه عُتْبة بن غَزْوان، أقامه من القَصْباء؛ لأجل أن ينزعه متى شاء ثم يعيد إقامته، فلما جاء أبو موسى الأشعري بناه باللبِن وطلى جدرانه بالأصباغ، ثم جاء زياد فزاد فيه السقيفة التي في مقدَّم المسجد،(١٨) وحمل إليه العَمَد المزخرفة من الأهواز، ورفع جدرانه بالحجر والجِص،(١٩) ثم لم تزل عناية الولاة به من بعده إلى أن تمَّت زينته وكثرت له الوقوف الواسعة، وفيه اليوم قاضٍ يفرض النفقات ويحكم في مائتي درهم وعشرين دينارًا فما دونها(٢٠) تخفيفًا عن الدواوين التي تنظر فيما هو فوق ذلك من قضايا الناس.

ثم سرت من هذا الجامع إلى مسجد عليٍّ – عليه السلام – وإذا صحنه مفروش بالحصباء الحمراء، وله أوقاف جزيلة مما وقف له الفرس ومَن يقول بخلافة أهل البيت، وهم يجتمعون فيه ويتبرَّكون بمزاره، كأنَّ وعيد أبي جعفر لم يجد منهم نفوسًا راجعة إلى غرضه فيما أوجد من الفرقة بين العلوية والعباسية، ووجدت في بعض مقاصيره مصحفًا عليه أثر دابغ مثل الدم الجاف، يقال: إنه المصحف الذي كان يقرأ فيه عثمان حين قُتل،(٢١) وبعد أن قضيت زيارته المباركة جُلتُ في أسواق المدينة فرأيت التجارة فيها على أحسن ما يكون من الرواج؛ ولا غرو فإنْ هي إلا فُرْضَةُ العراق

والشام وخُراسان وما إليها من البلدان العالية مما يكسبها حسن الموقع، بحيث لا يصدر شيء من هذه البلدان ولا يرد إليها إلا من البصرة؛(٢٢) ولذلك استفحل فيها العمران وكثرت بها المصانع والصنائع إلى أن صارت واسطة عقد بلاد العرب وقبة الإسلام.

ومما يُذكر عن بنائها ما حدثني به الهَيْثَم أميرها أنَّ المسلمين افتقروا في صدر الدولة إلى منزل ينزلون به وإذا دهمهم عدو لجئوا إليه واعتصموا به، فبعث عمر – ﷺ – عتبة بن غزوان المقدَّمَ ذكرُهُ وأوعز إليه أنِ ارْتَدْ لنا موضعًا في جهة العراق قريبًا من المرعى والماء والمحتطب؛ فكتب له من البصرة: إني وجدت أرضًا كثيرة القضة في طرف البر إلى الريف، ودونها مناقع فيها ماء وفيها قصباء(٢٣) فكتب إليه عمر أن ينزلها بمن معه، فوقع تمصيرها في السنة الخامسة عشرة من هجرة النبي ﷺ.

ولما جلست إلى الخليل العالم الأمثل ودار بيننا الحديث على أيام الناس الأول، أخبرني أن البصرة إنما اختطَّها العرب نِكاية بالفرس لتحويل التجارة من سواحلهم إليها؛ وذلك أنهم لما صالت منهم الأجناد، واتسعت بين أيديهم أحبوا أن يبينوا هذه المدينة فُرْضَةً لجميع المشرق؛ ففشت العمارة فيها في برهة يسيرة حتى غَصَّتْ بالناس على ما رحُبت أرجاؤها. يقال: إنه كان فيها من مقاتلة العرب لأيام زياد ثمانون ألفًا،(٢٤) وأخبرني الهيثم أن أهلها يبلغون اليوم خمسمائة ألف من الرجال، بدليل المال الذي فرقه فيهم أبو جعفر، وكان ألف ألف درهم فلم يُصب الرأس منهم إلا درهمين.(٢٥)

وتبتعد البصرة عن عَبَّادان حيث الشاطئ نحو ساعة زمانية، وعندها تختلط مياه دجلة والفرات(٢٦) وتصب في البحر المالح بعد أن تفقد عذوبتها؛ لأن المدَّ يأتي إلى ما فوق البصرة بأميال، فإذا امتزج به ماء دجلة صار ملحًا،(٢٧) ولقد يَخال الرائي لأول وقوع المدِّ أن البلاد صارت غديرًا، كما وقع لحمزة بن عبد الله أمير البصرة لعهد ابن الزبير، وقد ركب يومًا إلى الفيض، فقال: إن هذا الغدير إن رفقوا به يكفِهم صيفتهم هذه، فلما كان بعد ذلك ركب إليه فوافقه جازرًا؛ فقال: قد رأيته ذات يوم فظننت

أن لن يكفيهم؛ فقال له الأحنف بن قيس: أيها الأمير، إن هذا الماء يأتينا ثم يغيض عنا ثم يعود؛ فخجل حمزة، وعاب عليه الشعراء ذلك في أبيات لهم يعرفها عامة الناس.

ولقد تصفحت في البصرة كثيرًا من قصورها المشرفة، واستقريت أماكنها المشهورة بما وعيتُ عنها من الأنباء، وأحسن ما استظرفتُ منها قصر لمحمد بن سليمان الهاشمي،[٢٨] وهو أوفر بني العباس مالًا وأعطاهم لشاعرٍ نوالًا، تُغِلُّ ضِيَاعُه كل يوم مائة ألف درهم،[٢٩] وقد بناه على بعض الأنهار واستفرغ في زينته جهده، واتخذ في جنانه المها والغزلان والنعام وأنواع السباع والطيور المغردة، فجمع فيه محاسن الحضارة والبداوة، وفيه يقول الشعراء:

زُرْ واديَ القصر نِعْمَ القصرُ والوادي ... في منزلٍ حاضرٍ إنْ شئتَ أو بادي

ترقى به السفن والظُّلْمان حاضرة ... والضبُّ والنون والملَّاح والحادي

إلى آخر الأبيات.

وأما القصور التي بقيت بعد أربابها فإنها لكثيرة في البصرة، شاهدت منها قصرًا لأوس بن ثعلبة[٣٠] الذي ولي العراق وخراسان في دولة الأمويين، وهو قريب من المربد،[٣١] وعليه قباب مرفوعة يَغَصُّ الجوُّ بها صعودًا، ومن حوله خمائل وارفة، كأن الأيام تزيدها جِدَّة ونضارة، وتُلبسها من الخضرة حُلَّة قَشِيبة.

ولله ابن أبي عُيَيْنَة حيث يقول في وصفها هذه الأبيات:

بغرسٍ كأبْكارِ الجواري وتربةٍ ... كأن ثراها ماء ورد على مسك

يذكرني الفِردوسَ طورًا فأرعوي ... وطورًا يواتيني إلى القصف والهتك

وسِربٍ من الغِزلان يرتعْنَ حوله ... كما استُلَّ منظوم من الدر من سلك

وورقاءَ تحكي الموصليَّ إذا غدت ... بتغريدها أحبب بها وبمَن تحكي

فيـا طيـبَ ذاك القصـرِ قصـرًا ونزهـة بأفـيَحِ سَـهْلٍ غـيرِ وَعْـرٍ ولا ضَـنْك

وشاهدت قصر الأحنف بن قيس[٣٢] المقدَّمِ ذكره في رحبة المنجاب،[٣٣] ودارًا لأنس بن مالك[٣٤] خادم النبي ﷺ، وإيوانا للزبير بن العوام[٣٥] تنزله التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهات من البحرين وغيرهم، وآخر لعُبَيْد الله بن زياد يُسمَّى: البيضاء،[٣٦] وهو بمقرُبة من الموضع الذي خطب فيه أبوه خطبته البتراء[٣٧] التي أخذتْ بقلوب البصريين، وقد تداعت جدرانه فلم يبقَ منه إلا أثر دارس ورسم شاخص.

العرب البادية ونُتَفٌ من أخبارهم

ولقد أتيت مربد البصرة عن طريق المهالبة[٣٨] فسكة المربد،[٣٩] فإذا هو ساحة كبيرة تُنوَّخ فيها الجِمال، وتُحطُّ بها الرحال، وتعلق فيها الأشعار التي يتناشدها العربُ في أيام من الشهر معلومة يكون لهم بها مجالس ويبيعون ويشترون،[٤٠] وهناك موضع يقال له: شمس الوزانين، وفيه مسجد صغير يُعرف بمسجد الأنصار،[٤١] قد طلي بالأصباغ ولم تُرفع صوامعه إلا قليلًا، ووجدت صحراء البصرة من وراء المربد وَعْرة مرملة لا يغرد عليها طير ولا ينبت فيها شجر غير النخيل؛ لفقدان الماء فيها، وخيراتُ البصرة تَرِدُها من الأُبُلَّة، وهي مدينة عامرة بالناس خصبة الجناب كريمة البقعة، يشقها جدول من دِجلة، ولا تخترق أشعة الشمس أرضها لالتفاف شجرها بعضِه على بعض، وفي مُرساها مجتمع كثير من مراكب الهند والصين؛ لأن الربح فيها واسع لأهل التجارة، وأما النخيل المتصل فيما بينها إلى البصرة؛ فأعلى الصحراء فإنه كسب وافر للناس، يقال: إن ثمنه يعدل[٤٢] ما يُحمل إلى بيت المال من الأقاليم كافة.

وإلى ما وراء المربد في ظاهر البصرة عرب من عامرٍ[٤٣] وقيس عَيْلان، كنت أختلف إلى أحيائهم، وأبيت ليالي عندهم، وآكل من ثريدهم، وأشرب من ألبان نوقهم، وأجلس على الوبر والأنطاع، وأعي أحاديثهم بإقبال واستمتاع، وأشهد حلق القُصَّاص فيما يتحدثون به من أيام العرب وأخبارهم، فوجدتهم يتفاخرون بتأليف

الخطب وقول الشعر والسيف والضيف، ولا يُهنّئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تُنْتَج، وعلمت من أخبارهم أنهم لا يأتون الفحشاء، بل يعاقبون الزناة بالقتل(٤٤) وذكر هؤلاء القصاص أن جميلًا لما سأله خُلَّانه أنْ: ما عملتَ مع بُثَيْنة طول تلك الأيام؟ قال: كنت أمتع عيني من وجهها وسمعي من حديثها، ولم أمدَّ إليها يدًا غير مرة واحدة، أخذت يدها ورفعتها إلى صدري لتشعر بخفقان قلبي،(٤٥) وهذا خبر ينقلونه عن أكابر الرواة فأحببت أن أكتبه إليك؛ ليدلك على ما وضعه الله في صدورهم من نبل الهِمَّة وعفاف النفس.

وقد بقي في خاطري ذكر عذب لاجتماعي بهؤلاء العرب، وقد طاب لي الجلوس إلى قيس عَيْلان أكثر منه إلى بني عامر؛ لأني وجدت فيهم بيانًا وفصاحة(٤٦) غير أنهم لم يلبثوا في البصرة إلا قليلًا حتى شالتْ نعامتُهم، فصرت أتوجَّه إلى بني عامر، وعَرَفتُ بالمُقام بينهم كثيرًا من خلال العرب المحمودة، وقد أعظمت رواج الأدب بينهم، والكتابةُ عندهم مفقودة(٤٧) غير أنهم يَجرون على قواعد اللغة في أشعارهم ومحاوراتهم بما ليس في الإمكان أصحُّ منه، ولهم في كلامهم من الأمثال الحكيمة ما لم نجده في كثير من أمم العلم والحضارة، فيمرق الكلام من أفواههم مروق السهم من الوتر كما يقولون، وهم أصحُّ الناس أبدانًا؛ لأن الظعن كفيل لهم بطيب الرياح التي لا تخبُث إلا مع القرار والسكنى وكثرة الفضلات(٤٨) ولأن طعامهم اللَّبَن والتمر والقليل من اللحم، وما يمارسون من الرياضة بَعِيدٌ عن أن يجلب إلى أبدانهم العِلَل،(٤٩) وأكثرهم من صلابة الجسم والنشاط بحيث يَلحقون الخيل والحُمُرَ الوحشية عَدْوًا، فلقد سمعت مَن يُحدِّث عن تأبَّط شرًّا أنه كان إذا جاع نظر في السهل إلى الظباء فانتقى لنفسه أسمنها، ثم يجري خلفه فلا يفوته حتى يأخذه ويذبحه بسيفه،(٥٠) وربما حدَّث الرواة بكثير من أمثال هذا الخبر عن الشَّنْفَرَى وعمرو بن برَّاق وغيرهما من العدَّائين.

ووجدت لهم من الصفات الحسان التي تُحدِثها فيهم شهامة النفس ما ليس يجتمع في غيرهم من الأمم اجتماعه فيهم، فهم يَحمون الذمار، ويمنعون الجار، ولا يُغْمضون

على الذل كما هو معروف عنهم في الأشعار، فلَأَن يموتوا قتلًا تحت ظلال السيوف، أحبُّ إليهم من البقاء في رِبْقة الذل والجنوف. يقول عمرو بن كلثوم من أصحاب المعلقات:

إذا مـــا المَلْـــكُ ســـامَ النـــاسَ خَسْـــفًا   أبَيْنـــــا أن نُقِـــــرَّ الخســـــفَ فِينـــــا

إلى غير ذلك من الأبيات المعروفة، وهم يَفُون بالقول من غير أن يكتبوا على نفوسهم العهود، ويأخذون بثأرهم أخذًا شديدًا، وذلك ناشئ فيهم من بعدهم عن القضاء؛ لأنهم لو كانوا يعانون الأحكام؛ لفسد البأس فيهم، وذهبت المنعة منهم،(٥١) ولكن ذلك قد يدعوهم إلى التفاني على غير علة إلا الحصول على الرخيص مما يبذلون في سبيله من النفيس، كإثارتهم لأجل امرأة أو فرس أو بعير قتالًا يستمر أعوامًا طوالًا بين عشائرهم، حتى إذا أراد الله – تعالى – أن يُدرِكهم بلطفه الشامل نهاهم عن القتال في الأشهر الحرم فنقص فيهم من القتل ما يقع في أربعة شهور من القتال، والله رءوف بالمؤمنين، وهو العليم الحكيم، لا رب سواه.

وأكرم ما وجدت فيهم من المحامد الموصوفة الكرمُ والسماحة، حتى إنهم ليضيفون نزلاءهم ضيافة يوجبونها على أنفسهم، ولو كان النزلاء قَتَلَة آبائهم،(٥٢) وربما توسعوا في أدب الضيافة إلى أن يكون بهم بشاشة عند قدوم الضيف وغُصَّة عند ارتحاله، كما يقول عاصم بن وائل من شعرائهم:

وإنا لنَقْـــرِي الضـــيفَ قبـــلَ نزولـــه   ونُشـــبعه بالبِشْـــر مـــن وجـــه ضـــاحك

ولقد كنت أسمع عن كرمهم أحاديث لم أنقلها عن جانب الثقة والاعتبار، فلما نزلت بجوارهم تحققتها بالمشاهدة والاختبار، ووجدت أن كلهم كريم، حتى لقد يكون السخاء تسعة فيهم وواحدًا في الناس،(٥٣) ومَن زعم أن حاتمًا الطائي أكرم العرب فقد ظلمهم جميعًا، وظني بأخذهم في هذه الضيافة الواجبة أنه أمر طبيعي عندهم؛ لأن الراحل منهم قد يُفوِّز في الفلاة أيامًا طوالًا على جَهْد من العطش وسُعار من الجوع، فإذا انتهى إلى خباء مضروب ورآه أهلُه بمكانه من العناء والإعياء؛ قَرَوْه

وعَلَفوا مطيَّته وأوقدوا له نارًا يصطلي بها من كَلَب البرد كما يقولون، حتى إذا أصابهم في ظعنهم مثل هذا العنت الشديد يتلقاهم أهل الخيام على السَّعة من الضيافة.

قال حسان بن ثابت يتهلل بذكر المكرمات:

وإني لَمُعـــطٍ مـــا وجــدتُ وقائـــل لموقــد ناري ليلـــةَ الـــريح: أوقـــدِ

وكان الكرم ينتهي بهم إلى أن يقوم لعشائرهم منادٍ في الأسواق ينادي في الناس: هل مِن جائع فنطعمَه، أو خائفٍ فنؤمنَه، أو راحلٍ فنحملَه؟ وهذا أحسن ما يكون من محامد النفس الكريمة، ولست أقول إلا أنه كانت لهم في مناقضة هذه المحاسن مساوئ كثيرة في الجاهلية، فلما نزل كتاب الله روَّض أخلاقهم المستهجنة، وصرف عنهم المكروه من العادات، فقد نقلت الأخبار السالفة أنهم كانوا في جاهليتهم يتزوجون بنساء آبائهم(٥٤) ويُكْرهون إماءهم على البِغاء(٥٥) ويألفون غير ذلك من العادات الخشنة التي ذهبت بمجيء الإسلام.

وإنما اضطُّر العرب إلى سكنى البادية وتخير بقاعها على الأيام بحسب أحوالها من الصلاح؛ لأنهم وُجِدوا في قِفار قد تراكمت عليها الرمال المحرقة، وما كانت تُنبِت لهم حبًّا ولا بقلًا، وكانت آبارهم تَغيض في حمارَّة القيظ على بُعد قعرها، فكانوا يظعنون لوُرود غيرها من المناهل في أصقاع يكون بها خضرة من الكلأ، وتظهر للعين بين ما حولها من الرمال المنبسطة كأنها جزر في بحر تسير في مناحيه الجمال كما تسير السفن على ظهر الماء، ولكن ليس ذلك إلا القليل في جانب الكثير من رمالهم المحرقة، ثم إن الله – تعالى – أوجد لهم الإبل(٥٦) والسائمة فكانوا يرتادون لها الماء فيما اتسع لهم من مجالات البادية، فكانت سكناهم في الوبر لما تقدَّم من الأسباب أمرًا طبيعيًّا، ولو أنهم نزلوا الأمصار ورفعوا بيوتهم من الحجارة ما اتسعت من حولهم المزارع والمسارح لحيواناتهم،(٥٧) فضلًا عن كونهم يرون الأبنية والتحويط حصرًا لهمم الرجال(٥٨) وحبسًا لما في الغرائز من حب الاستقلال فهم لا يصبرون على الضيم، والحريةُ عندهم أفضل ما أعطاهم الله، يبذُلون نفوسهم ونفائسهم دون تقريرها لأنفسهم، فإنا لا نجد في

أحاديث النقلة أن أمة استعبدتْهم في غابر الدهر قط، فهذه الكلدان والسريان واليونان والروم والفرس وآل ساسان قد ملكوا العالَمَ إلا العرب، وكان من أمانيّ الإسكندر الرومي أن يدعوهم إلى طاعته بعد أن تمَّ له الغَلَب على المشرق، غير أن المنية عاجلتْه قبل الإقدام على التغرير، فرُزِق بموته سلامة من الإخفاق، حتى لا يقال عنه، وهو الملك المنصور: إنه توجهتْ عليه هزيمة؛ إذ لست أشك أنه لو أقدم على العرب ما ثبت له جند عليهم في تلك المجالات التي يتوغلون فيها ويبيتون في أمن من العدوّ وإن كثُر.

ولقد لقيت من هؤلاء العرب فتىً تلوح عليه النجابة والفطانة، فذكرت له أن في لقائه الملوكَ سبيلًا إلى نيل العلا فأخبرني أنه نزل الزَّوْراء لأول ما بناها أبو جعفر ولكن لم يمضِ إلا القليل حتى ملَّ العمران ومال به الشوق إلى ربوع العرب، وأنشدني وهو منصرف:

لَبيتٌ تخفِق الأرواح فيه ... أحبُّ إليَّ من قصر مُنِيف

ولُبسُ عباءةٍ وتَقَرَّ عيني ... أحبُّ إلي من لُبْس الشُّفوف

والأبيات لفتاة من العرب صارت إلى معاوية بن أبي سفيان، ثم لم تَطِبْ نفسًا بالمُقام عنده، فرجعتْ إلى البادية بعدما أنشأت الأبيات التي أنشدنيها هذا الغلام، فسبحان من قسم المعايش بين الأجيال، وركَّب في نفوسهم طباعًا متفاوتة، لا إله إلا هو ذو الإكرام والجلال.

الانفصال عن البصرة ولُمْعَة من أخبار الحجاج

كان مُقامي في البصرة شهرًا وثمانية أيام، ولما طويتُ بساط الإقامة تهيأ لي أن أصعد على دِجلة سفرًا[٥٩] يخفف عني مشقة الركوب على ظهور المطايا، فدفعت حمولي إلى الرُّبان، وانفصلت عن البصرة لأول هدءٍ من الليل، حتى إذا طلع النهار كنا في متوسط بِطاح مفروشة بالنخيل على مد البصر، وفيها خيام لبطون من تميم[٦٠] وشَيْبان،[٦١] قد ضربوها على مرتفعات من ذلك السهل، فكان تأملي

منازلهم مع ما أعلمه من شدة تعلقهم بعيش البداوة يُمثِّل لي من بعدُ ارتحالَهم مرافقين الشعراء وقد وقفوا بالعِيس على هذه الأطلال وبكَوْا عهودًا مضتْ لهم في زمان الأنس بين هذه الربوع.

ولما كان بعد أيام طلعتْ علينا سَموم يكاد يأخذ حرها بالنَّفْس، وكدنا ننكُص على الأعقاب لاختلاف الريح؛ فرأى الربان أن ينزل الملاحون إلى البر ويربطوا المركَب بأمراس يجرُّونه بها من عُدْوة النهر ريثما يحصل الفرج، ومضى الليل كله من غير أن تكتحل عيناي بنوم من شدة الحر إلى أيام عشرة لم نَزَلْ بها في مغالبة الريح ومقاساة عَنَتِها الشديد إلى أن وصلنا إلى مدينة واسط. (٦٢)

هذه المدينة في فضاء من الأرض طيبة الإقليم والنسيم، غير أن الحر غالب عليها لإقبال الرياح إليها من جهة الرمال المتراكمة على هِضابها،(٦٣) ومبانيها من الإحكام بمكان سامٍ، ولا سيما القصر الذي بناه الحجاج،(٦٤) وهو باقٍ إلى زماننا هذا، وهو سنة ست وخمسين بعد المائة، والناس يسمونه: الخضراء، وله قبة مشهورة في مباني الإسلام، حتى قيل: إنه ما بُني لأحد قبل الحجاج مثلُها،(٦٥) وفيه أحواض كثيرة يرقى إليها ماء دجلة، وأعظمها حوض من الرخام الأخضر وبه مجلس به سرير مذهب(٦٦) يقال: إنه كان مقعدًا للحجاج في مجالسه العامة، وهذا القصر بهيج مزخرف بأنواع الزينة؛ لأن النفقة عليه وعلى الجامع الذي بجواره بلغت نحوًا من أربعين ألف ألف درهم،(٦٧) ولكنه سمُج في عيني بما ورد على خاطري عند مَرْآه من قبائح الحجاج، فكأنه بيت قد رُفِعت جدرانه على دعائم الظلم والاعتساف.

وبقيتُ في واسط ثلاثة أيام لاختلاف الريح، ولكن على كُرْه من النفس؛ لأني كنت أراها بعين الماقت لها، ونزلت بها في فندق على شاطئ النهر حيث الجسرُ المُقام من سفن، وأمامه ساحة تباع فيها الخيول ويكون بها سوق في أيام معلومة من السنة، يأتيها العرب بما يريدون بيعه من الخيل والجياد التي يحتفظون بها احتفاظ الآباء بالبنين(٦٨) فإنهم لا يتخلَّوْن عنها بالقليل ولا بالكثير من المال، وإذا سألتَهم بيعها منك بأغلى الأثمان فأنت مردود في سؤلك، يقولون لك: هذه منجاتنا من العدو،

وإذا أطلقنا لها العِنان طبَّقتِ الآفاق بأسرعَ من لمح البصر.

ولم تزل هذه السوق مقامة في واسط منذ بُنيتْ إلى هذه الغاية؛ لأنها كانت في أول هذه المائة من أعمر بُلدان العراق؛ بما خصها الله من خِصب التربة وكثرة الخيرات، فلما وقع بها الطاعون الجارف منذ أربعين سنة[٦٩] ونزلت بالناس السنون، وأخذتهم المجاعات؛ أتى عليها الخراب والانحلال وتجافى الناس عن سُكْناها بما توالى عليها من الفتن التي وقعت في صدر هذه الدولة إلى أن استقر فيه السِّلْم وبعُد عهدها من الوباء، فسارع أرباب التجارة إلى استيطانها؛ لما يتسنى لهم فيها من قرب الاتصال، والمسافةُ الآن منها إلى الزوراء خمسون فرسخًا، ومنها إلى البصرة خمسون أيضًا، ومنها إلى الأهواز مثل ذلك، وظني أنها سميت بواسط لهذا السبب؛ وهو توسطها العراقَ.

وقد اتفق لي قبل الانفصال عنها أني لقيتُ فيها شيخا كان أبوه خادمًا عند الحجاج – حاسبه الله تعالى – فحدثني من أخباره ما تنفطر منه الأفئدة رحمةً لأهل البيت وأصحابهم؛ لأنه كان يقتل منهم جُزافًا على التُّهمَة، إلى أن بلغ عدد الذين قتلهم صبرًا مائة ألف وعشرين ألفًا، وكان في السجن عندما أهلكه الله أكثر من خمسين ألفًا يرسفُون في سلاسل الحديد، ولا ذنب لهم إلا حبهم لأهل البيت، وكان الناس في أيامه إذا تلاقَوْا في المجالس والمساجد والأسواق يتساءلون: مَن قُتِل البارحةَ ومَن صُلب ومن قُطِع؟ وقد تفاحش ظلمه في الخراج بحيث إن الأمراء بعده كانوا يستنكفون عن ولاية الخراج خوفًا[٧٠] من نقص الخراج إذا خفَّفوا ضرائبه ومكوسه، أو الاستمرار على ظلم الناس إذا راموا جباية ما كان يحمله إلى الخليفة من المال.[٧١]

وقد رسم لي هذا الشيخ صورته بأنه كان قوي البنية مائلًا إلى السمَن، ولا يزال العرق متصببًا على جبينه وصُدْغيه من تحت قلنسوةٍ قد حوَّطها بعمامة خضراء،[٧٢] وكانت له مهابة تقصم ظهر الوافد عليه، وكان شديد التهويل في خُطَبه، وإذا صعد المنبر تلفع بمُطْرَفه، ثم تكلم رويدًا رويدًا فلا يكاد يسمع، حتى يتزايد في الكلام فيُخرِج يده من مطرفه، ثم يزجر الزجرة فيقرع بها مَن في أقصى المسجد.

قال: وكان يحدثني أبي أنه كان يجد لذة[٧٣] في سفك الدماء وارتكاب أمور لم يُقدم عليها غيره ولم يسبقه إليها سواه، ولما أرسله عبد الملك بن مروان إلى العراق ليوطِّئ له المنابر خرج كميشَ الإزار وغلب الناس بقوة الرجال لا بالسياسة والرأي؛ لأن جنوده كانوا من الشام[٧٤] وهم على غرض الأمويين مخالفون لأهل البيت، فلما أوجدهم بين أعدائهم لم يرَ منهم إلا نفوسًا مستقِلة راجعة إلى رأيه في كل أمر ونهي، فحملهم على منازلة مكة المكرمة من هذا الوجه، ولم ينفك عن ضربها حتى استسلم إليه أهلها بعد أن تصدَّع جِدار البيت الحرام، فأقام مُلْك بني أمية على هذا الظلم وقوَّمه لهم خمسين سنة من بعده، إلى أن أراد الله انقراض دولتهم في المشرق.

هذا نَبْذ يَسير من أخبار هذا الظالم الغاشم، وقد رأيتُ تناقل الحديث عنه في أفواه الواسطيين كتناقل الحديث في مجالس البصريين عن زياد ابن أبيه، وكلاهما قد أذاق العراق من الهوان والقهر ما لم يَسبِق إليه أحد من البُغاة الظالمين، ولكليهما فضل في تدبير ما خُوِّلا من الولاية، إلا أن لزياد فضلًا في بلاغة الكلام التي شهد له بها أكبر الرجال، وضبطَه البلادَ بأهل البلاد أنفسهم أعظم من فضل الحجاج الذي ما غلب العراقيين إلا بأهل الشام، وما قوَّم مُلكه إلا بالسيف الباتر، والجبروت القاهر.

المرور بمدائن كسرى أنو شِرْوان

كان انفصالنا عن مدينة الحجاج في ليل رطيب قد انفتق سحابه عن القمر، فقضينا جزءًا كبيرًا منه في السمر حتى إذا أسفر الصباح كنا في محاذاة قصر يقال له: الرمان[٧٥] ومن حوله خيام مضروبة للعرب، فوقع ذلك من نفسي موقع الاستعبار من الدنيا في نعيم الحضارة وشقاء البداوة؛ إذ كانت الأضداد منها على هذا الوجه قلما يقع عليها النظر في وقت واحد، وكان يلوح لنا في صدر السهل إلى آخر النهار بناء عظيم أُخبرت أنه من جملة المناظر التي أقامها الحجاج بينه وبين قَزوين،[٧٦] وهي إذ ذاك آخر الثغور، حتى إذا ظهر فيها الخوارج دُخِّنت بالنهار فدُخِّنت المناظر كلها أو أوقدت بها في الليل نار فاستُوقدت المناظرُ فيعلم ذلك.

ولم نزل نخترق عباب دِجلة يومًا بعد آخر حتى جزنا جَبُّل والنعمانية ثم كَلْواذا[٧٧] وأقبلنا على المدائن مع طلوع الفجر، فنزلت إلى البر أتفرج بالإيوان الذي بناه كسرى أنو شِروان، فإذا هو في غاية العظم ونهاية الإتقان، يبلغ طوله نحوًا من مائة ذراع وعرضه نحوًا من نصف ذلك وقدرت في ارتفاعه أكثر من ثمانين ذراعًا، وليس في مباني الآجُرِّ ما هو أبهى منه، وقلما يوجد فيه موضع غُفْل من رسم أو نقش أو كتابة، وهو يعد من العجائب ويشهد لما اقتدر عليه الفرس في عهود الأكاسرة الذين جَبَوْا معظم الدنيا، حتى صار يضرب المثل بما جمع من الضخامة والإحكام، ولا يُرى فيه اليوم من الآثار الجليلة إلا صور آلهة جبابرة وسباع ضارية، ومشاهد حروب يفوز بها كسرى الخير أنو شِروان،[٧٨] وأما آنية القصور وزخارفها المنقولة وما كان فيها من المتاع الثمين فقد فُقدت بعد الفتح، وبلغ المحمول منها إلى بيت المال ألفَ ألف دينار من الذهب.

وجملة القول أن شأنه في الفخامة والإتقان مما يحير الأذهان، على أن الأيام قد أهوت عليه بمعول الفناء الذي ليس في طاقة الطين اتقاؤه، ثم زاد على ذلك كله أن أبا جعفر لما ابتنى الزوراء حمل من آجُرِّه جانبًا كبيرًا على بُعد الشُّقة وعظم النفقة، فعارضه خالد بن برمك – رعاه الله – وقال يُرغِّبه في حفظ ذلك الأثر: يا أمير المؤمنين، لا تفعل واتركه ماثلًا، يُستدل به على اقتدار آبائك الذين سلبوا ملك أهل هذا الإيوان، فاتهمه الخليفة في النصيحة، وقال: أخذتْه النُّعَرة للفُرْس، وأبى إلا التعصب لقومه؛ فوالله، لأصرعنَّه قريبًا، ثم شرع في هدمه واتخذ له الفئوس وصبَّ عليه الخلَّ وحماه بالنار، حتى إذا أدركه العجز وخاف الفضيحة بعث إلى خالد يستشيره في التجافي عن الهدم، فقال: يا أمير المؤمنين، قد كنت أرى ألا تهدمه، فأما إذ فعلتَ فإني أرى أن تستمر على ذلك؛ لئلا يقال: عجز سلطان العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم، فعرفها المنصور، وأقصر عن هدمه ولكن بعد أن قوَّض جانبًا من هذا الأثر الجليل.

ولما وقفت بالإيوان كانت الشمس لأول طلوعها وعلى تلك الدِّمَن ندًى يتلألأ

ما بين الأوكار التي تجنح إليها طيور الخراب، فقعدت أتأمل ما كان عليه رب هذا القصر من العزة وعظم القدر، وكيف أخنى عليه الدهر؛ فأخذتني لذلك عَبرة من مشاهدة الآثار الباقيات وتذكرت نظم شاعر يقول هذه الأبيات:

أيهـــا الشـــامتُ المُعـــيِّر بالدهــــ	ــــر أأنـــت المُبَـــرَّأ الموفـــور؟
أم لـــديك العهـــد الوثيـــق مـــن الأيَّــ	ــام بـــل أنـــت جاهـــل مغـــرور
مـــن رأيـــت المنـــون خلـــدن أم مـــن	ذا عليـــه مـــن أن يضـــام خفـــير؟
أيـــن كســـرى خـــير الملـــوك أنوشِـــر	وان أم أيـــــن قبلـــــه ســـــابور؟
وبنـــو الأصـــفر الكـــرام ملـــوك الـــرُّ	وم لم يبـــــقَ مـــــنهمُ مـــــذكور

وقد كان لمرأى هذه الآثار تأثير في الخاطر لا يبرح منه العُمُرَ، وكان رحيلنا عنها قبيل الظهر ونحن على ستة فراسخ[٧٩] من دار السلام، وقد فرغت من تقييد هذه الرسالة في آخر يوم من رمضان، أرانا الله بركته بمَنِّه وكرمه، ونحن قد جزنا موضعًا يعرف بالنَّهروان،[٨٠] وصرنا على مُطلٍ من الزوراء أم البُلدان.

الهوامش

(١) هو أبو يوسف القاضي.

(٢) المسعودي ١ : ٥٠.

(٣) تقويم البلدان ٣٠٩.

(٤) ابن خرداذبة ٦١، والمسعودي ١ : ٥٢.

(٥) الدميري، والقزويني، والقرماني.

(٦) ياقوت ١ : ٦٤٤.

(٧) ابن بطوطة ٢ : ١٠.

(٨) الأبشيهي ١ : ١٧٧.

(٩) الأغاني ١٧ : ٨٧.

(١٠) ابن بطوطة ٢ : ١٦.

(١١) هو أبو نواس، ذكر الأغاني ٦ : ١٧٩ أنه كان مقيمًا بالبصرة في صباه.

(١٢) المستطرف ١ : ١٢٦.

(١٣)العقد ٣ : ١٣٧.

(١٤)ابن خِلِّكان ١ : ٢١١.

(١٥)الأغاني ١٣ : ٥٣.

(١٦)الشريشي ٢ : ٢٦٨ والأبشيهي ١ : ١٧٦.

(١٧)المقدمة ٥٠٢ وابن خلكان ١ : ٣٤١.

(١٨) الأغاني ١٧ : ٢٨.

(١٩) ياقوت ١ : ٦٤٢.

(٢٠) الماوردي ١٢٣.

(٢١) ابن بطوطة ٢ : ١٠.

(٢٢) المسعودي والقزويني.

(٢٣) ياقوت وابن حوقل ١٥٩.

(٢٤) ياقوت ١ : ٦٤٤.

(٢٥) الشريشي ٢ : ٤٣١.

(٢٦) المقدمة ٥٥.

(٢٧) القزويني، والإصطخري، والمسعودي.

(٢٨) ياقوت.

(٢٩) المسعودي.

(٣٠) الأغاني ٣ : ٣٦ وياقوت.

(٣١) الأغاني ١٣ : ١٠.

(٣٢) الأغاني ١٧ : ٥٦.

(٣٣) محلة ذكرها الأغاني ١٢ : ٦٣.

(٣٤) ياقوت ٤: ١٠٩.

(٣٥) المقدمة ١٧٨، والمسعودي ١: ٣٣٣.

(٣٦) القزويني ٢٠٦.

(٣٧) سُمِّيتْ بذلك؛ لأنه لم يفتتحها بالحمد لله والثناء عليه.

(٣٨)الأتليدي ١٠٧.

(٣٩)الأغاني ١٢: ٦٤.

(٤٠)تقويم البلدان ٣٠٩، والأغاني ٥٠٧.

(٤١)الأغاني ١٧: ١٨.

(٤٢)ياقوت ١: ٦٥٠.

(٤٣)في الأغاني ٤: ١٩٣ أن جماعة منهم نزلوا بظاهر البصرة قريبًا من ذلك الوقت.

(٤٤)تزيين الأسواق.

(٤٥)تزيين الأسواق ٢: ٩.

(٤٦)الأغاني ٣: ٥٣.

(٤٧)أي: عند عرب البادية؛ لأنه يعرف أن المتمصرين كانوا يكتبون قديمًا بالحروف الفهلوية التي كانت تستعملها الفرس، ثم صاروا يكتبون قبيل الرسالة بالحروف الحميرية إلى أن استبدلوا بها الكتابة الكوفية في صدر الإسلام، ويقال: إن أيوب الصديق إنما كتب حديثه بلسان العرب. ا.هـ.

(٤٨)المسعودي والمقدمة.

(٤٩)قال في العقد الفريد: لأمر ما طالت أعمار الرهبان، وصحت أبدان العربان، وما لذلك علة إلا التخفُّف من الزاد.

(٥٠)الأغاني ١٢: ٤٩.

(٥١)المقدمة ١٠٩.

(٥٢)الأغاني والأتليدي.

(٥٣)المحاضرة ٢: ١٨١.

(٥٤)الأغاني ١: ١٠.

(٥٥)العقد الفريد ٣: ٢.

(٥٦) الإبل سفين العرب، وهم يغتذون بألبانها، ويكتسون بأوبارها، ويستدفئون بوقيد أبعارها، وقد أوجد الله في قوامها لينًا فوق القدم؛ يطأ الرمل ولا يغرز فيه مثل حوافر الدواب؛ ليكون لها اقتدار على طرق الرمال.

(٥٧)المقدمة ١٠٥.

(٥٨)المسعودي ٤ : ٢٣٤.

(٥٩)المسعودي ٢ : ٢٣٩.

(٦٠)في الأغاني ٩ : ٧٨ أنهم كانوا يجتمعون بجوار البصرة.

(٦١)تزيين الأسواق ٢ : ٧.

(٦٢) تقويم البلدان ٣٠٧.

(٦٣) القزويني ٣٢٠.

(٦٤)المسعودي ٢ : ١٨٣ وهو يقول: إنه كان باقيًا لأيامه.

(٦٥)المسعودي ٢ : ١١٥.

(٦٦)الأبشيهي ١ : ٦٣.

(٦٧)ياقوت ٤ : ٨٨٧.

(٦٨)تزيين الأسواق.

(٦٩) ابن الأثير ٥ : ٧١.

(٧٠)ابن الأثير ٥ : ٩.

(٧١)كان ملوك بني أمية يعرفون من الحجاج جوره واعتسافه، ولكن لم يكن في كنانتهم سهم أشد منه نكاية على العدو؛ فلم يرُق لهم استبدالُ غيره به، وإن ثقل أمره على الرعية، وفي مروج الذهب أنه لما وفد على الوليد بن عبد الملك كان عليه درع وكنانة وقوس عربية، وقد تفضَّل الخليفة في غلالة؛ فجاءت جارية وسارَّت الوليد ومضتْ، ثم عادت فسارَّتْه ثم انصرفت، فقال الوليد للحجاج: أتدري ما قالت هذه يا أبا محمد؟ قال: لا، والله. قال: بعثتُها إليَّ ابنة عمي أم البنين تقول: ما مجالستك لهذا الأعرابي المتسلح وأنت في غلالة؟ فأرسلتُ إليها: إنه الحجاج. فراعها ذلك وقالت: والله، ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق. ا.هـ.

(٧٢) العقد ٣ : ١١.

(٧٣)المسعودي ٣ : ١٠٣.

(٧٤)الكنز ٢٢٢.

(٧٥) ابن خلكان ١ : ٤٧١، وياقوت ٢ : ٨١٤.

(٧٦)ياقوت ٤ : ٨٨٦.

(٧٧)المسعودي ٢ : ٢٢٩.

(٧٨)ذكر ذلك البحتري في وصف الإيوان حيث يقول:

والمنـــــــايا مواثـــــــل وأنوشـــــــر   وان يُزجِـــي الصـــفوف تحـــت الـــدرفس

والدرفس: الراية.

(٧٩)ياقوت ٤ : ٤٤٧.

(٨٠)ابن خلكان ١ : ١٩٦.

الرسالة الثانية

مقامي في دار السلام

اتفق وصولي إلى دار السلام في عيد الفطر قبيل العَتْمة وهي تلمع بالأنوار ويتصاعد من المسبحين بحمد الله والمقدسين له نغمات تؤوّبها معهم أرجاء المدينة، وتعذَّر المسير على مركَبنا تجاه باب البصرة[١] أو كاد؛ لازدحام الزوارق المشتبكة في هذا المكان، وهي مطلية بأبهى الأصباغ والألوان، مرصعة بأنوار القناديل الحِسان، حتى كأن دجلة في الزوراء، أشبه بالمجرة في كبد السماء، ثم تقدم بنا المركب حتى وقف بمقربة من الجسر، وعلى مُطل من قصور الخلافة التي كانت تتلألأ بضوء باهر،[٢] فركبتُ البر في الموضع المعروف بجزيرة العباس،[٣] وقد غَصَّ بجموع من الناس، وقد لبسوا الطيالس السود تشبهًا بملوك هذه الدولة الذين اتخذوا السواد شعار الخلافة حزنًا على شهدائهم من أهل البيت، ونعيًا على بني أمية في قتلهم.

وشاهدت جماعة قد اتخذوا بدل العمائم قلانس طوالًا مصنوعة من القصب والورق ملبَّسة بالسواد أيضًا، وبدل الدروع دُرَّاعاتٍ مكتوبًا عليها بين كتفي الرجل فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أخبرني[٤] بعض من لقيته في تلك الليلة أن أبا جعفر هو الذي أحب أن تتزيا حَوْزته بهذا الشكل من اللباس منذ ثلاث سنين.

ولما جُلْت في المدينة أخذت من قطيعة[٥] أبي عيسى الهاشمي إلى مَحَلَّة يقال لها: الميدان،[٦] ومنها إلى الشارع الكبير المعروف بشارع أبي جعفر،[٧] فوجدته كأحسن ما يكون وأحفله من الشوارع، وله السيادة عليها بأمرين: الأول: اتساعه إلى أربعين ذراعًا،[٨] وإن كان يشاركه فيه غيره. الثاني: طوله من دار الخلافة إلى محلة باب الشام[٩] على استقامة ليس في الإمكان أصح منها، فلما صرت فيه استقبلت في دور الخلافة زينة كضوء الشمس قد اتُّخذت على القبة الخضراء[١٠] التي رفعها أبو جعفر

إلى علوٍ يزيد على ثمانين ذراعًا ليشرف منها على جهات المدينة وما بجوارها من البساتين، كما أنه عُني بتجميلها بالرسوم العجيبة؛ ليكون منها الدلالةُ على سعة ملكه، والشهادةُ باقتداره على عظائم الأعمال، فكانت تظهر زينتها في تلك الليلة وهي مرتفعة في الفضاء كأنها إكليل من نور قد تدلَّى على قصر السلام.

ثم إني أقبلت في صدر هذا الشارع على مسجدٍ جامع عليه ازدحام فملت إليه، وإذا برجال متمنطقين بالسيوف يرجعون الناس ويجعلون ممرًّا بين جموعهم، ووراءهم رجل طويل[١١] أسمر، نحيف خفيف العارضين، مُعَرَّق الوجه، ناطق العينين عليه ثياب سود من الخز وقلنسوة مطوقة بوبر[١٢] سود من الأوبار الغالية الثمن، وفي وجهه مهابة الملوك وجلالتهم؛ فعرفت أنه الخليفة أبو جعفر على غير ما تدل عليه حاشيته؛ إذ الشمس لا تخفى وإن سُترت، ثم لم أزل أتبعه بالعين حتى توارى بين الجموع وركب بغلة[١٣] عليها حلية خفيفة من الفضة، وكان لجامها في يد حاجب من حجاب الخليفة.

ثم دخلت المسجد وعلى المنبر خطيب له بيان وفصاحة يقال له: الحجاج بن أرطاة،[١٤] وعلى مقربة منه قراء سبعة يتلون الآيات من القرآن إلى مائة آية من مواضع متفرقة وسور مختلفة، فلما فرغوا من تلاوتهم تطايرت إليه رقع في مسائل الفقه فأجاب عنها بكلام أمضى من المرهف، وحدِّث عن البحر في بعد الغَوْر وقرب المغترف، وعهدي بمن لقيتُه من الخطباء أني ما سمعتهم إلا تمنيت أن يسكتوا مخافة أن يخطئوا، ما عدا هذا الفقيه الذي كان يواتيه الكلام ويتابعه، حتى إذا فرغ من جوابه على هذه الرقع اندفع في تفسير كتاب الله، وإيراد الحديث عن النبي ﷺ، إلى أن أخذ في سرد الآي المقروءات، فأتى بها على نسق القراءة من غير تقديم ولا تأخير حتى انتهى إلى آخر آية وهي قوله – تعالى: فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ[١٥] الآية، فنمَّق خطبة يذكِّر بها المؤمنين، قافية سجعاتها الألف اللينة واللام تردادًا لموقف الآية: «الآصال» حتى أَرسلتِ العيونُ لخشية الله عَبَرَاتها.[١٦]

ولم أزل في المسجد مع القوم بين قراءة وتسبيح إلى ما بعد العشاء الآخرة،

فخرجت ألتمس موضعا أبيت فيه بقية الليل لعلي أجد في النوم راحة تعوض عليَّ بعض ما أخذ مني السفر، فأرشدت إلى خانٍ لطيف ينزله الغرباء من أهل التجارات وغيرهم، فلما كان الصباح بكرت إلى أستاذي أبي يوسف، منزلُه على نهر عيسى[١٧] في قنطرة الزياتين[١٨] بمقربة من دُور الخلافة، فتلقاني بالبشاشة والإيناس وأبى إلا ضيافتي عنده في جناح أفرده لي من داره، وهو يؤمِّلني بلوغَ ما أرتجيه من خدمة الدولة؛ إذ لا يعدم قومنا محلًّا في مراتبها، والوزارة في يد خالد بن برمك أميرنا. إني إلى هذا اليوم أتخرج في الفقه عليه، وقد وجدت عنده من العقل والعلم ما يندُر مثله في صدور الرجال.

ذكر شيء من محاسن الزَّوْراء

ولقد أكبرت من الزوراء رواجَ سوقها بالتجارة، واشتباك أحيائها بالعمارة في مدة عشر سنين، حتى جمعت من أسباب العمران ما لا يكون في مدينة بنيت من قديم الزمان، ووجدتها من لطف الهواء وطيب الإقليم على خير ما تكون مدينة، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وأسواقها في نهاية من الاحتفال، قد جمعت بالكَرْخ أخلاطًا من التجار[١٩] والصناع، إلا سوق الصاغة منها فإنه منفرد بجماعتنا الفرس، وقد بلغوا من الإجادة في صناعتهم الغاية بحيث يرصعون الزجاج بالجواهر، ويكتبون عليه بالذهب المجسم، ويصنعون للملوك أقداحًا[٢٠] تُقيِّد الأبصار حسنًا وإشراقًا، ويتخذون على الجامات صورًا يُحكمون صناعتها بالرسم إلى مماثلة الحقائق، وقد رأيت من ذلك جامًا قد صُوِّرت عليه طيور تطير[٢١] ومن فوقها عُقاب تنقضُّ عليها، وهي تهوي في الفضاء للتخلص منها، ولكن بهيئة تملك النفس وتستوقف الطرف، وإلى طرف هذه السوق مما يلي سويقة غالب[٢٢] جماعة من البنائين يبنون الدكاكين لأرباب التجارة بإشارة من السلطان الذي أمر بتحويل الأسواق إلى الكرخ؛[٢٣] ليُبعد أخلاط الناس عن جواره.

أما دور المدينة فإنها متخذة على هندسة الفرس وصنائعهم،[٢٤] ومثال ما بنت

الروم في الشام أو حيث كانوا ينزلون من البلاد، وهي مجلَّلة كِلْسا مرفوعة إلى طبقتين[٢٥] ومبنيٌّ بالآجُرِّ ما ارتفع منها عن الأرض، وبالحجر ما يماسها دفعًا للماء في أوان السيل[٢٦] أن يبلغ الطين ويتمكن منه، ومنهم من يقوّي الآجُرَّ بالقصباء والحلفاء ويغمسه بالجِص[٢٧] حتى يصير يابسًا وتكون له رنة كرنة الحجر الصلد إذا صلصل، وليس لدور العوام أسوار تحيط بمنازلهم، وإنما تُطِل نوافذها على الشوارع[٢٨] بحيث إذا ارتفع المار على حجر أو على دابة تَيسَّر له أن ينظر مَن بداخل البيت،[٢٩] أما دور المتموّلين من أهل اليَسار فإنها ثلاثة أقسام يجمعها سور واحد، وهي مقاصير الحرم وحجرات الخدم ومجالس السلام، وفي ساحاتها جنات تزرع فيها البقول والرياحين والرمان، وسائر الفاكهة حتى تكون رَوْحًا وريحانًا واسترواحًا للنفس، وعلى جدرانها وسقوفها نقوش في رسم متلون أو فُسَيْفِساء من ذهب، وعلى دائر الأبواب والقمريات وبرّادات[٣٠] الدُّور كتابة يتخذونها من الزجاج[٣١] الملون ويحوّطونها بخشب أسود من الآبنوس وغيره، ثم يعلقون عليها رسومًا من النحاس تمثل غصونًا وثمارًا وأزهارًا وأشكالًا، فيها كل غريبة من الإبداع، فتمتلئ العين ارتياحًا من النظر إلى إشراقها، وإني ليعجبني من جمال مبانيهم ما يتأنقون في زينته من الخارج أيضًا، فإن القباب التي يرفعونها من فوق السطوح على عمد قد دقَّت أمثال الرماح ليُخيَّل للرائي أنها لا تستند على شيء، وكأنما هي معلقة في الهواء.

ولما كان الحرُّ يشتد وَهْجه في الزوراء ويفتقر أهلها إلى رطوبة الماء افتقار النفس إلى الهواء؛ قلَّ أن يخلو سوق من أسواقهم أو بَنِيَّة من مبانيهم من سِقاية يجري بها ماء دجلة.[٣٢] ولذلك لا يسير فيها الرجل إلا محفوفًا بالشجر المزهر والرياحين[٣٣] التي يتغنى بوصفها الشعراء، وهذا دليل على أن الزوراء كلها ماء ونماء، ولأهلها في إقامة الأحواض عناية تامة، فيرفعون عليها عمدًا مزخرفة من الرخام، ويعقدون من فوقها قبابًا منقوشة بآيات من الذهب[٣٤] وما بينها النقوش الظريفة والرسوم التي تقرُّ بها العيون، فتوسعوا من اتخاذها للضرورة إلى المغالاة بزينتها على سبيل الترف والتَّرفه، وإذا اشتد عليهم الحر اتخذوا أسرابًا تحت الأرض وأقاموا فيها بالنهار؛ ليكسروا الحر

كما يقولون.[٣٥]

ولقد عظمت عناية أبي جعفر بهذه المدينة حتى إنه أنفق نحوًا من أربعة آلاف ألف دينار في السورين اللذين يحوِّطانها والمسجد الجامع ودور الخلافة والمجالس التي عقدها فوق أبواب السور الخارجي من طاقاتها المعقودة، وهي أربعة؛ أولها: باب خُراسان ويسمى: باب الدولة؛ لإقبال الدولة العباسية من خراسان، والثاني: باب الكوفة وهو تِلقاء الكوفة، والثالث: باب الشام وهو من ناحية الغرب، والرابع: باب البصرة وهو بمقربة من دجلة، وقد حمل إليها أبوابها من واسط والشام[٣٦] والكوفة على بعد الشُّقة والمشقة، واتخذ الأبواب الداخلة مزورة عن الأبواب الخارجة[٣٧] ولذلك سميت المدينة بالزوراء.

ثم إن تناهي جمالها بما شاد فيها الأمراء من المباني التي تقف عندها الغاية في الفخامة والإشراق، ولا سيما ما كان من المساجد المزخرفة؛ فإنها لكثيرة[٣٨] في الزوراء، أتيت منها على زيارة مسجد في قنطرة الصراة[٣٩] ومسجدٍ بناه عبد الله بن حرب في الموضع[٤٠] المعروف بالحربية، ومسجدٍ أقامه أمير من آل قَحْطبة في شارع المحرم،[٤١] وآخر بنتْه الخيزُران زوج ولي العهد في الخيزرانية،[٤٢] وهو فائق الحسن وفيه أكثر من ثلاثمائة من الفضة والذهب، وصحنه من حجارة سود شديدة البصيص، تصف الأشخاص كالمرآة، وعلى حيطانه صور تفاحاتٍ وثمار وغصون تخيل للوافد على المسجد أنه بين شجر زاهٍ مزهر، في روض باهٍ باهر، ورأيت العَمَلَة قد حاكوا فيها رسوم الأعاجم على أنسجتهم حتى جاءت الحجارة توهم الرائي أنها بُسُط حُملتْ من طَبَرِستان، ولا فرق بينها إلا فرق ما بين الصوف والحجر، وليس في مساجد الزوراء مثله في الزينة إلا مسجد بناه أبو جعفر في شارع دُجَيْل[٤٣] مما يلي باب الأنبار[٤٤] والمسجد الجامع الذي بجوار دُور الخلافة.

في تقرُّبي من رجال الدولة

وقد لقيت في الزوراء جماعة من الأمراء المقدَّمين في الدولة، غير أني انقطعت إلى

خدمة ملوكنا البرامكة وملازمة بابهم في البكور والرواح، إذ كانوا أصحاب فضل وجمال ومروءة وعفاف، وقد وقع بيننا من المودة ما ضمَّني وإياهم في أوثق حبال الأنس والائتلاف، وتقربت بكفالتهم إلى مَعْن بن زائدة الشيباني ورَوْح بن حاتم المهلبي، وهما أعظم رجال الدولة بعدهم، وكنت إلى آل المُهلَّب أكثر مني تقربًا إلى شيبان[٤٥] وإن كانوا جميعا على خلاف غرضنا من الميل مع أهل البيت، إلا أن مَعْنًا كان على مخالفة البرامكة والانحراف عنهم من حيث تقدُّمُهم في مراتب الدولة وهم أغراب عن العرب، وذلك لم يكن في آل المهلب؛ فإنهم كانوا مع البرامكة على خلطة ومودة واتصال.

وأقرب الأمراء مكانًا من الخليفة هو خالد وزيرنا؛ لقيامه بثقْلِ الدعوة في خراسان من قبل أبي مسلم الخراساني، وهو من أولاد الملوك لم يبلغ أحد مبلغه في رأيه وعلمه وبأسه وجُودِه وجميع خِلالِه،[٤٦] والمنصور لا يُبرم أمرًا إلا بمشورته، ولا يَركَن في أعماله إلى أحد سواه، اللهم إلا في سياسته مع العلويين؛ فإنها كانت جارية على البغض والجور، مع أن خالدًا ميال إليهم منذ أخذ في الدعوة الإمامية بخراسان، وهي إذ ذاك لهم وللعباسين جميعًا، أما المهلبيون فإنهم من عظماء العرب ومَن لهم الرأي المقدم عندهم والإمرة المطاعة عليهم، وقد كانوا هم وآل قحطبة من القواد الذين نصروا العباسيين على بني أمية، ثم انضافوا إلى جملة أبي جعفر بعد الفرقة بينه وبين العلوية رغبة عن الأئمة من أهل البيت، فقدَّمهم أبو جعفر في المراتب من هذا الوجه حتى انصرفتْ إليهم الوجوه، وانطلقت الألسن في مديحهم بالقصائد التي تُعظَم عن أن يقال مثلها في الخلفاء أنفسهم، كقول المغيرة بن حبناء:

أمسى العِبادُ لَعَمْري لا غِياثَ لهم ... إلا المهلبُ بعد اللهِ والمطرُ
هذا يذودُ ويحمي عن ديارهم ... وذا يعيشُ به الأنعامُ والشجرُ

وأما معن فإنه أمير شيبان كلِّهم، وقد اجتمعتْ فيه جميع خلال العرب الحِسان إلا أنه غلب عليه الجود مقرونًا بحلم يتحيَّر في نعتِه اللسان، وشيبان من بيوتات

العرب في قريش، وهم أربعة بيوت بعد بيت بني هاشم، وهي بيت قيس، وبيت تميم، وبيت شيبان، وبيت اليمن. [٤٧] وقد كان معن على مخالفة العباسين لأول ظهور دُعاتهم، وأبلى مع بني مروان بلاءً حسنًا، فلما انقرضتْ دولتهم طلبَه أبو جعفر طلبًا شديدًا وجعل لِمَن يأتيه به مالًا جزيلًا فلم يظفر به؛ لأنه كان مقيمًا في البادية كما يقال،[٤٨] ثم إنه رجع إلى الهاشمية[٤٩] متلثمًا ووافق يومُ وصوله قيامَ الرَّوَانْدية على الخليفة في الأسواق، وقد قاتلوه إلى أن ضاق به الخناق، فكان معنٌ يجد في ذلك اليوم وسيلة لهلاك أبي جعفر بانضمامه إلى العدو بعد أن بدت له مقاتله، ولكن أبتْ مروءته إلا أن يكون الحلمُ في نفسه طبيعة تُجِلُّه عن مطامع الأخساء؛ فأعلن السيف دونه حتى كشف عنه سواد العدو، فلما عرفه أبو جعفر طابت به نفسه، وجعل له الولاية، ومكَّنه من خزائن المال.

ولقد دخلتُ على هذا الأمير مرة واحدة فأصبتُه بين حرس على رأسه وحَفَدة بين يديه،[٥٠] وفي حضرته جماعة من الأدباء النُّدماء قد خاضوا في حديث الشيعة في خراسان، وأخذوا يتناقلون خبرها من غير نقد ولا إمعان، فضلَّ عنهم سر السياسة فيها إلا رجلًا من شيبان بليغ الفطنة يقال له: مُحَمَّد بن الحسن الشيباني، وهو بسيط اللسان إذا تكلم خيل لسامعه أن القرآن نزل بلغته،[٥١] فكان يرى لنكبة أبي مسلم – رحمه الله – السبب الذي لم يفطُن له أحد من هؤلاء الجُلَّاس، فإنه لم يتحقق لديَّ مما يذكرون من أن الخليفة قد نكبه لما كان من سبقه إياه إلى الحج، ولا لادعائه أنه من ولد العباس، ولا لتصدير اسمه قبل اسم الخليفة في الكتب التي كان يبعث بها إليه، ولا لإفراطه في القتل، وإنما نَكَب أبا مسلم ما كان من ميله مع أهل البيت وإمداده إياهم بالرأي فيما يدبرونه لأمر أنفسهم، حتى إذا علم الخليفة منه ذلك وخاف من فتنة صمَّاء تعصف ريحها بالدولة استقدمه إلى المدائن وفي نفسه أن يفتك به على غِرَّة، وكان أبو مسلم على حذر من ذلك، كما ظهر من كتاب له إلى أبي جعفر ومما كان من استصحابه للجنود في سيره إليه، ولكن طلع عليه وهو بين يدي الخليفة جماعة من حيث لا يدري؛ فاعتوروه بالسيوف، ومعن يعلم هذا كله ولكن لا يقوله إجلالًا لأمير المؤمنين.

وأما ما يقولون من أنه خامل السلالة؛ فليس ذلك إلا من باب التدليس لموافقة أرباب الدولة على أهوائهم، على أنه لو صح ادعاؤهم ما منع من أن تكون به خصال لا تُرى في عامة الناس، فإنك لتعلم أنه ملك خراسان(٥٢) وهو ابن تِسع عَشْرة سنة، وأبدى من السياسة وهو بذلك العمر ما عجز عن تدبير مثله الحكماء، وكان ثبْتَ الجَنان إذا جاءته الفتوح العظام لم يغلب عليه السرور، وإذا نزلت به الحوادث الفادحة لم يظهر فيه اكتئاب،(٥٣) وكان أقلَّ الملوك طمعًا(٥٤) وأبعدهم بين الناس شهرة، حتى كان إذا حج هربت العرب من وجهه ولم يبقَ في المناهل منهم أحد؛ لما كانوا يعرفون من شدة بأسه ودهائه، وهو أكبر ملوك الإسلام، والرجال عندي ثلاثة وهم الذين قاموا بإنشاء الدول: الإسكندر الرومي، وأرْدَشِير الفارسي وأبو مسلم الخراساني.

لمعة من أخبار أبي جعفر

ومن المقربين إلى أبي جعفر غير من لَقِيتُه من الأمراء المقدم ذكرهم الربيع بن يونس حاجبه ومولاه، وهو حظيٌّ عنده ومكين لديه؛ إذ إنه مقدَّم على الموالي، وهم المقدمون في هذه الدولة؛ لبلائهم مع يزيد بن المهلب، على ملوك بني أمية بجُرْجان(٥٥) وما إليها من البلدان، ولاستمرار أبي جعفر على تقديمهم في الرياسة تحفُّظًا على نفسه من العرب الذين يميلون مع أهل البيت، وهو يجد عليهم أشد مما يجد على بني أمية.

فتجد – أكرمك الله – أن أبا جعفر لم يقدِّم الأغراب(٥٦) في مراتب الدولة إلا بما هو مطبوع في نفسه من التيقظ والسهر، كما تجد أنه ما أبناه مدينته إلا الخوفُ من أهل الكوفة أن يُفسدوا جنده ويحملوهم على مناصرة أهل البيت؛ فجمع المنجمين لذلك، ولم يباشر بناءها إلا بعد ما أعلمه نُوبَخْت بسلامتها من الأعداء، ولما فشَتْ فيها العمارة وجمعت أخلاط الناس خاف قيام العدو عليه؛ فأقفل الدروب بالليل،(٥٧) وأقام عليها الحراس وحوَّل الأسواق إلى جهة الكَرْخ، كما تقدم حتى لا

يبقى بجواره مَن لا يأمن ناحيتهم، وشرع قومه يقولون: إن رسول الروم أشار بذلك إليه، وقد سأله لما وفد عليه: كيف وجدت بلدنا أيها الرسول؟[٥٨] فقال: إني رأيته أعزَّ على الطالب من بَيْض الأنوق، بَيْدَ أني رأيت الغريب يطرقه ويبيتُ فيه، وربما كان فيهم العين والجاسوس، وهذا كلام فيه بعض المرية عندي؛ لأن مَن أبناه الخوفُ مدينةً حوَّطها بسور بل سورين[٥٩] وحفر بعدهما خندقًا بعيد المهوى غنيٌّ بما في نفسه من الخوف عن أن يخوِّفه أحدٌ كيدَ العيون ومِحالَهم.

ثم إنا لنجد له هذا التيقظ في البخل الذي ليس هو فيه عن لؤم[٦٠] يُغِلُّ يده عن الخير؛ لأنه وصل أعمامه بعشرة آلاف ألف درهم لكل واحد ألف ألف درهم،[٦١] وهو أول خليفة وصل بأمثال هذه الهبات، وإنما أمسك يده عن العطاء مخافة أن يقع ماله في يد المتربصين به من المخالفين، كما أنه أقلَّ من أعطية الجند ليأمن عصيانهم[٦٢] واستغناءهم عنه، كأنه يعمل بالمثل السائر الذي يقول: جوِّع كلبَك يتبعك،[٦٣] وإلا فإنا لا نرى هباته إلا لمن هو خِلْوٌ من الأغراض السياسية من أهل العلم والأدب، وإن كان لا يصل هذا العطاء إلى الكرم، وذلك لما نعلم من خروج[٦٤] الشعراء في أيامه من الحضرة إلى غير وجهة يسترفدون بها صلتهم.

وأما دليل تخوفه من ولاة أقاليم فكونه يُذْكي عليهم العيون، ويتدارك عزلهم من قبل أن ترسخ في الإمارة قدمهم، ثم يستولي على ما يصل إليه من أموالهم ويجعله في بيت سمَّاه: بيتَ مال المظالم؛[٦٥] حتى يُقعِدهم عن القيام عليه في ثورة أو مخالفة، وليس ذلك حبًّا في جمع المال وادخاره كما يزعم كثير من الناس، لأنه لولا أنه بُخلٌ ناشئ عن رأي له في السياسة ما حنق على مَعْنٍ حين جاد بماله على أهل اليمن ليسهِّل من أمرهم ما حزُن،[٦٦] كما أنه لو طمع في حفظ هذه الأموال المغتصبة ما أوصى ابنَه بردِّها إلى أربابها في كلام من الوصية يقول فيه: [٦٧] إني لأحضُّك يومَ تُدرِكني الوفاة أن تدعو من أخذتُ مالَه وتردَّه عليه؛ فإنك ستُحمَد بذلك إليهم، ولكن إياك أن تعود إلى توليتهم المناصب؛ لأني ما رأيت الوفاء طبيعة إلا في الموالي والأعراب.

ثم إنه طمح من هذه السياسة إلى أن يأخذ التجارة بالشدة ويضرب عليها المكوس

تثقيلًا على التجَّار؛ فوضع على الحوانيت خراجًا(٦٨) لم يُسبَق له عهدٌ في الإسلام.

هذا نَزْر يسير من أخبار أبي جعفر، وفيه دلالة قاطعة على الخوف الذي يدعوه إلى التيقظ، والناسُ يقولون: إنه صالح النظر في السياسة، وربما جاريتُهم على ذلك فيما هو آخذ بتدبير أمره، غير أنه حَبَس النفسَ الزكيَّة محمدَ بنَ عبد الله بن حسن بن الحسين – ﷺ، وقَتَل أخاه إبراهيم بن عبد الله وكلاهما بَراء من الذنوب، ولستُ أرى لأبي جعفر فيما وقع له من الظفر بهما على سبيل الاتفاق وجهًا تطمئن به نفسه؛ لأن فشل العلويين إلى هذا اليوم إنما نشأ عن تفرق دُعاتهم على أغراض، لم تجمعهم غاية واحدة في جميع البُلدان، بل كان بعضهم منقطعًا عن بعض، وكان كل واحد منهم منفردًا إلى نفسه فيما يطلبونه من ثأر شهدائهم المشرَّفين – عليهم صلوات الله ورضوانه – فغلبهم أبو جعفر من هذا الوجه وظفر بالواحد منهم بعد الآخر، كما كان شأن الأمويين في مقاتلتهم من قبل، ولو أنهم جمعوا دُعاتهم إلى الوحدة وأثاروا العراق وخراسان والحجاز في غرض واحد كما فعل أبو مسلم – رحمه الله – في إظهار الدعوة الإمامية؛ لأعاد الله إليهم الخلافة التي غلبهم عليها الأمويون، وهم الذين عُرِفَتْ لهم الفضائل التي لا يستطيع المكابرون من أعدائهم(٦٩) إنكارَها، والله يؤتي ملكه من يشاء وهو العليم الحكيم لا شريك له.

ذكر الفتوح وأن العدل هو الذي حفِظها للمسلمين

ولما حدثني لسان الشريعة بهذه الأخبار وافق قولُه ما في نفوسنا من التحسر على أهل البيت لضياع حقوقهم، وقد كنتُ استزدتُه الحديثَ عن أخبار العرب وأيامهم فحدثني عن فتوح الإسلام خبرًا أحببت أن أسرُده إليك في هذا الكتاب، وأسلك فيه سبيل الإطناب؛ ليكون فخرًا للأعراب، باقيًا إلى منتهى الأحقاب.

فإن الله – تعالى – لما أراد أن ينشر فيهم رحمته؛ بعث إليهم رسولا منهم ومعه كتاب من الله ناطق بالهدى ودين الحق؛ ليُجِيرهم من المُلِمَّات التي وقعت فيها جاهليتهم؛ لمخالفتهم سياسة الشرع وتباين عقائدهم في الدين؛ إذ لم يكن فيهم من

الموحِّدين المقرِّين بالخالق المصدقين بالبعث الموقنين بالثواب في الآخرة إلا نفر قليل،(٧٠) فجمع بالرسالة كلمتَهم، ونزع الكعبة من يد الجاهليين الذين وضعوا بها آلهة(٧١) وتركوا عبادةَ الإله الواجب الوجود. مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا. (٧٢)

ولقد كان النبي ﷺ مأمورًا في بدء رسالته بأن يدعو العرب إلى الإسلام، ثم جاءه الوحي بدعوة الناس كافة إليه، فلما قُبِض ﷺ وهو مشكور سعيه، مرفوع منزلته؛ انقبضت نفوس العرب وباتوا في موقف التردد، فمنهم من كانوا يخافون أن يدخلوا في ولاية أحد من بعده يطلق يده في الأمر بما يشاء، وعهدهم قريب بالجاهلية من تباين الميول والأهواء، فلما رأوا من الخلفاء الراشدين – رضي الله عنهم – بعدهم عن الأغراض النفسانية، والتماسهم من الخلافة السلوك في سنة الله ورسوله دون شيء آخر من حاجات الدنيا إلا هداية الناس، اجتمعوا على كتاب الله أمةً واحدة في دين وسياسة، حتى غلبوا الملوك على أمرهم وابتزُّوا الأعاجم سلطانهم، وحازوا معظم العالَم في شرق وغرب.

وإنما صال المسلمون كالسباع، وشدوا على الحصون والقلاع، وترامَوْا على ممالك الحضر، واقتحموا المشاقَّ والغَرَر، بما حضَّهم عليه الكتاب من الجهاد، ولأن المائت منهم في ساحة الحملات شهيدٌ له في دار الخلد جنات؛ وعدهم الله – تعالى – بقوله: وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ(٧٣) فلما ندبهم أبو بكر – رضي عنه – إلى فتوح الشام؛ أقبلوا بنسائهم(٧٤) وولدهم وبيوتهم وماشيتهم وسائر ما يملكون، وعلى وجوههم سمات الفرح والابتهاج،(٧٥) كأنما النصر محقق في النفوس صرفًا بغير مزاج، ويقال: إن الشيوخ الفانين قد قَدِموا مع أولادهم؛ ليطئوا الأرض التي وعدهم النبي ﷺ، حتى إذا رآهم أبو بكر ابتدرهم بالسؤال أنْ: لِمَ أقبلتُم؟ ومعناه يزيد على كلامه بأن ليس لكم عزم ولا فيكم بقية، فقالوا: قدمنا – يا خليفة الرسول – رغبةً في ثواب الله وحبًّا في فاكهة الشام واستعذابًا لمائه الزُّلال،(٧٦) فتفاءل منهم بالخير، وقال: إن ربكم يعطي النصر العزيز

لمن يشاء، فإذا كان هذا عَزْمَ المسانِّ وإقدامَهم فما الظن ببسالة الفتيان الذين هم ضُرَّاب السيوف،[٧٧] وشُرَّاب الحتوف؟ فإن تنظر إلى ما تعرف لهم من الأشعار، ويُروى عنهم من الأخبار، تجد أنهم لا يبتغون بغير الكفاح الفخار، وتستدل على أن قوتهم في الهجوم على الديار، أشد من عدو تمنعه القلاع والأسوار.

ومما حفِظ هذه الفتوح للمسلمين أن البُلدان التي دخلتْ في حوزتهم لم تُبدِ إشارة ثورة ولا أمارة فتنة؛ لأنها كانت قبل ذلك في سلطان الفرس أو الروم؛ فاستوى لديها أن يحكمها كسرى أو أمير المؤمنين، وربما مالت إلى عمال الخلفاء أكثر من ميلها إلى عمال الروم لما وجدت قِبَلَهم من وفور العدل والقيامِ على مراعاة العهود، مما أمر به الخلفاء الراشدون – ﷺ – وحرَّضوا على التشبُّث به، حتى لقد عزلوا خالد بن الوليد عن الإمارة من أجل أنه أراد أن ينقض الأمان الذي أعطاه أبو عبيدة المعروف بأمين الأمة لأهل دِمَشْق، إذ دخل مدينتهم صلحًا، بينما كان خالد يدخلها بالسيف، وأمثال هذه الرعاية المنصفة كثيرةٌ في سِيَر الخلفاء، وكانوا إذا أوصَوْا عمالهم باستعمال العدل والاحتراس من المعصية والاستنكاف من القتل الكثير قالوا لهم: «إنه لولا ذلك لم تكن لنا بالأعاجم قوة؛ إذ كان عددنا دون عددهم، وعُدَّتُنا دون عُدَّتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا بالقوة، وإلا نُنصَر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا.» فيظهر لك أنه إنما عمَّ الإسلامُ بما عدل الخلفاء الراشدون – ﷺ – في زمن الفتح، وما أوجد الله فيهم من حسن السيرة التي ذهبت فضائلها مَثلًا بين الناس، حتى إن الخلق الكثير من الأعاجم كانوا يدينون بالإسلام على بُعد الديار؛ وليس ذلك إلا لما يسمعونه من عدل الخلفاء وعفاف أنفسهم، فلَعَمْري إنه لولا انقلاب خلافة الملة إلى مُلْك في يد الأمويين ما بعُد أن يعمَّ الإسلامُ العالم بأسره، والله – تعالى – أعلم بالغيب، وله في قضائه حكمة تعالت عن أن يدركها العباد.

هذا هو السر في اتساع الفتوح وحفظها في يد المسلمين، والأعاجم يعلمون ذلك، ولكنهم يقولون: إن الإسلام غلب أممًا لا مدنية عندها ولا نظام لملكها فقوي عليها، وهذا مردود من وجوه كثيرة، ولا سيما أن فارس كانت من أضخم الدول

سلطانًا، وأبعدها في الحكمة أعراقًا؛ فلم يصعب عليه منالها، كما لم يعسُر عليه غَلَبُ الروم في الشام، وهم بمكان من المدينة لا يُرام، ولست أقول إلا أنه لما نشأ الإسلام كانت القياصرة في ضعف وانحلال، وكان الفرس يمزقهم ظلم العمَّال، فكان ذلك داعيًا إلى انتزاع ملكهم، ولم ينل الإسلامَ إخفاقٌ في عهد الخلائف الأولين وهم بمكانهم من صلاح الرأي وحكمة السياسة؛ فلم تُهْزم للإسلام راية في أيامهم، إلى أن ذهبت الخلافةُ من بيت عليٍّ – عليه السلام – فذهبت سذاجة المِلَّة، وانقلب أمر الأمة من الخلافة إلى الملك، كما قال النبي ﷺ: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تصير مُلكًا عضوضًا.» ولله في خلقه شئون، وهو يُقدِّر الليل والنهار.

وكان الفراغ من تقييد هذه الرسالة في أول يوم من رجب من السنة السابعة والخمسين بعد المائة من الهجرة النبوية المشرَّفة. على صاحبها أشرف السلام وأزكى التحية.

الهوامش

(١) هو باب من أبواب بغداد.

(٢) الأغاني ٤ : ١٨٩.

(٣) في المسعودي أن السفن الواردة من البصرة تقف في بغداد بهذا الموضع.

(٤) ابن الأثير ٥ : ٢٤٥، والأغاني ٥ : ٩٥.

(٥) ذكرها ياقوت.

(٦) الأغاني ٢٠ : ٦٦.

(٧) ابن خلكان ١ : ٣٠.

(٨) ابن الأثير ٥، وابن خلدون ١.

(٩) ذكرها ابن خلكان وابن الأثير.

(١٠) المسعودي والقزويني.

(١١) العقد الفريد.

(١٢) ابن عون، وذكر ابن جبير أنه رأى الخليفة ببغداد وعليه قلنسوة ذات وبر.

(١٣) ابن خلدون.

(١٤) ذكر في العقد الفريد، أنه ولى القضاء لأبي جعفر.

(١٥) سورة النور.

(١٦) من رحلة ابن جبير.

(١٧) ابن حوقل ١٦٥، ويقول المسعودي (١ : ٤٧): إنه يأخذ من الفرات، وفي ابن خلكان (١ : ٧٤٠) أنه يأتي بغداد من جهة الأنبار، و(١ : ١٠١) أنه بجوار قنطرة الزياتين.

(١٨) الأغاني ٣ : ١٨٢، وابن خلكان ١ : ٢٨٣.

(١٩) الأغاني ٩ : ٣٣ و١٨ : ٦.

(٢٠) الأغاني ٤ : ١٨٩.

(٢١) في الحصري (١ : ٣٥): هذا الشعر لأبي نواس:

تُدار علينا الراحُ في عَسْجَدية ... حَبَتْها بأنواع التصاوير فارسُ

الأغاني ٣ : ٢٧.

(٢٢) ذكره ابن خلكان في محلة الكرخ ١ : ٢٤، في ابن الأثير (٦ : ٩٩) أن بين الكرخ ومدينة المنصور سورًا يفصل بينهما، ثم إن العمارة امتدت من وراء الكرخ حتى صار الكرخ في جوف بغداد.

(٢٣) المقدمة ٣١٣.

(٢٤) المقدمة ٣١٣.

(٢٥) يستدل على ذلك من الأغاني ٢ : ٧٣ و٣ : ٣١.

(٢٦) ذكر الأغاني ٩ : ١٤٤ وقوع سيل ببغداد.

(٢٧) ابن خلدون ٣ : ١٩٧.

(٢٨) الأغاني ١٧ : ٤٩.

(٢٩) الأغاني ٥ : ٣٨.

(٣٠) الأغاني ١٧ : ١٢٩.

(٣١) القزويني١٢٧.

(٣٢) المقدمة ١٠٥ و٣٥٧، والأغاني، والأتليدي.

(٣٣) ياقوت ١ : ٦٨٧.

(٣٤) الأتليدي ٢٢٦.

(٣٥) من ابن خلكان.

(٣٦) ابن الأثير ٥ : ٢٣١.

(٣٧) تقويم البلدان ٣٠٣.

(٣٨) ذكر القرماني وغيره أنه كان ببغداد ثلاثون ألف مسجد وعشرة آلاف حمَّام.

(٣٩) موضع ببغداد ذكره ابن الأثير ٦ : ١١٧.

(٤٠) ذكره ابن خلكان ١ : ٢٣، وياقوت ٤ : ٥٨٦، والمسعودي ٢ : ٢٤٠ و٣٨٨.

(٤١) ذكره الأغاني ٥ : ١٢٦.

(٤٢) ذكره ابن الأثير ٦ : ١٠١.

(٤٣) ذكره ابن خلكان ١ : ٤٩٨.

(٤٤) ذكره ابن الأثير ٦ : ٩٨، والمسعودي ٢ : ٢٤٠، والمستطرف ١ : ٢٨٩.

(٤٥) يقول ابن الأثير (٦ : ٥١): إن شيبان كانوا مع البرامكة على انحراف.

(٤٦) ابن خلكان ٢ : ٣٦١ والمسعودي ٢ : ٢٢٢.

(٤٧) الأغاني ١٧ : ١٠٥.

(٤٨) وقد وقع لمعن أيام كان يطلبه أبو جعفر ظريفة أحببت أن أذكرها ها هنا لنكتة فكاهية تدل على كرم العرب وأنفة نفوسهم والكلام فيها لمعن، يقول: كنت قد اضطررت لشدة الطلب إلى أن أقيم في الشمس حتى لوحت وجهي وخففتُ عارضي ولحيتي؛ فلبست جبة صوف عريضة، وركبت جملًا من الجمال النقَّالة؛ لأمضي إلى البادية فأقيم بها، فلما خرجت من باب حرب تبعني أسود متقلد سيفًا حتى إذا غبتُ عن الحرس قبض على خطام بعيري

فأناخه وقبض عليَّ، فقلت له: ما لك؟ قال: أنت طِلبة أمير المؤمنين. قلت: ومَن أنا حتى يطلبني أمير المؤمنين؟ قال: أنت معن بن زائدة. فقلت: يا هذا اتقِ الله أين أنا من معن؟ قال: دعْ هذا عنك؛ فإني والله، لأعرَفُ بك منك. قلت: إن كانت القضية كما تقول فهذا جوهر حملتُه معي يفي بأضعاف ما بذله أمير المؤمنين لمن جاءه بي، فخذه ولا تسفك دمي. قال: هاتِه، فأخرجتُه إليه؛ فنظر إليه ساعة، وقال: صدقتَ فيما تذكر عن ثمنه ولستُ قابلَه حتى أسألك عن شيء فإن صدقتَني أطلقتُك. فقلت له: قل. قال: إن الناس قد وصفوك بالجود، فأخبرني هل وهبتَ قطُّ مالك كله؟ قلت: لا. قال: فنصفه؟ قلت:لا. قال:فثلثه، فربعه، فخمسه؟ حتى بلغ العشر فاستحييتُ، وقلت: أظن أني قد فعلتُ هذا. فقال: ما أراك فعلتَه. أنا والله راحل ورزقي من أمير المؤمنين عشرون درهمًا في الشهر وهذا الجوهر قيمته عشرة آلاف دينار، وقد وهبتُه لك ووهبتُك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس؛ لتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك؛ فلا تعجبك نفسك، ولتحقر بعد هذا كل شيء تفعله ولا تتوقف عن مكرمة قط، ثم رمى العقد في حجري وترك خطم البعير وانصرف، فقلت: يا هذا والله، لقد فضحتني، ولسفك دمي أهون عليَّ مما فعلتَ؛ فخذ ما دفعتُ إليك فإني عنه لغني، ثم قال: أردتَ أن تُكذِّبني في مقالي؟ والله، لا آخذه ولا آخذ بمعروف ثمنًا، ومضى. فوالله لقد طلبته بعد أن أمنتُ وبذلت لمن يجيء به ما شاء الله، فما عرفت له خبرًا وكأن الأرض ابتلعتْه. ابن خلكان ٢ : ١٦٠، والأغاني ٩ :٤٣، وعجائب المخلوقات ٣٠٩.

(٤٩) كان يقيم فيها المنصور قبل بناء بغداد.

(٥٠) الأبشيهي ٢ : ٣٠٩، والأتليدي ١٠٩.

(٥١) أبو الفداء ١٩٢، وابن خلكان ١ : ٦٤٧، والخميس ٢ : ٣٣٣.

(٥٢) (ذكر) صاحب العقد الفريد ١ : ١٢١ أنه ربما جرى عليه لقب أمير المؤمنين.

(٥٣) ابن خلكان ١ :٣٩٨.

(٥٤) أبو الفرج ٢١٦.

(٥٥) الأغاني ٩ : ٢١.

(٥٦) ابن الأثير ٦ : ١.

(٥٧) الأغاني ٧:٣٤.

(٥٨) ابن الأثير ٥ : ٢٣١.

(٥٩) أبو الفرج ٢١٩، والمسعودي ٢ : ٣٨٧.

(٦٠) الفخري ١٨٨، وأمر البخل في أبي جعفر معروف ومتفق عليه.

(٦١) المسعودي ٢ : ١٩٤، والمستطرف ١ : ٢٠٠.

(٦٢) في ابن الأثير (٦ : ٥) أن المنصور عرض جنده في السلاح وهو لابس درعًا وبيضة.

(٦٣) الفخري ٦٩.

(٦٤) الأغاني ١٣ : ٩١، وفي العقد الفريد (١ : ١٢٢) أن حاجب الخليفة قال: إن الشعراء ببابك وهم كثيرون، طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم.

(٦٥) ابن الأثير ٦ : ١١.

(٦٦) ابن الأثير ٦ : ٩.

(٦٧) الفخري ١٨٧، وابن الأثير ٦ : ١٢.

(٦٨) المقريزي ١ : ١٠٣.

(٦٩) قال عمر بن عبد العزيز – من ملوك بني أمية: إن الذين حَوْلَنا لو يعلمون مِن عليٍّ ما نعلم؛ لتفرقوا عنا إلى أولاده (ابن الأثير ٥ : ١٧). وكذلك الحجاج بن يوسف جلس يومًا يعطي الناس على بلائهم، فقام رجل يطلب العطاء، وكان من قَتَلَة الحسين بن علي – ﷺ – فلما علم الحجاج ذلك؛ قال له: إنك لا تجتمع أنت وهو في مكان واحد، ثم أخرجه ولم يُعطِه شيئًا (ابن الأثير ٤ : ٢٣٩).

(٧٠) المسعودي ١ : ٢٣٩.

(٧١) المقدمة ٣١١.

(٧٢) سورة الكهف.

(٧٣) سورة النساء.

(٧٤) ياقوت ٤ : ٣٢٤.

(٧٥) المقدمة ٢٣٢.

(٧٦) الواقدي.

(٧٧) ذكر الطرطوشي (١٧٣) أن من فرسان المسلمين من ضرب عدوه بسيفه؛ فقطع البيضة الحديدية التي على رأسه.

الرسالة الثالثة

لقائي وليَّ العهد وحظوتي لديه

هذا كتاب إليك أبدأ فيه بذكر لقائي وليَّ العهد؛ فإنا لفي بعض الأيام، ونحن جلوس إلى فقيه الإسلام، إذ دخل علينا البيتَ خادم من خدم الخليفة؛ فتخوَّف الفقيه من شيء لم أَدْرِ ما هو، وكذلك الناس يغشاهم الخوف والانقباض كلما دخل عليهم خادم الخليفة على غير موعد،[1] فقال له أبو يوسف: سبق وهمي إلى أنك تطلبني لأمر جَلَل، قال: أَجَلْ، إن الأمير يدعوك الساعةَ إليه لأمر أقلقه الليلَ كلَّه، ولم يجرِ في خاطر أحد من العلماء التصرفُ في وجهٍ يكون به كشف الغُمة وتحقيق المسئول؛ فدعا خالدَ بن برمك إليه، فقال له: عليك بتلاميذ أبي حنيفة وما فيهم أحفظُ لعلمه من أبي يوسف.[2]

فلما سمع ذلك طابتْ نفسه، وذهب ما كان يجده من الخوف، ولم يلبثْ أن استوضح هذا الخادمَ الخبرَ، فأعلمه أن الأمير حنِق على الخيزُران أم أولاده ليلًا، وقال لها في سَوْرة الغضب: أنتِ طالق ثلاثًا إن بِتُّ الليلةَ في مملكة أبي، فلما سَكَن غضبُه ووجدها براءً من التُّهمَة راعه أمرُ الطلاق؛ فاستدعى الأعيان والفقهاء فلم يكن عندهم ما يرجوه من الإفتاء الذي يطيب به نفسًا، ففكر أبو يوسف برهة؛ فلم يفتح الله عليه بشيء.

وكنتُ في ذلك الوقت أُجيل الفكرة في أمر الخيزُران وأذكر مآثرها في الدولة وذلك المسجد الذي زيَّنَتْ به الزوراء؛ فوقع في نفسي ما يكشف هذه المُهِمَّة، فقلت لأبي يوسف: إن المساجد بيوت عبادة الله – تعالى – ولا تدخل في ملك أحد، فلو بات الأمير فيها الليلةَ ما حسبتُه يبيتُ في مملكة أبيه؛ فما كدت أنتهي من كلامي حتى كاد ينخلع من ثيابه لشدَّة الفرح، وهو يقول: لقد ظننت واللهِ أن إعمال الفكرة

في مثل هذا التخلص الجميل جهد من غير تحصيل، وعناء للنفس ليس له من سبيل، فأما إذ ابتدعتَ هذا الرأي الميمون؛ فعليَّ عهدُ الله لأذكرنَّك عند الأمير؛ ليُقرِّبك إليه بما أنت أهله من الخير، ثم خرج وأنا أحسَب للأمير مَسَرَّة عظيمة مما رزقني الحظُّ استنباطَه ليكون في حِلٍّ من يمينه ومَبَرَّةٍ له من قسمه.

فلم تكن إلا ساعة حتى عاد إليَّ نُصَيْرٌ ذلك الحاجبُ قائلًا: [٣] أجبِ الأمير؛ فقمتُ لساعتي أمتثل الأمر، فلما صِرْتُ في باب الدار وجدت جماعة من الغلمان قد أعدُّوا لي بغلةً فارهة من مطايا الأمير مجللة بالديباج، عليها حلية من الفضة، فركبت وسار الغلمان بين يديَّ حتى وصلنا إلى دُور الخلافة، وقد كان أخبرني نصير عما جرى بين الأمير وأبي يوسف من الحديث، وأنه لما مَثَلَ بين يديه كاد يعدل عن استفتائه؛ ظنًّا منه أن لا يكون من فتواه جدوى، «والخلفاء وأولادهم يبدءون الناس بالكلام وليس للناس أن يفتتحوه معهم.» [٤] فلما استطلعه رأيه فيما أهمَّه من الأمر وذكر له الرأي الذي تقدَّمتُ به إليه غلب عليه السرور حتى ما كاد يستقر به المجلس من القيام والقعود، ثم سأله: أمن معقوله ذلك أم من منقوله؟ فقال له أبو يوسف: لا والله، وإنما قائلُ هذا صديقٌ لي من أبناء الفرس، وأخذ يذكرني عنده بما استطاع من جميل الكلام.

فلما أقبلنا على دور الخلافة جُزْنا باب السور الكبير وسلكنا ممرًّا مفروشًا بالحصباء الحمراء تحيط به حدائق القصر وجِنان قد اتُّخِذ فيها أحواض يتصعد منها الماء وعليها عمد من الرُّخام تُقِلُّ قبابًا مغشاة بالرسوم الموسومة بماء الذهب، ورأينا في طرف هذه الجنان صناعًا يرفعون[٥] قصرًا سمَّاه أبو جعفر: قصر الخُلْد[٦] وأضافه إلى قصر السلام[٧] الذي يسكنه في هذه الأيام؛ فانتهيا من هذا الممر إلى باب القصر وهو معقود تحت القبة التي كانت مزينة في عيد الفطر، وهي عَلَم الزوراء ومأثُرة بني العباس، فلما جاوزناه انتهينا إلى دار مسوَّرة بالعمد وبها مقاصير منجدة أرضها وحيطانها بالأرمني،[٨] وفي أطرافها دِهليز ينبعث إليه الضوء من شمسيات قد اتخِذت في قباب بديعة الشكل حافلة الزينة، فجزناه فإذا نحن في دار أفسح من الدار الأولى،

ولها باب عليه مسامير من الفضة والذهب،[٩] وفيها كثير من العمد التي يوجه الخلفاء عنايتهم إلى تزيينها بالرسوم والإكثار منها فيما يبنون من القصور، حتى إني عددت في صحن من صحون دور الخلافة سبعًا وأربعين سارية لو أن ثمانين غلامًا وقفوا وراءها ما رآهم مَن هو في صدر الدار.

ثم انتهينا من هذا الدهليز إلى سلم من الرخام ينتهي بالراقي[١٠] عليه إلى مجلس الأمير، وناهيك به مجلسًا قد فُرِش بالرخام المجزَّع، وبين كل رخامة قضيب من الذهب يشد بعضَها إلى بعض،[١١] وقد اتخذ فرشه من الديباج والبسط الطَّبَرية[١٢] عليها أبيات[١٣] في مدح الأمير، وفيه كراسيُّ مرصعة بأصداف اللؤلؤ وعليها جماعة من الأعيان خافتون كأن على رءوسهم الطير[١٤] وفي صدرهم الأمير جالسًا في قبة قد اتُّخِذ لها فرش مبطن بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب والإبرَيْسَم[١٥] وإذا به أسمر طويل القامة معتدل الخلق مليح الشكل جَعْد الشعر، بعينه اليمنى نكتة بياض، وعلى رأسه خَصِيٌّ واقف بالمظلة، وهو من الخدام المقربين إلى السطان وأهل بيته ومَن يستميلهم الناس بالمال الكثير؛ ليذكروهم عنده أو يخاطبوه في حاجتهم.

فلما أقبلت على المجلس غلبني البُهْر من جلالة المهدي؛ فسلمتُ عليه بالإمارة فردَّ عليَّ السلام بخفض الجناح، وأظهر ما حسِب لي عليه من المنة، وقال لي: إنه يأنس بي ويجب أن يصيِّر إليَّ تأديبَ وَلَدَيْه موسى وهارون لما بلغه عني من العقل، فدنوت من كرسيه وقبَّلت الأرض بين يديه وقلت له في موقف الشكر على جزيل ما أولاني من النعمة: إنك قد جعلت لي بهذا شرفًا لم ينله أحد قبلي من العلماء، فقال لي: أحسن الله عنا جزاءك، فما الكثير من فعلنا بك بجزاء لليسير من حقك[١٦] ثم إنه دعا أبان بن صدقة كاتبه فوقف بين يديه[١٧] فقال له: اكتب له بدارنا على دجلة، وأقْطِعْه من ضياعنا الخاصة ما تقيمه غلته على السَّعة، ثم أمر لأبي يوسف بخمسين ألف درهم معجلة[١٨] وكان هذا أول اتصالي بوليِّ العهد أصلحه الله وتولى عني مكافأته بما هو واسع من الجميل.

ولما اتصل هذا الخبر بالخيزُران وقد كانت في دارٍ لها عادت إلى دُور الخلافة في موكب عظيم من الغلمان المزينة والخيل عليها القطوع من الديباج والحلية الثقيلة من الفضة؛ حتى تظهر ما عندها من الأبهة مع تقرير موضعها من السلطان، وأقام الأمير في ذلك اليوم مأدبة صرف في زخرفتها وُسْعَه، وجلس فيها لعطاء قريش[١٩] وسائر الناس حتى امتلأت المدينة بأسباب المسرة والأفراح، ثم جاءني من لدن الأمير مَن ينطلق بي إلى الدار التي وهبها لي على دجلة، فإذا هي مشيدة على أساطين رفيعة وحنايا مقوسة وقباب مخرمة، ولها رَوْشَن[٢٠] بديع الحسن يُشرف على دجلة وما وراءها من الرُّصافة، وفيها من السدول والأستار الحريرية والبسط الديباجية والقماقم النحاسية والآنية المزخرفة والخزائن[٢١] المجزَّعة ما ليس مثله إلا في أمتعة الملوك وجلسائهم مما[٢٢] يتكرمون به عليهم في سبيل الهبات، حتى لقد كانت الأوتاد التي تدق بجانب الباب ليعلق فيها الداخل[٢٣] ما ثقل عليه من ثيابه متخذة من العاج الأصفر وعليها رسوم منزلة بالذهب تمثل ثمارًا تُجتنى بالأبصار لحسنها ولفرط ما أبدع فيها الممثل من الصناعة.

ثم جاءني من لدن الخيزران خادمان للمهدي لم تكن نوبتهما[٢٤] في ذلك اليوم بملازمة بابه، ووضعا بين يديَّ إناءين من الذهب في أحدهما منشور[٢٥] بضيعة في السواد وفي الآخر مِخْنقة في وسطها دُرَّة عن يمينها ويسارها أربع يواقيت وأربع زمردات بينها كثير من شذور الذهب[٢٦] ثم جاءني وصيف آخر للمهدي – أكرمه الله – يحمل إليَّ رقعة بالضيعة التي سبق لي بها العطاء وهي في السواد من جوار الحيرة يقال لها: العُمَرية[٢٧] ثم بعده وصيف لأم المهدي، وهي بنت منصور الحميرية، ومعه إناء من ذهب قد انتثرت عليه اللآلئ[٢٨] ثم وفد للغالية أخته ومعهم جام[٢٩] فيه دنانير وخاتم من العقيق قد رسمت فيه أم القرآن ولكن بأحرف صغيرة لا تبصرها العيون، وذلك أحسبه من محاسن الأشياء التي لا تكون إلا عند الملوك، فهطلت عليَّ النعمة غيثًا من الذهب، وليس ذلك إلا لأني وجدت منصرفًا في القول لحل تلك اليمين.

وأخذت من ذلك اليوم في تأديب الأميرين موسى وهارون بما أَحَبَّ أبوهما وأوصاني به يحيى بن خالد وزيرُنا، ولكن كنت إلى الصغير أَمْيَلَ مني إلى الكبير؛ لما وجدت من انصبابه على المطالعة(٣٠) واعتباره بأقوال الحكماء، ووَدِدْتُ أن يكون هو السابق في الولادة؛ لتكون له حقوق الولاية قبل أخيه؛ لما هو جدير به من تعمير البلاد، وتقويم العباد؛ لأني رأيت الكبيرَ صعبَ المرام شكسَ الأخلاق، وقد عرفتُ ذلك ذات يوم من أمرٍ لم يتدبَّر معناه، فلما استطلعتُه فيه رأيَه حَرِد عليَّ وطار طائره من الغيظ، فحفظت له ذلك وأخذت أشغله من العلم السهل بما لا يحتاج إلى كبير مطالعة ولا إلى تكلف عناية به؛ فسرَّ لذلك وأوسعني عما بَدَرَ منه في وقت الحِدَّة اعتذارًا؛ فعرفت من ذلك أنه صعب المرام(٣١) وأنَّ مَن تَوَقَّاه وعرف أخلاقه دخل في رضاه، ومَن فتح فاه فاتفق له أن يفتحه بغير ما يهواه اطَّرحه وأقصاه(٣٢) وهذا –كما ترى– خُلقٌ غير محمود في أولاد الملوك الذين يتجافون عن الحكماء والوعاظ إلى تقريب مَن يُداهِنهم بالثناء على ما ليس فيهم من الخلال، فإن ذلك دليل واضح على بعد الحزم منهم وضعف البصيرة عندهم.

أما هارونُ – رعاه الله – فإني عرفت فيه من الرقة واللطافة وسجية الحلم ما أعظم في عيني منزلته، ولم أرَ في أولاد الملوك أجمل منه خَلقًا وخُلقًا، وفيه مماثلة للفضل بن يحيى بن خالد في الصورة، وهما في سن واحدة ونشأة واحدة، حتى إنهما تبادلا لبن الرضاعة من ثدي واحد(٣٣) فكانت أم الفضل ترضع هارون، والخيزران ترضع الفضل، وهو أبيض(٣٤) اللون واسع العينين عالي الجبهة منطوٍ على خير وصلاح وسلامة قلب، وإذا تألم من أمر لم يستفزه الغضب ولا يزيد على هاه هاه(٣٥) كلمة غيظٍ واحدة، وأنا أتشرف بتأديبه(٣٦) إلى هذا اليوم وهو سنة ثمان وخمسين بعد المائة، وقد أتى عليه من العمر أربعة عشر عامًا، أصلحه الله ووفقه إلى ما به صلاح الملة والدولة بمنّ الله وكرمه.

ولست أكتم عنك أنه لما صارت إليَّ نعمة بني العباس تحدَّث الناس بها كثيرًا في الحضرة، وأحدثت في النفوس غُصصًا يُثيرها الإشفاق على دولتهم من المهدي أن

يَجْرِي على سُنَّة أبيه في تقديم الأغراب عليهم في المراتب إلى أن تخلو منهم مناصب الدولة، غير أن ما يخافونه من هذا الأمر لا يتعدى إلى غير مصلحتهم الخاصة، فإنما يعظم الإسلام بانضمامنا وجميع المسلمين إليه في غرض واحد حتى تشتد صولته، ويروج فيه سوق الأدب بما يوجده له العجم من فوائد العلم ومحاسن الصناعة، ولو أن الخليفة لم يقدمنا لهذه الغاية لم يكن له مع ما سَبَق من خوفه من الأمويين إلا أن يتجافى عن العرب، ويقصيهم عن المراتب إلى أن ترسخ في قبائلهم دولته من غير حاجة إلى قتل المسلمين بالمسلمين في فتن صعاب لا يرجو بها بلوغ أمنيته، وإنما رزِق من السياسة الحكمة في تقديم الأغراب واستمالتهم إلى غرضه حتى يستظهر بهم على تقويم ملكه بما يظهر من الجبروت الذي لا يلتمس في تمكين مهابته من المخالفين له سواه، كدأبه في الانقطاع عن اللهو(٣٧) وبُعده من البهرجة التي تبعده عن شعائر الملة، وتوجسه من الناس ريبة يتهم فيها كثيرًا من أهل بيته أنفسهم، وتُجافيه عن الجُلَّاس والندماء إلا خلف ستارة يضربها فيما بينه وبينهم على بعد أربعين ذراعًا(٣٨) إلى أمور غيرها تدل على أن مَثَلَه في التيقظ مَثَلُ الذين يستقلون بالملك على غير استرضاء الناس، ثم يمر بهم زمانهم في أشد ما يكون من الخوف والريبة.

بقية من أخبار أبي جعفر

وقد عرفتُ بترددي إلى دور الخلافة كثيرًا من أخبار أبي جعفر وسياسته؛ فوجدته ينظر(٣٩) في أحكام الدولة وأمور العمال دون أن يدع لنفسه فرصة يستريح فيها من عناء الأعمال، فإذا طلع النهار جلس في إيوانه ونظر في حال الأمة وعزل الولاة الذين يريبه منهم مخالفته، ونصب(٤٠) مَن يعرف فيه الأمانة وتظهر منه النجابة والفطانة مكانهم، ولا يزال آخذًا في ذلك بما يروم من إذلال المخالفين له إلى قبيل الظهر، فإذا تناول الغداء عاد إلى النظر في المصالح والاهتمام بأمر الجند، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته وفاوض أعمامه وغيرهم، فإذا صلى العشاء نظر في كتب العمال مما تجمع في النهار وشاور(٤١) مَن يركن إليه من سُمَّاره، تلك عادته من يوم ولي الخلافة.

وإن تذكر – رعاك الله – ما وصفتُه لك من نُحوله في الرسالة السالفة، ثم تُضِف إلى ذلك ما أنا ذاكر لك من سهره على تدبير المملكة؛ تتمثل لك صورته بما هو مطبوع فيها من آثار المجاهدة العظيمة التي أفنى فيها عمره وطال منها عناؤه، فإن أيامه قد انقضت بين مخالفة الأمة له والتياثِ الجند عليه حتى اقتضت الحال أن يوجد الفرقة فيهم بين مضر وربيعة والخراسانية؛[٤٢] ليملك بعضهم بالذي هو واجد على الآخرين، فترى أن ما لقي من تصاريف الزمان هو الذي جعله على سوء ظن بالرعية، فهو لا يركن في أموره إلا إلى وزيرنا خالد – أعزه الله – ولولاه ما استوى له الملك بين تغلُّب الأكراد[٤٣] في فارس وظهور الخوارج فيما إليها من البلدان.

وقد علمتَ مما تقدم إليك من الكلام أن البرامكة يميلون بطبعهم مع أولاد عليٍّ – عليه السلام، فلما بعُد خالد عن الحضرة لحرب الأكراد[٤٤] تمادى أبو جعفر مع وزيره أبي أيوب المورِيانيّ[٤٥] في سياسته مع أهل البيت من القتل والعنف، وجاء بالنفس الزكية وأخيه إبراهيم وقتلهما على حُنْق كثير من أهل بيته عليه، ولا سيما عمه عبد الله الذي غلب بني أمية في الشام، فإنه لما أحس منه الانحراف أسكنه في قصر بُني أساسه على الملح حتى إذا دجا الليل أرسل الماء حوله؛ فذاب الملح وسقط البيت عليه[٤٦] وهذا من الأمور التي يتناقلها الناس عنه بسوء الأحدوثة كما يتناقلون ذكر قتله لأبي مسلم داعية الإمامية في خراسان، وكلاهما من القواد الذين غلبوا الأمويين وأقاموا ملكه في فارس فالعراق فخراسان فما بين المسجد الأقصى إلى البلد الحرام، ولقد فاوضتُ أبا يوسف يومًا في هذا الشأن فحدثني عن جبروت أبي جعفر وأخبرني أن سلامة أمه لما حملتْ به رأت في منامها كأن سبعًا زأر فأقبلتْ عليه السباع من كل ناحية، وكلما انتهى إليه سبع سجد له[٤٧] فصح تعبير منامها بما يُراد من معنى الملك والظفر.

ولقد دخلت على أبي جعفر مرة واحدة بعد رجوعه من الحِيرة وهي المدينة التي يقصدها[٤٨] حين يشتد عليه الحر في الزوراء، إذ ليس في جوارها ما يصلح لسكنى الملوك غيرها[٤٩] فلما أذن للناس بالدخول عليه صحبت لسان الشريعة أبا يوسف

فأصبناه في مجلس الأمراء وفيهم شاعر مقرب إليه يقال له: أبو دلامة، وهو يدنيه ويضحك منه على بيتين من الشعر(٥٠) قالهما في استهجان الزي الذي عمَّ استعماله في لبس الخواص والعوام كما تقدَّم، كأنهم في كتابة الآية بين أكتافهم ينبذون كتاب الله وراء ظهورهم(٥١) فلما أدينا فروض السلام أُمرنا بالجلوس، وقال لي بعد أن قمنا بالواجب من إجلاله: إني رأيتكم – يريد الفرس – أهل وفاء(٥٢) وفطانة؛ فوليتكم المناصب في دولتنا، ولم أرَ بني مروان وقد انتبهوا لذلك ولا تكلفوا العناية في تجميل الدولة بانتفاعهم من آداب العجم، فقد كان عبد الملك جبارًا لا يُبالي بما يصنع، وكان سليمان همُّه بطنُه، ثم أفضى أمرهم إلى أولادهم المترفين فكان همهم الشهواتِ وركوب الملاذِّ من معاصي الله – عز وجل – جهلًا منهم باستدراجه وأمنًا منهم لمكره باطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرياسة.

فلما ذكر ذلك عنهم جعل يضرب الأرض بمِخْصَرة كانت في يده، فوقع على بني أمية ممن حضر المجلس قذف شديد، يرومون به موافقة السلطان، وقالوا: إنهم كانوا يُعاقرون الخمر ويظلمون العباد حقوقَهم ويستحلُّون أخذ أموالهم بغير استحقاق، ويكلفون أهل القرى إذا خرجوا إلى الصيد ما لا طاقة لهم به من الضرب والإهانة، ولا يُقنعهم ذلك حتى يحطِّموا زرعهم في طلب دَرَّاج قيمته نصف درهم، ثم انتقل بعضهم من هذا القذف إلى أن يحث الخليفة على تتبع الهاربين منهم في جميع الوجوه، وسمعت من أنشده هذين البيتين المشهورين اللذين قالهما سُدَيْف لأبي العباس لما تمَّ له الغَلَبُ عليهم:

لا يَغُرَّنْــك مــا تــرى مــن رجــال   إنَّ تحـــتَ الضـــلوع داءً دَوِيًّا

فضــعِ الســيفَ وارفــعِ الســوطَ حــتى   لا تــرى فــوق ظهرهــا أُمَــوِيًّا

فامتلأ وجه الخليفة غضبًا، وقال: لعمري، إن الأمويين أهل مظالم قد غَمَطوا النعمة؛ فهوى نجمهم وثُلَّ عرشهم ولله فيهم(٥٣) نقمة سأتتبعها فيهم حيث لقيت عاتيًا، فعجبتُ من مظاهرته بهذا الكلام وبين يديه كثير من الذين يتقربون إليه

بالتدليس والمِحال، وأنا لا أقول إن الأمويين منزهون عن هذا الطعن ولا عن أشدَّ منه، ولكني أرى أنهم لو لم يكونوا حقيقين بمثله لرماهم كثير من هؤلاء الجلاس بأنكى منه تقربًا من السلطان فيما يحب من القدح في أعدائه، وكان ذلك أول ما لقيت أبا جعفر، ثم لم أرَه بعد ذلك؛ لأنه ركب(٥٤) إلى مواطن الحج المباركة، شرفها الله بكرمه وإحسانه.

في ركوب الخليفة إلى الحج

كان لخروج الخليفة إلى الموسم موكب لم يُرَ أحفلَ منه في مواكب الملوك، فقد أقبل أهل المدينة إلى باب الكوفة(٥٥) حيث اجتمع من النافرين إلى الحج الشريف من العراقيين والخراسانيين والفرس وغيرهم ما لا يُحصي عددَه إلا اللهُ، وكلهم مجهِّز إبله وكسوته وقِرَبه وخُرْثِيَّه وطعامه وهو الأخبصة اليابسة، والأقراص المعجونة باللبن والسكر، والكعك المنضد، والفواكه اليابسة، وغيرها من طعام الحاج(٥٦) ومعهم قطعة من الجند تحوطهم(٥٧) في نزولهم وارتحالهم، وفي طليعتهم هوادج تظللها قباب من الديباج المطرز بالذهب(٥٨) وفيها يقيم الأمير المولَّى على الحُجَّاج وله في إمارته النظر في أمورٍ عشرةٍ وهي أن يجمع الحُجَّاج في مسيرهم ونزولهم حتى لا يتفرقوا فيخاف عليهم التواني، وأن يرتبهم في المسير؛ ليعرف كلٌّ منزله ويألف مكانه إذا أناخوا في بلد، وأن يرفق بهم في المسير حتى لا يعجز عنه ضعيفهم ولا يضل عنه منقطِعهم، وأن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها، ويتجافى أوعرها وأجدبها، وأن يرتاد لهم المياه إذا قلَّتْ، والمراعي إذا انقطعت، وأن يحرسهم إذا نزلوا ويحوطهم إذا رحلوا، وأن يمنع عنهم مَن يصدهم عن المسير بجهاد لا بمال، وأن يُصلِح بين المتشاجرين؛ لأنهم يكونون تحت ولايته كأهل المدينة تحت ولاية رئيسهم، وأن يُؤدِّب خائنهم ويُلزم الناس آدابهم، وأن يُراعِيَ فواتَ الوقت فلا يُخشى عليهم ضيقُه؛ لأنهم إذا لم يصلوا عرفة في يوم عرفة ما بين زوال الشمس إلى طلوع الفجر فقد فاتهم الحج(٥٩)

ولما صارت الشمس على ارتفاع قامة وقد غَصَّت بالناس المواقف وضاقت بهم

الساحات ضُرب البوق إيذانًا بركوب الخليفة، ثم لم يلبث أن أقبل مرتفعًا على فيل أبيض قد استرسلت عليه الفضة(٦٠) في الحلية الثقيلة، وهو جالس في هودج(٦١) منزَّل بالأصداف اللامعة، وعلى القبة أستار من الديباج يتخللها رسوم من الذهب، وفي يده قضيب الخلافة وفي الأخرى الخاتم، وعليه جبة وشْي(٦٢) من فوقها بُردة خضراء للنبي ﷺ وهي غير البردة التي كانت لملوك بني أمية يُلقونها على أكتافهم في جلوسهم وركوبهم؛ لأنها فُقدت بفقدان الخلافة منهم، وكان قد اشتراها معاوية من آل زهير بن أبي سُلْمى بأربعين ألف درهم(٦٣) وإنما هذه البردة هي التي أعطاها النبي ﷺ لأهل الأَبُلَّة لتبقى عندهم بركة، فاشتراها أبو جعفر بثلاثمائة دينار(٦٤) واتخذها في شعار الخلافة موضع البردة التي كانت عند الأمويين، وأما الفِيَلة فإنه لم يَسبِق أحد من ملوك العرب إلى اتخاذها في المواكب، وقد أخبرني نُصَيْر ذلك الخادمُ الذي مضى في هذه الرسالة ذكرهُ أنه إنما اتخذها مركبًا لما كان من تعظيم الملوك السالفة إياها واقتنائهم لها، وإعدادها للحروب والزينة في الأعياد وغيرها، إذ كانت أوطأ مراكب الملوك وأمهدها(٦٥)وكان يصحب أبا جعفر جماعة من الأمراء ورجال بيت الخلافة، وراءهم الإبل التي يظَّعِنُها حريمُه وأهل بيته وفيهم موسى بن المهدي حاجًّا(٦٦) ومعهم حرس خاص بهم يحملون الرايات السود.

فلما وصل موكبهم إلى موقف الحُجاج؛ ارتفعت أصواتهم بالدعاء وعلا ضجيجهم بالتكبير والتهليل، فكان الواقف يستشعر من عزة الإسلام ما لا يخالج النفس أعظمُ منه؛ إذ ليس من فروض العبادة ما تظهر فيه أبهة الدولة غير حج البيت الحرام، فلما وقف الأمراء والعظماء إلى وداع الخليفة أوصاهم بالسهر على الرعية(٦٧) وأن يسألوا الله له النعمة، ويوفقه ويلهمه الرأفة بهم، ثم إنه عزم على ولي العهد أن يصحبه إلى قصر عبدويه على مسيرة يومين(٦٨) من الحضرة؛ لتتم له الخلوة به على انفراد، إذ كان يحسب من هذا الموسم إتيان ما لا مردَّ له، وقد كان يرى في منامه كأن نجومًا تهوي من السماء(٦٩) فيتشاءم من ذلك، فلما نُفخ في البوق إيذانًا بالنفير زحف الحُجاج كالبحر المتلاطم الأُباب، كأن سفنه الرِّكاب، وشُرُعَها الظُّلَل المرفوعة والقِباب، وفي

مقدمتهم هودج الخليفة قد لمع ذهبه كأن الشمس ترسل إلى الناس نورًا من جلال الخلافة.

ولما كان بعد ذلك عاد المهدي إلى الحضرة وشرع في مباشرة الأحكام على الوجه الذي يريده أبوه، حتى صرنا ونحن اليوم في ولايته أشبهَ بنا في ولاية أبيه إلا فيما يصير إلينا من العطاء الذي لم نتعوده من أبي جعفر، وأما ما سوى ذلك من أمور السياسة فلم يكن له إلا أن يقتفي فيها أثره، وقد أوصاه وهو يودِّعه في قصر عبدويه الوصية التي هي من أحسن ما أوصى الملوك به أولادهم في السياسة، بدأ فيها بتحريضه[٧٠] على سكن الزوراء وألا يستبدل بها غيرها، وأن يُظهر كرامة أهل بيته[٧١] ويُحسن إلى مواليه ويستكثر منهم، ولا سيما أهل خراسان؛ إذ كانوا شيعتهم وأنصارهم ومن لا تخرج محبتهم من قلوبهم[٧٢] وألا يستعين بأحد من بني سُلَيْم (خوفًا من ميلهم مع أهل البيت)، وأن يحفظ النبي ﷺ في أمته ويلزم حدود الله والآدميين، ويعف عن البغي الذي لا حاجة به إليه مع ما خلَّفه له من المال، وأن يَشحِن الثغور ويَضبط الأطراف ويُعِدُّ الكُراع والرجال ويُسيء الظن بالعمال، وألا يُدخل النساءَ في أمره[٧٣] ولا ينام إلا وهو مستيقظ، إلى آخر ما أطال به في هذه الوصية التي ذهبت مثلًا بين وصايا الملوك.

في ذكر من لقيته من الشعراء

يحسن بي في ختام هذه الرسالة، أن أذكر لك عن الشعراء الذين زَهَتْ بهم دولة أبي جعفر ما ورد على الخاطر الفاتر، ولكن بإيجاز يدل على موضعهم من الإجادة في مذاهبهم، دون إطناب ينتهي إلى ما لا تسعه الصحف من ذكر أبياتهم ونوادرهم، فأبدأ منهم بذكر بَشَّار بن بُرْد البصري، وهو ضرير قد لقيتُه في مجالس البرامكة[٧٤] لأول قدومي إلى الزوراء، وكان خالد – أعزه الله – قد أحب أن يطلق عليَّ اسم الزائر ويُبطل عني اسم السائل الذي كان ينعت به الغرباء في ذلك الوقت؛[٧٥] لقوله لي: إني والله لا أحب اسم السائل إلا لطُلَّاب الإحسان، وأرفع قَدْر الكريم عن أن

يُسَمّي به أمثال هؤلاء المؤملين؛ لأن فيهم الأحرار والأشراف ومَن لعله خير ممن يقصد وأفضل أدبًا، ولكنا نسميهم الزُّوَّار، فوجد بشار لنفسه نصيبًا من كلام الوزير فأطلق لسانه في الإنشاد بما دلَّ على سرعة خاطره إلى النظم وسرعة تصرفه في فنون الشعر.

وقد رويت لبشار هذا الشاعر نحوًا من مائة قصيدة، ورأيت له في أكثرها ابتداء يرفعه إلى مساماة المقدَّمين من شعراء العرب، فلقد سمعت مَن لا أحصي من الرواة يقولون: أحسن الناس ابتداء في الجاهلية امرؤ القيس حيث يقول: «ألَا عِمْ صباحًا أيها الطللُ البالي» وحيث يقول: «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل»، وفي الإسلام القطامي حيث يقول: «إنا محيوكَ فاسلَمْ أيها الطللُ»، ومن المسلمين بشار حيث يقول:

أَبَى طَلَــــلٌ بالجــــزع أن يتكلمــــا ومــاذا عليــه لــو أجــاب مُتَيَّمــا

وبالجـــزع آثار بَقِـــينَ وباللِّـــوَى ملاعـــب لا يُعـــرفْن إلا توهمـــا

ووجدت له من جمال التشبيه ما يَعجز البُصَراء عن الإتيان بأفضل منه.

وفي قوله:

كــأن مُثــار النَّقْــع فــوق رءوســنا وأســيافَنا ليــلٌ تَهَــاوَى كواكبُــه

سموٌّ لم يعلُ عليه أحد من المتقدمين ولا المتأخرين، وهذا من الغريب الذي لم يُسمع بمثله عن أحد من العميان؛ لأن قولهم منحصر في الزهد والمديح والهجاء وما يتصرفون به من أبوابها، بخلاف هذا الشاعر فإنه يتوسع منها إلى سائر المذاهب من غير أن يقع في الانحطاط الذي لا يُؤمَن على مَن يُدخل نفسَه فيما هو غريب عنه، وكان المتبادر إلى العقل أن يكون بعيدًا عن تصوُّر الحُسن ولكنه أغزل الشعراء(٧٦) حيث يقول:

أنا والله أشـــتهي سِـــحْرَ عينَيْـــ ـــكِ وأخشـــى مصـــارعَ العُشَّـــاقِ

وهذا أحسبه من المواهب الطبيعية والملكات النفسانية؛ ولذلك أقدِّمه على جميع الشعراء من هذا الوجه الذي يُجِلُّه عن التكلُّف ولا أجد فيه من انتقادٍ عِيب[٧٧] به شعرُه إلا استرساله في الهجاء، واختلاقُه بعضًا من الألفاظ التي يحتاج إليها لقيام أبياته على القافية من غير أن ترد في لغات العرب.

ولقيت من الشعراء المقدمين مروان بن أبي حفصة، وهو منقطع في شعره إلى مديح مَعْنِ بن زائدة[٧٨] لأنه كفاه مئونة الاستعطاء من غيره، ولما أتى في بعض مديحه له على ذكر بلائه في حرب الراوندية بقوله:

مـــا زِلْــــتَ يــــوم الهاشميـــة مُعلنًـــا	بالســـــيف دون خليفـــــة الـــــرحمن
فمنعـــــتَ حَوْزتَـــــه وكنـــــتَ وِقـــــاءَه	مِـــن وَقْـــع كـــل مهنـــدٍ وســـنان

أعطاه مائة ألف درهم، وذلك أعظم ما أعطى الملوك من الجوائز، حتى إن أبا جعفر لما علم بذلك أكبره وقال في سبيل التعجب من سماحة معن: «لله دَرُّه من أعرابي! ما أهونَ عليه ما يعِزُّ على الرجال وأهل الحُرَم!»[٧٩]

وقد انتهت بلاغة هذا الشاعر إلى القصيدة اللامية التي يقول فيه مادحًا هذا الأمير:

بنـــو مطـــر يـــوم اللقـــاء كـــأنهم	أســـودٌ لهـــم في غيـــل خفَّـــان أَشـــبُل
هـــمُ يمنعـــون الجـــارَ حـــتى كأنمـــا	لجـــارِهمُ بـــين السِّـــمَاكَيْن منـــزِلُ

إلى أن يقول:

تجنَّـــبَ «لا» في القـــول حـــتى كأنـــه	حـــرامٌ عليـــه قـــولُ «لا» حـــين يُســـأل
تشـــابَهَ يومـــاه علينـــا فأشـــكلا	فمـــا نحـــن نـــدري أيُّ يوميـــه أفضـــل؟
أيـــومُ نَـــدَاه الغَمْـــرُ أمْ يـــومُ بأسِـــه	ومـــا منهمـــا إلا أغـــرُّ محجَّـــلُ

ولكني سمعتُ مَن يقول: إنه رفعها بعد حول كامل[٨٠]فقالها في أربعة أشهر،

وانتخلها في أربعة، وعرضها في أربعة، فجاءت كأنها السحر الحلال[٨١] يعجِز عن مثلها الشعراء، ولكن هذا يدل على أن علمه أكثر من عقله وأن الشعر عنده صناعة ينال نفسَه منها عناءٌ شديد، وإنما يحب من الشعراء سرعة الخاطر إلى النظم كمثل ما نعلم عن العرب من قولهم الشعر ارتجالًا في المجالس والأسواق، ومن كلام مروان:

طرقتْــك زائـــرة فحـــيِّ خيالهـــا ... بيضـــاءُ تخلـــط بالجمـــال دلالهـــا (٨٢)

قـــادتْ فـــؤادَك فاســـتقاد ومثلُهـــا ... قـــاد القلـــوبَ إلى الصِّـــبا فأمالهـــا

وممن لقيته من شعراء هذه الدولة أبو إسحاق إسماعيل «من قبيلة عنزة»[٨٣] ويعرف بأبي العتاهية وهو من المطبوعين المجيدين يقول المائة والمائة والخمسين بيتًا في اليوم الواحد، حتى ليس إلى الإحاطة بجميع شعره من سبيل، وله كلام لم يَسبِق إليه أحدٌ[٨٤] كقوله:

النـــــــــاس في غَفَلاتهـــــــــم ... ورحـــــــى المنيـــــــة تَطْحَـــــــنُ

وله من بعض الكلام:[٨٥]

لا تأمـــن الـــدنيا علـــى غـــدرها ... كـــم غـــدرت قبـــلُ بأمثالكـــا

أجمعـــتِ النـــاس علـــى ذمهـــا ... ومـــا أرى مـــنهم لهـــا تاركـــا

وهو يأخذ في ذلك على أسلوب سهل يروم أن تفهمه العامة، وترضى به الخاصة، وإن كان منحطًّا عن لغة الأولين في فصاحة الألفاظ، وتصرفُه في الشعر مقصور على وصف الآخرة[٨٦] ولم أحفظ له من المديح غير بيتين قالهما في عمرو بن العلاء:

إن المطـــايا تشـــتكيك لأنهـــا ... قطعـــتْ إليـــك بسابسًـــا ورمـــالا

فـــإذا وَرَدْنَ بنـــا وَرَدْنَ خفائفًـــا ... وإذا صـــدرن بنـــا صـــدرن ثقـــالا

وهذا أحسن ما يقال في امتداح الكريم؛ إذ لا يخفى أن وراءه من المديح ما يترك البلاد والعباد والحيوانات العجم ناطقة بما له من الجميل.

ولقيت منهم أبا دُلامة زَنْدَ بن الجَوْن وهو من الشعراء المجيدين، لكنه قد أضاع شعره في استعطاء أبي جعفر وهو بمكانه من الإمساك كما علمت، وقد قال في الثناء عليه:

لو كان يقعد فوق الشمس من كَرَمٍ ... قومٌ لَقِيل اقعدوا يا آلَ عبَّاس

ثم ارتقُوا في شعاع الشمس كلُّكم ... إلى السماء فأنتم أكرمُ الناس

وهذا كلام يسمو به إلى جمال الشعر ويملك النفس بما أودعه من وصف السعادة التي صورها محفوفة بالنور، ولكن قد ضاع تأثيره في النفوس ببعد الممدوح عن محاسن الكرم، وقد وجدتُ أبيات هذا الشاعر محلاة بالخلاعة كما أني وجدته يتوسع فيها إلى المجون(٨٧) وكثيرًا ما كنت ألقاه في مجالس المَهَالِبة يلتمس نصيبه من عطائهم بما يتصرف به من الهزل والمزاح.

ومن الشعراء المجيدين مُحَمَّد بن المولى الأعرابي، لقيته في مجالس المَهَالِبة مرة واحدة وقد قصدهم من البادية، وقال فيهم المدائح الرنانة؛ فأجزلوا عطيته من المال، وقد حفظت له من جملة أبيات يقولها في مديح رَوْح بن حاتم من أمرائهم: (٨٨)

إني لأرجو إن لقيتُك سالما ... ألَّا أُعالِج بعدَك الأسفارَا

وكان روح عندما أنشده إياه قد غلبته الأريحية؛ فأمر بإفراغ المال عليه حتى تثقل به، فقلت للأمير: ما أنت إلا مَن يقول فيه زهير:

تراه إذا ما جئتَه مُتهلّلا ... كأنك تعطيه الذي أنتَ سائلُه

فقال: والله، لَأَنْ أُعطِي أحبُّ إليَّ من أن أُمدح، ولابن المولى كلام يقرب أن يكون مثل أقوال الجاهليين، لمقامه في مواضعهم من البادية بعيدًا عن حضارة الأمصار، ومن شعره في النسيب:

أحِنُّ إلى ليلى وقد شطَّتِ النَّوَى ... بليلى كما حنَّ اليَرَاعُ المُثَقَّبُ

تقرَّبْتُ ليلى كي تُثِيب فزادني بِعادا على بُعدٍ إليها التقرُّبُ

وقوله:

وأبكي فلا ليلى بكتْ من صبابة إليَّ ولا ليلى لذي الوُدِّ تبذُل

وكان الحسن بن زيد – ﷺ – وهو عامل على المدينة[٨٩] قد دعاه وأغلظ له، وقال: أتُشَبِّب في حُرَم المسلمين وتُنشِد ذلك في المحافل والمساجد ظاهرًا؟ فقال: امرأتي طالق ثلاثًا إن كانت ليلى إلا قوسي هذه ذكرتها على سبيل التشبيب؛ لأن القريض لا يحسن إلا بالنسيب، على أني وجدتُ شعره إلى فصاحة البداوة أقرب منه إلى حلاوة الحضارة، وفي قوله:

سلا دار ليلى هل تُبِين فتنطقُ وأنى تردُّ القولَ بيداءُ سَمْلقُ؟

عفَتْها الرياحُ الدامسات مع البِلَى بأذيالها والرائحُ المتعبِّقُ

بكل شآبيبٍ من الماء خلفها شآبيبُ ماء مُزْنُها متألقُ

ما يبعد تناوله على سكان الأمصار الذين ينقطع عهدهم بمحاضرة أهل البادية، وإنما يُدخلون في لسانهم كلام السوقة[٩٠] وألفاظ الأعاجم الذين يخالطونهم في أسفارهم وتجاراتهم، حتى تصبح لغتهم في أشد المباينة للسان العرب.

وممن لقيته من الشعراء المجيدين السيد الحِميري، وهو من الواقفية القائلين بالإمام المنتظر[٩١] يأتي في شعره على غرضه في السياسة، ويُفرِط في سَبِّ أصحاب النبي[٩٢] ﷺ ممن كان يرغب عن آل البيت، وربما وقع عليه من الناس تجافٍ عن شعره من هذا الجنس، إلا أنه ليس لأحد من الشعراء ما له من عذوبة الألفاظ، وجودة السبك، ورونِق الشعر وطلاوته، وقد جمعني وإياه إلى هذا اليوم أكثر من مجلس، ووجدته حسن الكلام جميل الخطاب، إذا تحدث بين القوم أعطى كل رجل في مجلسه نصيبه من حديثه[٩٣] وله في النسيب كلام رقيق، فمن ذلك قوله:

ولمـــا رأتْـــني خشـــيةَ البَـــيْن موجَعـــا أكفكـــف مـــني أدمعًـــا بِيضـــها درر

أشـــــارتْ بأطـــــراف إليَّ ودمعُهـــــا كـــنظم جُمـــان خانَـــه السِّـــلْك فـــانتثر

ومن الشعراء المُقَدَّمين أشجع بن عمرو السُّلَمي[٩٤] وقد نزل الشعر في صدره موهبة من الله، فانتهضت به قيسٌ لذلك؛ إذ لم يكن بها في الإسلام شاعر قبله، وإنما كان الشعر في ربيعة واليمن، فلما نجم أشجع وقال الشعر افتخرت به قيس على العرب[٩٥] ومما أستحسنه من نظمه سهولة القول التي لا يعاني إلى البراعة فيها تكلفًا، وقد حفظت له في مديح ولي العهد بيتين من جيد الشعر وهما قوله:[٩٦]

وعلـــى عـــدوِّك يا ابـــنَ عـــمِّ محمـــدٍ رَصَـــدَانِ ضـــوءُ الصـــبحِ والإظـــلامُ

فـــإذا تنبَّـــه رُعْتَـــه وإذا غَفَـــا ســـلَّتْ عليـــه ســـيوفَك الأحـــلامُ

هذا ما أذكره عن شعراء هذه الدولة بوجه الاختصار، وقد رأيتُهم يتسابقون إلى ابتكار المعاني الحِسان من غير أن ينتحلوا مذاهب مَن تقدمَهم في عصور الجاهلية، إلا فيما كان أقلَّ من النادر[٩٧] ولو رأينا لهم ما سُبِقوا إليه ما صحَّ أن نتهمهم بالانتحال؛ لأن العقول قد تتوافق وتتوارد، وإن كان المتقدمون من الجاهلية أشرف منهم لفظًا؛ فإنهم لَألْطَف منهم صنعًا وأكثر من المعاني حظًّا.

وهؤلاء هم أشعر العرب قد اجتمعوا في الزوراء إلا ابن هَرْمة وسَلْمًا الخاسر، وكلاهما شاعر مجيد أيضًا، إلا أن أبياتهما لم تصل إليَّ، فلم أعلِّق أخبارهما في هذا الكتاب.

وقد كتبت هذه الرسالة في منتصف ذي الحجة من السنة الثانية والخمسين بعد المائة من هجرة نبينا المكرم، والله المسئول في توفيقنا إلى السداد، وهدايتنا إلى الرشاد بمنه – تعالى – وكرمه.

الهوامش

(١) هو أمر معروف في الحكايات وكتب التاريخ.

(٢) الشريشي ٢ : ٣٦٧.

(٣) ذكره الأغاني ٣ : ٥٧، والعقد الفريد ٢ : ٩٩.

(٤) ابن خلكان ١ : ٣١.

(٥) الأغاني، وابن الأثير ٦ : ٥.

(٦) القزويني ٢١٠.

(٧) الأغاني ٩ : ٤٥ والسيوطي.

(٨) الأغاني ٥ : ١٧٣، والأتليدي ٢٢٦.

(٩) الأتليدي ١٤٦.

(١٠) في الأغاني (٦ : ٧٨) ما يشير إلى أن قصور الخلافة طبقة فوق طبقة.

(١١) الأغاني ٥ : ١٦٦.

(١٢) المسعودي ٢ : ٨٢، والأغاني ٥ : ٥٩ و١٢٨.

(١٣) الكتابة على البسط مذكورة في الأغاني ٥ : ٨٦.

(١٤) الفخري ٥.

(١٥) المسعودي ١ : ٢٣٤.

(١٦) الأغاني ٩ : ٣٠.

(١٧) المسعودي ٢ : ١٨٢.

(١٨) الأغاني ٣ : ٩٥.

(١٩) الأغاني ٧ : ٩.

(٢٠) الأغاني ٥ : ١٠.

(٢١) الأغاني ٥ : ١٠٩.

(٢٢) الأغاني ٥ : ٤٠.

(٢٣) الأغاني ٤ : ٥٢.

(٢٤) الأغاني ٣ : ١٨٤.

(٢٥) المستطرف ١ : ٢٤٣.

(٢٦) الأغاني ٧ : ٣٦.

(٢٧) ذكرها في الأغاني ٢ : ١٠٣.

(٢٨) الأغاني ٦ : ١٣٣.

(٢٩) ابن خلكان ٢ : ٤٥٥.

(٣٠) الفخري ٢٣٠.

(٣١) المسعودي ٢ : ٢٠٢.

(٣٢) الأغاني ٥ : ١٦.

(٣٣) ابن الأثير ٦ : ٣٩، وأبو الفدا ٢ : ٥ وفي الفخري أن من بعض ما قيل في مديح الفضل بن يحيى قولهم:

كفـــى لــــك فخــــرًا أنَّ أكــــرمَ حُـــرَّة   غَـــــذَتْك بشــــدي والخليفـــــةَ واحــــدِ

(٣٤) العقد الفريد ٣ : ٥٤، والخميس ٢–٣٣١.

(٣٥) الأغاني ٥ : ٦٦.

(٣٦) قال في مروج الذهب: إنه لما أسلم المهدي ولديه الهادي والرشيد إلى المؤدب؛ أوعز إليه أن يصير يده عليهما مبسوطة وطاعته منهما واجبة، وأن يقرئهما القرآن، ويعرفهما الآثار، ويُرَوِّيهما الأشعار، ويعلمهما السُّنَن، ويبين لهما فضل الحكماء في مواعظهم، ويبصرهما بمواقع الكلام، ويمنعهما الضحك إلا في أوقاته، ويأخذهما بتعظيم الأمراء من بني هاشم ورفع مجالس القواد، وألا تمر به ساعة إلا وهو يغتنم فيها فائدة يفيدهما إياها من غير أن يقسو عليهما فيُميت ذهنهما، ولا يتوسع في مسامحتهما فيستحليا الفراغ ويألفاه، وأن يُقوِّمهما ما استطاع بالقرب والملاينة، فإن أبياها فعليه بالشدة والغلظة.

(٣٧) الخميس، والعقد الفريد، وابن الأثير ٦ : ٨، والفخري ١٨٧.

(٣٨) السيوطي.

(٣٩) ابن الأثير ٦ : ١٠.

(٤٠) الماوردي ١٣٧.

(٤١) المسعودي ٢ : ١٨٤.

(٤٢) ابن الأثير ٥ : ٢٣٩.

(٤٣) ابن خلكان ١ : ١٤٩.

(٤٤) ابن الأثير ٥ : ٢٣٦ و٦ : ٦.

(٤٥) المسعودي ٢ : ١٨٢.

(٤٦) الفخري ١٩٨، وابن الأثير ٥ : ٢٣٥، والمستطرف ١ : ٩٦.

(٤٧) المسعودي.

(٤٨) وفي ابن الأثير (٦ : ٥٥) أن الرشيد سكنها أيضًا برهة من الزمان.

(٤٩) الأغاني ٢ : ١٢٥.

(٥٠) البيتان هما قوله:

وكنـــا نُرجِّـــي مـــن إمـــامٍ زيادة   فجـــاد بطـــولٍ زادَه في القلانـــس

تراهـــا علـــى هـــام الرجـــال كأنهـــا   دِنَان يهـــود جُلِّلـــتْ بالـــبرانس

(٥١) العقد الفريد ١ : ٩٨.

(٥٢) ابن الأثير ٦ : ١٢.

(٥٣) ابن الأثير ٥ : ١٦٧، والقزويني ١٦.

(٥٤) ابن الأثير ٦ : ١٦.

(٥٥) هو من أبواب بغداد.

(٥٦) المسعودي ٢ : ٥٦.

(٥٧) الأغاني ٩ : ٦٤.

(٥٨) أبو الفداء ١ : ١٥٧.

(٥٩) الماوردي ١٨٧.

(٦٠) المقدمة ١٤.

(٦١) الكشكول.

(٦٢) كذا في العقد الفريد ٣ : ١٥٦.

(٦٣) أبو الفداء ١ : ١٥٦.

(٦٤) السيوطي.

(٦٥) المسعودي ١ : ١٨٥.

(٦٦) ابن الأثير ٦ : ١٣.

(٦٧) السيوطي.

(٦٨) أبو الفرج ٢٢٠.

(٦٩) ابن الأثير ٦ : ٦.

(٧٠) ابن الأثير ٦ : ٧، وأبو الفداء ٢ : ٧.

(٧١) أبو الفرج ٢٢٠.

(٧٢) العقد الفريد.

(٧٣) الفخري ٤٨.

(٧٤) الأغاني ٣ : ٣٦.

(٧٥) الأغاني ٣ : ٣٦، الوطواط ٢٤٩، والفخري ١٨٥.

(٧٦) الأغاني ٦ : ٤٩، وابن خلكان ١ : ١٢٥.

(٧٧) الأغاني ٣ : ٤١ و٥٣ و٧٣، وابن خلكان، ٢ : ٢٥٢، وابن الأثير ٦ : ٣٧.

(٧٨) الأغاني ٩ : ٤٤.

(٧٩) المسعودي ٢ : ١٨٣، والأغاني ٩ : ٤٤، وابن خلكان ٢ : ١٦٠، والمستطرف ١ : ٧٣.

(٨٠) الأغاني ٩ : ٤.

(٨١) ابن خلكان ٢ : ١٣١.

(٨٢) في العقد الفريد: «بيضاء تنشر بالحياء دلالها.»

(٨٣) الأغاني ٣ : ١٢٧.

(٨٤) الأغاني، والعقد الفريد ١ : ٣٧٤.

(٨٥) المسعودي ٢ : ٢١٨.

(٨٦) الأغاني ٣ : ١٢٦.

(٨٧) ابن خلكان ١ : ٢٧١، والأغاني ٩ : ١٣٢، والمستطرف ٢ : ٤، والشريشي ٢ : ٢٦.

(٨٨) الأغاني ٣ : ٩٠.

(٨٩) ابن الأثير ٥ : ٢٤٣.

(٩٠) يقول في الأغاني (٣ : ١٧٣): إن الألفاظ السوقية لا تمنع أن تكون القصيدة جيدة.

(٩١) العقد الفريد ١ : ٢٦٦، والمقدمة ١٧٣، وذكره المسعودي ٢ : ٨٠، وسمَّى شيعته بالكيسانية.

(٩٢) أبو الفداء ٢ : ١٥.

(٩٣) الأغاني ٧ : ٣.

(٩٤) الأغاني ١٥ : ١٠٨.

(٩٥) الأغاني ١٧ : ٣٠.

(٩٦) البيتان قيلا في هارون الرشيد.

(٩٧) انظر ابن خلكان ١ : ١٠٢، والأغاني ٣ : ٤٩ و١٤٨ و٥ : ١٧٨، والحصري ٢ : ١٦٧.

الرسالة الرابعة

جلوس المهدي على دَسْت الخلافة

أفتتح هذه الرسالة إليك بذكر جلوس المهدي على دست الخلافة عند وصول الخبر بوفاة أبي جعفر، وقد كان لذلك يوم عظيم في الحضرة والإسلام كله؛ لأن العقلاء من أهل السياسة كانوا يرون زوال الخلافة عن ولد العباس إلى الأئمة من أهل البيت وتعذر مصيرها إلى المهدي، والمشايخ من أهل هاشم حاضرون، فجرى الأمر على خلاف المظنون بحيلة علمتُها من البرامكة سرًّا لم تنكشف للناس إلى هذا اليوم.

وذلك أنه لما أوْدَى أبو جعفر – غفر الله له – كَتَم الربيعُ موتَه إلى الصباح عمن كان معه في الحج، واستدعى عيسى بن عليٍّ عمَّه وعيسى بن موسى ولي العهد بعد المهدي وجماعة من القُوَّاد والأمراء، وتقدم إليهم بأمره – فيما كان يزعم – أن يُجدِّدوا البيعة لابنه من غير أن يُعلمهم بوفاته، فلم يتجرَّأ أحد على مخالفة الأمر؛ ظنًّا منهم أنه صادر من السلطان، ولو أنهم علموا بوفاته ما تسارعوا إلى تجديد بيعتهم لابنه، فلما بلغ مراده ولم يبقَ له غرض من كتمان موته دخل عليه كَمَن لا يعلم أمرًا مما نزل به، ثم خرج إليهم مشقوق الجيب باكيًا ينعَى وفاته، فلم يكن فيهم إلا مَن أُخذت عليه البيعة، وركب رجال المهدي إلى مكة، وبايعوا أهل الحل والعقد من أهلها[١] فصارت الخلافة إلى المهدي بهذه الحيلة التي تُعاب على الربيع من وجه الظلم، وإن كان فيها حقن لدماء المسلمين.

وكانت وفاة أبي جعفر في بئر ميمون مع السَّحَر، لستٍّ خلون من ذي الحجة، وهو مُحرِم بظاهر مكة؛[٢] ولذلك دُفن مكشوف الرأس دون أحد غيره من الخلفاء؛ لأن النبي ﷺ منع المُحرِم من لُبس القُمُص والعمائم والبرانس[٣] وغير ذلك من أنواع المخيط، وحفر له أهله مائة حفرةٍ بين الحَجُون وبئر ميمون؛[٤] لِيُعَمُّوا على الناس، ثم

دفنوه في غيرها، ووجَّه الربيع منارةَ[٥] الخادمَ إلى الحضرة بالبيعة، وأمره بالسرعة خوفًا من أمر يحدث في الإسلام، فجاءها في أحد عشر يومًا[٦] من مكة.

وقد كنت في مجلس هارون الرشيد حين سمعت الجلبة في مقاصير الحرم، فاستعلمت الخبر، فنبئت أن أبا جعفر قد مات، فأسرعت إلى منازل البرامكة؛ لأشهد مجلسهم في ذلك الوقت، فأخبرني نافذٌ أحد الحجاب أن المهديَّ قد دعاهم إليه، فنزلت إلى السوق فلقيت أستاذي أبا يوسف، فأبنت له ما أنا تائق إليه من حضور البيعة، فأشار إليَّ بالبقاء معه إلى قبيل الظهر، وهو الوقت الذي يجتمع فيه أهل الحل والعقد لمبايعة المهدي.

فلما سرنا إلى دور الخلافة، رأينا الساحات غاصة بجماهير الناس، فولجنا باب السور بين ازدحام تضيق منه الأنفاس، حتى انتهينا إلى باب القبة الخضراء، فجاوزنا الحجاب إلى المجلس الذي تقام فيه البيعة، فإذا به قد جمع الأمراء من بني العباس وجِلَّة القُوَّاد والأعيان وأهل البيوتات مثل البرامكة – أعزهم الله – وآل المهلب وآل طاهر وآل قحطبة وآل نُوبَخْت وغيرهم، وكان المهدي مستويًا على عرشٍ مكلَّلٍ باللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر، وعلى رأسه قبة تتدلى منها أستار من الديباج،[٧] وعلى يمينه ويساره غلامان قد التحفا بالذهب، ووقفا بمظلتين من الريش الأسود مرفوعتين على رمحين مكسورين بعروق من الذهب، قد نُزِّل فيها الياقوت والزبرجد والفيروز، ودونهما بنو هاشم على وسائد قد ثنيت لهم،[٨] ولباسهم خَزٌّ أسود، وكذلك كان لباس المهدي، وكانت عليه الطرحة، وعلى كتفه بردة النبي ﷺ التي استصحبها أبو جعفر إلى الحج، وفي يده القضيب وفي الأخرى خاتم الخلافة.

وكان على يمين العرش منبر مزخرف بأنواع الزينة والجواهر والديباج، قد وقف به كاتب المهدي في خلافة أبيه[٩] أبو عبد الله معاوية بن عبد الله الأشعري، وهو الكاتب المشهور بالبلاغة، قد اتخذه وزيرًا[١٠] له في سياسة الملك، وكان سلامان الأبرش حاجبه واقفًا على بعض مِرْقاة[١١]هذا المنبر بالبيعة التي جاء بها منارة من

مكة، وتحت يد الخليفة أمير من البرامكة[١٢] قد أخذ في يده البيعة على أمراء الحضرة الذين لم يَرَوْا إلا متابعة الناس، بعد أن بايعتْ مكة والمدينة وبايع القُوَّاد والوزراء وأكابر المسلمين.

وكانت عادة الناس في مثل هذا الموقف أن يبدءوا الخليفة بتعزيته في أبيه، ثم يُهنِّئوه بجلوسه على تخت الخلافة، فلما أخذوا في تعزية المهدي؛ خلعوا قلانسهم ونبذوها وراء ظهورهم؛ لأن الخلفاء لا يُعزَّون بالعمائم[١٣] ثم وقف وزيره أبو عبد الله يُبايعه عن المسلمين، ولفظ البيعة قوله: [١٤] «إنا نبايع سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة على جميع الأنام أبا عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله المنصور، على كتاب الله وسنة نبيه واجتهاد أمير المؤمنين، وأن لا خليفة سواه.» ثم بايعه كل مَن حضر المجلس حتى لم يكن يُسمع إلا دعاءٌ له وتنويهٌ باسم بني العباس.

ثم تناول الوزير منشورًا كتبه الربيع على لسان أبي جعفر استنهاضًا للناس إلى مبايعة المهدي،[١٥] فتلاه على مسمع من الأمراء وفيه يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى مَن خلف من بني هاشم وشيعتِه في خراسان وعامة المسلمين، أما بعدُ؛ فإني كتبتُ هذا وأنا حي في آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة. أقرأ عليكم السلام، وأسأل الله ألَّا يفتنكم بعدي، ولا يَلبِسكم شيعًا، ولا يُذيق بعضكم بأس بعض، وأوصيكم بمحمدٍ ولي عهدكم وأُذكِّركم البيعة له، وأستنهضكم للوفاء بعهده واجتماع كلمتكم عليه، فإنما قُوَّتكم تكون بالاجتماع إلى رأيه، وقد أوصيتُه بكم وبالرأفة عليكم، والإحسان إلى المسلمين والسلام.

فترقرق الدمع في عينَي المهدي،[١٦] ولم يتمكن من إطالة الخطبة التي يقولها الخلفاء؛ لما غلب عليه من تأثير النفس، فصرف الأمراء وهم يدعون له بالسلامة.

سياسة المهديِّ وخلعه عيسى ابنَ عمه عن الولاية

ولما كان المساء أقيمت في المدينة زينة حافلة فصرفتُ العناية إلى تزيين مَشْرع

الزوايا[١٧] بالأنوار؛ لقربه من موضعي؛ ليكون في ذلك قضاء الواجب من شكر الخليفة على ما أولاني من الجميل، ودفعٌ لألسنة الوشاة عن السعاية بي إليه فيما استقر بنفوسنا من الميل مع أهل البيت، وامتلأتِ الزوراء في تلك الأيام بأرباب الملاهي، وبما يعرضون من صور الطين التي يصنعونها لِلَعِب الصبيان في المواسم والأعياد[١٨]ولا أطيل لك الكلام على عادات العامة وسذاجتهم؛ لأنها في جميع الأمم عامة ومتماثلة، وإنما أخبرك بما عرفته للمهدي – أصلحه الله – من حسن السيرة التي يروم بها أن يستبدل برُغْب الناس من أبيه ورغبتهم عنه محبتَهم له وميلَهم إليه فأقول: إنه بعد أن أظهر من الأبهة بافتتاح خلافته ما يُعظِّم موضعَه من السلطان، صنع لبني هاشم وسائر قريش طعامًا جاوز فيه الحدَّ بسَعَة النفقة[١٩] حتى إنه أطعم الناسَ الطيرَ وخبزَ السَّميذ، وكان يحمل معه بِدَرَ الدراهم والدنانير في ركوبه، فلا يتعرض له أحد إلا أعطاه[٢٠]فكان أرباب الدولة يخافون نفاد ما في بيت المال[٢١] إذا استمر هذا العطاء،[٢٢] ولا سيما بعد أن نقص دخل الدولة برفعه المُؤَن والكسور وهو الأمر الذي كان يفاوضني فيه أيام خلافة أبيه، فإن الناس في صدر الإسلام كانوا يؤدون ما في أيديهم للخراج من دراهم ودنانير مضروبةٍ على وزن كسرى وقيصر، لا يُفرِّقون في الأوزان، فلما ساد فيهم العمران وأفسدها التجار والصيارفة صاروا يؤدُّون الدينار الطَّبري، الذي هو أربعة دوانق، ويُمسكون الوافي، الذي هو مثقال، فلما أُمِّر زيادٌ صار يطلب الوافي، ثم أُمِّر الحجاج فطلبه كذلك، فلما صار الأمر إلى أبي جعفر أزال الخراج عن الحنطة والحبوب، وصيَّره على الناس مقاسمة، ولكن مِن غير أن يُسقِط الكسور، فلما ولي المهدي قال: معاذ الله أن أُلزم الناس ظلمًا في ذلك، فقيل له: إن أسقط أمير المؤمنين هذا؛ ذهب من أمواله في السنة اثنا عشر ألف ألف درهم،[٢٣] فقال: عليَّ أن أُقرر حقًّا وأزيل ظلمًا؛ لأن العدل موفر للجباية، كفيل بعمران الأمصار.

ولقد أعظمتُ للمهدي هذه المأثُرة التي أحسبها له من أجمل آثار العدل وأحسن سياسة الرفق؛ فإن لنا في سقوط الدولة التي قامت في هذا المكان نفسه من النَّبَط

والكلدان وغيرهم ما يدلنا على أن الظلم يقتل العباد والبلاد جميعا، فإنما كان غرض الناس من الاجتماع تحت لوائهم القيامَ بأعمال الزراعة والمُقام في بلدان الخِصب، لما يتسع بين أيديهم من أسباب الكسب والارتزاق، وقد تناسلوا في ظلال العدل، وبلغوا من الكثرة فيما مضى من الزمن الغابر بحيث كانوا إذا اجتمعوا لحرب أو لغزوة بلغوا ألوف الألوف من الخلائق، ثم لما غفلت الدولة عن مصلحتهم، وأوقعتْ عليهم المكوس الفادحة؛ لسد ما دعتها إليه مطالب الترف لم يبقَ في نفوسهم شيء من حب البلاد، وهم لا يبتغون منها إلا تحصيل القوت الذي يأتيهم على إجهاد النفس؛ فضعفت فيهم أسباب الهمة، ولم يكن للدولة طاقة على مردِّ العدو بهم، وقد ماتت نفوسهم من الظلم؛ فخلت البلاد منهم، والله يرث الأرض ومَن عليها.

وكان وفود البلدان يردون على المهدي من الأقاليم الإسلامية الأقرب فالأقرب لتهنئته بالخلافة، فاجتمع ببابه كثير من أشراف العرب وملوك الأقاليم، وكانوا يتبركون به ويتوسمون فيه الخير؛ لأنهم رأوا منه عدولًا عن سيرة أبيه، وإنما كان محسنًا إليهم[٢٤]محبًّا لهم وساعيًا فيما تصلح به أمورهم، فاتخذ لهم من هذا الوجه مجلسًا لردِّ المظالم[٢٥]ولم يكن قبله في الدولة العباسية مَن ينظر في تعدي الولاة على الرعية وجورهم فيما يجبونه من الأموال[٢٦]ولقد وجدت له في استمالة الناس إليه غايتين تصبو إليهما نفسه، ولا يهدأ له بال إلا بقضائهما على ما يروم، وهما إذلال العلويين إلى أن يكون بمأمن مِن تغلُّبهم عليه، ثم جعلُ الخلافة من بعده في ولده ممنوعة على غيرهم من بني العباس، فأمَّا أمر العلويين فما كان يشتد عليه وقعُه بعد أن رماهم أبو جعفر بالخسائر التي يحتاجون معها إلى زمن يَلُمون به شعثهم، ويجمعون إليهم أطرافهم، فكأنما هو يقارعهم بسيف أبيه إلى هذا اليوم.

وأما خلع عيسى ابن عمه عن ولاية العهد فإنه كان يُتعِب منه البال، وقد دخل عليه يحيى بن خالد – أعزه الله – فأصابه في قلق شديد، يقعد مرة ويضطجع أخرى. قال لي يحيى: فعلمت من ذلك أنه يريد أمرًا عظيمًا، فقال: اجلس قريبًا مني؛ لأني أريدك للمشورة[٢٧] إن النبي ﷺ مات في غير وصية، وترك الأمر شورى بين

المسلمين، فما لبثوا أن أجمعوا على أبي بكر، ولكن بعد فتنة كادت تقع بين المهاجرين والأنصار، لقولهم منا أمير ومنكم أمير، ثم مات أبو بكر وقد صير الأمر إلى عمر بمحضر من الصحابة، فلم ينازعه فيه أحد، ثم عهدها عمر إلى ستة النفر الذين مات النبي ﷺ وهو عنهم راضٍ، فأجمع رأي الأمة على عليٍّ وعثمان، وكان عبد الرحمن بن عوف أحد الستة المنوَّه عنهم يميل مع عثمان، وفي وصية عمر إلى المسلمين أن يتبعوا رأيه، فبايَعوا مَن أراده، فاستقر عثمان في خلافته إلى أن ثارت عليه الفتنة لإقصائه ولد أبي بكر وإقباله على أقاربه من الأمويين بالصلات الطائلة، وعهدُ المسلمين قريب بضبط[٢٨] أبي بكر وعمر؛ فقتلوه، وكانت تلك أول فتنة في الإسلام[٢٩] ثم أجمع العرب على علي – عليه السلام – وكان الفرس يميلون معه، فاستوثق له الأمر في العراق واليمن والحجاز ومصر وفارس وخُراسان، إلا الشام لاستواء معاوية فيها، فلما قتله الخوارج لم يرَ الحسنُ ابنه مقاومة الأمويين بالقتال ضنًّا ببذل الدماء فنزل له عن الأمر، وصارت الخلافة إلى غير أهلها بما قد بلغك من الفتن فأخاف اليوم إن صارت إلى ابن عمي أن تذهب من بيتي بلا رجوع، ثم يكون من الفتن ما لا يؤمن غائلته على المسلمين، فأشر عليَّ يا أبا الفضل في هذا الأمر، الذي لا يتعاظمه أمر؛ فإنك – بحمد الله – مبارك الرأي لطيف النظر.

فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين، إني أرى الزَّلة في هذا الأمر لا تُستَدرَك، والخطأ فيه غير مأمون، فإن تكتب بالولاية لأولادك بعد ابن عمك كان ذلك أوكدَ في البيعة، فقال المهدي: كنت أفعل هذا لولا أني أخاف من عيسى نَكْث العهود، ولكني أرى أن أخلعه عن الولاية وآخذ البيعة لموسى على المسلمين، فقال له يحيى: على أمير المؤمنين أن يُعلِم شيعته ومَسانَّ أهله بذلك، ولم يتعمَّق في هذا البحث إلى أبعد مما أشار به؛ لأن موقفه بين العلوية والعباسية من أشد ما يكون من الصعوبة، وأنه وإن كان يأخذ في تعظيم العباسيين لرسوخ دولتهم في المشرق، له في حبه للعلويين ما يرى به عدولهم عن العراق الذي تزهق النفسُ دون التمكن من أهله، وإنما يلتمس لهم من المغرب أممًا ترسخ فيهم دولتهم، إلى أن يأتيهم الله بالنصر القريب.

ولما جمع المهدي أكابر الدولة وفاوضهم في هذا الأمر ظفر بالموافقة من نفوسهم(٣٠) ولكن على أن يجيبه ابن عمه إلى الانخلاع وانتهى بعض مَن يَستخدم الفقه في رِضا الملوك إلى أن يقول: إن أبا جعفر لم يكتب لعيسى بالولاية إلا لتبقى الخلافة في بيته بعد المهديِّ، فلما رزقه الله أولادًا كانوا أحق بها من أعمامهم، فكتب المهديُّ إلى الرَّحْبة يستقدم ابن عمه إليه، فلم يصل منه خبر، أو وصله أنه يعتلُّ بالشكوى، وما بنفسه اعتلال، ويستنكر الخروج إليه إلا أن يُكرَه بالقتال، فعمد إذ ذاك إلى مكيدة الحرب، وأرسل الجند على ذلك الوجه مأمورًا بألا يأخذه بالقتال، بل يستعمل الرفق والملاينة في ترغيبه عن المخالفة إلى أن يجيبه إلى الخضوع، وكان على هذا الجند قائد نَبِيهُ الصوت في الحروب يقال له: أبو هريرة مُحَمَّد بن فروع، فرأى أن يفاجئ الحصن في آخر الليل ويصفَّ العساكر صفوفًا متعارضة، ويضرب وراءهم مَصافَّ الخيام؛ ليوهم باستكثار العدة والعزم على مثابرة الحصار، ثم يُنزِل بالجنود الزعقة العظيمة التي إذا سمعها عيسى وهو في نومه خامره الجزع وأفزعه الهول، فلما فعل ذلك استيقظ عيسى على رعب من الصيحة، ثم أشرف من الحصن سَحَرًا ورأى سواد الجيش؛ فامتلأ قلبه من الوَحْشة ولم يرَ السلامة إلا بالاستسلام، فأخذه أبو هريرة إلى المهديِّ، فلم يفتُر عن استعمال الحيلة في تعويضه عن الولاية بالمال إلى أن أجابه إلى الانخلاع، ولكن بعد شدة ما لحقه من الضيم.

ولما تصرَّف المهديُّ في أمر البيعة بما أراد؛ ثار في قلوب المخالفين(٣١) له ما كان يُحمِده فيهم حِلمُه وسعةُ عطائه، فحصل في نفسه منهم خوف شديد، ولكنه لم يرَ مقاومتهم بالقتل، وفيهم كثير من أهل السيف، لئلا يتسع الفتق وتعود عليه الفتنة بغير ما يحب، وإنما رجع إلى مَن يلوذ به من العلماء، وأمرهم بتصنيف الكتب في الرد عليهم، وأخذ في استصلاح الزوراء والنظر في حسن السيرة الظاهرة من أهلها بإكراه العُزَّاب على الزواج، والإحسان إلى المتعففين من الشبان، مما جرى له قيل وقال بين الناس، كمثل أن نسبوا ذلك منه إلى غَيْرَةٍ به على النساء(٣٢)وهم قد غفلوا عن الغاية التي يرومها من صلاح أمره بصلاح الزوراء، وموازنتها بمكة مهد الإسلام؛ حتى يعظم

فيها أمر الدين، وتصبو إليها أفئدة المسلمين.

ظهور المهدي بمناصرة العلم

إني وإن لم أكن على غرض العباسيين في السياسة، ولا تطيب نفسي بما ينفردون به من الملك (لأني إلى قَوْمٍ سواهم لَأَمْيَلُ) لَأُوفِّي المهديَّ حقه من الثناء على ما له من جميل العناية[٣٣] في تعظيم العلم وتكريم العلماء، فهو يتخذ لأهل الأدب وأرباب الصناعة والغايات أيامًا[٣٤]معلومة في السنة، يعرضون فيها بضاعتهم من علم أو فنٍّ أو أدب أو صناعة؛ حتى يحصل بينهم التنافس، ويُصدروا ما عندهم من النفائس، ثم يجزيهم على ذلك بما هو مطبوع عليه من الكرم.

ولقد رأيتُه – أصلحه الله – أعطى الخلفاءِ نوالًا للشعراء، وهو يأذن لهم بالدخول عليه مرة في السنة[٣٥] فيجتمعون ببابه ويتفاخرون بما عندهم من محاسن الشعر وفصاحة الكلام، وقد حضرتُ اجتماعَهم بداره لأول ما ولي الخلافة، وقد قصده ابن المولى من البادية[٣٦] وسَلْمٌ الخاسر من البصرة، وابن الخياط من مكة، وأشجعُ السُّلَمي[٣٧] من الحجاز، فقالوا فيه الشعر الذي لم يمدح بمثله أحد من الملوك، ومن جملة ما حفظت لأبي العتاهية في تهنئته إياه بالخلافة قوله:

أتتْـــــــه الخلافــــــــةُ منقــــــادة ... إليـــــــه تُجَــــــــرِّر أذيالهـــــــا

فلـــــم تـــــك تصـــــلح إلا لـــــه ... ولم يـــــك يصـــــلح إلا لهـــــا

ولــــو رامهــــا أحــــدٌ غــــيرُه ... لزلزلــــــت الأرض زلزالهــــــا

وإنَّ الخليفـــة مِـــن بُغـــض «لا» ... إليـــه لَيَـــبغض مَـــن قالهـــا

فأصاب لذلك حظًّا وافرًا من المال، وكان بشَّار المقدَّم ذكره في الرسالة السالفة واقفًا في صفوف الشعراء فلم يتمالك أن يقول لمن حوله: ويحكم انظروا هل طار الخليفة عن سريره؟

وكان المهدي يُقدِّم عليهم سَلْمًا البصريَّ ومرْوانَ بن أبي حفصة ويعطيهما عطية

واحدة، فأما مروان فإنه يلتمس الفصاحة في كلامه تشبُّهًا بأكابر الشعراء،(٣٨) وأما سلم فإنه يودع أبياته المجون والخلاعة؛ لتكون أنسًا في عيون السلطان، فوقع فيما يتصرفان به من مذاهب الشعر بَوْن يُشبه أن يكون ناشئًا فيهما من تباين المشرب بين الإفراط عند الأول والتفريط عند الآخر؛ فإن مروان بخيل يضن بماله،(٣٩) وسلم سَمْحٌ يبذُل المال، يأتي إلى دار المهدي على بِرْذَون قيمته عشرة آلاف درهم، ولباسه الخز والوشي(٤٠) ويأتي مروان بأثواب رثة على حمار يكتريه بدرهم لا يخرج من يده إلا بعَصْب الريق، مع كثرة ما أصابه من المال(٤١) في صلات تجاوزتْ خمسة آلاف دينار في عطية واحدة كما علمتُ.

ولئن تكن الفصاحة في كلام مروان أجلَّ منها في شعر سلم، إني لأعيب عليه المداهنة التي يلتمس بها مرضاة الخليفة بقَدْحِه في أهل البيت على غير حكمة وعقل، كأنه يجزم بما يراه عن يقين لا رجوع فيه، كقوله في ثبوت الخلافة للعباسيين وبُعْد العلويين عن وراثة النبي ﷺ:

يا ابــن الــذي ورِث النــبي محمــدًا ... دون الأقــارب مــن ذوي الأرحــام

أنَّى يكــون ولــيس ذاك بكــائن ... لِبَــني البنــات وراثــةُ الأعمــام(٤٢)

وهذا مردود من وجوه كثيرة؛ لأن الخلافة إنما هي مصلحة دينية لا وراثة دنيوية؛ فحيث توجد المصلحة الدينية تكون الخلافة، ثم إن النبي ﷺ صرح بأن الحسن والحسين هما ذريته، فإذا وجدت الذرية لم يبقَ مدخل للأعمام في الوراثة، اللهم إلا إذا رجعنا إلى شريعة الجاهلية التي نُسِخت بمجيء الإسلام، ولو أنَّا ضربنا عن ذلك كلِّه صفحًا ما وجدنا أصلح للإسلام من أن تجتمع كلمته على مَن لا ينصرف عن طاعته أحد من المسلمين، إلى ردودٍ كثيرة ما أنا من ذكرها الآن في شيء، وإنما أعود إلى الحديث الذي جرى به القلم عن سيرة المهدي، فإني شهدت بداره أيامَ الشعراء وأيام القُصَّاص وأيام الندماء وأيام المغنين وأيام الرماة(٤٣) وأيام جري الخيل، وقد سبقه إليها الخلفاء، إلا يوم السباق فإني لا أعلم عن أحد من بني العباس أنه أقام الحَلْبة وأجرى

بين يديه الخيل في محفل من كبراء الدولة قبله، وكان له فرس سبَّاق الأضاميم، يقال له: الغضبان[٤٤] فكان أول خيل الحلبة في ذلك اليوم، فلما وصفه الشعراء أصاب جائزتهم العُماني وقد ارتجز:

قد غضب الغضبان إذ جدَّ الغضب   وجاء يحمي حسبًا فوق الحسب

من إرث عباس بن عبد المطلب   وجاءت الخيل به تشكو التعب

له عليها ما لكم على العرب

ولكن هذا من الأمور التي تكفي المشاهدة لها مرة واحدة، وأما الذي ترتاح إليه النفس، على التماس الكثير منه في دور الخلفاء، فهو يوم الغناء، وكان المهدي إذا اتخذ له مجلسًا بداره ضرب للمغنين ستارة يجلسون وراءها في صفوفهم بحيث لا يرونه[٤٥] إلا فُلَيْحَ بن أبي العوراء، وهو أوضح الناس غناء وأعرفهم بالألحان والأصوات[٤٦]وإن لم يكن أحسنهم صوتًا، فإنما يحسن الغناء عند من يُشبع الألحان، ويملأ الأنفاس، ويعدل الأوزان ويفخِّم الألفاظ، ويعرف الصواب، ويُقيم الإعراب، ويستوفي النغم الطوال، ويحسن مقاطيع النغم القِصار، ويصيب أجناس الإيقاع[٤٧]فهو يُحسن ذلك كلَّه لمحله الجليل من هذه الصناعة، وليس له فيها شريك إلا مغنٍّ آخر يقال له: عطرد[٤٨] قد أدرك دولة الأمويين في آخر مدتهم، وأما مَن سواهما من المغنين فليس لهم في الصناعة ما للمتقدمين من الفرس، وأنا لا أعيب ذلك عليهم؛ لأن الزمن الذي مضى عليهم في صدر الدولة كان مضرجًا بدماء الحروب؛ فانصرف الخلفاء عن النظر في مطالب اللهو والترف إلى التماس الأسباب التي يؤيدون بها ملكهم من الحكمة والسياسة، ثم إن نقل الغناء إلى العربية[٤٩]ليس بقديم عهد عندهم حتى يتمكنوا من صناعته وفنونه؛ لأنهم نقلوه من الفارسية في خلافة معاوية بن أبي سفيان، وهو الزمن الذي أخذ فيه العرب بسكنى الأمصار، وانقلب أمر الأمة من سذاجة الخلافة إلى ترف الملك، فقد نَقَلَتْ إلينا الأخبار السالفة أن الخلفاء الراشدين – ﷺ – لم يقيموا أبهة الملك، ولا كان لهم على المسلمين سلطان دنيوي يتوسعون

منه إلى التماس النعيم من الدنيا(٥٠) وإنما كانوا مظهر الفضيلة ومثال القناعة والعفاف، وكانوا يلبسون الثياب المرقعة(٥١) ويتخذون في أرجلهم نعالًا من ليف(٥٢) ويمشون في الأسواق كبعض الرعية رجالًا(٥٣) وكان لباس أبي بكر الشملة والعباءة، ولباس عمر جبَّةً من الصوف مرقعة بالأديم، ومركبه الإبل(٥٤) وكان عليٌّ – عليه السلام – يتجافى عن جمع المال، ويقول: يا صفراء ويا بيضاء، غُرِّي غيري(٥٥) وكان مطعمهم على مثل هذا الوجه من الكَفاف يلتمسون بع الغذاء من غير تأنق في الأطعمة، حتى إن المناخل كانت مفقودة عندهم، فكانوا يأكلون الحنطة بنخالتها، ولا يعرفون من الألوان إلا اللحم يطبخونه بالملح والماء(٥٦) وكان أبو موسى الأشعري يتجافى عن أكل الطير والدجاج(٥٧) وكذلك كان العرب في سذاجة دولتهم على بُعْدٍ من ترف المتمصرين في جميع معايشهم وأحوالهم، حتى إنه لم يكن عندهم من الغناء إلا حُداء الركبان أو ضربٌ من النَّصْب أرقُّ منه، فلما ساد فيهم العمران في عهد الأمويين وألقيت عليهم أصوات الفرس نبغ الكثير منهم في محاسن هذه الصناعة، ثم فتقت الفتن في دولة العباسيين، وقد طلبوا الخلافة من دون الملك؛ فلم يتهيأ لهم مجلس بدورهم إلى هذا الزمان.

وَلوع المهدي بمزاولة الصيد

تجد فيما أنا ذاكر لك عن المهدي أنه يجمع إلى خلافة الأمة أبهة الملك، وهما أمران لم يجتمعا في خليفة غيره، وربما التمس الطيبات في هذه الأبهة، والتأنق في فنون المعيشة إلى الغاية التي لم يبلغها ملوك بني أمية من قبله، فإذا جلس إلى الندماء أحب أن يمتع نفسه بلذة أحاديثهم(٥٨) وإشارتهم دون ستارة تحجبهم عن نظره، وإذا خرج إلى الصيد ركب في المواكب العظيمة المزينة، وربما كان ذلك من أحب الأشياء إليه.

وأنا لا أعُدُّ الصيد من الملاهي التي تعاب على الملوك إلا متى أفرطوا فيه وكانوا أقرب به إلى الأَشَر منهم إلى النزهة والرياضة، كما نعلم عن صبية الأمويين الذين أجْلَوا أهل الزراعة من حولهم لتحطيمهم زرعهم في طلب الصيد، وهذا بعيد عن أن

يكون في المهدي – أصلحه الله – وإنما هو كَلِفٌ به(٥٩) من غير إفراط فيه؛ لأني رأيت من الأمراء من يتأنق أكثر منه في اتخاذ العُدَّة له، إلى أن يصنعوا نِصال سهامهم من الذهب، كما ورد عن بعضهم في كلام الشعراء:

ومـــن جـــوده يرمـــي العُـــداة بأســـهمٍ مـــن الـــذهب الإبريـــز صـــيغ نِصـــالُها

لينفقهـــا المجـــروح عنـــد انقطاعـــه ويشـــتري الأكفـــان منهـــا قتيلهـــا(٦٠)

وهذه مباهاة لا ينظر إليها الخليفة من مزاولة القَنْص، وإنما عني باتخاذ الصقور والبيزان وتربية الكلاب التي تسبق الظليم في عَدْوها، يُلبسها أطواقا من ذهب(٦١) ويوكِّل بكل كلب عبدًا يخدمه كما يفعل كثير من الأمراء وأهل النعمة(٦٢) في تربيتها للتحريض على الصيد، إذ كان لا ينهى الشرع عن اتخاذها إلا فيما كان لغير الصيد والحراسة، وأما البيزان والصقور فإنه لم يَسبِق إلى اتخاذها، بل كانت معروفة عند العرب من ملوك كِنْدة، وقد وقف أحدهم يقانص بالحبالة؛ فانقض بازٍ وحمل عصفورًا، وعلق وإياه في الحبالة، فأخذه الملك وهو يأكل العصفور، ورماه في كِسْر البيت فرآه قد دجن ولم يبرح مكانه، وإذا رمى إليه طعامًا أكله، وإذا رأى طيرًا طار إليه؛ فاتخذه في عُدَّة الصيد وطلب به الطيرَ، وصار العرب يؤدبونه(٦٣) لذلك، ثم يؤدبون العِقبان أيضًا، ويقولون: إنها تعمل عملًا لا يدركه أكثر الصقور. (٦٤)

وقد ركب المهدي يومًا إلى الصيد، وكنت في خدمته مع الأمير علي بن سليمان ابن عم أبيه وأبي دلامة الشاعر، وكان خروجه من القصر في آخر الليل، وفي طرف الأفق شفق من الفجر، وكان يحوطه فُرسان من الحرس متنكبون قِسِيَّهم، متقلدون سيوفهم، يتبعهم قطعة من الجنود، وطائفة من الغلمان قد حملوا المئونة على الخزائن(٦٥) الخفيفة، وبينهم عدد من الوصفاء في أخفِّ كُسوة وأجمل لباس، وكان مسيره محاذيًا للنهر؛ ارتيادًا للخضرة التي تجنح إليها الطيور وتسرح فيها المها والغزلان، حتى إذا انجلى النهار وقد رمى شيئًا من الطير تقدم إلى مَن بين يديه من الفرسان أن يضربوا حلقة في أرض مطمئنة ممرعة، ثم يضيقوها رويدًا رويدًا إلى أن

يُؤخَذ الصيد بين جموعهم من كل جهة[٦٦] فلما أحاطوا بذلك الموضع وقع في حلقتهم غزال قد نفر ومرَّ، وكان الخليفة قد نشط للصيد وخفَّ له في ذلك اليوم، فمال هو وابن عمه إليه ورشقاه بالسهام؛ فأصابه سهم في صدره، وأصاب السهم الآخر بعض الكلاب فصرعه، فلما جلسا للاستراحة حُمِل إليهما هذا الغزال، فوجد في صدره سهم الخليفة، فارتجل أبو دلامة وهو يريد المزاح: [٦٧]

قد رمى المهديُّ ظبيًا ... شكَّ بالسهم فؤاده

وعلي بن سليما ... ن رمى كلبًا فصاده

فهنيئًا لهما كل ... امرئ يأكل زاده

وقد اتفق للمهدي في ذلك اليوم نادرة لم أرَ أظرف منها فيما يتفق للملوك من النوادر، وهي[٦٨] أنه أخذته السماء وهو منقطع عن عسكره منتبذ من أصحابه، فركضَ فرسَه مِلء فروجه حتى لا يلبِّده المطر، فانتهى إلى بيت أعرابي مُلاحٍ[٦٩] فبادر إلى نزع ما ابتلَّ من ثيابه وجلس بجانب نار موقدة، ثم قال: يا أخا العرب هل مِن قِرًى؟ قال: عندي فضلة في رَكوة، فقال له: هاتِ اسقني، فشرب قَعبًا وسقاه، فلما شرب قال له: يا أخا العرب أتدري مَن أنا؟ قال: لا، والله. قال: أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة. قال له: بارك الله في موضعك. ثم شرب قدحًا وسقاه فلما شرب قال له: يا أعرابي أتدري مَن أنا؟ قال: زعمتَ أنك مِن خدم أمير المؤمنين. قال: لا، بل أنا من قُوَّاد أمير المؤمنين، قال: رحُبت بلادك وطاب مَرادك. ثم شرب قدحًا وسقاه فلما شرب، قال له: يا أعرابي، أتدري من أنا؟ قال: نعم، ذكرتَ أنك من قُوَّاد أمير المؤمنين. قال: فلست كذلك. قال: فمن أنت؟ قال: أنا أمير المؤمنين. فأخذ الأعرابي الركوة وأوكأها، فقال له الخليفة: ما لك يا شيخ؟ فقال: مكانَكَ. والله ما آمن أن أسقيك القدح الرابع؛ فتزعم أنك رسول الله. فضحك المهدي حتى استلقى وأقبل الجند عليه، ونزل الأشراف إليه، فطار قلب الأعرابي من الخوف، فقال له المهدي: لا بأس عليك ولا خوف. ثم أمر له بمال وكُسوة، ولم يلبث أن رجع إلى

الحضرة بعد انكماشٍ ناله من العدْو السريع ونزول المطر وهبوب الريح الباردة.

في تتمة أخبار المهدي ورسالتي إلى خُراسان

نعود إلى ذكر المهدي في دولته وسياسته، فإنه لما حقق البُغْية بما أراده من البيعة لأولاده بقي عليه أن ينظر في أمر العلوية، وقد بقي منهم في السجون جماعة لم يطلقهم منها فيمَن أطلقه عندما وَلِي الخلافة(٧٠) بل أبقاهم مع الذين عندهم تبعات من دم أو مال، وهذا من شر ما يلاقيه أهل البيت من الذين خَلَفوا جدهم – عليه الصلاة والسلام، ثم إنه لم يكتف بهذا الظلم حتى تعمد مضرتهم باستمالة جماعة من أشياعهم يطلعونه على أمورهم فيما يُسرون ويُعلنون، وفيهم رجل من بني سُليم يقال له: يعقوب بن داود، طوَّقه أمر الوزارة ومكَّنه من بيوت المال؛ ليطلعه على أمورهم، ويُعلمه بمكان الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بعد خروجه من السرداب الذي حفره إلى محبِسه ذوو النخوة من رجال الشيعة، ولكن يعقوب كان ذا عقل ورأيٍ وفتوة ومَن لا يستبدل المالُ بغرضه غرضًا آخر، فبقي ميلُه مع أهل البيت، والمهدي وأبو عبد الله يظنان أنه على خلاف ذلك. (٧١)

ولما استوثق للمهدي أمر العراق رأى أن يستميل أهل الحرمين، فركب إلى الحج في كثير من عظماء دولته، واتخذ من الأبهة ما لم يسبق له مثيل في الإسلام، واستصحب معه هارون ابنه ويعقوب بن داود المقدَّمَ ذكره وجماعة من أقاربه المقربين، واستخلف في الحضرة موسى ابنه ويزيد بن منصور الحِميري خاله، وحمل معه خمسين ألف ألف درهم ومائة وخمسين ألف ثوب(٧٢) يفرقها في أهل الحرمين، وكان عازمًا في تلك الحجة أن ينكُب الإمام الحسن بن إبراهيم بن عبد الله من أولاد عليٍّ – عليه السلام، وقد علم أنه في جوار مكة، فتقدم يعقوب بالشفاعة إليه والحيلة المباركة عليه حتى نال رضاه عنه؛ فأطلق له الأمان(٧٣) الذي كان مقبوضًا عنه وعن آل بيته في خلافة أبي جعفر.

ولما قدم إلى مكة نزع كُسوة الكعبة وطلى جدرانها بالمسك والعنبر، ثم كساها

كسوة جديدة من الحرير؛ لأنه كان يخاف عليها أن تتهدم لكثرة ما عليها من الديباج الذي كساها إياه هشام بن عبد الملك، ثم أمر بإنشاء أروقة المسجد الحرام، وحمل لها الأعمدة الرخام من البحر(٧٤) وأتم بناءها على عناية يلتمس بها استمالة أهل الحرمين مع ما أولاهم من الإحسان، واتخذ لهم مآدب أفرغ الوُسْع في زخرفتها وتنميقها؛ للدلالة على عِظم ملكه، حتى إنه سقاهم الماء المبرَّد بالثلج المحمولَ من الشام(٧٥) «وكان الذي حمله إلى مكة مُحَمَّد بن سليمان الهاشمي الذي تقدَّم في الكلام على البصرة ذكره»، وهذا من الأمور التي تُوسِع أهل البادية تعجبًا من اقتدار الملوك على الغريب، ثم إنه ردَّ عليهم الوظائف التي قُبِضت عنهم في خلافة أبيه، وفرَّق عليهم غير ما حمله من الحضرة ثلاثمائة ألف دينار حُمِلت إليه من مصر، ومائتي ألف دينار من اليمن، وغير ذلك مما جاءه من الجهات، فبلغ المنفق في هذا الحج على كسوة الكعبة وصِلة الناس وبناء القصور بطريق مكة، واتخاذ المصانع في كل منهل منها، وتحديد الأميال والبرك، وحفر الركايا، وغير ذلك نحوًا من ستة آلاف ألف دينار، واصطفى لنفسه من الأنصار خمسمائة نفر أجرى عليهم الأرزاق الواسعة واتخذهم لمراتب السيف في العراق، كأنه يعارض أباه في تقديم الموالي على العرب؛ ليستبدل بجفائهم له محبتهم إياه، واتفق أن كانت هذه السنة سنة رُخْص وخِصب بعد جَهْد أصاب الناس في العام لمَّا دهمهم الوباء(٧٦) الجارف؛ فأحبه الناس وتبركوا به وقالوا: هذا هو المهدي ابن عم رسول الله ﷺ وسميُّه. (٧٧) ()

ولما عاد إلى الحضرة وقد وجد في تجواله في البلاد اختلالًا لم يأمن معه على الدولة من الفساد؛ صرف الهمة في النظر إلى تدبير الولايات، ورتَّب أناسًا يؤدون رسائله إلى العمال ويراقبونهم في إنفاذها وسمَّاهم الأمناء(٧٨) ووجَّههم في جميع الأمصار، فكان لا ينفذ كتابًا إلى عامل في أمر خطير حتى يكتب يعقوب الوزير إلى بعض الأمناء بإنفاذ ذلك، ثم نظر في أمر الرعية فوضع لهم ديوان الأزِمَّة(٧٩) وأقام على الشُّرْطة مَن تبيَّن فيه حسن النظر والتدبير؛ فاستوثق له الملك من الوجه الذي يرومه في استمالة الناس إليه.

إلا أنه تواترت عليه في منتصف هذه السنة، والدهر له صافٍ، رسائلُ من أبي عَوْن عامله على خراسان يشكو فيها ضعف جنده واعتلال دولته وتغلب رجل أعور من مرو قد ادَّعى الربوبية وأغوى الخلق، وقامت له في الصَّغد وبُخَارى أنصار قد عاثوا في البلاد، واتخذوا البياض شعارهم لمخالفة السواد؛ فتخوف المهدي أمرهم وأخرج إليهم مُعاذ بن مسلم موعزًا إليه بأن يلتئم مع الحَرَشيّ الذي هو أمير الجيش في خراسان، حتى إذا كان على انتظار البشائر منه وصله من أبي عون أن قد وقع الخلاف بين الجيشين، فعزم على توجيه رسول يكشف قناع الفتنة ويصلح بين الأميرين؛ فوقع الخلاف بين يعقوب وأبي عبد الله فيمن يُطوّقانه أمر هذه الرسالة، فرام يعقوب أن يقلدنيها، وأحب أبو عبد الله أن يصيرها إلى أمير من آل قَحطبة وكان الربيع حاجب أبي جعفر راغبًا في توجيهي بها أيضًا حبًّا لي، وكانت وقعت نُفرة(٨٠) بينه وبين أبي عبد الله، فاشتغل في معاكسته وبلوغ المكروه منه.

ثم إن المهدي وقع رأيه على أن يبعثني إلى مرو لأنظر في أمر هذا المقنَّع الأعور، وجعل لي التصرف فيما أرى حلَّه وعقده من خلاف القواد، إذ يكون خير الجيش المرجوَّ ما لم تتقلب بأمرائه الأغراض، ولا سيما أن له في خراسان عدُوَّيْن يتفقان جميعًا عليه، جماعة خارجيٍّ يقال له يوسف البرم(٨١) وشيعة هذا المقنَّع الذين يدَّعون ألوهيته ويقيمون دعوته على بذل الدماء، فأما جماعة البرم فلم يكن لهم وجه بالثورة إلا في أمر من السياسة؛ ولذلك كانوا أقلَّ على الدولة خطرًا من رجال المقنع الذين أقاموا دعوتهم بأمر الدين وزعموا أن الله – تعالى – خلق آدم فتحوَّل في صورته، ثم في صورة نوح، ثم في صورة غيره من الأنبياء، حتى تحول في صورة هذا المقنع بَعد أبي مسلم – رحمه الله، وقد نقلت الأخبارُ السائرة أنهم يسجدون له من جميع النواحي ويزعمون أنه أراهم في السماء قمرًا آخر يراه المسافرون على بعد شهرين ويستضيئون بنوره، والعياذ بالله من شرور الأعمال.

وإنما زعم هذا المقنع أن الله – تعالى – تحول قبله في صورة أبي مسلم؛ ليستميل الناس إليه كما استمالهم داعية الإمامية – رحمه الله – وإن كان بعيدًا عن إظهار دعوة

أهل البيت، فكان استخدامه الدين لنيل مناه وجهًا من السياسة، يريد من شيوع المعجزات عنه بين العوام وهم بمكانهم من السذاجة والغفلة أن يتسارعوا إلى الانضمام إليه، وقد رأى أن عصر موسى – عليه السلام – كان مقدَّمًا بالسحر فغلب السحرةَ، وعصرَ عيسى – عليه السلام – مقدَّمًا بالطب فغلب الأطباء، وعصر النبي ﷺ مقدَّمًا بالبلاغة ففضَل البلغاءَ، فرأى أن عصره مقدَّم بالكيمياء؛ فأراد أن يُبهر الناس بما يستنبطه من المركبات.

وقد فرغت من تقييد هذه الرسالة في ختام السنة الحادية والستين بعد المائة من الهجرة المشرفة، وأنا على أهبة السفر إلى خراسان، وسأصدر لك منها كتابًا أودعه ذكر الشيعة فيها وأخبار أممها من الفرس والديلم وغيرهم. وبالله نعتضد فيما نعتمد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الهوامش

(١) ابن الأثير ٦ : ١٣.

(٢) ابن الأثير ٦ : ٨.

(٣) الزرقاني ٢ : ١٤٨.

(٤) الخميس، والعقد الفريد ٣ : ٥٣.

(٥) المسعودي ٢ : ١٩٤.

(٦) أبو الفداء ٢ : ٩.

(٧) المسعودي ١ : ٢٣٤.

(٨) الأغاني ٤ : ٩٣.

(٩) الفخري ٢١٥.

(١٠) الأغاني ٣ : ٤٦، العقد الفريد ٣ : ٥٣، والمسعودي ٢ : ١٩٦.

(١١) السيوطي.

(١٢) يفهم من ابن الأثير (٦ : ٦) أن خالدًا ويحيى كانا غائبين عن بغداد لما توفي المنصور.

(١٣) الأغاني ٩ : ٩٧.

(١٤) السيوطي.

(١٥) ابن الأثير ٦ : ١٢.

(١٦) الإسحاقي ٨٨.

(١٧) موضع ذكره ابن خلكان ١ : ٤٦٤.

(١٨) ابن خلكان نقلًا عن كتاب إحياء علوم الدين للغزالي.

(١٩) الأغاني ٣ : ٩٤.

(٢٠) المسعودي ٣ : ٤٠١.

(٢١) المسعودي ٢ : ١٩٦.

(٢٢) الحصري، والخميس ٢ : ٣٣٠.

(٢٣) الماوردي ١٣٧.

(٢٤) الخميس ٢ : ٣٣١.

(٢٥) السيوطي، وابن الأثير.

(٢٦) في الماوردي، ومقدمة ابن خلدون أن هذا المجلس ينظر في كتابة الدواوين إذا وقع بها تزوير، وفي تظلم المسترزقة من الجند مِن نقص أرزاقهم، ومن تأخرها عنهم، وفي مشارفة الوقوف، ورد المغصوب إلى أصحاب الحقوق، وتنفيذ ما وقف من أحكام القضاة لضعفهم عن إنفاذه وعجزهم عن المكتوب عليه لقوة يده وعلو خطره، وإمضاء ما يعجزون عن إمضائه في البينات والتقرير، واعتماد الأمارات والقرائن، وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق، وحمل المتخاصمين على الصلح.

(٢٧) المسعودي ٢ : ٢١٥.

(٢٨) الفخري ١١٦.

(٢٩) السيوطي.

(٣٠) ابن الأثير ٦ : ١٦.

(٣١) ابن الأثير والفخري والسيوطي.

(٣٢) في الأغاني (٣ : ٤١) أن المهدي من أشد الناس غيرة.

(٣٣) الإسحاقي ٨٨.

(٣٤) المستطرف ١ : ٣٧.

(٣٥) الأغاني ٩ : ٤٤.

(٣٦) الأغاني ٣ : ٨٨.

(٣٧) ابن خلكان ١ : ١٠١.

(٣٨) الأغاني ٩ : ٤١.

(٣٩) الأغاني ٩ : ٣٩، والوطواط ٢٩٥.

(٤٠) الأغاني ٩ : ٣٩.

(٤١) ابن خلكان ٣ : ١٣١.

(٤٢) الأغاني ١٢ : ١٧، والعقد الفريد ١ : ١١٨، والمسعودي.

(٤٣) ذكرها المستطرف ١ : ٢٧.

(٤٤) الأغاني ١٧ : ٨٢.

(٤٥) الأغاني ٤ : ٩٩، وذكر المسعودي (١ : ١١٨) أن الأوائل من بني العباس ما كانوا يظهرون للندماء.

(٤٦) الأغاني ٤ : ٨٨.

(٤٧) الأغاني ١ : ١٢٦.

(٤٨) الأغاني ٤ : ٩٩.

(٤٩) الأغاني ٣ : ٨٦، والمسعودي ٢ : ٣٥٧.

(٥٠) وكانوا يقولون في خطبهم للمسلمين: أطيعونا ما أطعنا الله فيكم، فإذا عصيناه فلا طاعة لنا عليكم.

(٥١) الطبقات ١ : ١٩، والمقدمة ١٨٥.

(٥٢) الفخري ٣٣.

(٥٣) الفخري ٨٩.

(٥٤) المسعودي ١ : ٣٢٠.

(٥٥) الطرطوشي ١٢٤.

(٥٦) الأبشيهي ١ : ١١٤.

(٥٧) المقدمة ١٧٨، وفي البخاري، وشرحه القسطلاني ما يخالف هذا.

(٥٨) السيوطي.

(٥٩) ذكر حب المهدي للصيد في الأغاني ٣ : ١٥٠، وابن الأثير، والأتليدي، وابن عون.

(٦٠) الأتليدي.

(٦١) ذكر الفخري ٦٧ هذه الأطواق من الذهب.

(٦٢) الأغاني ٦ : ٧١.

(٦٣) المسعودي ١ : ٩١، والأغاني ٧ : ٤٥.

(٦٤) الدميري ٢ : ١٥٢.

(٦٥) ابن الأثير ٦ : ٣٠.

(٦٦) الفخري ٦٥.

(٦٧) الأغاني ٦ : ٤٧، والشريشي ٢ : ٢٦١، والعقد الفريد ٣ : ٤٤٥.

(٦٨) المسعودي ٢ : ١٩، وابن الأثير ٦ : ٣٠، والفخري ٢١٢، والمستطرف ٢ : ٣٠٦، والشريشي ٢ : ٢٥٧، والأتليدي ٨٦.

(٦٩) الأغاني ٣ : ١٥٠.

(٧٠) في ابن الأثير (٦ : ١٥)، والأغاني (٣ : ٣٩) أنه عندما ولي الخلافة أطلق المسجونين.

(٧١) ابن الأثير ٦ : ١٤.

(٧٢) الخميس ٢ : ٣٣٠.

(٧٣) الخميس ٢ : ٣٣٠.

(٧٤) ابن الأثير ٦ : ١٨.

(٧٥) الخميس ٢ : ٣٠.

(٧٦) ذكره ابن الأثير في حوادث سنة ١٦٠.

(٧٧) الأغاني ٣ : ٩٤.

(٧٨) ابن الأثير (١٦ : ٢٠)، ويقول في موضع آخر: إن المنصور كان يحب أن يوجد في دولته مثل ذلك (٦ : ١٠).

(٧٩) ابن الأثير ٦ : ٢١.

(٨٠) الفخري ٢١٦، وابن الأثير ٦ : ١٩.

(٨١) ابن الأثير ٦ : ١٦.

الرسالة الخامسة

طرف من أخبار المهدي والهادي

ولما[١] وصلتُ إلى بغداد قصدت باب البرامكة؛ لأقرأ عليهم سلام الفضل[٢] – أعزه الله – وأطفئَ ما بنفسي من الشوق إلى الأنس بقربهم المحبوب؛ إذ كانت المكاتبة بيننا طول هذه الأيام لم تزدني إلا شغفًا بمحاسنهم واستطلاعًا إلى محيا جمالهم.

ثم إني قصدت باب فقيه الإسلام وقد اتخذه المهدي – رحمه الله – قاضيَ قضاةِ المسلمين، وصارت إليه جوائز الهادي والرشيد من بعده حتى بنى لنفسه في درب أبي خلف[٣] من ناحية الكرخ الدارَ التي لم يَبنِ مثلَها إلا ملك أو أمير، فألفيته في مجلس حافل بالأدباء والأمراء وعليه[٤] المبطَّنة والطَّيْلسان وقَلَنْسوة طويلة[٥] قد حوَّطها بعمامة سوداء دعتْه الحاجة من خدمة العباسيين إلى اتخاذها على لون شعارهم، وهذا هو الزِّي الذي يروم أن يكون مخصوصًا بالفقهاء؛[٦] لتمييزهم عن سائر الناس، فكان لملْقانا موقف يستبكي الحمام لفرط ما بنا من الأشواق، وصرفت اليوم بقيتَه بحضرته أجاذبه أطراف الحديث، وقد نبأني بأحوال القوم في المدة التي كنت منفصلًا فيها عن دار السلام؛ لأن القضاة قد يرد عليهم من طرائف الأخبار[٧] ما لا يرد على غيرهم، ولا سيما مَن كان بمنزلة هذا الفقيه عند الخليفة حتى إنه ليُجلسه على سريره بجانبه،[٨] ويقوم له إذا دخل عليه ولا يقلِّد القضاءَ[٩] ببلاد العراق والشام ومصر وخراسان إلا مَن أشار به إليه.

ولقد ذكرت لك في رسالتي من خراسان ما اتصل بي من أخبار المهدي والهادي – رحمهما الله – فيما يتعلق بأمور الدولة، أما أخبارهما الخاصة فقد حدثني بها لسان الشريعة على إسهاب لا موضع له في هذا الكتاب، على أن المهدي ما برح مستمرًّا إلى انقضاء خلافته على ما ذكرت لك من استمالة الناس ومقاومة أهل البدع فيما به

تعزيز الملة والدولة، ولقد جرت الشريعة في أيامه وإلى هذا اليوم على أحسن منوال معروف لانقطاع النظر فيها إلى أبي يوسف من دون الخلفاء، بحيث لم يتولَّ القضاء إلا أهل العلم ومَن لا يميل به طمع النفس إلى الخروج عن جادَّة العدل، وقد أقرَّ رجالَه في وظائفهم إلا وزيرَه يعقوب وقد وضح له ميلُه مع أهل البيت[١٠] ورفع إليه المفسدون بيتين من الشعر أغرَوْا بشَّارًا على قولهما، وأطاروا ذكرهما كل مَطار:

بـــني أميـــةَ هُبُّـــوا طـــالَ نـــومُكم إن الخليفـــةَ يعقـــوبُ بـــنُ داودِ

ضـــاعتْ خِلافـــتُكم يا قـــومِ فالتمســـوا خليفـــةَ الله بـــينَ النـــايِ والعُـــودِ

فنكبه لذلك وأُلقيَ في بئرٍ عَمِيَ فيها، وهو يتوسد التراب إلى أن مات في خلافة الرشيد قبيل عودتي من خراسان.

وكانت مأثُرة المهدي في آخر أيامه وضعه البريد[١١] إبلًا وبغالًا في كثير من البلاد مما استنفق أموالًا طائلة، ولا سيما فيما بين مكة والمدينة إلى العراق، وهو أول مَن أقام البريد من الحجاز إلى الحضرة لما يروم من تناول الأخبار ومناولة الرسائل على وجه السرعة؛ إذ كان على تيقُّظ من العرب في مناصرتهم لأهل البيت بالمواطن المشرفة، كما كان على حذر من أهل الشام في استظهارهم على عماله بما يجاورهم من العرب الذين ما كانوا بحكم العباسيين راضين سوى نفر قليل كانوا يحملون الضيم لمخالفة السواد الأعظم من قبائلهم؛ ولذلك كان يرى المهدي إمداد عمَّالِه بالرجال، والعربِ بالمال حينًا بعد حين، حتى دعتْه الحال إلى الشخوص بنفسه إليهم فزار دِمَشْق[١٢] وبيت المقدس[١٣] وأخذ في إزالة الخلاف الذي كان بينهم في بادية الشام بما فرَّق فيهم من الأموال الجسام.

أما الهادي – رحمه الله – فإنه نسج على منوال أبيه، وقد رسم له بتتبع الزنادقة، فمضى على ذلك، وافتتح خلافته بقتلهم ووكَّل بهم رجلًا يقال له: عبد الجبار[١٤] وهو المعروف بصاحب الزنادقة، فاقتصَّ أثرهم في الزوراء حتى لم يدع منهم عينًا تطرف، فما كان الزنادقة فيما أخبرني أبو يوسف إلا لِزَّ شَرٍّ في عقيدتهم، وإن بدا

للناس ظاهر لهم من الظرافة وحسن السيرة[١٥] كما يشير لذلك بعض الشعراء بقوله في رجل قد اتُّهم بالزندقة: [١٦]

لســـــتَ بزنـــــديق ولكنمــــا ... أردتَ أن تُوسَـــــم بالظَّـــــرف

فإنما يتعدَّون مذهبهم من التكذيب بالأنبياء، وتعليم الناس بُغضَ الخلفاء إلى أن يمسُّوا الشرع الشريف بما لا يُحِلِّله كتاب الله، فقل للمفترين على الله: إنه يحضرهم في يوم لا يغني عنهم شيء ولا هم يرحمون، واعلم أنه لم يلِ الخلافة قبل الهادي أحد في سِنِّه، ولكنه لم يستكمل ستًّا وعشرين سنة حتى مات، فكانت مدَّة ولايته سنةً وشهرين إلا أيامًا، وكان ذا جبروت[١٧] وإذا ركب مشتِ الرجال بين يديه بالسيوف المشهَّرة والأعمدة والقِسِيّ الموتَّرة؛ ولذلك كثر السلاح في عصره، وأحرز منه الشيء الذي كان يحب التباهي به، حتى قيل: إنه أعطى شاعرًا مدح سيفًا عنده كان لعمرو بن مَعْدِي كَرِب يقال له: الصَّمصامة عشرين ألف درهم على هذه الأبيات:

حـــاز صَمصـــامةَ الزُّبَيْـــديّ مِـــن بَـــ ... ـــيْنِ جميـــع الأنام موســـى الأمـــينُ
ســـيفَ عمــرٍو وكـــان فيمـــا سمعنـــا ... خـــيرَ مـــا أُغْمِضـــتْ عليـــه الجفـــون
أخضــــرُ اللـــون بـــين خدَّيْــــه بَـــرد ... مـــن ذُعـــاف تمـــيس فيــه المنـــون
أوقــــدت فوقـــه الصـــــواعقُ نارًا ... ثم شـــابت بـــه الـــذعافَ القُيـــونُ
فـــإذا مـــا ســــللتَه بهـــر الشمْــــ ... ـــسَ ضـــياءً فلـــم تكـــدْ تَســـتبينُ
مـــا يبـــالي مَـــن انتضـــاه لحـــرب ... أشِمـــالٌ ســـــطتْ بـــــه أم يمـــينُ
يســـتطير الأبصـــار كـــالقَبَس المشْـــ ... ـــعَلِ مـــا تســـتقر فيـــه العيـــون
وكـــأن الفِرنـــد والجـــوهر الجـــا ... ري علـــى صـــفحتيه مـــاء معـــين
نِعـــم مِخـــراقُ ذا الخليفـــةِ في الهَيْــ ... ـــجَاءِ يقضـــي بـــه ونعـــمَ المعـــينُ[١٨]

وقد صارت المراتب في أيامه إلى الناشئين من البرامكة والطاهريين والمهالبة،

وغيرهم ممن كنت أعرفه صبيًّا قبل نزوحي إلى هذه الرحلة التي امتدت بي طويلًا، وكان على وزارته الربيع بن يونس حاجب أبي جعفر – غفر الله له – وعلى بيت ماله المعلَّى بن طريف[١٩] وعلى حجابته الفضل بن الربيع، وعلى جنده آل أبي العلاء، وقد حدثني بأخباره معهم بعض مَن كان مقربًا إليه من الندماء، ومنهم رجل من أهل الحجاز يقال له عيسى بن دَأْب، وقد بلغ من الحُظوة لديه والجلوس بحضرته على المتكآت ما لم يكن يطمع به غيره في ذلك[٢٠] فكان يصف لي أخبار مولاه بما يرفعه إلى مساماة العظماء من أهل الرأي والتدبير، غير أني ما عرفت له شيئًا من هذه المحاسن وهو صبي، ولا رأيت في دولته الزُّهاء الذي أشرق على دولة المهدي قبله ثم الرشيد من بعده؛ لأنه كان منهمك النفس بحب اللهو ووُلد له في فتاءِ سِنّه أولاد كثيرون وفيهم ولد أعمى[٢١] فيما سمعت، ولذلك كان الطامعون إليه من غير أهل المراتب أكثرهم أهل لهو وطرب، وكان أقربهم إليه مكانًا وأفضلهم عنده منزلة إبراهيم الموصلي النديم، وهو أعجمي الأصلي بارع في جميع فنون العلم والأدب، إلا أنه غلب عليه الغناء بعد أن تخرج على جوانويه[٢٢]وسِياط، فبلغ من الإجادة فيه المكان الذي لم يبلغه المغنون من أهل الحجاز، ولذلك كان الهادي إليه أمْيَل منه إلى سواه من الندماء، يقال: إنه كان إذا استعطاه خمسين ألف درهم أعطاه مائة ألف[٢٣] وقد قال لي إسحاق ابنه: والله، لو عاش لنا الهادي، لبنينا حيطان دورنا بالذهب.[٢٤]

جمال بغداد بالرشيد والبرامكة

ولما جُلْت في المدينة بعد طول الغيبة عنها وجدتها في سعة من العمران ما كنت أعهدها قبل هذا الوقت، فما كفي أهلَها الموسرين ما رفعوا في مدينة المنصور من المباني المشرقة حتى توسعوا إلى سكنى الجانب الشرقي المعروف بالرُّصافة، فبنَوْا فيه القصور الرفيعة والمنازل المزخرفة، واتخذوا الأسواق والجوامع والحمامات،[٢٥] وتوجهت عناية الرشيد والبرامكة إلى تزيينها بالبنايات العامة، حتى أصبحت الزوراء بجانبها كأنها البلد العتيق، تجتمع محاسنه في جزء من محاسن المدينة التي أحدثت في جواره.

ولقد أكبرت من بغداد بلوغ العمران فيها بما رأيت من ازدحام الناس بأنحائها، وتموجهم كالبحر في أرجائها، يقال: إن عددهم يزيد عن ألف ألف وخمسمائة ألف[٢٦] وهذا جمع لم يكن مثله ولا قدر نصفه في مدينة من العالم قط، فإنما يدل اجتماع الناس إلى هذا القدر العظيم على أن ليس في المدن أيمَن[٢٧] ولا أيسر من الموضع الذي تَكوَّفون فيه تكوُّف الرمال، ثم أعظمت بلوغ النعيم في أهلها بما رأيت من توفر أرباب الغايات عندهم على الفنون التي لا تقتصر الحاجة منها على ضروريات العمران، وإنما تتوسع المنفعة من صناعتها ومصنوعاتها إلى مطالب الترف الذي يقع في الأمم عند استكمال دولتهم واستفحال أمرهم.

وإنه يتعذر عليَّ بهذا القلم الذي لا مادة فيه أن أصف مفاخر المدينة[٢٨] التي قُلَّ ما تصيبه من الشرف أنها تزهو ببهاء السلطان، وتضم إليها من عيون الأعيان كثيرًا، حتى إذا لقي السائر جماعة منهم في الطريق لم يفطُن لهم من حيث الكثرة مع أن أقلهم في الثروة والجاه يتعذر على أكبر المدن أن تحمل سكناه وتسع جنده وحاشيته والطامعين إليه من كل الوجوه[٢٩] فلقد يمشي أهل النعمة فيها بالغلمان[٣٠] والحاشية إلى عدد يتوهمه السامع بعيدًا عن الصدق، فشاهدت في محلة العتَّابية[٣١] أميرًا قد ركب في مائة فارس وأحدق به الغلمان حتى ملئوا الطريق وسدُّوا على الناس سبيلهم إلى أن مرَّ، وشاهدت في مشرع القصب[٣٢] على دجلة فتى من أهل النعمة قد سار بموكب عظيم من الخيل والرَّجْل كأني به قيصر على مركبه أو كسرى في جلال موكبه، وربما عدَّ المحصي في ولد العباس أكثر من ألف رجل[٣٣] يركبون في مثل هذا الجمع، وكلهم في سعة من الثروة وترف من الحضارة، وإنما ساد العمران عند البغاددة إلى حد الترف تشبُّهًا بما يرون من الرشيد في إقباله على الدنيا بطلب النعيم، حتى يصدق المثل الذي يقول: «الناس على دين الملك.» فهو الذي ألبس الدنيا هذا الجمال بسعة عطائه، ولم يُسْمَع عن الخلفاء مَن كان أسمح منه ببذل المال.[٣٤] يقال: إنه ينفق على طعامه في كل يوم عشرة آلاف درهم،[٣٥] وربما اتخذ له الطباخون ثلاثين لونًا من الطعام،[٣٦] وقد أخبرني أبو يوسف أنه لما بنى بزبيدة بنت جعفر اتخذ وليمة لم يسبق

مثلها في الإسلام، وجعل الهبات فيها غير محصورة حتى كان يهب أواني الذهب مملوءة بالفضة، وأواني الفضة مملوءة بالذهب ونوافج المسك وقطع العنبر، وبلغ جملة المنفق فيها من بيت المال خمسة وخمسين ألف ألف درهم، وأمر أن تُجلَى زبيدة في درع من الدُّرِّ لم يقدر أحد على تقويمه بثمن، وزيَّنها بالحُليّ حتى لم تَقدِر على المشي لكثرة ما عليها من الجوهر، وهذا شيء من الإسراف لم يسبق إليه أكاسرة الفرس ولا قياصرة الروم(٣٧) ولا صِبْية الأمويين مع ما تقلبوا فيه من المال الكثير.

ومن جمال الدنيا في هذه الأيام أن الرشيد لا ينفرد وحده بكثرة الإنفاق والتبذير؛ فإن زبيدة زوجه تصنع أعمالًا تفوق مقدرة الملوك، كمثل اصطناعها بساطًا من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع الأجناس، وصورة كل طائر من الذهب، وأعينها من يواقيت وجواهر، يقال: إنها أنفقتْ عليه نحوًا من ألف ألف دينار(٣٨) وكمثل اتخاذها الآلة من الذهب المرصع بالجواهر، والثوب من الوشي الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار، والقباب من الفضة والأبنوس والصندل عليها الكلاليب من الذهب الملبَّس بالوشي والديباج والسَّمُّور وأنواع الحرير، وكمثل اتخاذها شمع العنبر واصطناعها الخفَّ مرصعًا بالجوهر واتخاذها الشاكرية من الخدم يختلفون على الدواب ويذهبون في حاجاتها ورسائلها(٣٩) إلى غير ذلك من الأمور التي تدون في سير الملوك؛ لتعظيم موضعهم من السلطان وذكر ما تقلبوا فيه من الطيبات.

ولم أر مثل هذا الترف في غير دور الخلافة إلا عند البرامكة الأمجاد، وإليهم ينتهي جمال الملوك وإشراقهم، فإذا عزموا على الركوب جلس الناس لهم حتى يروهم أكثرَ مما يجلسون للخليفة، ولقد رأيت بعض صبيتهم بباب المُحَوَّل من الجانب الغربي(٤٠) في موكب عظيم وقد طُرِّز ملبسه وبين يديه الجند والغلمان، والحَفَد والأعوان، وهو واضع طرفه على مَعْرَفة فرسه، والناس ينظرون إليه وهو لا يلتفت إليهم كبرًا وجلالة، وكان الرشيد نفسه إذا حضر مجالسهم وهو بين الآنية المرصعة، والخزائن المجزَّعة، والمطارح من الوشي والديباج، والجواري يرفُلن في الحرير والجوهر ويستقبلنه بالروائح التي لا يُدْرى ما هي لطيبها، خُيِّل إليه أنه في الجنة بين الجمال والجوهر والطيب.

وقد انتهى ترف شبابهم إلى الغاية التي لا وراء بعدها من التمتع بسعة النعيم، وربما كانت مجالس الطرب في دورهم أجلَّ منها في دار الرشيد وأجمع لمعدَّات اللهو؛[٤١] لأن عندهم الغواني[٤٢] اللواتي لا مثيل لهن في البلاد، ولا سيما فَوْز، وفريدة[٤٣] ومَنَّة،[٤٤] وهن أظرف القيان غناء وأحسنهن ضربًا بعود.

واعلم أن الغناء من قَبلِ البرامكة ما كان يُعلم في دور الأمراء لغير الصفر والسود[٤٥] فلما نشأ أولادهم أحبوا أن يعلموه الجواري الحسان؛[٤٦] ليزيد جمالُهن في الغناء تأثيرًا في النفوس، وقد أخبرني نافذ من بعض حجابهم أنه لما زارهم الرشيد في يوم من أيام فراغه، أخرجوهن إلى البستان فاصطففن مثل العساكر صفين صفين، وغنَّيْنَ وضربنَ بالعيدان ونقرن على الدفوف إلى أن طلع إلى مقاصير القصر.

ولا نعلم عن أحد الملوك السالفين أنه نال من الطيبات ما هو موفور عند ملوكنا في هذا الزمان، فكأنما بغداد قد ألقتْ جوانبها على مهاد الدعة، ووجدت لأهلها أسباب النعيم والكِبر[٤٧] بما توفر عندهم من المال.

ترف البغاددة وانغماسهم في طيبات العيش

يتوفر الترف عند العظماء من أرباب الدولة، ثم ينقص شيئًا فشيئًا عند مَن هم أقل منهم في الجاه، إلى أن يبقى منه نصيب لعامة الناس، وهم، وإن لم يكونوا بموضع هؤلاء الملوك من جلالة قدر لهم واتساع نعمة عندهم، أخذوا يُمتِّعون أنفسهم من الطيبات في جميع وجوهها، بعد أن تغربوا بالأسفار التي أكسبتهم التجارب وأرتهم العجائب، وأوجدت لهم التجارات والمكاسب، فصار الناس من الجهات يقصدونهم بأفخر ما عندهم من جميع الأجناس إلى أن عمرت عندهم الأسواق، وتطرقوا من التماس الحاجات لضرورة العمران إلى اقتناء الأشياء للزينة والمباهاة، كابتياعهم السلاح المنزَّل بالذهب، وتنافسهم في الجواهر الثمينة والآنية المزخرفة والمتاع الفاخر، واقتنائهم العدد الكثير من الغلمان والقيان، إلى غير ذلك مما كانوا يوجهون رُسُلهم في طلبه من الجهات،[٤٨] فلما حُمِل إليهم كل غالٍ ونفيس من البلاد تحقق لديَّ أن

محاسن الدنيا قد اجتمعت في بغداد.

ولقد شهدتُ سوقَ الجواري بُعيد عودتي من خراسان، وقد أقيمتْ في الموضع المعروف بسوق النخَّاسين[٤٩] وهم الرجال[٥٠] الذين يجلبوهن من أطراف الدنيا إلى بغداد، فرأيت فيهن الحبشيات والروميات والجُرجيات والشركسيات والعربيات مِن مُولَّدات المدينة والطائف واليمامة ومصر ذوات الألسنة العذبة والجواب الحاضر، وكان بينهن الغانيات اللاتي يُعرفن بما عليهن من اللباس الفاخر الذي لا غاية بعده[٥١] وبما يتخذن من العصائب التي ينظمنها[٥٢] بالدر والجوهر ويكتبن عليها بصفائح الذهب.

ولقد يخال الناظر لأول وقوفه بهذه السوق أن بيعهن إنما هو جارٍ عليهن من قبيل الظلم والاسترقاق، غير أنه لا يستقر في هذا الوهم الطارئ بعد أن يرى تطارحهن على أهل النعيم، ولقد سمعتُ أن بعض الغواني المترفات يتخلصن سرًّا من حيث لا يُحببن المُقام، ثم يأتين السوق متواريات عن عيون الرقباء إلى أن يقع سوقهن على أحد من الناس، ومواليهن بهن غير عالمين، فيتصرف النخاسون في بيعهن مثل تصرف التجار ببضائعهم، وإذا وقع سوقهن على رجل قبض بيده على يد النخاس كما هي العادة المألوفة في البيع والشراء، ولقد وقفت في ذلك اليوم والدلال ينادي بمن حوله من الراغبين ويصف لهم الجارية بعد الجارية بأحسن ما يكون من أوصاف الجمال،[٥٣] وكانت الضوضاء مرتفعة والسوق رائجة.

أعود إلى ما كنت بصدده من ذكر البغاددة في ترفهم المفرط، فإني رأيتهم يزينون مجالسهم بالفرش الفاخر والمتاع الثمين، ويُلبسون حيطانها الوشي والديباج، ويعنَوْن بغرس الأزهار في جِنانهم، حتى إنهم ليجلبون لها الرياحين[٥٤] من بلاد الهند، فيصير من هذه الجنان ما يقوَّم ثمن البستان الواحد منها بعشرة آلاف دينار،[٥٥] ويتخذون غلمانهم من أظرف الناس وأخفهم نشاطًا، ويميلون إلى اللهو والطرب بما قد ذكرت من إقبالهم على اقتناء القيان، ويفتنُّون في ملاذِّ الطعام إلى أن يشتروا الصيد في غير أوانه، والثمارَ في غير إبَّانها بما يزن مثله فضة، ويتمتعون بالذوق في غير طعامهم بما

يمضغون من الطيب وورق التانَبول الهندي الذي يمزجونه بالنورة المبلولة مع الفَوْفل؛ لتطييب النكهة وتشهية الأكل وإحداث الطرب والأريحية في النفس(٥٦) ويتخذون مقاعدهم في أوانِ الحَرِّ بين الماء المتدفق من صور السباع وأشكال الطيور وأشكال التفاحات وغيرها، مما ينقشون في الرخام فإذا ما أصابت الأجساد منها الرطوبة الوافية بترويح النفس اتخذوا في السقوف مراوح(٥٧) يعملون لها حبالًا تجرها، فيجذبونها فيهب عليهم النسيم البارد، ويستجيدون في اللباس والزينة وركوب الخيل بالديباج والحلية الثقيلة من الفضة إلى الغاية التي لم تبلغها الأمم المترفة من قبلهم.

دخولي على هارون الرشيد

لقد ذكرت لك عن بغداد باليسير من الكلام ما فيه دلالة على عظيم ما صارت إليه في هذه الأيام، فأكتب الآن إليك ما يأتي به القلم عن دولة الرشيد وما يقابلني به من جميل العطف والإحسان، فإني مضيت إلى داره في ذلك اليوم الذي وصلت فيه إلى الحضرة، فأصبت ابن البواب جالسًا في حُجُرات الحجاب، وهو الذي يخلف الفضل بن الربيع على حجابة الخليفة(٥٨) فلما رآني أوسعني سلامًا وتحية، ثم جاوزني إلى قصر الرشيد، وهو قصر بناه(٥٩) لنفسه تجاه دار الضيافة(٦٠) من دور الخلافة، وقد استجاد فرشه وأفرغ العناية في تجميله بأفخر أنواع الزينة، وأقام فيه الأساطين التي يصطف بجوانبها الغلمان(٦١) وقد بناه على دجلة بحيث يسمع صوت الذين يعبرون في الزوارق(٦٢) وكثيرًا ما كنت إذا زرته بعد ذلك أصبته جالسًا إلى الشُّباك يستمع غناء الملاحين في الزَّلالات(٦٣) فلما دنوت منه بادرت إلى يده فقبلتها فضمني إليه بالتحية والسلام، وأقبل يلاطفني برقيق الكلام.

وكان الرشيد طويلًا، عَبْل الجسم، أشقر اللحية، عليه مهابة الملوك وجلالتهم(٦٤) وعيناه وقَّادتان كأنهما لسانان ناطقان، فإذا أصغى لمتحدث بين يديه حوَّطه ببصره حتى لا يجد سبيلًا إلى أن ينطق في حضرته بغير صدق، فلما وقفت بين يديه أمر الفرَّاش(٦٥) أن يأتي بما أتكئ عليه(٦٦) وهذا تعطف من الخليفة لا يكون إلا للبرامكة

وأبي يوسف وجلة المشايخ من ولد العباس، ثم إنه استدناني(٦٧) إليه وأخذ يحادثني بما يستعذبه من أحوال صباه، ويحفظ لي بنفسه من جميل الذكر، وأنا أجيبه على ذلك بما تقتضيه جلالة الخلافة، إلى أن ذكر لي حديثه عن خراسان، فأخبرته عما كان هناك من الاختلال، وأن الفضل رتَق الفتْق الذي دبَّره أهلها بالمِحال، وأطلق يده فيهم بالضرب والنكال، وكنت عندما ذكرت ذلك قد بادرت إلى سيفي كما جرت العادة بألا يكلم الخليفةَ أحدٌ بما فيه الوهن إلا بادَر إلى سيفه؛(٦٨) تعظيمًا للأمر وقيامًا بواجب الإجلال، فقال: سبحان الله! قد أوصينا الفضل بهم خيرًا؛ لأنهم محبون لنا،(٦٩) وهم سيوف دعوتنا وأنصار دولتنا، ومَن لهم حق الدالَّة علينا وحرمة الوسيلة عندنا، فقلت: يا أمير المؤمنين إنَّ الفضل أخاك لم يمكن السيف في رقابهم إلا بموافقة القُوَّاد الذين إذا ما شاورهم في الأمر وقع بالموافقة من نفوسهم مقاتلةُ خوارجَ قد تراخت بهم الحال، وصارت فتنتهم إلى سوء المآل، فلما ذكرت له ذلك أعرض عن الإفاضة في هذا الحديث، وأخذ ينكُت الأرض بشيء في يده، ثم قال: وهذه مصلحة التجارة، فما الذي يكتب إلينا الفضل عن لزوم حراستها بالجند؟ فقلت له: إن في خراسان تجارةً تباع بأبخس الأثمان فإذا أمن السابلةُ الأعرابَ جلبوا خيراتها إلى العراق، واتجروا بها مع أمم البحر، فقال: حسنٌ، ولكن لنا أعداء ينبغي أن نكون منهم على حذر، ولا نرفع عنهم سيف الإسلام، ونحن ساهرون عليهم ومرتقبون لهم بالجند؛ إذ لا بدَّ للرَّاعي من حراسة الرعية،(٧٠) ولقد يكفي التجارَ ما أمنَّا لهم من السُّبُل في غير الديار العران، وما احتفرنا لرَكْبهم من الركايا، وأوجدنا لهم من المناهل في البلدان العامرة التي نحب أن تكون سوق التجارة فيها دائرة، وأما تجار خراسان وما إليها من البلدان النائية فإنا لا نحسب زكاة أموالهم كافية لمصلحة الجند ووافية بأرزاقهم.

وكان الرشيد على مهمة هذه المفاوضة عنده يقطع حديثه مرة بعد مرة، ثم يُقبل على نفسه بالتأمل والفكرة، فأوهمت أنه يرى فيها مسألة تتقبض نفسه دون بسطها إليَّ، فإذا الأمر على خلاف ذلك، وإنما كان مشغول الخاطر بما أقلق أباه قبله من أمر الولد وإيثار بعضهم على بعض بالخلافة،(٧١) فاتفق وأنا بالخلوة معه أن دخل عليه

خادمه العبد، فتفرَّسه الرشيد وقال له: ما وراءك يا مسرور؟ فقال: ما تحب يا أمير المؤمنين، ثم قام مقامه الذي كان إذا قامه علم الرشيد أنه يريد أن يُسارَّه بشيء،(٧٢) فأومأ إليه بالدنوِّ، فألقى في أذنه كلامًا ثم تنحى، فقال لي الرشيد: هذا خادمنا الأمين، نرتاح إليه في الأسرار والمهمات، لم يحدثنا جهرًا بحضورك ولكنه سارَّنا في أمر مما أخذنا من تقديم المأمون على الأمين بالولاية؛ لأننا نرضى سيرته ونأمن ضعفه،(٧٣) ونعرف فيه حزم المنصور،(٧٤) ونُسْك المهدي، وعزة نفس الهادي، مع أن بني هاشم يميلون إلى الأمين، وأنشد: (٧٥)

أخــاف التــواء الأمــر بعــد اســتوائه وأن يُــنقض الحبــلُ الــذي كــان أُبرِمــا

فلما رأيت بلوغ القلق في نفسه من هذا الأمر، تقدمت إليه فيما تقدَّم به يحيى إلى أبيه(٧٦)والفضلُ إليه(٧٧) من مبايعة الولد بعد الآخر، مع علمي بأن ذلك أمر لا يجري فيه الوفاق، ولا يتم على الوجه الذي يريده الرشيد بعدما رأينا من العباسيين تطاولهم في أمر الخلافة ونقضهم العهود التي كانوا يكتبونها على أنفسهم في حدود الله والآدميين، فهذا أبو جعفر(٧٨)لما رسخت دولته، ومضت في الناس كلمته، لم يجد من نفسه رادعًا، فخلع ابن عمه من الولاية وصيرها إلى المهدي من بعده، فلما ولي المهدي بحيلة الربيع، وأخذ في استمالة الناس بما فرَّق فيهم من المال، لم يجد منهم عند إظهاره أغراضه فيهم إلا المتابع له والموافق على خلع ابن عمه كما علمت، ثم لما صارت الخلافة إلى الهادي وفي أعناق المسلمين المبايعة للرشيد بعده أراد أن يخلعه(٧٩)عنها ويصيرها إلى جعفر من أولاده لولا ما أجراه يحيى – رعاه الله – من الدراية والحيلة المباركة كما علمتُ بعد الأوبة من خراسان.

وإنما كان المأمون أحقَّ بالولاية من الأمين؛ لأنه أكبر منه بأيام وإن لم تكن أمه هاشمية مثله، فلو صارت الخلافة إلى مَن هو أصغر منه وهو حاضر، لم يصبر على ذلك، فكان يخشى الرشيد من تقديم الأمين عليه بالولاية وقوع الفتنة بينهما وزوال الخلافة عنهما جميعًا إلى الواقفين لها من أهل البيت، أو إلى مَن كان أقرب الهاشميين

إلى استخلاف أبي العباس، فإن عمَّ عمِّ عمِّ الرشيد إلى ثلاثة أعمام حاضرون فعبد الصمد بن علي عم العباس بن مُحَمَّد والعباس عم سليمان بن المنصور وسليمان عم هارون(٨٠)فهؤلاء هم المرتقبون للخلافة والواقفون لها بالمرصاد، فلا تسعُ الرشيدَ مخالفتُهم في تقديم المأمون على الأمين، وإنما يرجع إلى الرأي الذي تقدمت به إليه؛ فتطمئن نفسه من بقاء الخلافة في بيته، ومصيرها إلى مَن يحب(٨١)من أولاده.

الموازنة بين الرشيد وأبي جعفر

هذا فصل أفرده لذكر سياسة الرشيد، وبيان الموازنة بينه وبين أبي جعفر(٨٢)إن صحت المقابلة بينهما؛ فإني لم أجد في الملوك مَن جمع فنون السياسة إلى عقل الملوك وفضلهم(٨٣)وحكمتهم ودهائهم مثله، تجتمع محامده في قُربه من الخير وبُعده عن البغي الذي كان طبيعة في أبي جعفر وبعض العباسيين، حتى إذا صار إليه الأمر، كان أول ما أصدر من الأمر أن تُعاد إلى الناس الضِّياع التي اغتصبها آباؤه، وتُردَّ الأموال المغصوبة إلى أهلها في جميع النواحي والأمصار(٨٤) فلو لم يكن له من المآثر غير هذا لكفى الناس فرجًا ورحمة واسعة، بعد ما شملهم من المكروه في خلافة أبي جعفر وما استمر عليه المهدي من حفظ الضياع المقبوضة عنهم، إما لطمع في استغلالها، وإما استصوابًا لسياسة أبيه حتى لا يقال عنه: إنه ظلم العباد في أموالهم.

ثم يصح تفضيل الرشيد على أبي جعفر بما هو آخذ في سياسته من الصدق وحفظ المودة ومكافأة المحسنين على إحسانهم، حتى إنه ليزيد عماله تجلَّة كلما عظُم قدرهم واستفحل في الإسلام ملكهم، فهذا رَوْح من أمراء آل المهلب، لما عظم في الدولة أمره، ودانت الرقاب المتطاولة له، أفرغ النعمة الواسعة عليه، وجعل الولاية من بعده إرثًا في ولده، وكذلك إبراهيم من أمراء الأغالبة، لما تمكن سلطانه من أهل المغرب أمَّره على إفريقية إلى أطراف الثغور، وجعل له الولاية في بيته؛ ليكون ممتنعًا على العدو وكفيلًا برد الفَرَنْجة إلى ما وراء البحر، وهذا أمر يدل على الحكمة التي فيها مصلحة الملة، وإن كان وراءه من استقواء الأغالبة خوفٌ ما كان ليصبر على

مثله أبو جعفر مع ما عرفت له من التيقظ وسوء الظن بالعمال، فإن كان المنصور يحتال للأمر حتى لا يقع فيه، فإن الرشيد يحتال لما يقع في يومه من الأمور على وجه يكون فيه توطيد الدولة وتعزيز الإسلام.

ولقد سمعت مَن يقول: إن الرشيد يقتفي سيرة جده في السياسة، وذلك مردود عندي؛ من حيث امتناع المماثلة بين الحلم والظلم، وإلا فإن كان الرشيد يُمضِي بالعدل أحكامه ليستميل الناس بالإحسان إليهم حتى لا ينصرفوا عن طاعته، كما كان أبو جعفر يأخذهم بالعسف حتى لا يستطيعوا مغالبته، فما الغاية المقصودة من سياستهما إلا واحدة، غير أن سياسة الحلم خير من سياسة القتل والظلم؛ إذ يكون لصاحبها من دالَّة الرعية غِبطة يُحرَمها البغاة الذين في نفوسهم مرض من الظلم؛ إذ يحجبهم عن رعيتهم سِتر الخوف، ثم يقتلهم استنكار مَن حولَهم من الناس والأشياء، كما تقدم في الكلام على أبي جعفر.

أما سياسة الرشيد مع أهل البيت فيظن فيها خروج عن العدل لاستمراره على هضم حقوق الذرية، وإن لم تكن مُجْراة على ما رسم أبو جعفر من تتبعهم في كل الوجوه، فإنما كانت تختلف عنها بما تختلف فيه السياستان بين اللين والعنف، ولقد كنت أساير الرشيد في بعض الأيام، فقال لي: بلغني أن العامة يظنون بي بُغْضَ عليِّ بن أبي طالب، فوالله وتربة أمير المؤمنين أبي، إني ما أحب أحدًا حبي له، ولكن هؤلاء – يريد آله – أشد الناس بغضًا لنا، وسعيًا في فساد دولتنا، بعد أخذنا بثأرهم من بني أمية، ومشاركتنا إياهم فيما حوينا، حتى إنهم أميَلُ إلى بني أمية اليوم منهم إلينا، فكنت في ذلك الوقت بعيدًا عن الوثوق بصحة هذا الإيهام، ولكن ظهر لي بعد ذلك أنه لا يروم إقصاءهم إلا على غير مكروه يُصيبهم، وأنه لو قدر أن يرفع عنهم الضيم الذي يلحقهم من جور العباسيين، وهو موقن ببقاء الخلافة في يده من غير منازِع له فيها، لَفعلَ وطابَ بذلك نفسًا، فلقد علمتُ أن المكروه الذي ألمَّ بيحيى بن عبد الله بن الحسن إنما كان بسعاية أقاربه من العباسيين الذين لم يَسعْه مخالفتُهم، وهو بموقف يخاف منه الفتنة، وكذلك مقتل موسى بن جعفر الإمام لم يقع من نفسه برضاه؛ لأنه لم

يكن متهَمًا في بدعة ولا ظَنِينا على دِخْلة مكروهة، ولما قتلوه في حبسه، أظهروا أنه مات حتف أنفه، ومشى الرشيد في جنازته إلى باب التبن حيث مقابر قريش فويق نهر عيسى الهاشمي، فكنت أحيط به في ذلك اليوم مع البرامكة، فسمعتُه يترحَّم عليه، ويُظهِر براءته من دمه، غير أن تغاضيه عن هذه المؤامرة، وإن هو لم يدخل فيها غَرَرٌ يُسأل عنه يوم الحساب؛ لأنه يجب على خلفاء النبي ﷺ أن يتبعوا سنته التي هي العدل، ولا يتسامحوا في قتل الأبرار الذين هم ذريته الصالحة وسلالته الشريفة، رضي الله عنهم أجمعين.

هذا ما صحت فيه الموازنة بين سياسة الرشيد وأبي جعفر إلى الغاية التي يرجوانها جميعًا من تأييد الدولة بها، وإن لم تتوافق إليها السبل، وقد وجدت للرشيد – أعزَّه الله– فضلًا في تدبير المملكة أحق بالثناء الجزيل، وأبقى للذكر الجميل مما رأيناه لأبي جعفر – غفر الله له – بما ينال الرشيد من المشقة في ركوبه إلى أطراف المملكة لتفقد ثغورها، والنظر في تظلُّم الناس من ثِقَل يقع عليهم في الخراج، أو ضيم يلحقهم من جور العمال، فإذا صار إلى البلدان العالية مما وراء خراسان حيث لا يعرف اللسان العربي؛ أخذ التراجمة[٨٥] معه حتى لا يفوته شيء من أمر الرعية، فهو يحج سنة ويغزو سنة، كذلك عادته من يوم ولي الخلافة[٨٦] قال الشاعر يمدحه على بُعد هذه الهِمَّة منه: [٨٧]

فمـــن يطلـــبْ لقـــاءك أو يُـــرِده ففـــي الحـــرمين أو أقصـــى الثغـــور

وقال الآخر: [٨٨]

أَلِـــفَ الحـــجَّ والجهـــادَ فمـــا ينْـــ ـــفَكُّ عـــن غـــزوتين في كـــل عـــام

وربما رام في أسفاره أو بالزوراء أن يعرف ما يدور بين الناس من الأحاديث والأخبار؛ فيتخفَّى في زي التجار،[٨٩] ويطوف الأسواق مع جعفر وزيره ومسرور خادمه؛ لاستطلاع ما لا يصل إليه خبره من أمر السوقة والعوام؛ فنجم عن عنايته بهذا الأمر كثير من الفوائد التي صلَحت بها دولته ورعيته جميعًا، فقد قال جعفر –

أعزه الله: إنا ما ضبطنا بغداد بالشرطة، ولا عنينا بتقدير الأوزان، وتمييز المغشوش من السكة إلا بما وجدنا من الاختلال في تطوافنا بين الناس.

البرامكة نُكْتة محاسن الملة وعنوان دولتها

وهذه السياسة التي يباشرها الرشيد إنما هي بإشارة البرامكة الذين رفعوا منار الإسلام[٩٠] بصلاح مشورتهم إليه في أمور الخلافة؛ ولذلك صيَّر إليهم النيابة في الدولة[٩١] والنظر في ديوان الحسبان والترسيل لصون أسرار الدولة، وحفظ اللسان في بلاغتهم بعد أن فسد عند الجمهور من أهل الأمصار بعض الفساد[٩٢] فصار جعفر يُسمَّى بالسلطان إشارة إلى عموم نظره في عموم الخلافة؛ لأن الخطط كله بيده إلا الحجابة لم تكن له لاستنكافه عنها؛ لأن صاحبها يقف بالوفود عند الحدود في تحياتهم وخطبهم والآداب التي تلزم بين يدي أمير المؤمنين[٩٣] وذلك مما ينزه نفسه عنه، وهو بالموضع الذي علمت من جلالة القدر والقيام بسياسة الدولة.

ولقد كان يحيى – أعزه الله – قائمًا بأَوَدِ الوزارة من قبلُ، وهو الذي قلد الرشيد الخلافة بحكمته ودرايته[٩٤] حتى إذا استوثق له الأمر قال له: أنت أجلستني في هذا المجلس بيُمْنك وبركتك، وقد قلدتني الأمر يا أبت، ثم دفع إليه خاتمه وقلده أمر الرعية بأن يحكم بما يرى، ويعزل مَن يرى، ويستعمل على الولاية من يرى، وفي ذلك يقول إبراهيم الموصلي النديم: [٩٥]

ألم تـــر أن الشـــمس كانـــت مريضـــة فلمـــا أتـــى هـــارون أشـــرق نورُهـــا
تلبَّســـت الـــدنيا جمـــالًا بملكـــه فهـــارون واليهـــا ويحـــيى وزيرهـــا

فكانت سياسة هذا الشيخ المبارك منصرفة إلى تقويم الدولة في المشرق حبًّا في الرشيد أن تعظم في الإسلام صولته، على حين لا يحرم أهل البيت قيام ملكهم فيما وراء البحر، مع ما يكون في ذلك من حقن الدماء الطاهرة، وسلوك السنن الشريفة؛ فأنتج له حسن نظره أن يطوِّق أمر الجند إلى غير العرب الذين لا يقدرون بنفوسهم على كبح عنان الثائرين من إخوانهم بما يكون بينهم من القرابة والدالَّة، فلقي دون

بلوغ غرضه من هذا الأمر صعوبة كادت تفضي إلى الفتنة، بما وقع من الضغائن بينه وبين يزيد بن مزيد(٩٦) وغيره من أمراء الجيش، إلا أن الرشيد كان على موافقته(٩٧) فيما يرى فيه مصلحته، فإذا فتح الناس عليه باب الفرقة؛ أرسل إليهم الفضل أو هَرْثَمَة بن أعْيَن(٩٨) فجبرا الواهي في أقلَّ من طرفة عين.

ثم استقال يحيى من الوزارة بعد أن أدركه الشيب، ففوَّضها الرشيد إلى الفضل ثم إلى جعفر(٩٩) بعده، وعهد بالمراتب إلى إخوانه وأقاربهم(١٠٠) وهم بمكان من الفطانة(١٠١) التي توارثوها مع المجد طِرافًا وتِلادًا، فقاموا بأودِ الوزارة وجمعوا إليهم مراتب السيف والقلم، يقول سَلْم الخاسر(١٠٢) في شرف الدولة بمحاسن عقولهم:

إذا ما البرمكيُّ غدا ابن عشر ... فهمَّتُه أمير أو وزير

إلا أنه كان منتهى نظرهم في السياسة(١٠٣) إلى جعفر؛ هذا السلطان، وهو حاضر الرَّوية، مؤيَّد البديهة، جامع لخصال الخير مؤتمن على الأسرار بارع في مهمات الأمور، وليس في أهل الأدب من هو أذكى(١٠٤) ولا أفطن، ولا أعلم بكل شيء، ولا أفصح لسانًا، ولا أبلغ في مكاتبةٍ منه، خَلقٌ جميل، وأَصلٌ نبيل، وعِلمٌ جزيل، وكان الرشيد يقدمه على الفضل بما يُسرع في استنباط الحيلة لتدبير ما يطرأ على المملكة من المهمات الصعاب، كما يقول فيه الشاعر:

وزير إذا ناب الخلافةَ حادثٌ ... أشار بما عنه الخلافةُ تصدر

ووجدتُ في نفس الرشيد من الميل إليه؛ بحيث إنه لم يكن له صبر على مفارقته في ساعة من نهار أو ليل(١٠٥)وإذا دخل أجلسه على سرير الخلافة بجانبه وأجلس بني هاشم على الكراسيِّ والوسائد(١٠٦) دونه، وربما قدَّمه في المشورة على أحب أهل بيته إليه، حتى إنه لا يعهد إليهم بولاية ولا يصلهم بمال إلا برأيه ورضاه، وقد وقع لعبد الملك بن صالح من كبراء بني هاشم(١٠٧) أن الرشيد غضب عليه فقصد باب البرامكة، فقال له جعفر: أنت تقصدني، فهل من حاجة تبلُغها مقدرتي وتحيط بها نعمتي فأقضيها لك؟ فقال عبد الملك: نعم، إن في قلب أمير المؤمنين عليَّ موجِدة،

أحب أن تخرجها من قبله، وتُعيد إليه جميل رأيه فيَّ، فقال له جعفر: قد رضي عنك أمير المؤمنين، وزال ما عنده منك. قال عبد الملك: وعليَّ أربعون ألف دينار دينًا. قال: هي لك حاضرة من مال أمير المؤمنين؛ لأني أُجِلُّ قَدْرك عن أن يصلك بالمال غيرُه، قال: وابني إبراهيم تُخاطِبه فيه حتى يرفع الألوية على رأسه. قال: لِتَطِبْ نفسُك؛ إن الرشيد قد ولاه مصر، أو قال: ما شئت من البُلدان، فانصرف عبد الملك وهو يتردد بين العجب من جعفر والإعجاب به، حتى إذا كان الغد دعاه الرشيد وأمر له بأربعين ألف دينار، وكتب سجل ابنه على مصر(١٠٨) فهذا أمر يدلك على مكانة جعفر عند الرشيد وما له من الماتَّة المرعية والشفاعة المقبولة عنده، بحيث إنه يضمن عنه ضمانات لا يجد بدًّا من وفائها، كما يدلك أن مشاركته في الملك لا تقف على حدِّ السياسة فيما يبديه له من رأي جميل أو تدبير حسن، وإنما يتناولها في أكثر الأحيان بما بينهما من الدالَّة التي ليس مثلها بين الإخوان(١٠٩) فما أذكر أني رأيت الرشيد في مجلس يطيب له نفسًا بغير محضره(١١٠) بل كثيرًا ما رأيتهما يتبادلان لباس الحلة الواحدة(١١١)ويجلسان معًا على محبة ومصافاة خُلَّان.

وإن كان ليحيى فضل في تقويم هذه الدولة فإن لجعفر فضلًا في تدبير مملكتها أتمَّ وأجمل في عين الرشيد، وقد أغناه بنفاذ سلطانه في المشرق عن أن يطمع في الاستيلاء على بلاد المغرب، ثم يبيت على خطر الفتنة التي لا يأمن إن حدثت أن تبقى الخلافة في يده، فلم يكن بُدٌّ لصلاح أمره من سلوك السبيل الذي مهَّده له جعفر؛ لتتم له الفائدة التي رامها أبوه في تقويم الدولة وبلوغ غرضه منها في المشرق، فوقفت مصلحة الدولة والإسلام جميعًا على أن يتبع الرشيد هذه الخُطة التي كان ليحيى فيها الفضل السابق والمقدَّم، ولجعفر من بعده الفضل اللاحق والمتمِّم.

ولقد شملت عناية جعفر خطط الدولة كلها بين مراتب سيف وقلم، إلا أنه كان إلى تدبير المملكة وتنظيم الدواوين(١١٢) أشدَّ منه عناية وأقرب ميلًا إلى النظر في مصلحة الجند وهم الفُرسان الذين لم يرَ لهم مع ما هو مطبوع فيهم من نخوة الجهاد، التي لا يطيق الأعاجم مناجزتها فيهم، إلا أن يصرف إليهم أرزاقهم في إبَّانها ويرضيهم

بسعة العطاء من غير مال الخليفة [١١٣] بما يقتصد فيه من نفقات الدولة. وأما مآثره في تدبير المملكة فإنها تتناول ضبط الأموال وترتيب ديوان الأعمال والجبايات[١١٤] على غير ما رسم أبو عبد الله في كتابه[١١٥] على الخراج، وإنما اقتصد من النفقة قدرًا أبقاه للزيادة في أرزاق الجند، وأقام على السجلات قومًا مهرة في الحساب؛[١١٦] ليجد الموازنة بين ما يدخل بيت المال وما يخرج منه، وجعل لهذا الديوان شُعبًا ترجع مصالحها إليه، كديوان الخراج وديوان الضِّياع والنفقات[١١٧]وغير ذلك، وأحب أن تحفظ دفاتر الخليفة للمراجعة؛[١١٨] لينظر فيما يُتَصَرَّف فيه بموازنته للدخل الذي دُوِّن في سجلات الديوان.

ثم توسعت عنايته من الاهتمام بمصالح الدولة إلى النظر في أمر الرعية والرفق بهم وإدخال الراحة عليهم، وصحَّ عنده مساواة الناس بالأحكام التي لا تفرق بين المسلم وغير المسلم[١١٩] إلا فيما هو مأخوذ على أهل الذمة من العهود المحفوظة، وأقام رجالَ العدالة في جميع البلدان لكتابة العقود على روابط الشرع[١٢٠]ليكون في ذلك حفظ حقوق الأمة وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم من الكفالة ونحوها[١٢١]وأمرهم بأن يجلسوا في الدكاكين والمصاطب؛ ليسهل وصول الناس إليهم؛ فتجرى معاملاتهم على سَنَن العدل الذي يروم أن يشملوا به نفوسهم كما تشملهم به الدولة فكان – أعزه الله – يقول[١٥] الخراج عمود الملك، ما استُغْزر بمثل العدل، وما استنزر بمثل الظلم.

ثم إنه نظر في صلاح الزوراء ودسَّ فيها العيون بإمْرة عبد الله بن مالك صاحب الشرطة[١٢٣]لملافاة الخلل الذي يطرأ عليها من وفود الأغراب واختلاطهموأقام العسس[١٢٨]

بالليل لحراسة الدروب[١٢٦] إلى أن وقع الأمن في أحيائها، وخيم السلام على أرباضها، وذلك يندر أن يكون في مدن الأعاجم ومحاشد مللهم، فلقد ينمى إلينا عن قاعدة الروم أن المكروه نازل بها كل يوم لا محالة، مع أنها محتَشد النصرانية ومباءة الملوك الذين حازوا معظم الدنيا فيما سبق لهم من زمن العز والصولة، ونحن لا نريد بذلك أن

الروم قوم جهلة لا نظام لملكهم، مع أنهم حَمَلة العلم المتقلبون في مهاد العمران على سعة واستقامة من الملك، غير أن الترف قد غلب على عامتهم حتى لا سبيل إلى ردعهم عن معاقرة الخمر وكبح عنانهم عن ركوب الأهواء.[١٢٧]

ولما وضَح للرشيد فضل هذا السلطان فيما أصلح به الملة والدولة جميعًا بلغت منه الثقة به إلى أن يطوِّقه السلطةَ التي تقارن سلطته ويشترك فيها معه، ففوض إليه القضاء بمجلس المظالم، وهو القضاء الذي كان يباشره الخلفاء،[١٢] من الأمويين بنفوسهم، ثم المهديُّ من بعدهم، كما رأيت في موضعه من الكتاب، فصار جعفر يجلس[١٢٩] بجانب الرشيد على سريره، ويشاركه في توقيعه على القصص التي يرفعها الناس إليه ولكن بالعبارة التي يتنافس[١٣٠] في بلاغتها العلماء.[١٣١] فمن بعض ما حفظتُ له من هذه التوقيعات التي جرت مجرى الأمثال توقيعه في قصة رجل شكاه بعضُ عماله إليه: «قد كثُر شاكوك، وقلَّ شاكروك، فإما عدلت وإما ١٤١
عتزلت.»[١٣٢] وتوقيعه في قصة قوم قطعوا الطريق: إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ الآية[١٣٣]ووقَّع إلى بعض عماله: «اجعل وسيلتك إلينا ما يزيدك عندنا.» ووقَّع في قصة محبوس: «العدل أوقعه، والتوبة تُطْلِقه.»[١٣٤] ووقَّع في قصة متظلم: «طبْ نفسًا؛ فكفى بالله للمظلوم ناصرًا.» ووقَّع لرجل اعتذر عنده من ذنب: «قد قُدِّمتْ طاعتُك، وظهرتْ نصيحتُك، ولا تغلب سيئةٌ حسنتين.» ووقَّع وقد قرأ كتابًا فاستحسن خطه: «الخط خيط الحكمة، ينظم فيه منثورها، ويُفصَّل فيها شذورها.» ووقَّع في قصة متنصح: «بعض الصدق قبيح.» ووقَّع في قصة رجل تظلم من بعض عماله: «أنا لَمِثْلُه حتى ينصفك.»[١٣٥] ووقَّع في قصة قوم شكَوْا سوء جِوار بعض قرابتهم: «يرحل عنكم.» ووقَّع إلى بعض عماله: «أنصِف من وَلِيتَ أمره وإلا أنصفه منك مَن وَلِي أمرك.»[١٣٦]ووقَّع في قصة رجل استأذنه في الحج: «من سافر إلى الله نجح.» إلى غير ذلك من التوقيعات التي يتداولها الأدباء[١٣٧] إلى أن تبلغ القصة الموقع عليها عشرين درهمًا ثمنًا[١٣٨] في أيدي الناس، وهذا ما أكتفي بذكره من مآثر هذا السلطان الذي ليس له ند في الرجال، وقد فضل الملوك قاطبة بالعلم والعقل

والسياسة[139] وزاد الرشيد عزة ومنعة على نحو لم نره قِدمًا في دول الخلفاء؛ فتولى الله مكافأته عن المسلمين والإسلام بما هو واسع له من الجميل، وجعل المجد لائذًا بجنابه، والسعادة حافَّة ببابه. آمين.

صلاح التجارة والمعاملة

أخرج بك قليلًا عن موضوع السياسة إلى بيان المعاملة الرائجة بين الناس بقدر ما يسمح لي المقام، فإنه لما توفرت في أيديهم الأموال بما كسبوا من الفتوح العظام، وقد نزلوا الأمصار التي كانت مستودع الدَّعة عندنا ومستقر ملاذِّ الروم فيما مضى لنا ولهم من ذلك الملك الغابر؛ فتحولت طباعهم من الخشونة إلى نعومة العيش، وأخذوا يتأثَّلون الكسبَ ويطلبون حاجات الترف من جميع البلدان بما تيسَّر لهم من أسباب الاتصال في زمن الخلفاء، فما أتمَّ الرشيد العناية بتأمين السبل لقوافلهم وتمهيدها لسفر تُجَّارهم، حتى حملوا تجارة الدنيا إلى العراق، فحملوا من الهند آنيتها، ومن أصبهان وشيراز ويَزْد شرابها[140] ومن خُراسان حديدها، ومن كَرْمَان رَصاصها، ومن قشمير النسيج الملوَّن، ومن الصين الكَمْكام والعود والمسك والسِّنور والسروج والغضائر والدارصيني والخَوْلَنْجان، ومن اليمن العطر[1]وأنواع الطيب، ومن فارس السلاح والمصوغات، ومن عَيْذاب اللآلئ[142] ومن الوقواق الذهب والآبنوس، ومن الهند والسند القُسْط والقنا والخيزُران والكافور والعود والجوزبوَّى والقَرَنْفُل والفاغره والكَبَابة والنارَجيل[143] والثياب القطنية والمُخْمَلة والفيلة، ومن سرنديب ألوان اليواقيت وأشباهها والماس والدر والسُّنْباذَج الذي يُعالَج به الجوهر[144] ومن ناحية الجنوب البقَّم الداريُّ، ومن البحر الغربي المَرجان ويكون بأرض الفَرَنجة، ومن الروم المُصْطَكا والغِلمان والرقيق[145] ومن الشام الفاكهة والسلاح والحديد الذي يُقلَع من جبل لبنان، ومن الروسيا جلود الخَزَر والثعالب يأتي بها الروس إلى بغداد عن طريق سورية أو عن طريق جرجان[146]ثم تحمل إلى أصبهان والجزيرة وآمد ونصِيبين[147] ويتَّجر بها.

هذه هي تجارة الشرق[١٤٨] قد حُملت إلى العراق، وأما تجارة الغرب فقد تعذَّر نقلها؛ لبُعد المسافة وترامي الشقة؛ ولذلك كان يرى الرشيد فتح البحر عند السويس[١٤٩] حتى يقرِّب المجال من المغرب إلى عمان فسيراف ففارس فأطراف العراق، ولا سيما أن على البحر الرومي سواحل إفريقية وتونس ومصر وطرابلس والأندلس إلى الغرب والجنوب وسواحل صقلية والفرنجة إلى الشمال، وسواحل الروم والشام إلى الشرق، وإنها لبلدان كثيرة الخيرات، وافرة الغلات، فكان الرشيد يروم أن يحمل تجارتها إلى بغداد على مراكب البحر من طريق السويس، ولكن جعفرًا — أعزه الله — قد ثناه عن هذا الأمر وخوَّفه أن تصل سرايا الروم وسائر الفرنجة إلى جدة؛ فيخربون المواطن المشرَّفة[١٥٠] على حين لا يتوقع لقدومهم أثر، فقال جعفر: «يا أمير المؤمنين، إن خرق السويس خرقٌ في الإسلام، ولو أنك وجدته مخروقًا بأيدي الملوك الذين سبقوا الخلفاء؛ لوجب عليك اليوم سدُّه؛ لأن مصالح التجارة لا تقضي على الإسلام بتضييع الفتوح التي دانت له ببذل الدماء.» وهذا رأي لا يبدو إلا لمن رُكِّب فيه إسجاح الخليقة ومعدَلة النظر؛ فإن العلماء كلهم قد ضلوا عن إدراك ذلك، وإنما خوَّفوا الرشيد علوَّ البحر الرومي على بحر القُلْزم، وأنه إذا ريم خرق ما بينهما طمى البحر على أرض مصر وأغرق عَيْذاب والنوبة وسواحل اليمن والحجاز، ولكن قولهم بعيد عن الصحة، لما يعلم عن بحر الظلمات إلى ما وراء الأندلس أنه لم يطمِ ماؤه على سواحل البحر الرومي مع كونه يعلوه من حيث الإقليم، فما يثبت عند العاقل إلا أن سطح البحور متساوٍ في الشمال والجنوب، ولم يُسمع ببحر أخفض من غيره إلا بحر لوط في أرض الأردن من إقليم فلسطين، ولكنه ليس بالبحر الواسع ولا بالأوْقِيانوس المحيط، وإنما هو مياه تصب في متحدِّر من الأرض.

ولما اتسع نطاق التجارة في بغداد أصبحت موردًا لأهل الإعواز من البلاد كافة يتناولون فيها حاجتهم من المال، فوقع غشٌّ فاحش في التجارة وصارت الصيارف من اليهود[١٥١] وغيرهم[١٥٢] يعطون مالهم بالربا على أن يُعاد عليهم المثل في آخر العام مثلين[١٥٣] وأكثر منهما، فأقام الرشيد محتسِبًا يطوف بالأسواق ويفحص عن الأوزان

والمكاييل وينظر في معاملات التجار[١٥٤] أن تكون جارية على سَنَن العدل، حتى لا يتحامل الشرفاء على الوضعاء ولا الأغنياء على الفقراء؛ إذ الواجب على الملوك أن يمهدوا سبيل الارتزاق لأهل الحاجة أكثر منه للمتموِّلين المنسلخين للتجارة الذين نراهم يتعرضون لشراء السلع والتجارات بما يفرضون لها من الثمن البخس ثم يبيعونها بما يشاءون من الغلاء، فإن ذلك احتكار يُفضي إلى فساد العمران، كما مر في موضعه من الكتاب، وقد أخبرني الرشيد في بعض مجالسي إليه أنه يروم أن يُصلح معاملة التجار ويغير تقدير الدنانير على وزن واحد صحيح[١٥٥] ولكنه لم يباشر ذلك إلى هذا اليوم، مع أنه أصلحُ ما يكون للعمران، وإن كان ضرب السكة في الإسلام قد حدث عن نكاية وقعت ضغائنها بين عبد الملك بن مروان وقيصر الروم كما هو معروف[١٥٦] فقد أصبح اليوم من الضرورة أن تقدَّر أوزانها بعدما ساءت المعاملة في تأدية الخراج والبيع والشراء.

وقد كان العرب يتعاملون قدمًا بالذهب والفضة وزنًا[١٥٧] وبين أيديهم دنانير الفرس والروم التي يقال لها: الكِسروية والقيصرية، فلما ذهبت سذاجة الإسلام، وصارت الخلافة إلى ملوك أمية، وقد أغفلوا أمر المعاملة بما تشاغلوا به من أمور نفوسهم، تفاحش الغش في التجارة وصارت تنسب إلى الروم سكة ليست من ضربهم ولا من ضرب الفرس فيما ابتدع الناس من دنانير كسرى وقيصر، فعني عبد الملك بتمييز المغشوش من الدنانير والدراهم، فضرب السكة في دِمَشْق[١٥٨] وصرفها في جميع النواحي والأمصار، ولكن من غير أن يقدِّر أوزانها، فبقي منها الخفيف[١٥٩] والثقيل وما هو بين بين، ولذلك لم تسهل المعاملة بها بين التجار، حتى إذا تنبَّه لما فاته من تقديرها على وزن واحد، وأحبَّ أن يُميِّز القديم منها عمد إلى تعيين السَّنَة على السكة المقدَّرة بعد أن كان يضربها خِلوًا من التوقيت إلا «بركة الله» في أحد الوجهين واسمه في الوجه الآخر، وهذا كان منشأ الخلاف في أول مَن ضرب السكة التي ليس فيها توقيت، فيقول بعض الناس: إنها من ضرب عمر بن الخطاب[١٦٠] ويقول غيرهم: إنها لمصعب بن الزبير[١٦١] ويقول بعض: إنها لمعاوية بن أبي سفيان، ويزعمون أنه صوَّر

نفسه عليها متقلِّدًا سيفًا(١٦٢) كأنه فاتهم عِلْمُ موضعه من الخلافة وحرصُه على متابعة الملة والشرع، إلا أن ما يذهبون إليه من هذه الأقاويل ليس بمجمع على رأي منه، ولم يقع إليَّ من الدنانير الموقوتة إلا ما ضرب هذا الخليفة المقدم ذكره في السنة السابعة والسبعين من الهجرة النبوية المشرفة، وعليه جرى الخلفاء بعده في ضرب السكة، بأن يرسموا فيها: «بركة الله» من وجه(١٦٣) وعلى دائره: «مُحَمَّد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.» واسمهم من الوجه الآخر يحوِّطونه بتعيين السنة وذكر البلد الذي يضربون فيه السكة.

وأما الأوزان المقدرة فإن المسلمين كانوا يتعاملون بالدرهم الطَّبَري وهو أربعة دوانق، والدرهم المغربي وهو ثمانية، والدرهم اليمني وهو ستة، والدرهم البغلي «وهو الذي يقال إنه ضرب في خلافة عمر – ﷺ – على وزن الدراهم الكِسروية»، وهو ثمانية دوانق، فأمر الحَجَّاج أن ينظر الأغلب في المعاملة، فكان البغلي والطبري، وهما اثنا عشر دانقًا، فاتخذ ما بينهما لضرب السكة وقدر الدرهم ستة دوانق، وأما وزن مثقال الذهب فهو درهم وثلاثة أسباع درهم، حتى إذا جمع عشرة دراهم كان وزنها سبعة مثاقيل(١٦٤)والناس يتعاملون بالسكة لزماننا هذا على تقدير الحَجَّاج، إلا أن ما في أيديهم منها مختلف الأشكال، فلا تتناول الدولة منهم في الخراج إلا الدنانير العباسية والدنانير المسماة بالخالدية(١٦٥) واليوسفية والهُبَيْرية، وهي أجود النقود التي ضربها بنو أمية(١٦٦) على يد عمالهم في العراق مثل أبي هبيرة ويوسف بن عمر وغيرهما؛ ولذلك رأى الرشيد أن يقدرها على وزن واحد صحيح حتى لا يبقى للغش في التجارة مجال، ولا يحصل عنف في جباية المال.

زينة الدولة بالعلم والأدب

هذا إلماع بذكر محاسن دولة الرشيد، وإنها لدولة خيرٍ وصلاح كما علمت، فما حدَّث أهل الأخبار أن الإسلام كان في أية دولةٍ أعزَّ جانبًا ولا أوسع رقعة مملكة(١٦٧) منه في خلافة الرشيد، ولعمري، إنَّ الملوك الذين يتعهدهم النصر مثله في

جميع ما يباشرون من الأعمال قليل في العالم، فما رأيتُه – والبرامكةُ أعوان له – قد نُكِب في حرب قط، ولا توجَّهتْ عليه هزيمة، وإنما أعز الإسلام باجتماعه في المشرق كله إليه، ورمى ملوك الأعاجم بسهام بأسه حتى عصفت ريحه بهم من الروم وسائر الفرنجة، وهذا شرف للسيف لم ينله المسلمون فيما تقدم لهم من الدول السالفة مقرونًا بفضائل العلم وجمال الحضارة، وكفى بشرف دولته أنه اجتمع ببابه من الوزراء[١٦٨]والأمراء والقواد والعلماء والفقهاء والأدباء والخطباء والمُحدِّثين والقُرَّاء والرواة والشعراء والندماء والمغنين ما لم يجتمع على باب خليفة غيره مثلُه، فإن البرامكة أعوان دولته، وأبا يوسف قاضيه، وهَرْثَمة بن أعين أمير جنده، والعباس بن مُحَمَّد عم أبيه جليسه[١٦٩] ومروان بن أبي حفصة شاعره، والأصمعي محدثه، وأبا نُوَاسٍ نديمه، والفضل من آل الربيع حاجبه، وإبراهيم الموصلي وإسحاق ابنه مغنياه، وابن بختيشوع جبريل[١٧٠] وبني ماسويه أطباؤه[١٧١] والعلماءَ والأدباء كلُّهم قيامٌ على بابه لا يفارقونه في حضر ولا في سفر، حتى إنه ليطلب شاعره في أطراف الليل[١٧٢] فيجده ببابه مع غيره من محدث أو نديم.

وإنما قرب العلماءَ إلى الرشيد ما بنفسه من الميل إلى الأدب[١٧٣] والحرصِ على إحراز العلوم[١٧٤] حتى كانوا إذا اجتمعوا بداره سما إلى مناظرتهم[١٧٥]من حيث العلم والتواضع له، لا من حيث السيادة عليهم، وهو بموضعه الجليل من الخلافة، وأنا لا أريد بذلك أن التواضع طبيعة في نفسه؛ لأنه لو لم يأته الكبر من ناحية العلم لأتاه من ناحية السلطان، وكلاهما داعٍ إلى الإعجاب بالنفس، فكثيرًا ما كنتُ أراه إذا انتصب في عرشه يحتمل أن يُمدح بما يُمدح به الأنبياء، وهو لا ينكر ذلك ولا يردُّه[١٧٦] غير أنه ربما كان يبتغي بتواضعه للعلم مع ما هو مطبوع في نفسه من الإجلال له أن تحصل له الغاية التي يرومها من صلاح أمره باستمالة الأئمة من أهل العلم حتى يستقيم ملكه من ناحية القلم كاستقامته له من ناحية السيف.

أما أدبه وفضله وصحة ما عنده من النظر في تخيُّر ما يروق لديه من العلوم فهو الأمر الذي تقدَّم الإلماع إليه فيما مضى من الكتاب، ورأيته يتوسع في أدب اللغة إلى

أن يقول الشعر فيما يعرض له من تصورات أهل الغرام، فإذا دخلتُ عليه عرضَه عليَّ في سبيل الفكاهة، فمن ذلك قوله في جارية[١٧٧]تركية له:

يا رَبَّــــــةَ المنـــــــزل بالفِـــــرْك	ورَبَّــــــة الســـــــلطان والملـــــــك

ترفَّقـــــــــــي بالله في قتلنـــــــــــا	لســـــنا مـــــن الـــــديلم والـــــترك

وقوله في قينة له: [١٧٨]

تُبــدي صــدودًا وتُخفــي تحتــه مِقــة	فــالنفس راضــية والطــرفُ غضــبان

يا مَــن وضــعتُ لــه خــدي فــدلَّه	ولــيس فــوقي ســوى الــرحمنِ ســلطان

وقوله[١٧٩] في رثاء جارية رومية يقال لها هيلانة، وقد عَرَاه على فقدها من الحزن ما ضاق له الصدر، وفرغ دونه الصبر:

قاســـــيت أوجاعًـــــا وأحــــــزانًا	لمـــــا اســـتخصَّ المـــوت هـــيلانا

فارقـــت عيشـــي حـــين فارقتهـــا	فمـــــا أبالي كيفمـــــا كـــــانا

قـــــد كثـــــر النـــــاس ولكنـــــني	لســـــت أرى بعـــــدك إنســـــانا

والله لا أنســـــاك مـــــا حركـــــت	ريـــــحٌ بأعلـــــى نجـــــد أغصـــــانا

إلى غير ذلك، وكان من الفضل بحيث إنَّ مآدبه لم تخلُ قط من عالم أو أديب أو شاعر، وكان يستدعي إليه العمري والفضل بن عِياض[١٨٠] وابن السماك الكوفي[١٨١] وإسحاق الفزاري، وغيرهم من الأولياء، فيحاورهم في مسائل الدين[١٨٢] ويبكي[١٨٣] من مواعظهم، ويقوم بواجب الاحترام لعلمهم، حتى إذا جلس معاوية المحدِّث الضرير إلى طعامه، فاء من موضعه، وصبَّ الماء على يده تعظيمًا لقَدْر العلماء، فقال له معاوية: يا أمير المؤمنين، إن تواضعك في شرفك لأشرف من شرفك. [١٨٤]

أما زينة الدولة من الأدباء فثلاثة: إسحاق بن إبراهيم النديم، وعبد الله الأصمعي، والحسن بن هانئ المعروف بأبي نواس، وكلهم إمام في العلم، إلا أنه غلب

على إسحاق الغناء، وعلى أبي نواس الشعر، وعلى الأصمعي الأخبار والنوادر والملح.

فأما إسحاق فإنه بالمكان الرفيع من الأدب(١٨٥) وقد اتخذ خزانة كتب جمع فيها من مدونات العلم ما ليس عند الذين يُعْنَوْن بجمع صنف واحد من صنوفه مثلُه، ولقد رأيت عنده من كتب اللغة مثلًا ما ليس مثلُه في خزانة ابن الأعرابي(١٨٦) وله مقام سامٍ بين العلماء حتى إنهم ليُهدون إليه كثيرًا من تآليفهم ودواوينهم كأبي نواس وابن أبي عيينة(١٨٧) وابن الأعرابي(١٨٨) وغيرهم؛ تنشيطًا لعلمه وأدبه؛ لأن انصبابه على الغناء لم يكن حِرْفة للتعيُّش، وإنما هو ميل بنفسه إلى محاسن الأدب والصناعة، فكان يترفَّع عن أن يغني إلا في دُور الرشيد والبرامكة، وكانوا إذا حضر مجالسهم يؤثرون محاورته في العلم على جلوسه إليهم في صفوف المغنين. (١٨٩)

ولقد كنت أسمع الرشيد يقول: لو لم يشتهر إسحاق بلقب المغني لوليته القضاء بين المسلمين(١٩٠) ووجدت في نفسه من جميل الميل إليه ما كان يحمله على أن يقصد داره(١٩١) على سبيل التحبب، ولقد كنت يومًا بداره وهي بباب الشَمَّاسية(١٩٢) من الجانب الشرقي تِلقاء قُطْرُبُل(١٩٣) فجاء الخليفة على حمار صغير أسود وهو الحمار الذي يركبه(١٩٤) في ساحات القصر وجَنَّاتِه للنزهة، ومعه خمسمائة نفر من خدمه وغلمانه وندمائه(١٩٥) فقام إسحاق بالواجب من إكرام وفادته(١٩٦) وأخرج الحلوى إلى خدمه بما كفى الجمع كله، ثم أشار إلى جواريه أن يجلسن للغناء، فقال الرشيد: لست أريد هذا، وإنما شوقٌ في النفس دعاني إلى الأنس بقربك.

وأما الأصمعي فإنه قدم بغداد(١٩٧) في خلافة الرشيد في جملة مَن وفد عليه من العلماء، وهو إمام في النوادر(١٩٨)والأخبار وأيام الناس مشهود له بصدق الرواية، ولقد حدَّث الرشيد يومًا عن ملوك بني أمية فقال: إن سليمان كان نَهِمًا إذا قُدِّم إليه السماط لا يصبر حتى يبرد، بل يتناول اللحم بكمه، وإن يزيد كان إذا جلس للشراب يسقط الخمر في ثيابه، فصاح به الرشيد: قاتلك الله، ما أصدقك في نقل الأخبار! والله إن ثيابهما عندي، وإن الدهن لفي أكمام سليمان، والخمر في ثياب

يزيد[١٩٩]على أنه لم يكن بيني وبينه مع طول المدَّة التي أقمتها في بغداد قرب ولا ائتلاف؛ لانقطاعه عن مجالس البرامكة، وإنما كنت ألقاه بدار الرشيد وأسمع ما يحكيه عن طرائف بغداد، فأراه لا يغفُل عن نادرة مليحة إلا يذكرها له، ولكن بالألفاظ التي تأخذ بمجامع القلوب، وكنت يومًا بين يديه وقد بَدَر من رجل ظريفة، فالتفتَ إليه الرشيد وقال له: حررها يا أصمعي[٢٠٠]وقد أخبرني بعض أصحابه أنه أقام في صباه بالبادية أيامًا طِوالًا يستطلع فيها عادات العرب، ويستكشف أخبارهم، ويستنطق آثارهم، وقد شاهد ما يُقيمون من المجالس والأسواق، وما ركَّب الله فيهم من السجايا والأخلاق، وما وقع لبناتهم مع الشعراء، فلما أقام ببغداد أخذ يحدث بكثير من أخبارهم ثم اشتُهر اسمه بين الناس بما هو آخذ بكلامه من الرشاقة والبلاغة، حتى صار عَلَمًا في المدينة، وصار يتفق له فيها من النوادر ما لم يسمع أحد بأعجب منه.

وأما أبو نواس فإن الشعر هو الذي يُقدِّمه اليوم عند الرشيد، وقد[٢٠١]كان أبو نواس يحدِّثه من قبل بنوادر الناس، ولكن من غير أن يفكّه بأعراضهم، ثم أعرض عن ذلك، فقال له ذات يوم: حدثنا يا أبا نواس، فقال: لا يحضُرني شيء، فقال: بحياتي[٢٠٢]إلا ما قلتَ شيئًا. قال: كان الكذب عملي واليوم هجرتُه يا أمير المؤمنين[٢٠٣]فضحك وقال: هذا أحب إليَّ من الحديث، وله كلام ظريف في المجون والخلاعة[٢٠٤]وحوادث تدل على خفة روحه، وكان إسحاق يتعصب له[٢٠٥]ويُشيد بذكره ويجهر بتفضيله، ويجلب له الرفد من الرشيد ويحط من قدر الأصمعي؛ لتنافس بينهما،٢٠٦ حتى أخذ المقام الأول بين الندماء، وبنى لنفسه الدُّور،٢٠٧ التي لم يبنِ مثلها عظماء الناس، بينما الأصمعي يستقرض من أصحابه٢٠٨ حاجته من المال.

ومن خِلال أبي نواس المأثورة أنه يميل مع أهل البيت سرًّا لا يجسر على المجاهرة به، وقد قيل له في إعراضه عن مدحهم: لقد ذكرتَ كل معنًى في شعرك، وهذا علي بن موسى الرضا في عصرك، لم تقل فيه شيئًا، فقال: والله ما تركت ذلك إلا إعظامًا له، وليس في قدرة مثلي أن يقول في مثله، وأنشد: [٢٠٩]

أنا لا أســـــتطيع مــــــدح إمــــــام كـــــان جبريـــــل خادمًـــا لأبيـــــه

وقد وقع تدوين هذه الرسالة في السنة الحادية والثمانين بعد المائة من هجرة النبي ﷺ، لثلاث خَلَوْنَ من شوال، والناس يتجهزون للخروج إلى الحج الشريف. أرانا الله بركته بمنه وكرمه.

الهوامش

(١) الرسالة المكتوبة في خراسان لم تطبع، والحديث هنا تابع لها موصول بها كما تراه.

(٢) كان في ذلك الوقت عامل خراسان من لدن الرشيد، كما هو مذكور في ابن الأثير.

(٣) محلة ببغداد ذكرها ابن خلكان ١ : ٣٠.

(٤) المسعودي ٢ : ٣٣٧.

(٥) وجدت في العقد الفريد (٣ : ٤٣ و٢٣١) لفظة الطويلة بمعنى القلنسوة.

(٦) ابن خلكان ٢ : ٤٥٠، والأغاني ٥ : ١٠٩.

(٧) الأتليدي ٧٩.

(٨) الأتليدي ١٤١.

(٩) الماوردي، والإسحاقي ٩٠.

(١٠) ابن الأثير ٦ : ٢٦، والمسعودي ٢ : ١٩٦، والفخري ٢٢١.

(١١) ابن الأثير ٦ : ٢٦، وأبو الفداء ٢ : ١٠، والسيوطي، والكنز ١٠٦.

(١٢) قضاة الشام.

(١٣) الأغاني ٦ : ٦٧.

(١٤) الأغاني ٣ : ٧٢.

(١٥) ابن الأثير ٦ : ٣٨.

(١٦) الأغاني ١٧ : ٧٢.

(١٧) الخميس، والمسعودي، والسيوطي.

(١٨) الحصري.

(١٩) الأغاني ٣:١٥٣.

(٢٠) المسعودي ٢ : ٢٠٢.

(٢١) العقد الفريد ٣ : ٥٤.

(٢٢) الأغاني ٥ : ٤.

(٢٣) الحصري ٢ : ٢٠١.

(٢٤) الأغاني ٥ : ٦.

(٢٥) قال ابن خلدون نقلًا عن الخطيب: إن الحمامات بلغ عددها في بغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام، وكانت مشتملة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تُجاوز الأربعين، ولم تكن مدينة وحدها يجمعها سور واحد لاتساع العمران.

(٢٦) في الأتليدي أنهم ألف ألف وخمسمائة ألف.

(٢٧) ابن الأثير ٦ : ٩٦، وأبو الفداء ٢ : ١٩.

(٢٨) يقول الحصري: إن أدباء العصر يصفون الجمال بقولهم: كأن بغداد مسروقة من حسنه وظرفه.

(٢٩) الأغاني.

(٣٠) الأغاني ٤ : ١٠٤، و٥ : ٨٤، وابن الأثير ٥ : ١٤١ و٢٣١ والمستطرف ١ : ٦٥.

(٣١) ذكرها ابن خلكان ١ : ٧٤١.

(٣٢) ذكره ابن خلكان ١ : ٧٩.

(٣٣) في مروج الذهب (٢ : ٢٥٩) أن المأمون أحصى ولد العباس سنة ٢٠٠ فكان عددهم من رجال ونساء وصغير وكبير ثلاثة وثلاثين ألفًا.

(٣٤) الفخري ٢٣٠، والخميس ٢ : ٣٣١.

(٣٥) المسعودي ٢ : ٣٤٢ و٢٢٠، والمستطرف ٢ : ٣٤١.

(٣٦) السيوطي، والعقد الفريد، وتزيين الأسواق، والمقدمة.

(٣٧) وجدت في بعض الكتب أن المأمون بن الرشيد اتخذ في قصوره ثلاثة آلاف وثمانمائة بساط منها ألف ومائتان مزركشة بالذهب، وغيرها مطرز بالحرير، واتخذ سبعمائة خادم منهم ثلاثمائة عبد أسود، فإن صحَّت الرواية فليس لذكر ترف الروم ولا الفرس موضع في جانب العظيم من ترف العباسيين.

(٣٨) المستطرف ١ :٩٨، وذكر أن التي صنعته هي أم المستعين.

(٣٩) المسعودي ٢ : ٤٠٢.

(٤٠) ذكر الأغاني ٦ :٧٨، والمسعودي ٢ : ٢٣٧.

(٤١) الأغاني ١٥ : ١٤١.

(٤٢) الأغاني ١٥ : ١٤١.

(٤٣) الأغاني ٣ :١٨٣.

(٤٤) الأغاني ٤ :٨٧.

(٤٥) الأغاني ٥ : ٩.

(٤٦) الأغاني ٥ : ١٤ و١٧.

(٤٧) ذكر ابن جبير (٢١٩) الكبر من عيوب بغداد.

(٤٨) ذكره تزيين الأسواق ١ : ٣.

(٤٩) الأغاني ٩ :١٢٨.

(٥٠) الأغاني ٥ :١٢٦.

(٥١) الأغاني ٢ :١٧٥، والعقد الفريد ٣ : ٤٣٩.

(٥٢) الكنز ٤٧.

(٥٣) الأغاني، وحلية الكميت.

(٥٤) ياقوت ١ :٦٨٧، والمسعودي ١ : ١٨١.

(٥٥) الأغاني ٥ :١١٥.

(٥٦) المسعودي ١ : ١٠١.

(٥٧) الكشكول، والأغاني ١١ : ٩٩، والعقد ٣ : ٢٣٥.

(٥٨) الأغاني ٢٠ : ٤٢.

(٥٩) الأغاني ٥ : ٣٣.

(٦٠) قصر من قصور الخلافة ذكره الأغاني ٦ : ١٣٣.

(٦١) الأغاني ٦ : ٧٦ و٥ : ٣٣.

(٦٢) الأغاني ٩ : ٦٧.

(٦٣) الأغاني ٣ : ١٧٧.

(٦٤) العقد، والخميس، والسيوطي، وابن الأثير.

(٦٥) ذكره الأغاني ٩ : ٦١.

(٦٦) ابن الأثير ٦ : ٣٨، والأغاني ٥ : ٢٣ و٩ : ٦١.

(٦٧) الأغاني ٥ : ١٠٦.

(٦٨) الأغاني ٥ : ٥٩.

(٦٩) العقد الفريد، وابن الأثير ٦ : ٧.

(٧٠) قالها الرشيد، وذكرها الوطواط ١٠١.

(٧١) ابن الأثير ٦ : ٥٨.

(٧٢) الأغاني ٥ : ٣٣.

(٧٣) المسعودي ٢ : ١٥، والمستطرف ١ : ٩٣.

(٧٤) الأغاني ١٧ : ٨٠.

(٧٥) الحصري ٢ : ٤٩، والمستطرف ١ : ٩٣.

(٧٦) المسعودي ٢ : ٢١٥.

(٧٧) الأغاني ١٧ : ٧٨، وابن الأثير ٦ : ٤٣.

(٧٨) ابن الأثير ٦ : ٥٨، وأبو الفداء ٢ : ١١.

(٧٩) ابن الأثير ٦ : ٥٨.

(٨٠) العقد الفريد ٣ : ٥٤.

(٨١) وهو المأمون عبد الله.

(٨٢) أجمع المؤرخون على أن الرشيد كان يقتفي سيرة جده في السياسة، ويطلب العمل بآثاره.

(٨٣) الفخري ٢٣٣.

(٨٤) الماوردي ١٥٦.

(٨٥) المقريزي ١ : ٨.

(٨٦) هو أمر معروف نجده في كتب المؤرخين، وزاد في العقد الفريد على ذكر حَجّه ماشيًا أنه لما مشى إلى مكة ومشت معه زبيدة كانت تبسط الدرانك أمامهما وتُطوى خلفهما.

(٨٧) أبو الفرج، والخميس ٢ : ٢٣١.

(٨٨) فوات الوفيات ٢ : ٣٩١.

(٨٩) الأغاني ٦ : ١٣٧، والأتليدي ١٢٦، والإسحاقي ٩١.

(٩٠) العقد الفريد ٣ : ٢٧.

(٩١) المقدمة ٢٠٧.

(٩٢) المقدمة، ويتضح ذلك من كتب الذين دوَّنوا اللغة في أيام الرشيد.

(٩٣) المقدمة ٢٠٧.

(٩٤) ابن الأثير، والفخري، والطبري.

(٩٥) المسعودي ٢ : ٢٠٧، وابن الأثير ٦ : ٣٩، والأغاني ٥ : ٤١، والمستطرف ٢ : ٩٧، والأتليدي ٩١، والمحاضرة ٢ : ١١٤، والسيوطي، وابن خلدون.

(٩٦) ابن الأثير (٦ : ٥١) يذكر انحراف بني شيبان عن البرامكة كما مر.

(٩٧) المقدمة ١٥٩.

(٩٨) راجع كتب المؤرخين.

(٩٩) المقدمة، والعقد الفريد.

(١٠٠) المقدمة، والعقد الفريد، ابن خلكان ٢ : ٣٦١.

(١٠١) المحاضرة ٢ : ١١٤.

(١٠٢) العقد ٣ : ٢٧.

(١٠٣) الوطواط ٢٤٩، وابن خلكان.

(١٠٤) الأغاني ٤ : ٨٥، والحصري ١ : ٣٧٥، والعقد ١ : ٣٧٢.

(١٠٥) الأتليدي.

(١٠٦) ذكر الوسائد يجلس عليها بنو هاشم بمجلس الخليفة، الأغاني ٤ : ٩٢.

(١٠٧) هو من القواد الذين غزَوا الروم وقد عقد الفداء مع نقفور في اللامس على جانب البحر على اثني عشر فرسخًا من طرسوس، واسترجع من أسرى المسلمين ثلاثة آلاف وسبعمائة (ابن الأثير ٦ : ٥٧).

(١٠٨) الأغاني ٥ : ١١٩، والفخري، والأبشيهي ٢ : ١٩٢، والعقد الفريد ٣ : ٣٤، والأتليدي ١٦١، وابن خلكان ١ : ١٥٢.

(١٠٩) الحصري ٢ : ١٠٢.

(١١٠) الأتليدي ١٦٩.

(١١١) الأغاني، والأتليدي، وابن خلكان، وابن خلدون.

(١١٢) إنما دون العرب الدواوين عملًا بطريقة الفرس من قبلهم، ولفظة الديوان فارسية كما هو معروف.

(١١٣) ذكر المسعودي (١ : ٨٢) أن الخليفة يعطي الجند من بيت ماله.

(١١٤) المقدمة ٢١٢.

(١١٥) ذكر الفخري هذا الكتاب ٦١٦.

(١١٦) المقدمة.

(١١٧) الأغاني ٩ : ٢١ و٢٦.

(١١٨) ذكر الأغاني هذه الدفاتر ١٤ : ١١٤.

(١١٩) الماوردي ٣٩٣.

(١٢٠) العقد الفريد ٢ : ٢١١.

(١٢١) المقدمة ١٩٦.

(١٢٢) العقد الفريد ١ : ١٣.

(١٢٣) ذكره الأغاني ١٧ : ٤٦، والمسعودي ٢ : ٢١٢.

(١٢٤) ابن خرداذبة ١١٦، الأغاني ٢ : ١٥٧.

(١٢٥) الأغاني ٧ : ١٩، والمستطرف ٢ : ١٨٦.

(١٢٦) المقدمة ٤١٩.

(١٢٧) وكان هذا من أسباب التواني في دولتهم.

(١٢٨) أبو الفداء ٢ : ١١، وابن الأثير ٦ : ٢٩، وأبو الفرج، والسيوطي، والفخري ٢١٢، والماوردي.

(١٢٩) الأغاني ٤ : ١٦٢.

(١٣٠) الكنز ٩٤.

(١٣١) ابن خلكان ١ : ١٤٧، والمقدمة ٢٠٧.

(١٣٢) ابن خلكان ١ : ١٤٧.

(١٣٣) العقد الفريد ٢ : ٢٣٣.

(١٣٤) العقد الفريد ٢ : ٢٣٢.

(١٣٥) العقد الفريد ٢٣٣.

(١٣٦) الوطواط ٣٥.

(١٣٧) السيوطي.

(١٣٨) المقدمة ٢٥.

(١٣٩) أعلام الناس، وابن خلكان ٢ : ٢٦١.

(١٤٠) العقد الفريد ٢ : ٣٤٤.

(١٤١) القزويني ٢٠٩.

(١٤٢) المسعودي ١ : ٣٩.

(١٤٣) ابن خرداذبة ٦٨.

(١٤٤) الأغاني ٥ : ٢٤.

(١٤٥) ابن خرداذبة ٨١.

(١٤٦) ابن خرداذبة ١١٦.

(١٤٧) ابن الأثير ٥ : ١٠١.

(١٤٨) الأغاني ٥ : ٢٤، وابن الأثير ٥ : ٢٢٥، والقزويني ٢٠٩.

(١٤٩) المسعودي ١ : ٢٩٩، والمقريزي في الخطط، والسيوطي، والمقدمة ٢١.

(١٥٠) السيوطي، والمسعودي.

(١٥١) الأغاني ٣ : ٨٥.

(١٥٢) الأغاني ٣ : ٨٣ و٥ : ١٦١.

(١٥٣) كليات ٩٩، والأغاني ٢ : ١٥٤.

(١٥٤) الأغاني ١٧ : ١٠٨.

(١٥٥) المحاضرة ٢ : ١٧٤.

(١٥٦) الأتليدي ٢٧٤.

(١٥٧) المقدمة ٢٢٧.

(١٥٨) ابن الأثير ٤ : ١٧٤.

(١٥٩) ذكر الدراهم الخفيفة الأغاني ١٠٤.

(١٦٠) المقريزي.

(١٦١) ابن خلدون ٣ : ٤٥، والماوردي ٢٦٩.

(١٦٢) الأتليدي نقلًا عن الدميري.

(١٦٣) الأنس الجليل ١ : ٢٤٠، والمحاضرة ٢ : ١٧٤، والأتليدي ٢٧٤.

(١٦٤) المقدمة ٢٢٧.

(١٦٥) الماوردي ٢٦٩.

(١٦٦) ابن خلدون ٣ : ٤٥.

(١٦٧) الفخري ٢٣٣.

(١٦٨) ابن الأثير، والفخري ٢٣٣، والخميس ٢ : ٣٣٢، والماوردي ٣٣.

(١٦٩) الخميس ٢ : ٣٣٢.

(١٧٠) الفخري، والمسعودي ٢ : ٢١١، وابن الأثير ٦ : ٧٥، والمقدمة ١٦.

(١٧١) أبو الفرج.

(١٧٢) الأغاني، والأتليدي.

(١٧٣) ابن الأثير ٦ : ٧٨، والفخري ٢٣٠، والإسحاقي ٩٠، والدميري ١ : ٩٥.

(١٧٤) الشرقاوي ٢٢٢.

(١٧٥) القزويني ١٠٦.

(١٧٦) السيوطي، والأغاني ٩ : ٨٦.

(١٧٧) الأغاني ١٢ : ١٨.

(١٧٨) العقد الفريد ٣ : ٢٥٧.

(١٧٩) السيوطي.

(١٨٠) المقدمة ١٥، والمستطرف ١ : ١٠١، والخميس ٢ : ٢٣١، والإسحاقي ٩٠، والسيوطي.

(١٨١) العقد الفريد.

(١٨٢) سراج الملوك ٣٠.

(١٨٣) ابن الأثير ٦ : ٧٨، والطرطوشي ٣٨.

(١٨٤) الفخري ٢٣١، والسيوطي.

(١٨٥) الأغاني، والحصري ٢ : ٢٠٦.

(١٨٦) ذكر ابن خلكان (١ : ٩٣) أنه كان عند ابن الأعرابي خزانة جمع فيها كتب اللغة.

(١٨٧) الأغاني ١٨ : ١٢.

(١٨٨) الأغاني ٥ : ٤٥.

(١٨٩) الأغاني ٥ : ٦٠.

(١٩٠) ابن خلكان ٩ : ٩١، وكتاب الأغاني.

(١٩١) الأتليدي ٢٨٦، والأغاني.

(١٩٢) الأغاني ٥ : ٧.

(١٩٣) ذكره المسعودي ٢ : ٣٨٥ و٣٩٧.

(١٩٤) الأغاني ٥ : ٣٠ و٤٦.

(١٩٥) ذكر ياقوت (٤ : ١١٨) أن الخليفة كان يركب في كذا وكذا رجالا وخدمًا.

(١٩٦) واتخذ الفرش من الخز المظهر بالسنجاب، كذا في العقد الفريد (٣ : ٢٤٠)، وهذا نص كلامه: «فدخلنا دار إبراهيم الموصلي فإذا هي لا أشرف منها ولا أوسع، وإذا بفرشها خز مظهر بالسنجاب.»

(١٩٧) ابن خلكان ١ : ٤٠٨.

(١٩٨) الشريشي ٢ : ٢٧٩.

(١٩٩) المسعودي ٢ : ٦٢٨، وابن خلكان ١ : ٤١٠، وتزيين الأسواق ١ : ١٤٣.

(٢٠٠) المسعودي ٢ : ٢١١، والأتليدي ٩٦، والعقد الفريد.

(٢٠١) وربما حفظ له شيئا من أبياته يتمثل بها في مجالسته الأدباء فلقد سمعته مرة يقول: لو قيل للدنيا: صفي لنا نفسك، وكانتْ ممن ينطق ما وصفتْ نفسها بأكثر من قول أبي نواس:

إذا امــــتحنَ الــــدنيا لبيــــبٌ تكشّـــفتْ   لـــه عـــن عـــدوٍّ في ثيـــاب صـــديق

ومــا النـــاس إلا هالـــكٌ وابـــن هالـــكٍ   وذو نســـــب في الهـــــالكين عريـــــقِ

العقد الفريد ١ : ٣٦٩.

(٢٠٢) كلمة يقولها الخليفة عند التحبب (الأغاني ٦ : ٧٥).

(٢٠٣) المستطرف ٢ : ١٠.

(٢٠٤) الكنز ٩٤.

(٢٠٥) الأغاني ٥ : ١٠٧.

(٢٠٦) الشريشي ٢ : ٢٧٤.

(٢٠٧) ابن خلكان ١ : ٢٩٥، والأغاني ٣ : ١٦١.

(٢٠٨) المستطرف (١ : ١٢٣)، وذكر المسعودي (٢ : ٢٢٣) أنه رئي في دار الأصمعي خباء مكسور وعليه دُرَّاعة خَلَقة ومقعد وسخ وكل شيء عنده رثٌّ.

(٢٠٩) ابن خلكان ١ : ٤٥٧.

الرسالة السادسة

بيت الرشيد

لقد مضى عليَّ في بغداد بعد العودة من خراسان نحو ست سنين ما زلت منقطعًا فيها إلى البرامكة، حافظًا لمقامي في الدولة تحت ظلهم وعنايتهم، وكنت أتردد في خدمتهم إلى دور الرشيد وهو يأنس بي في خلواته إلى أن صرت منه بالمنزلة التي لا يطمح إليها غيري من المقربين إليه، وكنت أقف على أمور بيته وأولاده، فرأيته – أكرمه الله – صالح السريرة، شديد الإغراق في الدين، محافظًا على أداء الصلاة في أوقاتها، وشهود الصبح لأول وقتها، يصلي في كل يوم وليلة مائة ركعة ولا يتركها إلا لعلة،[1] وأذكر أنه لما حصل في أحد الأعوام لَزْنة وغلاء سعر للناس واشتد عليهم الكرب اشتدادًا عظيمًا أمرهم بكسر الملاهي وكثرة الدعاء والتوبة،[2] وذلك دليل على موقع العبادة عنده، ومظهر يروم منه تأييد الدولة بإجلال الدين حتى يكون الإسلام مغتبطًا بمناحيه.

وإن كنت رأيت له في تدبير المملكة ذلك التصرف الجميل، فإني ما وجدته له في تدبير أهل بيته ومواليه، وإنما يرجع الرأي في ذلك إلى زوجه أم جعفر، وهي أنفذ نساء العباسيين كلمة في الدولة، وقد رَبِيَتْ في مِهاد الدَّعة والدلال كما يشير إليه اسمها، فإنما سماها أبو جعفر جدُّها بزُبَيْدة لغضاضة بدنها، وقد كان يُرَقِّصها تَهَلُّلًا وإعجابًا بملاحتها؛ فسماها بزبيدة لذلك،[3] فلما بنى بها الرشيد ووجدها طِرْفة حديث، ومصدر رأي جميل، لم يرَ بُدًّا من الانقياد إليها في قضاء ما ترومه من الحاجات[4] ومن ذلك أنه مكنها من بيوت المال؛ فأنفقت من سَعة ما يُنَيِّف على ثلاثين ألف ألف دينار؛ فبنت مسجدًا مباركًا على ضفة دِجلة بمقربة من دور الخلافة يسمى بمسجد زبيدة، ومسجدًا سامي الحسن في قطيعتها المعروفة بقطيعة أم جعفر[5] بين خراسان

وشارع دار الرقيق،[٦] وحفرت بالحجاز العين المعروفة بعين المُشاش،[٧] ومهدت الطريق لمائها في كل خفض ورفع وسهل ووعر، حتى أخرجتها من مسافة اثني عشر ميلًا إلى مكة، فبلغ ما أنفقته عليها ألف ألف دينار، وهذا من الأعمال التي لم تباشرها امرأة في الإسلام إلا الخيزُران أم الرشيد فإنها عمرت كثيرًا من المساجد[٨] أيضًا، وبنت بمكة دار ابن يوسف التي ولد فيها النبي ﷺ مسجدًا[٩] جزيل البركة، وتوافرت عندها الأموال حتى بلغ الذي خلفتْه مع ما توسعت فيه من النفقة مائة ألف ألف درهم[١٠] فإن لم يكن عند زبيدة من المال ما يبلغ هذا القدر الجسيم؛ فإن لها في السياسة رأيًا تسمو به إلى التدخل في أمور الدولة كأفطن مَن يكون من الرجال.

وقد صيَّر الرشيد أمْرَ بيته بعد زبيدة إلى مسرور خادمه العبد، وهو حاجبه وسيد مواليه[١١] وله في قصور الخلافة دواوين تقيم فيها حوزته من خدم وحرس وغلمان، والكاتب له زياد بن أبي الخطاب[١٢] يقيم بمقربة من مجلس يوسف بن القاسم صاحب ديوان الإنشاء[١٣] ومَن قام بين يدي الرشيد حين أُخِذت له البيعة، وفي ذلك دليل على مكان كُتَّابه من الشرف وعلو المرتبة، ولا غرو فإن له من نفوذ الكلمة ما ليس للأمراء والحكام مثلُه، إذ كان سيد دور الخلافة والحارس لها لا يدخلها شيء ولا يخرج منها إلا بإذنه ورضاه، وكثيرًا ما رأيت الملوك يتزلَّفون بالهدايا إليه؛ ليخاطب الرشيد في حاجاتهم؛ إذ ليس في أهل بيته من يتجرأ عليه سواه[١٤] حتى كان إذا ركب الخليفة لا يجسر أحد على سؤاله إلى أين يذهب غيرُه. [١٥]

وإلى مسرور الأمر فيما يختص بالسراري والقيان، وإنهن لكثير في دار الرشيد، يبلغن زُهاء ألفَيْ جارية[١٦] يرفُلْنَ في أحسن زي من كل نوع من أنواع الجواهر والوشي المذهب، غير أن المقدم عليهن جميعًا ثلاث أهداهن إليه الفضل بن الربيع: سِحر، وضياء، وخَنَث ذات الخال.

أما حريم الخلافة فإنه دوائر كبيرة لا اتصال لبعضها ببعض، ولكل هاشمية من بنات الخلفاء دائرة منفردة عما سواها من الدوائر، وأعظمها دائرة أم جعفر، لها قصر السلام كله، وهو أظرف القصور وأبهجها زينة وأجملها في العيون والقلوب موقعًا،

يقول فيه إبراهيم النديم: [١٧]

سُـقيت الغيـثَ يا قصـر السـلام ... فـنعم مَحَلـة الملـك الهمـام

لقـد نشـر الإلـه عليـك نـورًا ... وخصـك بالسـلامة والسـلام

ثم دائرة أولاد المهدي، ثم دائرة أولاد الهادي، ثم دائرة أولاد الرشيد من غير زُبيدة زوجه، ولهن جميعًا من الخدم والغلمان ما ينتهي إليه إسراف الملوك في السعة ويتجلى به جمال السلطان بالبهاء والإشراق، ولقد رأيت الجواري من خدم الهاشميات يتقلَّبْن في أطيب العيش والنعيم ويتخذن العصائب مُكلَّلة بالجوهر اقتداء بعُلَيَّة أختِ الرشيد إذ كانت أول مَن اتخذ العصابة لعيب في جبينها؛ فسترتْه بها فكان ذلك أحسن ما ابتدعه النساء. [١٨]

أما لباس الرشيد فهو لباس غيره من العباسيين السواد لا يتأنق فيه إلا بما تقتضيه الرسوم المحفوظة، وإنما ينصرف همُّه إلى لذة المطعم بالتأنق في صنوف الألوان، وقد جلست إلى طعامه[١٩] أكثر من مرة في مجلس كامل الزينة، قد فرشه بالرخام الأخضر، ولبَّس حيطانه بالوشي المنسوج بالذهب[٢٠] فرأيته يفتنُّ في طعامه، ولكن على غير شَرَهٍ في الأكل، يبدأ بالمرق من السِّكباج وغيره تنشيطًا لجسمه، ثم يأكل الفاتر[٢١] من الطعام من البقول وأشباهها، ثم الدجاج وأنواع الطير، ثم الشواء ثم أنواع السمك، ثم ما يطبخ بالتوابل من اللحم والبقول وغيرها، حتى تكاد مائدته لا تخلو من السنبوسق[٢٢] وهي رقاق تُحشى باللحم والدهن عليه التوابل من الفلفل والزنجبيل ثم تقلى في الزيت وتطرف بالخردل[٢٣] وهو يتخلل طعامه بتناول اليسير من التوابل التي تُشهّيه إليه. [٤٢]

فإذا اكتفى منه تناول الحلوى من الأسوقة والربيكة واللوزينج والفالوذج أو غيرها، ثم الفاكهة بعدها، ثم النُّقْل[٢٥] وهو الذي يتناوله بعد طعامه للتعلُّل، ولكن في الصحاف التي لم أرَ أظرف منها في آنية الصين ولا أغلى ثمنًا وقيمة، فكنت أحسب لشدة تأنقه في فنون المطعم أنه لو لم يَنْهَ النبي ﷺ عن الأكل في صِحاف الذهب

والفضة[٢٦] لاتخذها كذلك ونزَّل فيها اليواقيت والجواهر، فإذا اكتفى من التعلل جاءه الغلمان بماء الورد المُمَسَّك[٢٧] في قماقم الذهب مع شيء من الريحان فيغسل يديه ويتبخر، فإذا انتهى من الغداء دخل مخدعه للقيلولة[٢٨] وإذا فرغ من العشاء جلس للمغنين والندماء، كذلك عادته من يوم ولي الخلافة.

أما أولاد الرشيد فكلهم مُترَف يتقلب في النعمة والإسراف إلا أحمد[٢٩] فإنه يحاول العزلة ويقعد مقعد صُنْأة ويتكسب بيده فيما يقولون شيئًا ينفقه على نفسه مع مقدرة أبيه كلها[٣٠] أما القاسم فإنه ذو كِبر شديد ونعمة طائلة وبَذخ زائد، وإليه ينتهي جمال ولد الخلافة[٣١] وكان أبوه قد طوَّقه أمر الفداء الذي وقع بين المسلمين والروم بعيد عودتي من خراسان فجرى ذلك على يده[٣٢] وعمره يومئذٍ اثنتا عشرة سنة، فتزاحم ركب الملوك على بابه، ومكَّنه أبوه من بيوت المال فهو اليوم يتخذ القصور المزخرفة ويشتري الجواري[٣٣] والغلمان، ويقيم المجالس للشعراء والمغنين والندماء ويُقطعهم الضياع ويصلهم بما يشاء من الهبات[٣٤] إلى أن يصيب بعضُهم في ناحية ما لا يصيبه من جوائز الخليفة من المال.

أما الأمين والمأمون وليَّا العهد فإنهما دونه في الإسراف، ولا سيما الأمين؛ فإنه يوهم أنه كثير العقل وإن كان ضعيفه[٣٥] ويتخذ الوقار برقعًا لوجهه لما يُحدِّث به نفسه من أمر الخلافة، ولأنه ابن هاشمي وهاشمية وذلك لم يتفق لغيره من خلفائهم؛ فإن أبا العباس وأبا جعفر والمهدي والهادي والرشيد كلهم أولاد سراري[٣٦] وأما عبد الله المأمون فإنه زينة أولاد الرشيد، وسِمَتُه سِمَةُ خير وفضل وعفاف، لم أرَ في أبيه خَلَّة من الخلال المحمودة ولا خُلُقًا من الأخلاق الرضِيَّة إلا وجدتها في نفسه طبيعة تسمو به إلى أرفع مقام في أدب الدنيا والدين، ولم أرَ في أولاد الملوك غير البرامكة – أعزهم الله – مَن يتعشَّق العلوم الحكمية[٣٧] على حداثة سنه ويقيم بين العلماء لمناظرتهم[٣٨] في جميع أنواع العلوم مثله، فما أذكر أني دخلت عليه مرة إلا وقد لقيته في مجلس من العلماء والأدباء وهو متوسط فيهم كالشمس من حولها الضياء.

ولقد قصدت بابه من عهد قريب مع أمير من البرامكة، فألفيت بحضرته[]جماعة

من أئمة[٣٩] العلم ومنهم الخزيمي والعباس بن زفر ومنصور النمري، وهو السليم شعره من العيب لولا أن له طعنًا في الشيعة يبتغي به مرضاة العباسيين، ومُحَمَّد الراوية المسمى بالبيدق لِقصره وهو المنشد للرشيد أشعار المحدثين[٤٠]وفتًى من أمراء آل نوبخت يقال له: الفضل بن سهل وهو خليل المأمون[٤١]وصديقه، لا يصبر على فراقه في نهار ولا ليل، وإذا ركب في موكبه أركبه معه على النجائب المخضوبة بالحناء وعليها القطوع والديباج[٤٢]وكان بجانب المأمون جماعة من النحاة قد أحدقوا به إحداق الهالة بالقمر، منهم الكسائي وأبو مُحَمَّد مؤدِّباه[٤٣]وهم يتباحثون معه في مسائل نحوية، وكنت أسمعه يقول لهم: «زيد» على الرفع، والكسائي يقول: بل «زيدًا» منصوبة بإنَّ، فتطارح العلماء الجملة الإعرابية التي دار عليها كلامهم وهي: «إن من خير القوم أو خيرهم نية زيد.»[٤٤] فأجمع رأيهم على موافقة المأمون فتحققتُ فضله في ذلك اليوم وعرفت أنه يدخل العلوم من أبوابها وليس تطفلًا منه، كما يتبادر إلى العقل عن آداب المترفين من أولاد الملوك.

وكان هذا الأمير إذا جلس للاستراحة يثني انصبابه إلى ما يجد فيه من التسلية أدبًا وفائدة، ولم يكن شيء من الملاهي أحبَّ إليه من لعب الشِّطْرَنج[٤٥] يمارسه كأبيه؛[٤٦] لاستنباط الحيل فيه، حتى لم يكن في الناس من يفضُله فيه، وهو القائل في الشطرنج: [٤٧]

أرضٌ مربعــــة حمــــراء مـــن أدَم	مــا بــين إِلْفَــيْن موصــوفين بالكــرم
تــذاكرا الحــرب فاحتــالا لهــا شــبها	مــن غــير أن يســعيا فيهــا بســفك دم
هــذا يُغــير علــى هــذا وذاك علــى	هــذا يُغــير وعــينُ الحــرب لم تــنم
فــانظر إلى الخيــل قــد جاشــت بمعركــة	في عســكرين بــلا طبــل ولا علــم

وأما لعبه بالأكرة والطَّبْطابة، ورميه في البُرجاس النُّشَّاب، وكرُّه بالصوالجة في الميدان واقتناؤه طرائف الطير والخيل[٤٨] والحيوان، واتخاذه الديكة ليقاتل بعضها

بعضًا، والأكباش ليُناطح بها بين يديه إلى غير ذلك من ملاذِّ الملوك الذين يبلغون من الترف إلى أن يُعِدُّوا أمثال هذه الملاهي على سبيل المفاخرة والمباهاة؛ فإنه كان يتخذها لما يدعو إليه موضعه من الملك المترف، وهو غير غافل عن اتخاذ الأشياء التي تعود عليه من وراء الزينة والمكاثرة بفوائد من الأدب والصناعة، فقد عني بجمع آثار الملوك من ثياب وسلاح وآنية ومتاع وغير ذلك، حتى جمع من طرائفها القدر العظيم الثمين، رأيت في بعض مجموعاته صندوقًا أودعه خواتم الخلفاء جميعًا من العباسيين والأمويين والخلفاء الراشدين ومَن كان يقوم بدعوة الخوارج بعدهم وفي صدر الدولتين، فكان جامعًا لجميع خواتمهم(٤٩) إلا خاتم النبي ﷺ، ولو لم يكن ضاع من عثمان في بئر أريس كما تواتر في الأنباء،(٥٠) ما كفَّ عن طلبه حتى يجده، وفي هذا المجموع وأمثاله من المجموعات أدبٌ مع الفكاهة والزينة، وهذا ما أذكره من فضائل هذا الأمير، وليس هو إلا النزر اليسير في جانب الكثير الواسع من فضله وأدبه.

جمال البرامكة وانفجارهم بالكرم

أما دور ملوكنا – أعزهم الله – فإنها في الجانب الشرقي بإزاء دور الخلافة ليس بينهما إلا عرض دجلة،(٥١) وهي من الجمال والإشراق بمكان تُسامي(٥٢) به قصور الرشيد؛ لأنهم بنوها على السعة التي لم يبلغها أحد من الملوك فقد أنفق جعفر بن يحيى على دار بناها عشرين ألف ألف(٥٣) درهم، فهي مظهر الأنس والصفاء، ومشرق الأنوار والسناء، مغشَّاة بالرسوم والزخرفة من الداخل والخارج، وعليها صور من الجِصِّ المجسم(٥٤) وقد فرشت مجالسها بالوشي والإبريسم، وزينت بالمتاع الثمين والقماقم الذهبية(٥٥) والجامات المنقوشة(٥٦) والقوارير الفرعونية(٥٧) ولطائف الصين وغيرها من التحف التي تأتيهم من الملوك في سبيل المراضاة والاستمالة(٥٨) ولبست طيقانها بأستار من الديباج عليها أبيات مرسومة(٥٩) مما قالته الشعراء في مدحهم، وهي تأتيهم من مصنوعات الفرس؛ لأن العرب لا يعملون الطراز منذ نهاهم عنه عبد الملك بن مروان(٦٠) ولا يكتبون على البسط والستور إلا كلامًا يتبرك به، بخلاف الفرس فإنهم يزينون نسيجهم بالرسوم، ويكتبون فيها ما يطيب لهم من الشعر، أو يتبركون به

من الآيات.

وقد اتصلت عمارة البرامكة في حي لا يخالطهم فيه أحد، وهي من السعة بحيث تنتهي من الجنوب إلى شارع المدينة،[٦١] ومن الشرق إلى درب دينار الصغير[٦٢] ومن الشمال إلى باب الشمَّاسية،[٦٣] وهو الموضع الذي فيه قصر يحيى المعروف بقصر الطين،[٦٤] المسمى بذلك معارضة لما أنفق عليه من الذهب واتخذ فيه من الزينة والزخرفة، وفي جوارهم موضع يقال له: البَردان[٦٥] يشترون فيه الدور من الناس ويهبونها لمن هو طامع فيهم من أهل العلم والأدب؛[٦٦] لأنهم قد رفعوا بيوتهم على قواعد الكرم والسماحة،[٦٧] وأصبحت أعطياتهم كأعظم ما يكون من أعطيات الملوك، فإن يحيى إذا ركب يُعِدُّ صررًا في كل صرة مائتا درهم، ويدفعها للمتعرضين له في الأسواق والشوارع. [٦٨]وقد قالت الشعراء في ذلك:

يا سَمِيَّ الحصور يحيى أُتيحتْ ... لك من فضل ربنا جنتان

كل من مرَّ في الطريق عليكم ... فله من نوالكم مائتان

أما وقوف الملوك والأمراء على أبوابهم فمما لا تحضرني عبارة تفي بالإفصاح عنه، وإنما للعين أن ترى ازدحام الخيل في ساحات قصرهم واقفة بالخدم والحَفَد والغلمان مما ليس على باب الرشيد مثلُه، وإن إقبال المؤملين عليهم من جميع الوجوه وأبعد الآفاق يمتطون إليهم رحال الرجاء ويستقون من موارد إحسانهم، نهلًا وعللًا لَأَشهَر مِن أنْ أحاول نعته بالوصف الذي لا يُعبِّر عنه القلم، فكأنما بيتهم مَحَطُّ الركائب، يضعن فيه المدائح ويحملن منه المال.

ولقد رأيت من الأعراب مَن قصد الفضل من قُضاعة، فسأله عن حاجته فاستجداه عشرة آلاف درهم فاستقلَّ ذلك له وقال له: قد ازدريتَ بنا وبنفسك يا أخا العرب، وإنما تُعطى عشرة آلاف درهم في عشرة، فلما أخذ المال انصرف وهو يبكي، فقال له الفضل: ممَّ بكاؤك أستقلالًا للمال الذي أعطيناك؟ قال: لا، ولكنني أبكي على مثلك تواريه الأرض ويأكله التراب، وأنشد: [٦٩]

لَعَمْرُك ما الرزيَّة فَقْد مال ولا فرس يموت ولا بعيرُ

ولكن الرزية فقدُ حُرٍّ يموت لموته خلقٌ كثيرُ

فنظر إليَّ الفضل بعد انصرافه وقال لي: إن مثل هذا يقصدنا من البلد البعيد ليسترفدنا مرة واحدة في زمانه فيقوم بحرمة الصنيعة، ومن الأمراء من نَغْمُره بإحساننا كل يوم[٧٠] ثم يَغمِط النعمة ويدِبُّ فيه مرض الحسد فيكون من أشد الناس بغضًا لنا وسعيًا في فساد ملكنا.

وقد انفجر البرامكة بالكرم[٧١] حتى صار يُضرب بهم المثل الأكبر في سعة العطاء، فيقال: فلان من الملوك يتبرمك، وقد أخبرني الخازن القائم على بيت مالهم أنهم يُغِلُّون في كل سنة عشرين ألف ألف دينار[٧٢] فإذا انقضى الحول لا يبقى منها في الخزائن دينار واحد، فهم يتخذون الكرم قاعدة في الحالين من نعيم الدنيا وبؤسها. يقول أبو الفضل[٧٣]– أيد الله ملكه: إذا أقبلت الدنيا فأنفق؛ فإنها لا تفنى، وإذا أدبرت فأنفق؛ فإنها لا تبقى. وقال أبو نواس في مدحهم: [٧٤]

إن البرامكة الكرام تعلموا فعل الجميل وعلموه الناسا

وإذا همُ صنعوا الصنائع في الورى جعلوا لها طول البقاء أساسا

وقال فيهم نُصَيب: [٧٥]

عند الملوك مَضَرَّةٌ ومنافع وأرى البرامك لا تضُرُّ وتنفع

إن العروق إذا استسرَّ بها الثرى أَشرَ النباتُ بها وطاب المزرع

فإذا جهلتَ من امرئ أعراقَه وقديمَه فانظر إلى ما يصنع

وقال أبو النضير البصري:

إذا كنتَ من بغداد منقطع الثرى وجدتَ نسيمَ الجود من آل برمك

وقيل فيهم، وهو منتهى المديح:

أتانا بنـــو الآمـــال مـــن آل برمـــك فيــا طيــب أخبــار ويا حســن منظــر

لهــم رحلــة في كــل عــام إلى العــدا وأخــرى إلى البيــت العتيــق المســتَّر

إذا نزلــوا بطحــاء مكــة أشــرقت بيحــيى وبالفضــل بــن يحــيى وجعفــر

فــتُظْلِم بغــداد وتمحــو لنــا الــدجى بمكــة مــا تمحــو ثلاثــة أقمــر

فمــا خُلقــتْ إلا لجــودٍ أكفُّهــم وأقــدامهم إلا لأعــواد منــبر

إذا راض يحــيى الأمــرَ ذلَّــتْ صِــعابُه وناهيــك مــن راعٍ لــه ومــدبِّر

وقال سَلْم الخاسر في يحيى(٧٦) أعزه الله – تعالى:

يأيهــا الملــك الــذي أضــحى وهِمَّتُــه المعــالي

أنــت المنــوَّه باسمــه عنــد الملمــات الثقــال

لله درك مــن فــتًى كــم فيــك مــن كــرم الخصــال

وقال فيه أبو نصر(٧٧) وأنا أستحسن البيتين وأرى لهما وقعًا لطيفًا في القلوب:

نام الخليُّــون مــن هَــمٍّ ومــن ســقم وبــتُّ مــن كثــرة الأحــزان لم أنم

يا طالــب الجــود والمعــروف مجتهــدًا اعمــد ليحــيى حليــف الجــود والكــرم

وقال فيه آخر: (٧٨)

سـألتُ النـدى: هـل أنـتَ حُرٌّ؟ فقـال: لا ولكنــي عبــدٌ ليحــيى بــن خالــد

فقلــت: شــراءً؟ قــال: لا، بــل وراثــة تــوارثني مِــن والــدٍ بعــدَ والــد

وقال غيره: (٧٦)

لا تــراني مصــافحًا كــفَّ يحــيى إنــني إن فعلــت ضــيَّعتُ مــالي

لــو يمــسُّ البخيــل راحــة يحــيى　　　لســخَتْ نفســه ببــذل النــوال

وقال غيره في كرم الفضل(٨٠)– رعاه الله تعالى:

حكـى الفضـلُ عـن يحـيى سماحـة خالـد　　　فقامـت بـه التقـوى وقـام بـه العـدل

إليــه يســير النــاس شــرقًا ومغــربًا　　　فُــرادى وأزواجًــا كــأنهمُ نحــل

واعترضه وقت خروجه إلى خراسان فتًى من التجار كان قد شخص إلى الكوفة، فقُطِع عليه الطريق وأُخِذ جميع ما كان معه، فأخذ بعنان دابة الفضل وقال: ()

سأرســل بيتًــا لــيس في الشــعر مثلــه　　　يقطــع أعنــاق البيــوت الشــوارد

أقــام النــدى والبــأس في كــل منــزل　　　أقـام بـه الفضـل بـن يحـيى بـن خالـد

وقال آخر من شعراء البادية: (٨٢)

قــد كــان آدم حــين حــان وفاتــه　　　أوصــاك وهــو يجــود بالحَــوْباء

ببنيــه أن ترعــاهم فــرعيتهم　　　وكَفَيْــتَ آدم عيلــة الأبنــاء

وقال فيه أشجع السُّلَمي الشاعر: (٨٣)

ومـا قـدَّم الفضـلَ بـن يحـيى مكانُـه　　　علــى غــيره بــل قدمتْــه المكــارمُ

لقــد أرهــب الأعــداء حــتى كأنمــا　　　علــى كــل ثغــر بالمنيــة قــائم

وقال أبو النضير البصري: (٨٤)

ويفــرح بالمولــود مــن آل برمــك　　　بُغـاة النـدى والسـيفُ والـرمحُ والنصـلُ

وتنبســط الآمــال فيــه لفضــله　　　ولا سـيما إن كـان مَـنْ ولـدَ الفضـلُ

وقال غيره: (٨٥)

ولائمــة لامتْــك يا فضــلُ في النــدى　　　فقلـتُ لهـا: مـا يقـدحُ اللـوم في البحـر

أردتِ لتَثْـني الفضـلَ عـن سَـنَن النـدى ومـن ذا الـذي يثـني السحاب عـن القطر

مواقــع جــود الفضــل في كــل بلــدة مواقــع مــاء المــزن في البلــد القفــر

كــأن وفــود النــاس لمــا تحملــوا إلى الفضــل لاقَــوْا عنــده ليلــة القــدر

وقال آخر: (٨٦)

إذا نــزل الفضــل بــن يحــيى ببلــدة رأيــت بهــا غيــث الســماحة يُنْبــت

وقال ابن الخياط المكي: (٧٨)

لمســتُ بكفِّــي كفَّــه أبتغــي الغِــنى ولم أدرِ أن الجــود مــن كفِّــه يُعــدِي

فمــا أنا منــه مــا أفــاد ذوو الغــنى أفـدتُ وأعـداني فأتلفــتُ مــا عنــدي

وذلك أن الفضل أمر له ذات يوم بخمسة آلاف درهم، فاستأذنه في تقبيل يده فأذن له، فما انتهى إلى الباب حتى فرق المال بأسره؛ فعوتب على ذلك فقال البيتين المذكورين، فبلغ ذلك الفضلَ فأعطاه عشرين ألف درهم، وقال بعضهم،(٨٨) وهو أمدح بيت في الكرم:

مـا لقينـا مـن جـود فضـل بـن يحـيى تــرك النــاس كلهــم شــعراء

وقال مروان بن أبي حفصة في جعفر وهو صبي: (٨٩)

بــنى لــك خالــد وأبــوك يحــيى بنــاء في المكــارم لــن ينــالا

كــأنَّ البرمكــي لكــل مــال تجــود بــه يــداه يفــاد مــالا

وقال فيه أيضًا: (٩٠)

أفي كــل يــوم أنــت صــبٌّ وليلــةٍ إلى أم بكــر لا تُفيــق فتُقصِــرُ

أُحِــبُّ علــى الهِجْـران أكنـاف بيتهـا فيــا لــك مــن بيــت يُحَــبُّ ويُهجَـرُ

إلى جعفــر ســارت بنــا كــل حــرة طواهـــا سُـــراها نحـــوَه والتهجُـــرُ
إلى واســـعٍ للمُجْتَـــدِين فنـــاؤه تـــروح عطـــاياه علـــيهم وتَبْكُـــرُ

وقال فيه: (٩١)

لدولـــة جعفـــر حَمِـــدَ الزمـــانُ لبابـــك كـــلَّ يـــوم مِهرجـــانُ
جعلـــتُ هـــديتي لـــك فيـــه وَشْـــيًا وخـــير الوشـــي مـــا نســـج اللســـانُ

وقال العتَّابي، وكان في نفس الرشيد عليه موجدة واستعطفه جعفر عليه، فقال فيه: (٩٢)

مـا زلـت في غمـرات المـوت مطَّرحًـا قـد ضـاق عـني فسيح الأرض مـن حِيَلِـي
ولم تـــزل دائمًـــا تســـعى بلطفـــك لي حـتى اختلسـتَ حيـاتي مـن يَـدَيْ أجلـي

وقال فيه أشجع السُّلَمي: (٩٣)

يريـــد الملـــوك مـــدى جعفـــر ولا يصـــنعون كمـــا يصـــنع
تلـــوذ الملـــوك بأبوابـــه إذا نابهـــا الحـــدث الأفظـــع

وقال فيه: (٩٤)

ذهبـــتْ مكـــارمُ جعفـــر وفعالُـــه في النـــاس مثـــل مـــذاهب الشـــمس
ملـــك تســـوس لـــه المعـــالي نفســـه والعقـــل خـــير سياســـة الـــنفس
فـــإذا تراءتـــه الملـــوك تراجعـــوا جهـــرَ الكـــلام بمنطـــق همـــس
ســـاد البرامـــك جعفـــر وهـــم الألى بعـــد الخلائـــف ســـادة الإنـــس
مـا ضـرَّ مَـن قصـد ابـن يحيى راغبًـا بالســـعد حـــلَّ بـــه أم الـــنحس

إلى غير ذلك من الأشعار التي لو حاولتُ تقييدها في هذا الكتاب لبلغَتْ أكثر

من عشرة آلاف بيت من الأبيات الجيدة، ليس فيها بيت سخيف بارد، وقد وجدت للرَّقاشي[٩٥]وحده ديوانًا يحوي أكثر من ألف بيت في مديحهم، وهي من البلاغة بحيث إن البرامكة – أعزهم الله – يُروُّونها لأولادهم تفضيلًا لها على شعر غيره من المحدثين.

الدولة في خلافة الرشيد

نعود إلى ما نحن آخذون به من ذكر مملكة الرشيد وسياسته، فقد سبق القول بأن دولته من أوسع دول الإسلام بل دول العالَم رُقعة مملكة، فإنها تنبسط من الهند وفرغانة في الصين إلى طرف المغرب الأقصى من ناحية الزقاق، كذلك كان امتدادها في أيام أبيه فيما عدا البلدان التي غلب عليها الروم في حروب متواترة قد استمرت بينه وبينهم على غير انقطاع، كما كان شأن الخلفاء في رفع السيوف عليهم منذ صدر الإسلام؛ فإن الدولة الأموية قد حملت عليهم المرة بعد المرة وحملتهم خسائر عظيمة من الرجال والمال، وكذلك العباسية بعدهم قد ساقوا إليهم الجيوش، ولم يزل أبو جعفر في مغالبتهم حتى أذاقهم مرَّ البلاء، وكانوا مع ذلك لا يفتُرون عن الثورة، ويأبَوْن إلا نكثَ العهود ونقض العقود المبرمة، فلما ولي المهدي أخرج إليهم الرشيد[٩٦] وهو فتًى بقيادة يحيى وزيرنا، فركب في عُدَّة وأهبة لم يكن مثلها في الإسلام، وتحركتْ في نفسه نخوة الجهاد حتى اتَّسَم بِسِمَة المحاربين في الجيش، وحمل الرمح في يده[٩٧] وكان على القسطنطينية ملكة يقال لها رينى لم تُطِقْ مقاومتَه؛ فهزم جندها، وتفرق المسلمون في البسائط[٩٨] يُعَفُّون الآثار ويُبيحون الذمار، ولا يُبقون على أحد من الروم، حتى إذا نزل بجوار القسطنطينية ونصب على أسوارها المنجنيقات خافت عليها من الحريق فصالحتْه على كيليكية، وحملتْ إليه الجزية التي كان يحملها أسلافها إلى الخلفاء، وتلك أحسبها للروم من حِيَل السياسة في إيجاد الهدنة بالجزية فيما بينهم وبين المسلمين، ففي نفسي أنه لو لم يتهاون الخلفاء في أمرهم ما بقي لهم ملك تجاه دول الإسلام العظيمة.

ثم إنه بعد أن ولي الرشيد وقع في نفوس الروم أن يتقاعدوا عن حمل الجزية إليه،

فعبَّأ لهم العساكر، وشحنها في أسطول يسوقه حميد بن معيوب أمير الأساطيل بسواحل الشام(٩٩) وسيَّر الفرسان من ناحية البر يحرقون المدن ويبثون الخراب، ففتحوا وغنموا(١٠٠)وأثخنوا وأوغلوا، حتى انتهوا إلى جوار القسطنطينية وأطافوا بمعاقل الروم وأخذوا عليهم مهاربهم، فلما أدركتِ الملكة العجز عن دفاعهم، ورأت الجند بين يديها وهو شتيت صالحتْهم على الجزية، وراحت تحملها إلى بغداد وهي صاغرة إلى انقضاء ملكها بعد أن نال المسلمون غنائمهم أعظم النيل، واستشعروا من عزة الإسلام في غزوتهم تلك ما أفاضوا في التحدث به إلى هذا اليوم، والحمد الذي بنعمته تتم الصالحات، وتصدر رايات الإسلام روايات.

ولما هلكتْ ريني نصَّب الروم عليهم نقفور، وكان ملكًا شديد البأس إلا أنه قليل الخبرة بأمور السياسة غير عارف بمكان الإسلام من الصولة والدولة، بل كان يظن في المتمصرين من العرب فتورًا في العزيمة وتشاغلًا عن أمر الجهاد بما ركنوا إليه من دعة العمران، فكتب إلى الرشيد في منتصف هذه السنة كتابًا بنقض الهدنة التي كانت بينه وبين ريني، يقول فيه:

من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد؛ فإن الملكة التي كانت قبلُ كانت أقامتْك مقام الرُّخ وأقامتْ نفسها مقام البَيْدَق، فحملتْ إليك من أموالها أحمالًا،(١٠١) وذلك لضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأتَ كتابي فارْدُد ما حصل قِبَلك من أموالها وإلا فالسيف بيني وبينك.

فلما قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضبًا حتى لم يجسر أحدٌ أن ينظر إليه؛ فدعا بدواة وكتب على ظهر كتابه:

بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأتُ كتابَك يا ابنَ الكافرة، والجواب ما تراه لا ما تسمعُه. (١٠٢)

ثم حشد الجنود ليومه، وركب في صفوف المترجلين والفرسان، وحمل القوَّات والأقوات استظهارًا على نفوذ العزيمة، ولم يزل حتى وافى مدينة هِرَقْلة(١٠٣) ونصب

عليها القتال، وهي مدينة للروم لم يطمع أحد من ملوك الإسلام في الوصول إليها لخشونة مكانها، فدكَّ أسوارها بالمنجنيق، ومنحه الله أكتاف الروم فنقَّلهم رقابَهم وأموالهم وفي ذلك يقول الشاعر المكي(١٠٤)

هَـــوَتْ هِرَقْلَـــةُ لمـــا أن رأتْ عجبًـــا   حوائمـــا ترتمـــي بالـــنفط والنـــار

كـــأن نيراننـــا في جنـــب قلعـــتهم   مُصَـــبَّغات علـــى أرســـان قَصَّـــار

وهذا كلام ضعيف لَيِّن، ولكن قدره عظيم في ذلك الموضع والوقت(١٠٥) ولم تقف هزيمتهم على هِرَقْلة فقط، بل كانوا يُسلِّمون كثيرًا من المعاقل والبلدان، فكان ذلك الفتح فتحًا عظيمًا لا كِفاء له، وهنأتِ الشعراء الرشيد، قال أبو العتاهية في ذلك: ١(١٠٦)

قضـــى الله أن صـــفَّى لهـــارون ملكـــه   وكـــان قضـــاء الله في الخلـــق مقضـــيا

تجببـــت الـــدنيا لهـــارون بالرضـــا   وأصـــبح نقفـــور لهـــارون ذميـــا

فلما ضاقتْ بهم الحِيَل ولم يكن لهم بالمسلمين قِبَل، رغبوا في المسالمة والموادعة، وأوجبوا على نفوسهم إعطاء الجزية وهم صاغرون، ولستُ أقول: إن هذا الفوز كان سهلًا على الرشيد، فإنه قد طوَّح من الرجال وأنفق من الأموال ما هو حقيق بأن ينظر فيه، فإن الروم أهل بأس ومراس شديد، وهو يقاسي(١٠٧) معهم الحروب الصعاب، ولم يكن في شأنه معهم حيلة ولا سياسة، وإنما هي حروب تواصلت تباعًا وأخذ بعضها برقاب بعض؛ لما يروم من نفوذ السلطان حتى يركِّب عليهم سيف الإسلام، وإلا فإن الجزية التي يطمع فيها لا تفي بالقليل من الأموال التي تنفقها الدولة، وهي بمكانها من الهجوم ومكان الروم من المدافعة في ظلال الأسوار، وفي ذلك تفاوت بعيد في خسائر القتال، والذي يدلك على قوة الإسلام أنه غزاهم غزوات كثيرة ما أخفق في واحدة منها كما رأيت.

هذا كان شأن الرشيد مع صُهْبِ السِّبال، أما السياسة التي أتعبتْ خاطرَه

فكانت منصرفةً إلى إذلال العلويين في المغرب قبل أن تسود بهم الحال، وتسوِّد عندهم جموع الرجال؛ لأنه تعذر عليه محاربتهم مثل الروم؛ لتجافي عظماء دولته من أهل الرأي والتدبير عن قتال المسلمين على غير فائدة إلا ضياع المال وضيعة الرجال، ولذلك جعل الملك في إفريقية لآل ابن الأغلب حتى يقاوموا جندهم فلا يتمكنوا من إقامة مملكة تنهال من المغرب فتطمو على الشرق كله، فكأنه وقع بين أمرين مخوفين فاختار ما هو أقرب إلى النجاة بأن يملك الأغالبة المغرب حتى إذا قامتْ دولتهم رسخت في مكانها ولم تتجاوز الرمال التي بين إفريقية ومصر.

على أن العلويين مع ذلك كله قد ملكوا البلاد إلى طرف المغرب، ولم يألُ ابن الأغلب في مناوأتهم جهدًا، وهو لا يبلغ الغاية التي يرومها من إذلال ملكهم وتضييع نفوذهم في المسلمين؛ لأن جندهم مطيع لهم فيما استقروا فيه من تلك الأقاليم، وكلهم صادق الحملة مدرب على القتال، ولا سيما قبائل صِنهاجة من بطون حِمير،[١٠٨] وهم أمنع الناس ذمارًا، وأبعد الفرسان مُغارًا، وذلك أمرٌ طيِّب مني النفس لا بغضًا في آل العباس؛ لأني لا أريد بهم مكروهًا.

وإنما العلويون هم أهل البيت الكريم وفيهم الأنجاب الذين تَعرِف البطحاءُ وطأتَهم والبيتُ يعرفهم والحِلُّ والحَرَمُ[١٠٩] كما يقول الفرزدق الشاعر في مديحهم، فلعمري، إنهم أحق من الأغالبة بهذا الملك الذي أراه اليوم يَثبُت في أيديهم إلى ما شاء الله من الزمان لاتجاههم إلى غاية واحدة وسياسة راشدة، فقد عرفتَ أن تمزقهم فيما مضى إنما حصل بتفرق دعاتهم على أغراض لم تجمع بينهم إلى الوحدة، وفيما تقدَّم من الكلام عن أبي جعفر ما يبين لك أنهم لو لم يفترقوا لظَفِروا، أما اليوم فإنهم مجتمعون إلى إدريس بن إدريس وله دون غيره من أهل البيت. «السلام عليك يا ابن رسول الله.» [١١٠]

وإنما سار العلويون إلى المغرب وأقروا فيه مملكتهم بإيعاز البرامكة الأمجاد، وهم الآخذون بناصرهم والمتغرضون معهم[١١١] والمُقلِّدون الولايات لكثير من أهل الشيعة[١١٢] إلا أنهم لا يتعمدون في ذلك ضرر الرشيد، وهو المؤتمِن لهم على مملكته؛

لأن المغرب – فيما يرون – إذا انسلخ عن بغداد لا يُحدث في الخلافة ضررًا لعظم الممالك الإسلامية، وإنما يضر التجزُّؤ بالدول إذا كانت الدولة منحصرة في إقليم غير متسع إلى طرف العالم وكان في جوارها أمة ثانية متغلبة فإنها تسطو عليها شيئًا فشيئًا إلى أن تلتهمها جملة واحدة، كما رأينا في سِيَر الأمم الماضية، أما الخلافة الإسلامية فإن الجهاد في الأعاجم يعمل على استمرار ملكها ووقايته، ويعود عليها من استقلال بعض الملوك في أطرافها أنهم يمنعون عنها عدوها من قَبْل أن يصل إليها؛ فتحفظ خزائنها من إنفاق المال، ورجالها من تغرير القتال، وتبيت في شئونها آمنة بحراستهم، اللهم إلا أن يكون فيهم مَن هو أشد سلطانًا، وأكثر جنودًا وأعوانًا، وهذا بعيد عن أن يكون في دولة متجزئة من الخلافة، ولو انضمت جميعًا إلى قيادة واحدة ما ناوأت الرشيد وانتزعت الخلافة منه، وهو بموضعه من عظم الشأن وضخامة الملك، وله الهند والسند وأرمينية وكرمان ومصر والشام ونجد وتهامة واليمن والحجاز وفارس وخراسان، فهذا معظم الدنيا المعمورة وأوفر بلادها ثروة وأطيبها تربة وغلة، حتى لقد يُجبَى إليه من إقليم واحد من هذه الأقاليم كمصر مثلًا ما لا يجبى إلى غيره من سائر أقاليم الأطراف.

فكان ملوكنا البرامكة – أعزهم الله – يرون أن قيام الدولة العلوية في المغرب داعٍ إلى صلاح الرشيد، وأنها تكون مِجَنًّا للخلافة بما تجاهد لها في ردِّ الأمم النصرانية.

وكان جعفر يقول لي: إنه لو لم يكن للرشيد في هذه البلاد النائية إلا قضاة حاكمون كما كان لملوك بني أمية في الأندلس ما ظهروا على الفرنجة والجند بين أيديهم قليل، ولو أنه ائتمنهم لاستنفدوا ماله، أو استنصحهم لكانوا عليه لا له، فيثبت بعد ذلك أن حبه وآل بيته للعلويين يعود بالمنفعة على الرشيد والمصلحة على جميع المسلمين؛ لأنه إذا قامت دولتهم في المغرب كان ذلك أثبت لبقاء الأندلس في يد المسلمين. (١١٣)

وربما أعاد الله – سبحانه – على يدهم ما استعاده الفرنجة من البلدان التي فتحها طارق بن زياد، والله يُبِيد أممًا ويحيي أممًا، لا إله إلا هو ذو الملك والسلطان.

عمران بيت المال

لم يبقَ علينا لبيان عظم دولة الرشيد إلا أن نذكر قدر المال الذي يُحمل إليه من جميع الممالك والبلدان، فإنه لم يُسمع عن دخل دولة من دول الخلفاء أنه تجاوز القدر الذي يحمل إلى بيت المال في زمانه، مع أنه يسلك مع الملوك مسلك الحلم، ولا يضرب عليهم الخراج إلا على قدر ميسرتهم، وإن كان قد زال عنه القليل مما يحمل إليه من المغرب فقد استعاض عنه بالكثير مما فرض على بلدان النصرانية التي غلب عليها الروم من الأموال التي لا يصح أخذها[١١٤]من المسلمين كالخراج والعشور التي تؤخذ على جميع غلاتهم[١١٥]فقد بلغ المحمول إليه في كل سنة نحوًا من خمسمائة ألف ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف ألف دينار من الذهب، ما عدا الغلال والمصنوعات كما ستراه، فحمل الناس كثرة هذا المحمول على أن يعدوه بالوزن لا بالعدد، فيقولوا: إنه بلغ ستة أو سبعة آلاف قنطار من الذهب[١١٦]إلا أن ذلك غلو وإفراط في تعظيم الشيء، فمن المعروف أن القنطار إنما هو زنة ثلاثين ألف دينار، ويبعد أن يكون في العالَم ألفا ألف ألف دينار من الذهب، ولو جاز وجودها ما صح أن تحمل كلها إلى بيت المال ولا يبقى منها شيء في أيدي الناس لمعاملاتهم، وتقديرهم هذا وإن كان بعيدًا عن الصحة يدل على الكثرة وأن المال يحمل إلى بغداد بالصُّبَر[١١٧]لوفور الخير.

وعندي أن ما يحمل اليوم إلى بيت المال لم يكن يحمل نصفه إلى خزائن الأمويين ولا الخلفاء الأولين من بني العباس، ولا يبعد أن عمالهم كانوا يحجُزون من مال الجزية قدرًا لا يحملونه إليهم؛ لاختلاف تقدير الجزية على أهل الذمة بين ثمانية وأربعين درهمًا تؤخذ من ذوي اليسار، وأربعة وعشرين من الصناع وأهل الحرف، واثني عشر درهمًا من ذوي الفاقة والإعسار[١١٨] دون أن يكون في الدواوين عمل لذلك، ولما قام وزيرنا[١١٩]– أيده الله – بأعباء الدولة فرض على العمال ما هو مفروض على ناحيتهم من جزية وخراج وغير ذلك، حتى صار يقرِّر الدخل في السجل من قبل أن يحصل في يديه، فلم يبقَ سبيل إلى نقص الأموال إلا فيما يؤخذ من المكوس على

السلع وما يتصرف به العمال من نفقات[١٢٠] ولاياتهم، وليس هو إلا القليل في جانب الكثير من دخل الدولة.

ولا يطرأ على تقدير هذه الأموال شيء من الزيادة والنقصان بتنقل البلاد من حال إلى حال، وربما غلبت عليها الزيادة؛ لوفور الخير والعدل، فقد كان حاصل السواد وهو أرض[١٢١] ما بين الموصل وعَبَّادان في الطول وما بين عذيب بالقادسية إلى حُلوان في العرض عشرين ألف ألف درهم في زمن الحَجَّاج[١٢٢] لكثرة الظلم، فلما ارتفع عنها الجور ساد فيها العمران[١٢٣] حتى صار يحمل منها اليوم نحو ستين ألف ألف درهم، وكان حاصل فارس وأصبهان وكَرمان في عهد الأمويين ثلاثين ألف ألف درهم، فلما انتظمت فيها الأحكام وانتشر فيها العدل حمل منها البرامكة خمسة وأربعين ألف ألف درهم، وكذلك عهد الخلفاء بخراج مصر «بعدما جباها عمرو بن العاص في زمن الخير اثني عشر ألف ألف دينار»[١٢٤] تدلى إلى ألف ألف وتسعمائة ألف دينار؛ وذلك لاختلال أمرها وسوء سياسة العمال، فلما تولاها البرامكة جبَوْا منها للرشيد ثلاثة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار، واستمرت على ذلك إلى هذا اليوم.

ويُحمل إلى بغداد غير هذه الأموال المقررة والغلال الكافية لأرزاق الجند وعلف خليهم قدرٌ من المصنوعات والغلات التي تكون في البلدان، فيحمل من السواد مائتا حلة من الحلل النجرانية، ومائتان وأربعون رطلًا من طين الختم الأحمر الذي يطبع به على طرف الرسائل السلطانية، ويحمل من الأهواز ثلاثون ألف رطل من السكر، ومن فارس ثلاثون ألف قارورة من ماء الورد، ومن أصبهان عشرون ألف رطل من الزبيب الأسود، ومن مَكران خمسمائة ثوب من المتاع اليماني وعشرون ألف رطل من التمر ومائة رطل من الكمون، ومن السند مائة وخمسون رطلًا من العود الهندي، ومن سجستان عشرون ألف رطل من السكر وثلاثمائة ثوب، ومن خراسان ألفا نُقرة من نِقار الفضة وأربعة آلاف بِرذون وألف رأس من الرقيق يُتخذون خدمًا في دور الخلافة، ويكون لأمراء بني هاشم وغيرهم من عظماء الدولة نصيب وافر منهم، وعشرون ألف

ثوب من المتاع، وثلاثون ألف رطل من الإهلَيج، وألف وثلاثمائة قطعة من صفائح الحديد، ومن جرجان ألف شقة من الإبرَيسم، ومن قُومَس خمسمائة نقرة من نقار الفضة ومن طبرستان ونَهاوَند ستمائة قطعة من الفرش الطبري، ومائتا كسوة وخمسمائة ثوب وثلاثمائة ألف منديل، وثلاثمائة جام، ومن الري وقزوين عشرون ألف رطل من العسل، ومن همذان ألف رطل من رُبِّ الرمان، واثنا عشر ألف رطل من التين، ومن الموصل وما إليها وأعمال نينوى عشرون ألف رطل من العسل الأبيض، ومن الجزيرة وأعمال الفرات ألف رأس من الرقيق، واثنا عشر ألف زقٍّ من العسل، وعشرة بُزاة مرباة لصيد الملوك، وعشرون كسوة من الحرير للبيت الحرام، ومن أرمينية قدرٌ من البسط، ومن قِنّسرين والجند ألف حمل من الزيت، ومن جند فِلَسطين ودمشق قدر كبير من الفاكهة اليابسة، وثلاثمائة ألف رطل من الزيت، ومن إفريقية مائة وعشرون بساطًا، ومن اليمن شيء كثير من المتاع، وكذلك من نجد وعُمان واليمامة والحجاز وكِنْكِوَر وحلوان ومِهران وشهرزور وأذربيجان ومصر وجند الأردن يُحمل كثير من الحبوب والمصنوعات التي تصرف على الجند وتنفق في مصالح الدولة.(١٢٥)

وهذا المال كله يتصرف فيه الخليفة دون أن يعارضه فيه أحد من أرباب الدولة إلا فيما يعرضه عليه البرامكة من دفاتر الدواوين للموازنة بين دخل الدولة وخرجها، وقد تجمع كثيره في بيت المال منذ صدر هذه الدولة حتى إن أبا جعفر – غفر الله له – لما أدركه الموت قال للمهدي في وصيته: إنه خلَّف له من الأموال ما إن كُسر عليه الخراج عشر سنين كفاه لأرزاق الجند ومصلحة البعوث وغير ذلك(١٢٦) ولقد أخبرني يحيى – أعزه الله – عن خالد أبيه وكان قائمًا على بيت ماله أنه بلغ ما خلف من المال أربعة عشر ألف ألف دينار وستمائة ألف ألف درهم(١٢٧) فلو لم يكن إلا هذا في خزائن الرشيد(١٢٨) لكفى دولته فخرًا على دول الخلفاء، وبهاء ليس مثله من بهاء، فأما الفخر فيكون لها من حيث المَنَعَة؛ لأنه ما دام بيت مالها عامرًا فلا تزال ممتنعة على العدو، وأما البهاء فيأتيها من المال وإنفاقه في الوجوه التي ترفع الدولة، وفيما

يدعو الملوك المترفين الذين يتوسعون في نعيم العيش إلى تزيين دولهم برواج الأدب، كما رأينا من إقبال الرشيد على تقريب العلماء إليه وانتفاعه بعلمهم في دينه ودنياه.

مجلسُ الغناء بدارِ الرشيدِ

كان الرشيدُ يتخِذُ للعلماءِ والنُّدماءِ والشعراء مجالس مناظَرَة، وعرض أدب، وصناعة، كما كان يصنع أبوه – رحمه الله – ثم يُجيزهم على موضعهم من العلم بما لا يكاد يُحصى من الجوائز، وإنَّ الذي كنت أَرتاحُ إلى شهوده من المجالس بداره إذا حضر وقته هو مجلس الغناء، على أني لم أَرَه في السنين الماضية أحفَل منه في هذه السنة، وكان الرشيدُ قد نشط له وقام بلُبسته التي يلبَسها في الصيف؛ وهي غِلالة[١٢٩] رقيقة يتوشح عليها بإزار رشيدي عريض العَلَم مضرج، وكان بين يديه جامات ذهب فيها دنانير؛[١٣٠] يُجيز بها مَن يطيب منه المسموع، وتصلُح عنده الصنيعة، ومن حوله جماعة من بني هاشم والفضل وجعفر من البرامكة – أعزهم الله – وهما جالسان بجانبه على سرير الخلافة.

ولما اجتمع المغنون جلسوا في صفوفهم بناحيتين من المجلس للمناظَرة[١٣١] بينهم في الغناء؛ فمنهم المتعصبون للغناء القديم، وهم جماعة إسحاق النَّديم، ومنهم المُقصِّرون عن أدائه والمُغيِّرون له، وهم جماعة إبرهيم بن المهدي. وكان سبب هذا النزاع بين إبراهيم وإسحاق أنَّ إبراهيم تغنى بلحن قديم أضاع صناعته؛ فردَّ عليه إسحاق وعاب عليه تغييره، فقال: أنا ملك وابن ملك أُغنّي كما أشتهي وعلى ما ألتذُّ؛ فتخالفا في ذلك، فانضم إلى غرض إبراهيم إسماعيل بن جامع، وفُلَيْح بن العوراء، ويحيى المكي، وعمرو بن بانة، وشارية، وزيق، وبنو حمدون، وحُسين بن مُحرز والهذلي وغيرهم، وبقِي مع الموصلي المترفعون عن الأغراض والآخذون بمحاسن الغناء من حيث طرائق الصناعة مثل: مُخارق، وعلُّوية، وعَريب، وبَذل، وسُليم بن سلام، وزُبير بن دَحْمان، وأحمد بن يحيى المكي، ومُحمد بن حمزة بن الوصيف وغيرهم[١٣٢] وكان قوم إبراهيم بن المهدي قبل وزارة جعفر (رفع الله قدره) أكثر عددًا من حزب

إسحاق؛ لأنَّهم كانوا يتقربون بكفالته إلى الرشيد؛ فلما أخذ البرامكة بناصر إسحاق وجهروا بتفضيله، رجع إلى غرضه كثير من المجيدين، ولم يزل المغنون في أهل البيوتات مثل: البرامكة، وآل هاشم، وآل الربيع؛ يتمسكون بالغناء القديم، ويحملونه كما يسمعونه، فلم يكن من مُفسد له إلا الَّذين تقدَّمت أسماؤهم، وجماعة من أولاد العباسيين مثل: إبراهيم، وأخيه يعقوب، وأختهما عُلية، وعبد الله بن الهادي، وعيسى بن الرشيد وغيرهم[١٣٣] ممن يترفعون عن أن يُقَيَّدَ غِناؤهم بالمحفوظ من أصوات المتقدمين، وإن كانوا بموضع جليل من هذه الصناعة.

فهذا إبراهيم ليس في الناس أعلم منه بالنغم والوتر والإيقاعات، ولا أطبع على الغناء، ولقد رأيتُه إذا غنَّى بمجلس الرشيد قرُب كل مَن في دور الخلافة من أقرب موضع يُمكنهم أن يسمعوه فيه لحسن صوته، وقليلًا ما كانوا يسمعونه إذ كان لا يغني إلا على حال تصوُّنٍ عن الغناء وترفُّع إلا أن يدعوه إليه الرشيد في خلوة أو إذا كان عنده جعفر، فيقول له: أُحبُ أن تشرف جعفرا[١٣٤] بأن تغنيه صوتًا فيغني. ولقد كنتُ ذات يوم في خدمة أميرنا – أعزه الله – فغنَّى إبراهيم على أبيات لمروان بن أبي حفصة، يقول فيها: [١٣٥]

طرقتْــــك زائـــــرة فحــــيّ خيالَهـــــا　　　زهـــــراء تخلِـــــط بالجمـــــال دلالهـــــا

هـــل تطمِســـون مـــن الســـماء نجومهـــا　　　بأكفكـــــم أو تســـــترون هلالهـــــا

أو تـــــدفعون مقالـــــة مـــــن ربكـــــم　　　جبريــــلُ بلغهـــــا النــــبيَّ فقالهـــــا

فلما بلغ قوله: «جبريل بلغها النبي فقالها» هزَّ حلقه فيه ورجَّعه ترجيعا زُلزلت الأرض منه، فما أظن أحدًا يقدر على أداء الأصوات مثله إلا إسحاق المخالف له على هواه والمقِرُّ بما له من جميل الصناعة؛ لولا أنه أفسد الغناء القديم وجعل للناس طريقًا إلى الجسارة على تغييره.

وأول مَن غَنَّى في ذلك اليوم إبراهيم أبو إسحاق، وكان ذلك بإشارة مسرور العبد إذ كان أمر المغنين مفوضًا إليه[١٣٦] وإذا أحبَّ الرشيد أن يسمع صوتًا[١٣٧] أشار إليه

فأشار هو إلى المغنين، فغنى إبراهيم:

ولي كبـــد مقروحـــة مَـــن يبيعـــني بهـــا كبـــدًا ليســـت بـــذات قـــروح
أباهـــا علـــيَّ النـــاس لا يشـــترونها ومـــن يشـــتري ذا علـــة بصـــحيح

واللحن فيه ماخوري[١٣٨] لا يعرفه أحد مثله، ثم غنى على أبيات قالها في بعض قرى الري:

أنا في الـــــــري مُقـــــــيم في قـــــرى الـــــري أهـــــيم
رُبَّمـــــا نبهـــــني الإخـــــــ ـــــــوان والليـــــل بهـــــيم
حـــــين غـــــارت وتـــــدلت في مهاويهـــــا النجـــــوم
للـــــتي تعصـــــر لمـــــا أينعـــــت منهـــــا الكـــــروم

ولحنها من الثقيل الأول بإطلاق الوتر في مجرى البِنصر[١٣٩] ثم غنَّى:

ألا يا اسلمي يا دار ميَّ على البِلَى ولا زال مُنهلًّا بجرعائك القطر

الشعر لذي الرُّمة والغناء له بلحن خفيف الثقيل الثاني[١٤٠] ثم غنى:

وقفـــت علـــى ربـــعٍ لمَيَّـــةَ ناقـــتي فمـــا زلـــتُ أبكـــي عنـــده وأخاطبـــه
وأســـقيه حـــتى كـــاد ممـــا أبثُّـــه تكلمـــــني أحجـــــاره وملاعبـــــه

الشعر لذي الرُّمة أيضًا، والغناء ثاني ثقيل مطلق في مجرى البنصر،[١٤١] فأجاد إبراهيمُ حتى كأنَّ كل ما في المجلس يجيبه ويردد الصوت معه لحسْنِ غنائه، فطرب الرشيد حتى كان يقومُ ويقعد، ولا سيما من اللحنين اللذين سمعهما في شعر ذي الرمة؛ لأنَّه كان يحفظ أبياته كلها في صباه، فكان إذا غُنِّي فيها صوت أعجبه أكثر من جميع الأصوات التي يصنعها المغنون فيما لا يحفظه من الشعر، ففطن إبراهيم لذلك وطلب إليه أن يُقطِعه شعرَ ذي الرمة ويحظُر على غيره من المغنين أن يُداخلوه فيه،

فأجابه إلى ذلك فأصاب إبراهيم الموصلي عليه من الجوائز ما يتجاوز التقدير. (١٤٢)

ثم أشار مسرور إلى إسماعيل بن جامع القرشي وهو من المتعصبين على إسحاق فغنى:

لم تمشِ مِيلًا ولم تركبْ على قَتَب ... ولم ترَ الشمسَ إلا دُونَها الكِلَلُ

تمشي الهُوَيْنَى كأن الريحَ تَرْجِعها ... مَشْيَ اليعافير في جَيْئاتها الوهلُ

الشعر للأعشى(١٤٣) والغناء الأول لابن سُرَيج بلحن الرمل بالبنصر(١٤٤) ثم غنى بلحن خفيف الثقيل الأول بالوسطى(١٤٥) على أبيات عمر بن أبي ربيعة:

كأن أحور من غزلان ذي بقر ... أعارها شَبَه العينين والجيدا

أجري على موعد منها فتُخلفني ... فما أمَلُّ ولا توفي المواعيدا

كأنني حين أُمْسي لا تكلمني ... ذو بغية يبتغي ما ليس موجودا

ثم غنى بلحن الهزج بالوسطى(١٤٦) على هذين البيتين:

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا ... فقالوا لنا: ما أقصرَ الليلَ عندنا!

وذاك لأن النوم يغشى عيونهم ... سراعا وما يغشى لنا النومُ أعينا

فأجاد إجادة يرتاح إليها أهل الطرب(١٤٧)ممن يُحب الخلاعة في الأصوات، فهو يميل إلى ظَرْف الغناء والنغمِ الكثيرِ العملِ(١٤٨)كما يميل إلى ظرف المعاشرة والافتنان في خلاعة الملبس. (١٤٩)

ثم أشار صاحب السِتارة إلى إسحاق بن إبراهيم صاحب هذا الفن، فجاء غلام من غلمان الدار بعود هندي(١٥٠) كان مودعًا له في خزانة المجلس(١٥١) قد أُصْلِحت أوتاره قبل ذلك الوقت؛ لأنَّ العيدان لا تُصلح في مجالس الملوك(١٥٢) فضرب عليه نغماتٍ صاح لأجلها القوم جميعا ثم غنى:

قــــل لمـــــن صــــدَّ عاتبـــــا ونأى عنـــــــــك جانبـــــــــا

قـــــد بلغـــــــتَ الـــــــذي أرد تَ وإن كنـــــــــــتَ لاعبـــــــــا

الشعر والغناء له، ولحنه من الثقيل الثاني بالسبَّابة في مجرى الوسطى(١٥٣) ثم غنى بلحن وضعه معبد في أبيات لأبي صخر الهُذلي(١٥٤)وهي:

عجبــتُ لسـعيِ الـدهر بيـني وبينهـا فلمـا انقضـى مـا بيننـا سـكنَ الـدهرُ

فيــا حبَّهــا زِدْني جــوًى كــل ليلــة ويا ســلوةَ الأيام موعــدُك الحشــرُ

وإني لتعـــروني لـــذكراكِ هـــزة كمـا انـتفضَ العصـفورُ بلَّلـه القطـرُ

هجرتُـك حـتى قيـل: لا يعـرف الهـوى وزرتـك حـتى قيـل: لـيس لـه صـبرُ

فطرِب الرشيد وقال له: زدنا يا أبا صفوان من عنائك، وأبو صفوان كنية يُلقبه بها عند التحبب(١٥٥) فغنى بهذين البيتين:

الطُلـــــــولُ الـــــــدَّوارس فارقتْهـــــــا الأوانــــــس

أوحِشَـــــت بعـــــد أهلهـــــا فهـــــي قَفْـــــر بســـــابس

غناءً لم أجد أحسن منه موقِعًا في القلوب، وكنت في ذلك الوقت جالسا بمقربة من أبيه، فقال: «لو لم يكن من بدائع إسحاق غير هذا لكفى! «الطلول الدوارس» كلمتان و«فارقتها الأوانس» كلمتان أيضًا، وقد غنى فيهما استهلالًا وصاح وسجَع ورجَّع النغمة واستوفى ذلك كله في أربع كلمات، وأتى بالباقي مثله. فمن شاء فليفعل مثل هذا أو ليقاربه.» ثم قال: «والله ما في زماننا فوق ابن سريج والغريض ومَعبد، ولو عاشوا حتى رأوه؛ لعرفوا فضله واعترفوا له.» (١٥٦) والغناء لإسحاق خفيف بالبنصر.

ثم وجد في نفس الرشيد إقبالًا عليه وطربًا من صناعته فغنى لحنًا صنعه في شعر للمنخَّل اليشكرِي، يقول في بعض بنات الملوك المناذرة: (١٥٧)

ولقـــد دخلـــتُ علـــى الفتـــا ةِ الخِـــدرَ في اليـــوم المطـــيرِ

فـــــدفعتُها فتـــــدافعتْ مَشْـــيَ القطـــاة علـــى الغـــدير

فلثمتُهـــا فتنفَّســـت كتـــنفس الظـــبي الغريـــر

فأجاد في الغناء إلى ما وراء الغاية، وقال الرشيد، وقد كاد يخرج من ثيابه لشدة الطرب: «والله ما الغناء الذي يُلين العريكة، ويُفسح في الرأي والصدر، ويُحدث في النَّفس طَرَبًا إلا غناء هذا الرجل.»

ثم أشير إلى فُلَيْح بن أبي العوراء فغنى على لحن صنعه في بيتين لعديّ بن الرقاع العاملي: (١٥٨)

وكأنهـــا بـــين النســـاء أعارَهـــا عينيـــه أحـــورُ مـــن جـــآذِرِ جاسِـــم

وسْـــنانُ أقعـــده النعـــاسُ فرنَّقَـــتْ في عينـــه سِـــنة ولـــيس بنـــائم

ثم أتبعه بلحن من الثقيل الأول بإطلاق الوتر في مجرى البِنصر صنعه(١٥٩) في بيتين للمؤمَّل من شعراء الدولة الأموية:

ألا يا ظبيـــة البلـــد بـــراني طـــول ذا الكمـــد

فـــرُدِّي يا مُعـــذبتي فـــؤادي أو خـــذي جســـدي١٦٠

وهو يُعارض فيه اللحن الذي صنعه أبو إسحاق، فأجاد ولكنه قصر عن أن ينحو نحو صناعة الموصلي، وإن كان قد مضى في بعض كتبي السالفة ما يشهد لموضعه الجليل من هذه الصناعة،(١٦١) إلا أنه قد وجد اليوم مَن بَرَعَه وبرعَ الناسَ كلهم(١٦٢) في طيب المسموع ومحاسن الصنعة.

ثم أشير إلى مخارق(١٦٣) من حزب إسحاق، وهو طيب الصوت يُعدُّ هو وإبراهيم بن المهدي، وابن جامع، وعمرو بن أبي الكَنَّات من أحسن الناس صوتًا(١٦٤) فغنى بصوت رخيم:

يا ربْعَ سلمى لقد هيجتَ لي طربًا   زدتَ الفؤادَ على عِلّاته وَصَبا

فكنت أحسب أنَّ الدُّنيا قد صارت أحزانًا[١٦٥] لما ألم في غنائه من إبراز معنى البيت وما وراءه من توجع العاشقين، ثم غنى:

إني استحيتُكِ أن أفوه بحاجتي   فإذا قرأتِ صحيفتي فتفهَّمي[١٦٦]

وعليك عهد الله إن أخبرتُه   أحدًا وإن أظهرته بتكلم

الشعر لابن هَرْمة والغناء لعبادل من مُغَنِّي الحجاز، ثم غنى:

فبتُّ فيما شئت من نعمة   يمنحنيها نحرها والفم

حتى إذا الصبح بدا ضوءه   وغارت الجوزاء والمُرْزم

خرجت والوطءُ خفيٌّ كما   ينساب من مكمنه الأرقم

الشعر لإسماعيل بن يسار، والغناء له بلحن الرمل[١٦٧]

ثم غنى يحيى المكي بلحن صنعه في بيتين لمحمد بن أمية من كتاب إبراهيم بن المهدي: [١٦٨]

أحبك حبًّا لو يفيض يَسِيرُه   على الناس مات الناس من شدةِ الحب

وأعلم أني بعد ذلك مقصر   لأنك في أعلى المراتب من قلبي

ثم غنى بلحن خفيف الرمل: [١٦٩]

طرقتْك زينبُ والمزارُ بعيد   بمنًى ونحنُ معرّسون هُجود

فكأنَّما طرقت بريا روضة   أُنُفٍ تسحسحُ مزنُها وتجود

فكان لحنه كثير العمل، حلو النَّغم، صحيح القسمة، مُحكم الصنعة، ولولا ذلك ما أطرب النَّاس غناؤه وهو شيخ مسن:

ثم غنى سليم بن سلام من جماعة إسحاق: (١٧٠)

أفـاطمُ مَهــلًا بعــضَ هــذا التــدَلُّل ... وإن كنـتِ قـد أزْمعـتِ صَـرمي فـأجملي

أَغَـــرَّكِ مِـــنِّي أَنَّ حُبَّـــكِ قَـــاتِلِي ... وَأَنَّــكِ مَهْمَــا تَأمُــرِي القَلــبَ يَفعــل

ثم غنى:

أتيتُــــكِ عائـــــذا بـــــك منــــ ... ــــك لمـــا ضــــاقت الحِيَـــلُ

وصـــــــيرني هـــــــواكِ وبي ... لحَيْــــني يُضـــــرَب المثــــلُ

فــــإن ســـلمتْ لكـــم نفســـي ... فمـــــا لاقيتـــــه جلـــــلُ

وإن قَتَــــلَ الهــــوى رجـــــلًا ... فـــــإني ذلـــــك الرجـــــل

الشعر لمحمد بن أبي مُحَمَّد اليزيدي، ويُكنى أبا عبد الله، والغناء له ثقيل أول بالبنصر إلى أنْ قال:

وقفـت علـى ربـع سـلمى وعَـبْرتي ... تَرَقْـــرَقُ في العينـــين ثم تســـيل

أســائل ربعًــا قــد تعفَّــت رسـومُه ... عليــه لأصــناف الــرياح ذيــول

واللحن له هزج خفيف بالسبابة؛ ١٧٢ فطرب الرشيد وقال: لو كنتَ حكمًا الواديَّ ما زدت على هذا الإحسان في هزجك. (١٧٣)

ثم غنى حسين بن محرز بلحن صنعه يحيى(١٧٤) المقدم ذكره في هذين البيتين:

هــل هيَّجتْــك مغــاني الحــي والــدُّورُ ... فاشــتقتَ إن الغريــبَ الــدارِ معــذورُ

وهــل يحُــلُّ بنــا إذ عيشــنا أَنِــقٌ ... بــيضٌ أوانــسُ أمثــالُ الــدُّمى حــورُ

ثم غنى:

خمــــس دســــــن إليَّ في لطــــف ... حُـــورُ العيـــون نـــواعم زُهْـــر

فطـــرقتهن مـــع الجـــريِّ وقـــد ... نام الرقيـــبُ وحلَّـــق النســـر

الشعر للأحوص، والغناء لمعبد رمل بالسبابة في مجرى البنصر،(١٧٥) فأجاد لكنه لم

تظهر له صناعة يسمُو بها إلى مقامات المتقدمين في الغناء، وكذلك جميع مَن غنى بعده في ذلك اليوم، إلا الزبير بن دَحْمان، فإني وجدت لغنائه موقعًا حسنًا في النفوس، وكنت أرى الرشيدَ يتمايل طربًا من غنائه إذ غناه:

رضـيت الهـوى إذ حـل بي متخـيرا نـديمًا ومـا غـيري لـه مـن ينادمـه

أعاطيـه كـأس الصـبر بيـني وبينـه يُقاسِمُنِيهـا مـرة وأقاسمـه

الشعر لبشار بن برد، والغناء له هزج بالوسطى،[١٧٦] ثم غنى:

أسـري بِطارقـةِ الخيـال ومـا أرى شـيئًا ألـذَّ مـن الخيـال الطـارق[١٧٧]

أهـواك فـوق هـوى النفـوس ولم يـزل مـذ بِنـتِ قلـبي كالجنـاح الخـافق[١٧٨]

الشعر لجرير والغناء لابن عائشة رمل بالوسطى، ثم غنى:

حيِّيـا خَوْلـة مـني بالسـلام درة البحـر ومصـباح الظـلام

لا يكـن وعـدُكِ برْقـا خُلَّبـا كـاذبًا يلمـع في عُـرْض الغمـام

واذكـري الوعـد الـذي واعـدتِنا ليلـة النصـف مـن الشـهر الحـرام

الشعر لأعشى همذان، والغناء لأحمد النصيبي، ولحنه من القدر الأوسط من الثقيل الأول بإطلاق الوتر في مجرى البنصر وعروضه من الرمل[١٧٩] فأجاد في هذا الصوت الإجادة التامة حتى ليس في المغنين مَن يُقاربه بلحن الثقيل.

ثم تعاقب المغنون على طرح الأصوات في نوباتهم، فلم أستحسن منها إلا صوتًا لعَبَيْثَر، صنعه في بيتين لابن الدُّمَيْنة: [١٨٠]

وأذكـر أيام الحمـى ثم أنثـني علـى كبـدي مـن خشـية أن تصـدعا

وليسـت عشـيات الحمـى برواجـع عليـك ولكـن خـلِّ عينيـك تـدمعا[١٨١]

ولحنا واحدا صنعه في شعر وضاح اليمن:

إن الوشـــــــــاة إذا أتـــــــــو كِ تنصـــــحوا ونَهـــــوكِ عـــــن
إني تُهيجـــــــــني إليـــــــكِ حمامتـــــان علـــــى فـــــنن
فاســـقي خليلــــك مـــن شـــرا ب لم يكـــــــدره الـــــــدرن
الـــــريح ريـــــح ســـــفرجل والطعـــــم طعـــــم سُـــــلاف دَن

حتى إذا ظن في نفسه اقتدارًا على الصناعة، وأراد أن يُعارض إسحاق باللحن الذي صنعه في شعر العباس بن الأحنف وهو:

لا جـــزى الله دمـــع عيـــني خـــيرًا وجـــزى الله كـــل خـــير لســـاني
كنـــتُ مثـــل الكتـــاب أخفـــاه طـــيٌّ فاســـتدلوا عليـــه بالعنـــوان

سُقِط في يده وقصَّر دون بلوغ المرام. وكان في جملة المغنين رجل أعمى يُقال له أبو زكار وهو شديد التعصب للغناء القديم، وكان آخر مَن غنى في ذلك اليوم بدأ بلحن صنعه في هذا البيت:

يا راكـــب العـــيس الـــتي وفـــدت إلى البلـــد الحـــرام

وثنَّى بآخر لإبراهيم الموصلي صنعه في بيتين لعمر بن أبي ربيعة[١٨٢]وهما قوله:

ليـــت هنـــدًا أنجزتْنـــا مـــا تَعِـــد وشـــفتْ أنفســـنا ممـــا تجـــد
واســـتبدَّتْ مـــرة واحـــدة إنمـــا العـــاجز مَـــن لا يســـتبد

فلم تظهر له بهما صناعة إلى أن تغنَّى بهذه الأبيات:

يا أيهـــا القلـــب المطيـــع الهـــوى أنَّى اعـــتراك الطـــرب النـــازح
تـــذكر جُمْـــلًا فـــإذا مـــا نأتْ طـــار شَـــعاعًا قلبـــك الطـــامح

هــــلا تناهيـــــت وكنـــــت امـــــرأ يزجـــــرك المرشـــــد والناصـــــح

مـــا لـــك لا تـــترك جهـــل الصـــبا وقـــد عـــلاك الشَـــمَط الواضـــح

ولحنها ثاني ثقيل بالسبابة في مجرى الوسطى[١٨٣] فأحسن كل الإحسان في تأدية النغم، كأنه لا تظهر صناعته إلا بغناء ما في معناه زجر وتذكير من الأبيات.[١٨٤]

ولما تولى النهار أومأ الرَّشيد إلى المغنين بأن يحلُّوا صفوفهم، ثم فرق فيهم الجوائز بقدر أهليتهم من الصناعة، فمن مُصيب ألف دينار ومن مُصيب خمسمائة، ومن مُصيب دون ذلك، ثم فرق فيمن يتخلل الغناء بضرب المعازف دون ما فرقه على المغنين من المال، فأصاب الجوائز السنية أربعة منهم وهم: منصور زَلْزل[١٨٥] وكان يضرب على عود من العيدان التي صنعها مُعارِضَةً لعيدان الفرس وهي عجب من العجب[١٨٦] وكأنما تزلزل المجالس بحسن نغمها،[١٧٨] وبرصوم الزامر[١٨٨]وهو أحسن الناس زمرًا بنايٍ، كان إذا زمر فيه يُحدث النَّغم الذي يُريده مع صحة المقاطيع والتقسيمات، حتى كأنه ينطق بين يديه بلسان آدمي، وجعفر الطبال وهو يحسن التوقيع على الطبل[١٨٩] وكان يضرب بالكوبة[١٩٠] في ذلك اليوم، ورابعهم: الغريض وهو مشهور بضرب العود والتوقيع بالقضيب والنقر على الدف[١٩١] ولما انصرف المغنون لم يبقَ في مجلس الخليفة إلا إسحاق النديم، وجعفر، والفضل من البرامكة، وقد طلع علينا من هواء دِجلة في ذلك الوقت نَسيم طابت النفوس به انتعاشًا بعد هاجِرَة أصابنا بالنهار حرُّها، حتى إذا رُفعت أستار الطيقان التي تطل على حدائق القصر وقعت في موضعنا شمس الغروب، وهي ترسل علينا شعاعًا مُتناثرًا كالذهب يهتز في نواحي المجلس كاهتزاز الغصن الرَّطيب تحت خطرات النسيم؛ حتى كأنَّ القصر يَرقُص بنا سُرورًا بأهله وعزة مقامهم الرفيع.

هذا ما أذكره لك عن المغنين، وليس هو إلا المحفوظ في ذهني من غنائهم مُجردًا عن بيان طرائقهم في الأصوات وصناعتهم في وضع النَّغمات؛ لأني لو أخذت في ذلك ما وعتْه الصحف الكثيرة الواسعة[١٩٢]وقد وقع تدوين هذه الرسالة في غرة المحرم من

السنة الخامسة والثمانين بعد المائة من الهجرة النبوية المشرفة، على صاحبها أشرف الصلاة وأزكى التحية.

الهوامش

(١) ابن الأثير ٦ : ٧٧، والفخري ٢٣٠، والمقدمة ١٥.

(٢) المستطرف ١ : ٨٢.

(٣) الأغاني ٩ : ١٠٢، والشريشي ٢ : ٢٤٥، والحصري ٣ : ٢٣٦.

(٤) في المسعودي أنها كانت من الرشيد بالمنزلة التي لا يتقدمها أحد من نظرائها ٢ : ٢٢٧.

(٥) ياقوت ٤ : ٤٢١.

(٦) ابن خلكان ١ : ١٨٩، والمستطرف ١ : ٢٨٩.

(٧) المسعودي ٢ : ٤٠٢، وابن جبير ١٧٣، والشريشي ٢ : ٢٤٥.

(٨) ابن جبير ٢٧٦.

(٩) المسعودي ١ : ٣٠٦.

(١٠) المسعودي ٢ : ٢٠٧.

(١١) ابن خلدون ٣ : ٢٢٣.

(١٢) الأغاني ٤ : ٩٩.

(١٣) المحاضرة ٢ : ١٣٢.

(١٤) الأتليدي ٢٨٦.

(١٥) الأغاني ٩ : ٩١.

(١٦) الأغاني ٩ : ٨٨.

(١٧) الأغاني ٥ : ٨١.

(١٨) الأغاني ٩ : ٨٣.

(١٩) ذكر الأغاني (٥ : ٢٤) أنه ما كان يجلس إلى طعام الخليفة غير أمير وعالم.

(٢٠) ذكر الوشي المنسوج بالذهب الأغاني ٣ : ١٨٤.

(٢١) المسعودي ٢ : ٢٢٠.

(٢٢) المسعودي ٢ : ٤٢٦.

(٢٣) الأغاني ١ : ٣٩.

(٢٤) يبتدئ بالطعام الحار وينتهي بأكل البوارد (المسعودي ٢ : ٢٢٠).

(٢٥) المسعودي ٢ : ٢٢٠، والأبشيهي ١ : ٨٤.

(٢٦) الأتليدي ٩.

(٢٧) الأتليدي ١١٣.

(٢٨) الأغاني ٥ : ١١، والمستطرف ١ : ١٣٢.

(٢٩) ولد له من سُرِّيَّة لبعض نسائه (العقد الفريد ٣ : ٥٦).

(٣٠) ابن خلكان ١ : ٥٧.

(٣١) الأغاني ٣ : ١٥٩ و٩ : ٦٩.

(٣٢) ابن الأثير ٦ : ٥٧.

(٣٣) الأغاني ٣ : ٥٧.

(٣٤) ذكر الأغاني (٣ : ١٦٨ و٤ : ١١٦) عطاء أولاد الخلفاء.

(٣٥) ابن الأثير، والمسعودي، والفخري.

(٣٦) السيوطي.

(٣٧) المقدمة ١٨.

(٣٨) الدميري ١ : ٩٨، والمسعودي ٢ : ٤٠٢، والعقد الفريد ٣ : ٤٣.

(٣٩) الأغاني ٢ : ٢٢.

(٤٠) الأغاني ١٢ : ٢٠.

(٤١) ابن الأثير، وذكره الوطواط ١٤٢.

(٤٢) ذكر زينة المراكب هذه الأغاني ١ : ٨٨.

(٤٣) الأغاني ١٧ : ٧٢، والمستطرف ٢ : ١٣، والمسعودي ٢ : ٢١٣.

(٤٤) الأغاني ١٨ : ٧٧.

(٤٥) العقد الفريد ٣ : ٢٥٤.

(٤٦) لعب الرشيد بالشطرنج أمر معروف.

(٤٧) المستطرف ٢ : ٣٠٦، والمسعودي ٢ : ٤٠٦.

(٤٨) من المعلوم أنه كان لأمراء العرب العناية التامة بتربية الخيل، ووجدت في العقد الفريد أن المأمون كان يتخذ خيلًا يسابق بها خيل أبيه وأقاربه في الحلبة، قال في الجزء الأول (٦١): ركب الرشيد في سنة ١٨٥ إلى الميدان لشهود الحلبة، قال الأصمعي: فدخلتُ الميدان لشهودها فيمن شهد من خواص الخليفة، والحلبة يومئذٍ أفراس للرشيد ولولديه الأمين والمأمون وسليمان بن جعفر ولعيسى بن جعفر، فجاء فرس أدهم يقال له الربيذ لهارون الرشيد سابقًا؛ فابتهج لذلك ابتهاجًا عُلم في وجهه، وقال: عليَّ بالأصمعي، فنوديتُ من كل جانب فأقبلت سريعًا حتى مثلت بين يديه، فقال: يا أصمعي، خذ بناصية الربيذ ثم صِفْه من قونسه إلى سنبكه، فإنه يقال إن فيه عشرين اسمًا من أسماء الطير، قلت: نعم يا أمير المؤمنين، وأنشدته شعرًا جامعًا ما فيه ... فأمر لي بألف درهم. ذكر المسعودي (٢ : ٢٢٠) أن الرشيد أجرى الخيل يومًا بالرقة، وكان في أوائلها سوابق من خيله، يتقدمها فرسان في عنان واحد لا يتقدم أحدهما صاحبه، فتأملهما فقال: فرسي والله وفرس ابني المأمون.

(٤٩) في العقد الفريد والمسعودي والمقريزي وابن الأثير ذكر كثير من خواتم الخلفاء وما كانوا ينقشون عليها.

(٥٠) أبو الفداء ١ : ٧٧، وابن جبير ١٩٩، وتقويم البلدان ٨٧، وغيرهم.

(٥١) الفخري، والأتليدي ١٦٧، والقزويني ٢١٠.

(٥٢) الدميري ٢ : ١٥٤.

(٥٣) ابن الأثير ٦ : ٦٢.

(٥٤) كانت العرب تعرفه، كما في المقدمة ٣٥٧.

(٥٥) الكنز ٣٦.

(٥٦) الأغاني ٣: ٢٧.

(٥٧) الأغاني ٦: ١٣٠ و١٠٣.

(٥٨) الفخري ١٨٦، والمقدمة ١٤، وفي ابن الأثير (٦: ٥٨) أنهم كانوا من المنزلة الكبرى في عيون الملوك؛ بحيث إن خاقان ملك الجزر حمل ابنته إلى الفضل بن يحيى تقربًا إليهم في المصاهرة.

(٥٩) رسم الأبيات على الأستار مذكور في الأغاني ٥: ٨٦ و١٠٠.

(٦٠) الأتليدي ٢٧٢.

(٦١) ذكره الأغاني ٦: ٧٨.

(٦٢) ابن خلكان ٢: ٣١١.

(٦٣) الأغاني ٥: ٨، وذكره المسعودي ٢: ٣٨٥، وقال: إنه في الجهة الشرقية تلقاء قطربل، وذكر ابن الأثير (٦: ٩٨) أنه نزل به جند المأمون يحاصر بغداد.

(٦٤) الأغاني ٥: ٨، وياقوت ٤: ١١٤.

(٦٥) الأغاني ٥: ٨، وذكر المسعودي هذا الموضع ٢: ٢٦٧.

(٦٦) الأغاني ٥: ٧٢.

(٦٧) الأغاني ٥: ٧٢، والأتليدي، والأبشيهي، والوطواط، وأبو الفداء، وابن خلدون، والفخري، وابن نباتة، وابن خلكان، وغيرهم.

(٦٨) ابن خلكان ٢: ٣٦٣، والفخري ٢٤٠.

(٦٩) الأتليدي.

(٧٠) الفخري ٢٤٠، والوطواط ٢٤٩، والعقد الفريد ٣: ٣٤، والمستطرف ٣: ١٩٢، والأغاني ٥: ١١٩.

(٧١) الأغاني، وابن خلدون، وابن الأثير، وأبو الفداء، والمسعودي، والعقد الفريد، والمستطرف، والإسحاقي، والأتليدي، والفخري، والسيوطي، وابن خلكان.

(٧٢) العقد الفريد ٣: ٢٨.

(٧٣) الأتليدي في كتاب أعلام الناس.

(٧٤) الأغاني ٥ : ١١١ و٢٠ : ٣٤، والحصري ١ : ٣٧٥.

(٧٥) الأغاني ١٠ : ١٠٠.

(٧٦) الوطواط ٢٤٩.

(٧٧) الأغاني ٥ : ١٣، والأتليدي ٢٣٨.

(٧٨) أعلام الناس، والعقد الفريد ١ : ١٠٠.

(٧٩) الفخري ٢٣٦.

(٨٠) أعلام الناس.

(٨١) العقد الفريد ١ : ١١٩.

(٨٢) ذكر العقد الفريد (١ : ١١٤) أن البيتين قيلا في الحكم بن حنطب.

(٨٣) الأغاني ١٧ : ٣٤.

(٨٤) الأغاني ٥ : ١٤ و١٠ : ١٠٠.

(٨٥) أعلام الناس، والعقد الفريد ١ : ٣٩٨.

(٨٦) المستطرف ١ : ١٩٦.

(٨٧) حلية الكميت، والوطواط ٢٥٠، والأغاني ١٨ : ٩٤، وهو يقول: إنه أنشدهما في المهدي.

(٨٨) ابن خلكان ١ : ٥٦٨.

(٨٩) هما من بحر القصيدة التي رثَى بها معنًا ولم يُثِبْه عليها أحد من أولاده، وقد قالهما في مدح جعفر البرمكي وألحق بهما بعض أبيات. ومما قاله مروان في هذه القصيدة في رثاء معن:

كأنَّ الشمس يوم أصيب معنٌ ... من الإظلام ملبسة جِلالا

هو الجبل الذي كانت معدٌّ ... تهد من العدو به الجبالا

أقمنا باليمامة بعد معن ... مقاما لا نريد به زيالا

وقلنا أين نرحل بعد معن ... وقد ذهب النوال فلا نوالا

وهي من جيد الشعر. الأغاني ١٨ : ١١٦، والحصري ١ : ٣٧٧.

(٩٠) الأغاني ٥ : ١٥.

(٩١) العقد الفريد ٣ : ٣٧٧.

(٩٢) الأغاني ١٢ : ٧.

(٩٣) الأغاني ١٧ : ٣٤.

(٩٤) الأغاني ١٧ : ٣٣.

(٩٥) الأغاني ١٥ : ٣٥، ويظهر من كلام ابن الأثير (٦ : ٦٤) أن الرقاشي كان شاعر البرامكة.

(٩٦) أبو الفداء ٢ : ١٠، والخميس ٢ : ٣٣١، وابن الأثير.

(٩٧) الأغاني ١٧ : ٤٨.

(٩٨) ابن الأثير ٦ : ٧٠.

(٩٩) أبو الفرج، وذكر إمارة الأساطيل بسواحل الشام ومصر أبو الفداء ٢ : ١٩.

(١٠٠) نزل حميد بن معيوب قبرص وسبى من أهلها ستة عشر ألفًا (ابن الأثير ٦ : ٧٠).

(١٠١) في تاريخ أبي الفداء أنه قال: فحملتْ إليك من أموالها ما كنتَ حقيقًا بحَمْلِ أضعافِه إليها، لكن ذلك من ضعف النساء وحمقهن، إلى آخر الكتاب.

(١٠٢) الأغاني ١٧ : ٤٥، والطبري، وابن خلدون، والسيوطي، والمسعودي ١ : ١٥٨، وأبو الفداء ٢ : ١٨.

(١٠٣) أبو الفداء ٢ : ١٩.

(١٠٤) الأغاني ١٧ : ٤٧، والمسعودي.

(١٠٥) الأغاني ١٧ : ٤٧.

(١٠٦) المسعودي ١ : ١٥٨.

(١٠٧) ذكر الأغاني (١ : ٣٨) أن الرشيد قال للأصمعي عقب قدومه من بلاد الروم: أنشدني أحسن ما قيل في رجل لوَّحه السفر، فأنشده قول عمر بن أبي ربيعة:

رأتْ رجـلًا أمـا إذا الشـمس عارضـت ... فيُضـحِي وأمـا بالعشـي فَيَخْصـر

أخـا سـفر جـوَّاب أرض تقاذفـت ... بـه فلـوات فهـو أشـعث أغـبر

وفي العقد الفريد (٣: ١٧٨) تكملة هذه الأبيات وهي قصيدة مشهورة يستحسن الظرفاء طريقة نظمها، لكن ربما وقع فيها تحريف من الناسخين.

(١٠٨) ذكرهم ابن خلكان ١: ١٢٢.

(١٠٩) الأغاني ١٤: ٨٧، والأتليدي ٥٤، والشبلنجي ١٧٠.

(١١٠) ابن خرداذبة ٧٩.

(١١١) في تاريخ أبي الفداء (٢: ١٢) أن الرشيد لما جهَّز الفضل بن يحيى إلى قتال يحيى بن عبد الله كتب إليه الفضل وبذل له الأمان، وربما جعل الرشيد نفسه يحسن إليه ويكرم وفادته عليه؛ وفي ذلك دليل واضح على محبة البرامكة لأهل البيت. وذكر ابن الأثير أن الفضل بن سهل الملقب بذي الرياستين كان يتشيع وأن البرامكة هم الذين اختاروه لخدمة المأمون ٦: ٧٠.

(١١٢) المحاضرة ٢: ٨.

(١١٣) نذكر هنا أنه قامت في المغرب بعد ذلك الوقت الدول العظيمة التي فتحت الفتوح وأعزت الإسلام.

(١١٤) ابن جبير ٧٦.

(١١٥) الزرقاوي.

(١١٦) مقدمة ابن خلدون.

(١١٧) القزويني ١٠.

(١١٨) المقريزي، والمستطرف ١: ١٣٨.

(١١٩) هو جعفر بن يحيى البرمكي.

(١٢٠) ذكره المقريزي ٢: ٢٧.

(١٢١) الماوردي ١٩٩.

(١٢٢) المستطرف، وابن خرداذبة ٣٦.

(١٢٣) المستطرف ١: ١٢٥.

(١٢٤) المقريزي ١: ٩٨.

(١٢٥) مأخوذ من مقدمة ابن خلدون ٢١٤، وكتاب قدامة، ورسالة ابن خرداذبة.

(١٢٦) ابن الأثير ٦ :٧.

(١٢٧) المسعودي ٢ : ١٩٤.

(١٢٨) ذكر ابن الأثير (٦ : ٧٦) أنه كان في بيت المال لما توفي الرشيد تسعمائة ألف ألف ونيف.

(١٢٩) ذكرها الأغاني ٥ : ٣٣.

(١٣٠) الأغاني ٩ : ٥٨.

(١٣١) ذكر هذه المناظرة الأغاني (٥ : ٢٦) بين الموصلي وابن جامع.

(١٣٢) من كتاب الأغاني.

(١٣٣) انظر أخبار من غنى من أولاد الخلفاء في الكتاب التاسع من الأغاني.

(١٣٤) كذا في كتاب الأغاني، وربما قال الخليفة هذه الكلمات تحببا لأخيه وهي «لا تنقص من قدر جعفر شيئًا» فقد ذكر صاحب العقد (١ : ١٠٠) أن منزلته كانت عظيمة حتى إذا دعا إبراهيم بن المهدي لجعفر قال له إبراهيم: جعلني الله فداءك إنما أسعد بمساعدتك وآنس بمخالاتك، وأعاد القصة نفسها في الكتاب الثالث صفحة ٣٤ وذكر في الكتاب الأول صفحة ١٦٧ أنه لما زار جعفر سليمان صاحب بيت الحكومة قبَّل سُليمان يده، وقال له: بأبي أنت ما دعاك إلى أن تُحمِّل عبدك هذه المنة التي لا أقوم بشكرها، ولا أقدر أن أكافئ عليها، وذكر صاحب مروج الذهب (٢ : ٢٢٧) عن مُسايرة الرشيد لجعفر أنه كان إذا انصرف من مجلسه خرج الرشيد حتى يركب مشيعا له.

(١٣٥) الأغاني ٩ : ٧٢، والأتليدي ٢٨٧.

(١٣٦) الأغاني ٦ : ٧٤، والمسعودي ٢ : ٢١٩.

(١٣٧) العقد الفريد ٣ : ٢٤٢.

(١٣٨) الأغاني ٥ : ٣٦.

(١٣٩) الأغاني ١ : ٢.

(١٤٠) الأغاني ٥ : ٣٩.

(١٤١) الأغاني ١٦: ١١٦.

(١٤٢) الأغاني في الجزء الخامس.

(١٤٣) العقد الفريد ٣: ١٧٣.

(١٤٤) الأغاني ٦: ٨٢.

(١٤٥) الأغاني ٦: ٨٢.

(١٤٦) الأغاني ٦: ٧٧ و٨٢.

(١٤٧) المستطرف ٢: ١٨٨، والأغاني ٤: ٩٨ و٦: ٦٥.

(١٤٨) ذكر ابن جامع هذا صاحب العقد الفريد (٣: ٢٣٩) وقال: إنه أحلى المغنين نغمة.

(١٤٩) الأغاني ٦: ٩٦.

(١٥٠) ذكر العود الهندي الأتليدي ١٣٠.

(١٥١) الأغاني ٥: ١٠٩.

(١٥٢) الأغاني ٥: ٥٨.

(١٥٣) الأغاني ٥: ٧٥ و١٢٦ و٩: ٥٤ و٥٧، والشريشي ١: ٣١٢.

(١٥٤) الأغاني ٥: ١٦، والوطواط ٩٠، والأتليدي ١٤٣.

(١٥٥) الأغاني ٥: ٥٢.

(١٥٦) الأغاني ٥: ٨٧ و١٢٨.

(١٥٧) الأغاني ٩: ١٦٦ و١٨: ١٥٢.

(١٥٨) المستطرف، والشريشي ٢: ٢٨٠.

(١٥٩) الأغاني ١٩: ١٤٧.

(١٦٠) في قول الشيخ ابن الفارض:

أخذتم فؤادي وهو بعضي فما الذي   يضركم لو كان عندكم الكل

التفات إلى هذا البيت.

(١٦١) ذكر مثل هذا الأغاني ٤ :٩٨ و٩٩.

(١٦٢) الأغاني، وابن خلكان، والأتليدي، وحلية الكميت.

(١٦٣) ضبطه ابن خلكان (١ : ١١) بضم الميم.

(١٦٤) الأغاني ٩ : ٥٣.

(١٦٥) الأغاني ٢ : ١٨٩.

(١٦٦) الشعر مذكور في الحصري ٢ : ١٨٣.

(١٦٧) الأغاني ٤ : ١٢٣.

(١٦٨) الأغاني ١١ : ٢٤.

(١٦٩) الأغاني ٦ : ٢١.

(١٧٠) ذكر المسعودي (٢ : ٢٩٦) غناء بهذين البيتين.

(١٧١) الأغاني ١٨ : ٨٣.

(١٧٢) الأغاني ٦ : ١٢.

(١٧٣) الأغاني ٦ : ١٣.

(١٧٤) الأغاني ٦ : ١٩.

(١٧٥) الأغاني ١٦ : ٩٢.

(١٧٦) الأغاني ١٧ : ٧٣.

(١٧٧) العقد الفريد ٣ : ٢٣٦.

(١٧٨) الأغاني ٩ : ٥٠.

(١٧٩) الأغاني ٥ : ١٤٦.

(١٨٠) الأغاني.

(١٨١) العقد الفريد ٣ : ٢٤٠.

(١٨٢) الأغاني ٦ : ١٥٠، وذكر ابن خلدون في المقدمة أنه غنى الرشيد بهذين البيتين ليوغر صدره على البرامكة. وقد أنكر ذلك ١٥.

(١٨٣) الأغاني ولكن لم يذكر لأبي زكار صناعة بها.

(١٨٤) إنما نسبت لأبي زكار صناعة النغم المحزن لأني طالما ذكرت البيتين اللذين غنى بهما جعفرًا قبل أن ينكبه الرشيد، وهما قوله:

فــــلا تبعـــد فكــــل فــــتى ســــيأتي ... عليـــه المـــوت يطـــرق أو يغـــادي

وكـــــل ذخـــــيرة لا بـــــد يومًـــــا ... وإن كرمـــــت تصـــــير إلى نفـــــاد

فلم تتمثل لي صناعته إلا بمثل ما ذكرته لك بلسان الرواية.

(١٨٥) ذكر صاحب العقد الفريد (٣ : ٢٣٩) أنه مغنٍّ من الطبقة الثانية، ولكنه قال بعد ذلك: إنه كان أضرب الناس للوتر.

(١٨٦) الأغاني ٥ : ٢٤.

(١٨٧) ابن خلكان ١ : ١١.

(١٨٨) ذكره الأغاني (٦ : ١٢) في غير موضع، والعقد الفريد (٣ : ٢٥٩) وقال: إنه كان مغنيًا.

(١٨٩) الأغاني ١٤ : ٥٤.

(١٩٠) ذكرها القناوي ٢١.

(١٩١) الأغاني ٢ : ١٢٩.

(١٩٢) راجع كتاب الأغاني إن شئت فيها مطولًا.

الرسالة السابعة

في ذكر آداب العرب

هذه رسالة إليك أفردها لذكر آداب العرب وعلومهم، فقد طالما شهدتُ مجالسَهم بدار الرَّشيد في محاورة فقهاء، وحِلَق علماء، ومنادَمة أدباء، ومُناظرة جدليين، ومراواة رواة، ونوب مغنيين. [1] وذلك من الحظوظ التي لا يتفق مثلُها لغيري من المتصلين بالملوك؛ لأني كنتُ أقرب الناس مكانًا إلى الرشيد تحت ظل البرامكة، وكنتُ من الحظوة لديه بحيث إذا جلستُ إلى منادمته عدل عن جلال موضعه من الخلافة، ورجع إلى محاسن المنادَمة من إطلاق النفس على صفاء الإخوان.

فكان يَعمِد إلى مخدة[2] يجعلها تحت فخذِه ويمكِّن منها جلوسه، ثم يقول: هلمَّ بحديثك[3]وهذا غاية ما يكون من الملوك إذا طابت نفوسهم بمنادمة الجلساء.

وكنتُ إذا انفردتُ بمجلسه دون أحد من المقربين إليه أخرج جواريَه على غير ستارة؛ فيجلسن مُكلَّلاتٍ بالأزهار[4]مُزيَّنات باللؤلؤ والزبرجد[5] وأفخر أنواع الجوهر، فيُغنين ويضربن بالملاهي إلى هُدْءٍ من الليل، فإذا أتاه من الحرم[6] التفاح[7] المنقوش المطيب٨ وغيره من الفاكهة وأنواع الحلوى عزم عليَّ أن أجلس إلى طعامه. [9]

وكان يُحب أنْ أُحدثه عن علوم الفرس وصنائعهم؛ لِما طبع الله فيه من الميل إلى الأدب والتشوق إلى الوقوف على أخبار الماضين من الأمم، ولذلك كانت دولته تزداد خيرًا وصلاحًا، وينعم فيها العلم روحًا واسترواحًا. حتى إذا أقبل إليه العلماء من جميع الوجوه يَستمطرون غيث نداه حقق لهم جميل أملهم فيه، وبسط يده لإقطاعهم الضياع العامرة، وصلتهم بالهبات الوافرة.

وكانت هِمَّة الرشيد مصروفة إلى ترجمة كتب الفلاسفة من يونان وغيرهم، بعد أنْ رأى جَعفرًا وزيره يبتاع من صحفهم ما يأمر التراجمة بتعريبه[10] ثم يُعطيهم زنة الكتاب

المعرَّب ذهبًا؛ لأنَّ سوق العلم نافقة عند البرامكة(١١) – أعزهم الله – وهم الذين استنهضوا همم العلماء إلى تعريب صُحف الأعاجم، وأشاروا بعمل الكاغد لنسخ أسفارهم، وقد رأوا الرُّقوق التي تستعمل في الصكوك ورسائل السُّلطان لا تكفيهم في تدوين مُصنفاتهم ومُعرباتهم فرأوا مِن عمل الكاغد(١٢)ذريعة إلى نشر العلم الذي عنوا برفع مناره بحيث لم يدعوا سبيلًا إلى انتفاع الأمة به إلا سلكوه، وقد أعقبهم هذا المسلك فخرًا تتناقله الألسنة عنهم بطيب الأحدوثة؛ فحسدهم الرشيد على ذلك، وفي نفسه من الميل إلى الأدب والتشوق إلى الاطلاع على كنوز الحكمة ما قد رأيتَ في كتبي السالفة إليك؛ فأنفَذَ رسله في إحراز الأسفار القديمة، وكتبَ بأشخاص التراجمة الذين يُحسنون العربية من الروم وغيرهم من أمم النَّصرانية، وتقدم إليهم بتعريبها إلى اللغة السهلة التي تفهمها العامة وترضى بها الخاصة.

فلما تناول العربُ هذه الأسفارَ مهروا في استخراجها، ووقفوا على أغراض الحكماء منها(١٣)فرَقُوا من الأدب المقام الذي لم تَرْقَه أمة قبلهم في المشرق، وهذا من الأمور التي تدل على ذكاء العرب(١٤)ونُبْل الهمة عندهم، وأنهم يبلغون الغاية التي يرومونها من جميع المطالب في بُرهة يسيرة من الزَّمان، فإنا لا نجد في أخبار الأُمم السَّالفة مَن حاز من أطراف الدُّنيا مثل ما حازه المسلمون في مثل المدة التي وقعت فيها الفتوح، فقد كان من شأنهم عندما صار الأمرُ إلى بني أمية أن حازوا أكثر الأقاليم وابتزوا الأعاجم سلطانهم، ووصلوا من الشرق إلى السند والهند وتجاوزوا المغرب إلى أبعد من الأندلس شمالًا، وما مثلهم في سُرعة هذه الفتوح إلا مثلهم في سرعة تحصيل العلوم وبلوغهم من المدنية، على قرب عهدهم بها، ما لم تبلغه أمم العلم من قبلهم، فمن الغريب الذي ينطق بما عندهم من الهمة والفطانة أنهم لم يقتصروا من الحكمة على نقل فلسفة اليونان؛ بل وجدناهم يرمون إلى أغراض من الفلسفة بعيدة، ويضعون على قواعد اليونان شرحًا(١٥) أصابوا الرأي بالزِّيادة فيه بعد البحث والتمحيص(١٦) وذلك غير ما فتحوا من الأبواب الواسعة للنظر في العلوم الرياضية وتحريرها وإصلاحها، وغير ذلك.

وكان أول عهد العرب بالعلم في خلافة أبي جعفر؛[١٧] لأنه كان يُعزز جانب الحكمة ويبحث عن مكامن العلم للوقوف على آداب الأولين ويعزم على أهل الكتاب أن يدونوا الأسفار الكثيرة لإذاعة العلوم بين الناس؛ إذ لم يكن معروفًا عندهم من قبله إلا علم الرواية وأخبار العرب، وعلم الأحكام الشرعية واستنباطها من القرآن والحديث، وعلم العروض الذي وضعه الله – تعالى – في صدورهم، وبضاعة مُزجاة من النجامة وعلم الأفلاك مما اقتبسوه من الفرس والهنود، فلما جاءت هذه الأيام تسحب عليهم أذيال الدعة والنعيم، بعد أن فرغوا من أعمال الحروب التي وقعت في صدر هذه الدولة؛ وجَّهوا هممهم إلى النظر في فنون الأدب لتجديد ما طُمس من معالم العلم؛ فكتبوا في جميع فروعه وفنونه؛ بحيث إنَّه لو جُمعت كتب أمة قديمة عهدٍ بالعمران ما وجد ما تحويه من العلم أعظم مما تحويه كتب العرب.

وإني أذكر أنَّ الرَّشيد لما ركب إلى الرّقة في بعضِ أَسفاره حمل معه ثمانية عشر صندوقًا من أسفارهم؛[١٨] ليقطع بمطالعتها زمانه مع أنه لم يأخذ منها إلا نُخبة مما في خزائنه، وقد وجدت في قصر بناه بالقاطول ليخرج إليه للتنزه[١٩] خزانة كتب تحتوي على أكثر من ألف كتاب. وحسبنا ذلك شاهدًا على ما نروم ذكره من كثرة الصحف التي دوَّنها العرب بين تعريب وتصنيف.

الطب والأطباء

كان أبو جعفر – غفر الله له – يُوجِّه عنايته إلى علم الطب من بين العلوم؛ فبنى لتَعليمه حلقة كبيرة فوَّض أمرها إلى طبيب أعْجمي يُقال له «فرات بن شحتانا» وهو من تلاميذ تياذوق[٢٠] الذي كان طبيبًا بدار الحَجَّاج أمير العراق، فتخرج عليه طائفة من النَّصارى[٢١] دون المسلمين، ولستُ أحسب السبب في إعراضهم عن هذا العلم إلا ظنهم كفاية ما لديهم من المجرَّبات التي توارثوها من مشيخة الحي، وعدم حاجتهم إلى مثل هذه الصناعة في كسب الرّزق، وترفعهم عنها كغيرها أنفة. وذلك خطأ عليهم شَيْنه وخسرانه، إذ قد خلت منهم في دور الخِلافة مراتب أُسنِدت إلى أطباء

النَّصرانية؛ فبرعوا عليهم في هذا العلم وعرَّبوا كتب جالينوس وأبقراط من حكماء اليونان، وأضافوا إليها كثيرًا مما عرفوه من علم الحيوان بعد وقوفهم على مقالات أرسيخاس(٢٢)وديمقراطيس(٢٣) وغيرهما من العُلماء الذين يُرْجَع إلى كلامهم في طبائع الحيوان وخواصه ومنافع النبات ومضاره.

ولقد كان مُظْهِرَ الطب في النصرانية رجل يُقال له ماسويه أبو حنَّا، وكان أميًّا لا يعرف القراءة، إلا أنه تلقى الطب من أفواه اليونان، وطالت به المرانة له والتجربة فيه إلى أن بلغ منه المكان الذي لا يدفع، وكان له ولدان يُقال لهما يحيى ويوحنا؛ فتخرجا عليه في علمه ومعهما ثالث يُقال له جبريل بن بختيشوع فبرعوه في شفاء الأمراض.

فأما يوحنا: فإنَّه صارَ طبيبًا بدار الخلافة، ودوَّن رسالة طويلة أودعها ما عرض له من التجربة في مُعالجة أهل السقام، واتخذ مجلسًا أفرده للنظر في استنباط طرق العلاج باجتماع الرأي مع غيره من الأطباء، وكان الرَّشيد قد ولَّاه ترجمة الكتب(٢٤) التي وصلت إليه من مدوَّنات الأطباء والحكماء مثل: أبقراط، وجالينوس وغيرهما، فأحسن تعريبها كل الإحسان مع ما وجد فيها من الصعوبة التي نال منها مَشقَّة عظيمة.

وذلك بخلاف الكتب التي عُرِّبت في خلافة المهدي وأبي جعفر فإنها لم تكن جديرة بالثقة بها ولا الالتفات إليها؛ إذ كانت عارية من القواعد التي وضعها الحكماء، وليست تحوي سوى طرق من العلاج أشار بها ضُعفاء العقول من الأطباء، وكانت إلى الجهل والخرافة أقرب منها إلى العلم والحقيقة، فلم يجد التراجمة في تعريبها عناء يجهد النفس.

أما الكتب التي عربها ابن ماسويه؛ فإنها من أصح ما صدرت به أقلام اليونان وأنْفَسه.

وأمَّا جبريلُ بن بختيشوع فإنه تبحَّر في جميع العلوم الداخلة في علم الطب، وكتب في حياة الحيوان رسائل(٢٥) تدل على سعة اطلاعه، وكان جعفر(٢٦) – أعزه الله – شديد الحب له والاحتفاظ به؛ حرصًا على ما وسع صدره من العلوم، فقربه الرَّشيد

إليه برأي البرامكة، واتخذه في دور الخلافة بدل صالح الهندي الذي كان مقدَّمًا[٢٧] مِن قَبْله على أطباء بغداد، فلما صار إلى هذا المقام الجليل ورأى الناسَ يرجعون إلى رأيه فيما يُشير به من هذا العلم حملهم على الإعراض عن الدجالين، وهم الشيوخ الذين بعدت المهابة عنهم ودلَّ ما بلغوه من الشيخوخة على بلوغ الخَرَف منهم فيزعمون أنهم يَطُبُّون الناس بالمواعظ؛[٢٨] ليملكوا أفئدة العلوم بما لا فائدة فيه من الخرافة، فوفق بعلمه إلى بلوغ الغاية التي رامها من قطع السبيل عنهم دون الارتزاق بهذه الجهالة التي تُميت الأذهان الضعيفة.

ويأتي بعد جبريل بن بختيشوع ويوحنا بن ماسويه طبقة ثانية من الأطباء، كلهم من أمة النصرانية إلا عيسى أبا قريش الصيدلاني، وليس هو بطبيب ماهر ولكنَّه رُزِق الشهرة بين الناس عن اتفاق وقع له بأن بشَّر الخيزُران في خلافة أبي جعفر بأنها تحمل مولودًا ذكرًا يصير إليه أمر الأمة، فلما ولدت وكان ما ولدته غلامًا أفرغت النعمة عليه واتخذته طبيبًا في دار الخلافة،[٢٩]وقد سمعت من يقول: إن الخيزران إنما قربته لمهارته في الحجامة لا في الطب، فإن صحت الرواية كان عندي أحق بالثقة به حجَّامًا منه بالثقة به طبيبًا؛ إذا لست أثق من الطب إلا بما يحفظ الصحة للصحيح، أمَّا وسائل العلاج التي يزعمون أنها تبعد العلة عن العليل بعد تمكنها منه؛ فما أنا من الثقة بها على شيء؛ لأني أحسبها من باب الغوص على أسرار الطبيعة، وطالما وجدت للأطباء في العلة الواحدة آراء متباينة، ومن المعروف عند العقل أن الخلاف في الأمر الواحد لا يُطابِق الحقَّ فيه إلا وجهٌ واحد، أما الحجامة فإنها على خلاف ذلك، والرأي فيها واحد يقضي بحذف الجزء الفاسد وفصله، وإني وإن كنت على بُعدٍ من الطب لا أجد بدًّا من الإقرار بفضل العرب فيما استنبطوه من العلاج وما عرفوه من مُركَّبات العقاقير التي لم يَسبِق إليها أحد من المتقدمين ولا المتأخرين، ولا غَرْوَ فإن للطب صناعةً لا تبلغ الغاية منها إلا على طول التجربة والاختبار في المرانة والممارسة؛ ولذلك كان المتأخرون يَفضُلون فيها المتقدمين في كل عصر وأمة، وقد قال عليٌّ — عليه السلام: [٣٠]

ألا لـــن تنـــال العلـــم إلا بســـتة سـأنبيك عـن مجموعهـا ببيـان
ذكـاء وحـرص واصـطبار وبُلْغـة وإرشـاد أسـتاذ وطـول زمـان

النجامة وعلم الأفلاك

لقد سبق الإلماع إلى ذكر النِّجامة وأنَّها من العلوم التي كانت معروفة قِدمًا عند العرب، غير أن الاجتهاد فيها كان محصورًا في نفر قليل من أتباع الأقيال الذين تداولوا ملكهم قبل الإسلام، فلما جاء أبو جعفر قرَّب إليه المنجمين وقدَّم عليهم نوبخت[٣١] المنجم المشهور عندنا بين أعاظم المجوس وفضلائهم، ومَن له كبير علم وجزيل فضل، فاتخذ في الزوراء حلقة شهدها كثير من الناس، إلا أنه لم يخلفه في علمه كالموصلي المنجم، فإنه كتب في الأصطرلاب سِفرًا أودعه من علم الكواكب وسيرها وحركاتها أصولًا يُعيرها العلماء جانب الثقة والاعتبار، ويرجعون إليها في علم النجامة والأفلاك.

ثم نجم بعده في المسلمين علي بن عيسى الأصطرلابي،[٣٢] وإبراهيم الفزاري المنجم، ومَهَرَا في استخرج النجامة من كتب الفرس، وقد عثرت في خزائن البرامكة – أيد الله دولتهم – على أرجوزة في علم الأفلاك وهيئتها نَظَمَها إبراهيم هذا المنجم[٣٣] فجاءت ناطقة بحسن نظره، ولطيف مأخذه وجليل موضعه من هذا العلم، وله كتاب مشهُور في الزيج ذكر فيه من غير حركات الكواكب جوامع من مساحات الممالك والبلدان أذكر مما قيده في أقاليم الإسلام أن عمل أمير المؤمنين من فرغانة وأقصى خراسان إلى طنجة بالمغرب ٣٨٠٠ فرسخ، والعرض من باب الأبواب إلى جُدَّة ٦٠٠ فرسخ، ومن الباب إلى بغداد ٣٠٠، ومن مكة إلى جدة ٣٢ ميلًا،[٣٤] وعمل الأندلس لعبد الرحمن بن معاوية ٣٠٠ فرسخ، وعمل إدريس ١٢٠٠ في ١٢٠ فرسخًا، وعمل فاس لأبي المنتصر ٤٠٠ فرسخ في ٨٠ فرسخًا[٣٥] ثم نبغ بعدهما تيوفيل بن توما الرهاوي[٣٦] وكان المقدم على جميع المنجمين في خلافة المهدي – رحمه الله، وكانت له معرفة تامة باليونانية حتى سما إلى ترجمة كتاب شاعر يقال له

أميروس عن فتح مدينة إيليون في العُصُر الخالية إلى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة،[٣٧] وأميروس هذا شاعر مجيد كان يغترف المعاني من بحار التصور ويبرزها في الصورة التي يعجز عن مثلها الشعراء؛ فوقف نظمه بين الحكمة والإجادة مَوقفًا لا يَسمو إلى مُتناوله إلا العقول النَّيِّرة والأذهان الثاقبة، وقد أثنى عليه أرسطو[٣٨] في كتاب بمديح يرفعه إلى أسمى مقامات العقول.

أما المنجمون في هذه الأيام فهم اثنان مشهوران: ما شاء الله اليهودي، وأحمد بن مُحَّد النهاوندي، ودونهما في الشهرة ثالث يُقال له مُحَّد بن موسى[٣٩] المنجم.

فأما ما شاء الله فيقال إن له حظًّا في علم الغيب[٤٠] وكان في جملة المنجمين الذين اتصلوا بأبي جعفر بعد نوبخت وكسبوا الإنعامات منه، وهو اليوم بدار الترجمة آخذٌ عن أمرِ الرَّشيد بتعريب الكتب التي تبحث في علم الأفلاك، وأما أحمد النهاوندي فإنه في الموضع الأجلّ من علم الرصد ألَّف فيه كتابًا سماه المستمال، وأودعه من تحقيق النظر وتعميق الفكر فيما عرض له من أمور الفلك بما رصد في مدينة جُنديسابور ما لم يَسبِق إليه أحدٌ من المنجمين، ودوَّن في الموازنة بين علوم الفرس والهند واليونان فيما عرفوه من النَّجامة وسلكوا طريقته إلى آخر زمانهم كتابًا آخر صَوَّر فيه الدُّنيا كلها للرشيد ببحورها وجبالها وأوديتها وأقاليمها وبلدانها وسائر أماكنها، وجعل الدرجة خمسة وعشرين فرسخًا والفرسخ اثني عشر ألف ذراع والذراع اثنتين وأربعين إصبعًا، والأصبع ست حبات وتسعين مصفوفات بعضُها إلى بعض[٤١] وهذا مما يحتاج إلى دقة النظر في معرفة عرض الأرض وطولها ومناسبة الأقاليم فيما بينها وغير ذلك.

وقد أهدى إليَّ هذا المنجم نسخة مصورة من كتاب المستمال في السنة الرابعة والثمانين بعد المائة من الهجرة، ولكنه أخبرني أنه لم يرسله بين الناس لما يحتاج إليه من المراجعة والإصلاح بسبب ما يعرض له من أمور الفلك الذي يباشر رصده في هذا الوقت.

ولقد مضى في كلامنا عن الطب أن النصارى برعوا فيه على المسلمين، وكذلك نقول في هذا الباب: إن الفرس برعوا في النجامة على العرب؛ لأني رأيت هؤلاء يتجافَوْن عنها ويعدونها هي والسحر[٤٢] الذي ينهى الشرع عنه علمًا واحدًا، بخلاف جماعتنا من الفرس فإنهم يوجهون عنايتهم إلى العُلا في مباحثهم ومناظراتهم؛ ولذلك تجد انصبابهم إلى الرَّصد وما يُنبئ عنه من إشارات النجوم والكواكب أعظم من انصبابهم إلى ما سواه من العلوم.

وكان المقرِّبَ لهم في الإسلام أبو جعفر المنصور[٤٣] كما ذكرت ذلك في مواضع من الكتاب؛ لأجل أن يطلعوه على طوارئ الجو وحدوث الأنواء وانتقال الشمس والقمر والكواكب في بروجها وينبئوه عن جدب الأرض وخصبها؛ لما يكون من معرفة ذلك قبل أوانِه من المنفعة العَظيمة للملوك، ثم قرَّبهم البرامكة – أكرمهم الله بأكرم الكرامات – لاستشارة الأصطرلاب[٤٤] في جلوسهم وركوبهم وما يباشرون من جميع الأعمال؛ ولينظروا في النجوم ويدركوا علم الأبعاد ويوقعوا زمن الكسوف[٤٥] وعقدوا لهم مجلسًا يتناظرون فيه؛ لتحقيق ما يستنبطونه من حركات الكواكب المتحركة والمتحيِّزة وأسبابها بطرق هندسية، وما يَرَوْن من الأفلاك التي تختص بالكواكب الثابتة وغير ذلك، وتقدموا إلى مَن له علم بالنجامة أن يُعرِّب كتاب المَجَسْطِي لبطليموس من حكماء يونان، واتخذوا آلة للرصد تعرف بذات الحلق[٤٦] فكان يجتمع عليها المنجمون وفيهم جماعة من أدباء العرب الذين لم يشاركونا في هذا العلم إلا بما يلتمسون من معرفة الأيام والشهور والسنين من طريق حركة كل كوكب، وهو الفرع الذي يُسمونه بعلم الأزياج. [٤٧]

الحديث وعلوم الشرع

الحديث هو العلم الذي هَوَتْ إليه أفئدة المسلمين، وكان شأن العرب فيه في صدر الإسلام أن يرحلوا من بلد إلى بلد؛ ليسمعوه من الصحابة ثم من التابعين ثم ممن سمع من التابعين من غير أن يُدوِّنوه في الصحف، فلما أسرع الموت في العلماء وكانوا

كلهم شيوخًا، فزع أهل العلم إلى الطروس وأخذوا يُدوّنون[٤٨] الحديث مثل ما وجدوه في الناس محفوظًا بطريق الإسناد، ولكن من غير أن ينظروا في الرواية النظر الجلي، ولا أن يعتمدوا في النقد الأصل المرعي؛ فكتب ابن جريج بمكة[٤٩] ومالك بن أنس بالمدينة، ومَعْمَر باليمن، وسفيان الثوري بالكوفة، وهشيم بن بشير[٥٠] بالعراق، والأوزاعي ببيروت[٥١] من ساحل الشام، وحماد بن سلمة وشعبة بن الحجاج وابن أبي عَرُوبة بالبصرة، وذلك كله في خلافة أبي جعفر[٥٢]– رحمه الله، وكان أصحَّهم حديثًا عن رسول الله ﷺ مالكُ بن أنس وهو رأس المحدثين[٥٣] رأيته إذا أراد أن يُحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة ثم حدَّث، فقلت له في ذلك، فقال: أُحب أن أُعظِّم حديث رسول الله ﷺ ولا أُحدث به إلا مُتمكنًا على طهارة، وكان يكره أن يحدث على الطريق أو قائمًا أو مُستعجلًا، ويقول: أُحب أن أَتفهَّم ما أُحدث به عن الرسول ﷺ.

ثم إنه لما جاء هذا العصر والناس مطلعون على حكمة الفرس واليونان وما في أنواعها من الخروج عن الملة، أخذ الأئمة في وضع علم الكلام صيانة للدين أنْ تُخالطه البدع ويقع فيه التخالف، ثم أخذوا في تمييز المحفوظ من الحديث كله لمعرفة الصحيح من الفاسد الموضوع، وكان أول من أخذ في ذلك فقيه الإسلام أبو يوسف، وكان من عِلْية أهل الحديث وهو الذي آخذ الناقلين بأغلاطهم[٥٤] ونبذ الموضوع من أحاديثهم، وكان يقول: اثنان لا يَسلمان من اثنين، مَن طَلَب النجوم لم يسلم من الفقر، ومَن طلب غرائب الحديث لم يسلم من الكذب،[٥٥] ثم أخذ أخذه العُلماء المجتهدون من بعده، ومنهم أبو إسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك وهما أشهر الأئمة لأيامنا هذه، والرشيد لا يسمع الحديث إلا عنهما، ولا يلتمس الرد على الزنادقة إلا منهما فكان إذا آخذ على الزندقة جماعة يقولون له وهو يضربهم الحدود: أين أنت يا أمير المؤمنين من ألف حديث وضعناها عن النبي ﷺ ما فيها حرف نطق به؟ فيقول لهم: وأين أنتم يا أعداء الله من أبي إسحاق وابن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفًا حرفًا. [٥٦]

ولقد أخبرني هذان الإمامان أنهما يؤلفان في فقه الدين وعلم الكلام رسائل يذكران فيها مذاهب الأئمة، ثم يتطرقان منها إلى الرد على الذين يقولون بخلق القرآن ويزعمون أنه يحوي غير العربي الفصيح من الكلام، وهذان المذهبان[٥٤]فاشيان اليوم بين الناس، والأول منهما أشد خطرًا على الإسلام؛ لأنَّ زعم الخروج عن اللغة ضعيف الحجة واهي الدعامة بما يُعلم عن العرب أنهم خالطوا الأمم في تجاراتهم وأسفارهم وعلقوا من لغاتهم ألفاظًا استعملوها في أشعارهم ومحاوراتهم حتى جرت مجرى العربي الفصيح، فما ورد في القرآن من الألفاظ الأعجمية إنما دخل في العربية الفُصحى بطريق الاستعمال والتعليق[٥٨] بحيث إنه لا يكاد يُرى فيه من هذه الألفاظ ما لم يرد في شعر البلغاء من الجاهليين، وفي هذا القدر كفاية للرد على هؤلاء المفترين فيما يزعمون. أما الذين يذهبون إلى أن القرآن مخلوق فللعُلماء من أهل الاجتهاد حجج قامعة لافترائهم على الله، مخمدة لنار الفتنة التي كمنت طي مذهبهم، وهذا من الأمور التي ينبغي أن ينظر فيها الأولياء بعين الحذر؛ لأنَّ الفتنة لا تُؤمن غائلتها بعد فساد الدين، ويكون آخر أمرها بوارًا على الدولة ومدعاة لسقوط العرب الذين ما فتحوا البلدان وحازوا سلطان الأعاجم إلا بنخوة الدين وفتوَّة الإسلام.

ولقد عثرت في مدونات الفقه على كتب جليلة أجلها كتاب لأبي حنيفة في الكلام[٥٩] اسمه الفقه الأكبر، وله في هذا العلم الشأو الذي لا يُدرك، وكتاب لمالك بن أنس سماه الموطأ، وذهب في استنباط الأحكام الشرعية من القرآن والحديث إلى مذهب ينفرد به عن مذهب أبي حنيفة، وهو الكتاب الذي يقرؤه الرَّشيد، ويحفظه في صدره[٦٠] تفضيلًا له على غيره من كُتب الفقه. وعثرتُ أيضًا على كثير مما دوَّنه العلماء فيما يُشْتَق عن الفقه من علوم الأحكام، منها لأبي حنيفة وأبي يوسف – رحمهما الله – ومنها لابن شُبْرُمة وابن أبي ليلى[٦١] وقد أفردا نظرهما في علم الفرائض، ومنها كتاب لفتىً يُقال له يحيى بن أكثم جمع فيه ما استحسن من آراء أصحاب المذاهب، وهو الكتاب الذي أصبو إلى مطالعته من بين هذه الصحف الشرعية؛ لأني وجدت قِبَلَ صاحبه من قوة الفطنة[٦٢] وصدق الحَدْس ما يؤكد لي أنه إن مُدَّ له في

العمر سيُبْهِر الفقهاء.

أما الكتب التي وقفت عليها في علوم الحديث فإنها أكثر من أن يأخذها الإحصاء[٦٣]غير أنَّ الإفادة منها كانت محصورة فيما جمعه كبار العلماء، وبقي أن جملة ما في غير كتبهم مراجعة وإعادة لما سبقوا إلى تدوينه، فكان أنفع للعلم لو صرف الباقون عنايتهم إلى النظر في غير ذلك من العلوم، ولم يضيعوا العمر في نقل ما سبقهم إليه العلماء.

في تدوين اللغة

أما اللغةُ فإنَّ العُلماء قد وضعوا قواعدها على أصول وقفت عندها الغاية في الإصلاح وتدقيق النظر؛ لأنَّه قد سبق اهتمامُهم بها اهتمامَهم بما سواها من العلم اضطرارًا إلى تفسير القرآن، إذ كانت الكتابة مجهولة عندهم في صدر الإسلام، ولم يكن يكتب بالعربية غير بضعة عشر إنسانًا[٦٤]وكانت ألفاظ العرب بعضها محفوظ في صدور الرجال، وكثيرها ضائع بين الرمال، فبادروا إلى التقاطها من البادية، يطرقون مَنازل أهلها ويشهدون محاوراتهم ويتتبعون آثارهم ويَستنطقون أطلال دِيارهم، حتى وقفوا على ما كان متفرقًا من لغاتهم، وقيدوها في الصحف بطريق الرواية والإسناد.

وكانت حروف الكتابة في أول الأمر موضوعة بغير علامات[٦٥] وظل الناس يقرءون في مُصحف عثمان وهو بتلك الكتابة نحوًا من أربعين سنة حتى كثر التصحيف؛ لوجود الحروف المتشابهة[٦٦] وما أستغربُ أن يقرأ بعض الناس: «وما يجحد بآياتنا إلا كل جبار» والأصلُ: «ختار»، و«عذابي أصيب به من أساء» والأصل «أشاء»، و«هم أحسن أثاثا وزيا» والأصل «ورئيا»، «والذين كفروا في غِرة وشقاق» والأصل «في عِزة»، إلى غير ذلك؛ فوكل عبد الملك بن مروان إلى نصر بن عاصم أن يضع علامات لهذه الحروف المتشابهة فوضعها لها أفرادًا وأزواجًا فتميز بعضها عن بعض، ومُحي التصحيف في القراءة.

وضبط اللغة كان لما يحتاج إليه العلماء من حفظ الحديث وتفسير القرآن الكريم

بما دوَّنوه من لسان قريش وغيرهم.

وأول من دوَّن اللغة مجموعة في كتاب واحد الخليل بن أحمد الذي قدَّمت لك في الكلام على البصرة ذكره، وقد ضمن كتابه[٦٧] أصول اللسان العربي، وقيَّد ألفاظه في مواضعها في الاشتقاق إلَّا ما كان دخيلًا عليه من كلام الأعاجم، فإنه اكتفى من ذكره بالإشارة إلى عجميته، وأسند روايته في ذلك كله إلى أكابر الحفاظ، ولذلك صار قوله حُجَّة يُرجع إليها، ثم دونها بعده كثير من العلماء منهم أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي مؤدِّب الأمين والمأمون[٦٨] من أولاد الرشيد، ومنهم سيبويه[٦٩] والفَرَّاء والأخفش وعِلْمُهم النحو فقط إلا الفرَّاء فإنه كثير الفضل على العربية بضبطها وتخليصها[٧٠] وقد بلغتني جلالته في العلم ولكن لم يجمعني وإياه مجلس إلى هذا اليوم[٧١] ومنهم أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى البصري، وقد وقع إليَّ كتاب له في فقه اللغة لتعليم الرشيد[٣١] قبل تشرفي بتأديبه، وقد أودعه كلامَ العرب وقيود لغتهم وذكر المترادفات التي وردت لهم في جميع الأسماء والأفعال والأوصاف مُشيرًا إلى صحة استعمالها في مواضعها من الكِتابة، وأتى على مُتابعة الألفاظ التي تصف الأشياء على ازدياد في معناها أو نقصٍ يبعدها عن الكتابة.

وهذا الكتاب يفتقر إليه كل كاتب من أبناء العرب الذين ينزلون الأمصار، وينقطعون عن أهل البادية الذين يحافظون على قوام اللسان العربي[٧٣] لأني قد وجدتُ مباينة بين كلام العرب واصطلاحات المتمصرين حتى تكون اللغة عند هؤلاء غير اللغة عند أولئك، فأمَّا إذ انقسمت قسمين فيكون القسم البدوي هو الحافظ لمحاسن اللغة التي كان ينطق بها البلغاء والشعراء، ويكون القسم الحضري قطعة من كلام العرب يُخالطها كلام السُّوقة[٤٧] وألفاظ المعرِّبين فيما ينقلونه من كلام الفرس واليونان؛ مما لا نجد له مُسمًّى في لسان العرب؛ لأنَّ لُغتهم إنما وضعت للبادية حيث لا تكون هذه الأشياء التي نجدُ أسماءها في كتب الأعاجم، كما أن في لغات الأمصار إضرابًا عن تسمية الأشياء التي لا توجد إلا في بادية العرب.

ثم إني وجدت عند أهل اللغة قصورًا تساهموا فيه وتغاضَوْا عنه؛ وذلك أنهم عندما

يصرفون الكلام يسردون لغة القبائل فيه من غير أن يُشيروا إلى ما كانت تختلف فيه لغة قوم عن آخرين، ولقد ذكروا للأسد نحو ألف اسم، ولكن من غير أن يذكروا الاسم أو الأسماء التي كانت تُسميه بها عرب كذا وكذا، وذكروا للبعير والحية وسائر الحيوانات والأشياء والأوصاف مثل ذلك مع إغفالهم ما نحنُ نُؤاخذهم به، حتى لقد نجد في تصريف الأسماء إلى ما يشتق منها من المعاني مُضادة أغلفوا ذكر استعمالها بين العشائر كاستعمالهم وثب بمعنى جلس وطفر، وذلك من الأضداد التي لا أظنُّ أنها تجتمع في كلمة واحدة عند قوم من العرب، فإن الوثوب بمعنى الجلوس في لغة حمير، وبمعنى الطفر في لغة قريش(٧٥) إلى غير ذلك. (٦٧)

الشعر في البداوة

العَروض علم وضعه الله – سبحانه – في صدور العرب؛ حتى لا يوجد أحدٌ منهم إلا وهو يَقْدِرُ على قول الشعر طبعًا رُكِّبَ فيهم قلَّ القول أو كثر(٧٧) وكان أهل الجاهلية ينطقون به عن بلاغة لا يقصدون بها إلا المفاخرة بين الأقران كما سمعت الأصمعي يقول: «الشعرُ جزل من كلام العرب، تُقام به المجالس وتستنجح به الحوائج، وتشفى به السخائم.» بخلاف ما نجده في شُعراء هذا الزَّمان؛ فإنَّهم يغصبون أنفسهم على الإنشاد بما يستميحون الملوك من الأرفاد.

وعندي أنه كلما تباعدت أجيال الأعراب، وامتزجت بهم الأغراب، وتجافوا عن سُكنى البادية إلى حيث لا يكون لهم مجالس للمُناشدة كدأبهم في سوق مَجَنَّة وسوق عُكاظ وسوق ذي المجاز(٧٨) فقدوا كثيرًا من بَلاغة الشعر، وضاق مذهبهم به على اتساع الحضارة فيهم إلى أن يكلِّفوا طبيعتهم شيئًا لا يقدرون عليه، فيقولون البيت ويُحكِّكونه أيامًا. (٧٩)

وإنما سهَّل على المتقدِّمين الإجادة في هذا الفن أنَّ شاعرهم كان ينفرد بمذهب واحد من المذاهب المعروفة عندهم بين فخر ونسيب، ومدح وهجاء؛ من غيرِ أنْ يكونَ نابغة فيما سواه، ثم إنَّ كلام العرب(٨٠) كانَ سائرًا في أيامهم على الألسِنة؛ فلم

يُعانوا إلى البَلاغة تَكلُّفًا[٨١] فيما قصدوا من المذاهب التي كانوا يُفردون فيها القول بطرائق انقطعوا إليها وكانوا بها موصوفين، كاسترسال امرئ القيس في ملاذِّ الشبابِ بحيث أتى في نعت محاسن النِّساء بما ليس لقولٍ غيره موقع مثله من القلوب، وإنْ هو إلا أرقُّ المتغزلين حيث يقول:

أفــاطمُ مهــلًا بعــضَ هــذا التــدلُّلِ ... وإن كنــتِ قــد أزمعــتِ صــرمي فــأجملي

أغــرَّك مــني أنَّ حُبَّــك قــاتلي ... وأنَّــك مهمــا تأمــري القلــبَ يفعــل؟

وكجِدِّ عنترة بن شداد في الفروسية إذ أتى في الحماسة[٨٢] بما لم يأت به أحد مثله كقوله:

لــو ســابقتْني المنــايا وهــي طالبــة ... قــبضَ النفــوس أتاني قبلهــا الســبق

وكفتح حاتم الطائي يده في سعة العطاء بحيث إنه يتهلل بذكر السماحة والمكرمات في جميع شعره، ويقول: [٨٣]

أمــاوِيَّ إنَّ المــالَ غــادٍ ورائــح ... ويبقــى مــن المــال الأحاديــثُ والــذكر

أمــاويَّ إن يصــبح صــداي بقفــرة ... مــن الأرض لا مــاء لــديَّ ولا خمــر

تَــرَيْ أنَّ مــا انفقــتُ لم يــك ضــائري ... وأنَّ يَــدِي ممــا بخلــتُ بــه صــفر

وكارتفاع السموأل بن عادياء في درجات المحاسن الشريفة بحيثُ إنَّه أتى من ذكر الوفاء والمفاخرة به بما يرفعه أسمى طبقات الشعر، وهو الذي يقول:

إذا المــرء لم يــدنس مــن اللــؤم عِرْضــه ... فكــل رداء يرتديــه جميــل

تعــيِّرنا أنَّا قليــلٌ عديــدُنا ... فقلــت لهــا: إنَّ الكــرام قليــل

ومــا مــات منــا ســيدٌ حتــفَ أنفِــه ... ولا طُــلَّ يومًــا حيــث كــان قتيــل

وكانقطاع أُمية بن أبي الصلت إلى العِبادة بحيثُ إنه أتى في ذكر أحوال الآخرة بما

لم يُشاركه فيه مُتقدِّم ولا مُتأخر[٨٤] وإن قوله:

يوشك من فَرَّ من منيَّته ... في بعض غرَّاته يوافقها

من لم يمت عَبْطة يمت هَرَمًا ... للموت كأس والمرء ذائقها

لأحكم ما قالتْه العرب في وصف الموت[٨٥] إلى غير ذلك مما لا يتسع له المجال؛ فنقف منه عند هذا الحد.

وقد انتهت بلاغة الشعر إلى المعلقات السبع؛ وهي أصدق شاهد على فضل المتقدمين، بما قصدوا من انسجام القول ونعت ضروب الوجدان التي تدلُّ على أنفة النفس وعلو الهمة على غير تكلف البلاغة، بما نعلم من إنشادهم إياها ارتجالًا بين العشائر فإنَّ الحارث بن حِلِّزة لما أنشد عمرو بن هِنْدٍ مُعلقته توكَّأ على قوسه وأنشدها، واقتُطم كفه وهو لا يشعر من الغضب حتى فرغ منها[٨٦] فيظهر من ذلك أنَّه كان لهم في الشعر شأن ضاع من المحدَثين سرُّه؛ لانقلابه فيهم من الطبيعة إلى الصناعة؛ لأنَّ العربَ كانوا شُعراء جميعًا، وكلهم يرتجز في حرب أو استجداء أو مُفاخرة[٨٧] وكانت الحكمةُ سائرة على ألسنتهم كما شهد لهم النبي ﷺ بذلك حتى إذا أنشدوه قول طرفة من أصحاب المعلقات:

ستُبدي لك الأيام ما كنتَ جاهلًا ... ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّد

قال: «هذا من كلام النبوة.» [٨٨]

ثم إنَّ النساء كُنَّ يقُلن الشِّعر أيضًا في أيامهم، حتى إنَّ بعضهن قد فَضلْن كثيرًا من الرِّجال مثل ليلى والخنساء وكلتاهما شاعرة فصيحة، ولقد وجدتُ من كلام ليلى في وصف الشَّجَاعة ضُروبًا من الإبداع كقولها: [٨٩]

مهفهف الكشح والسربال منخرق ... عنه القميص لسير الليل محتقر

لا يأمن الناس مُمساه ومُصبحه ... في كل فجٍّ وإن لم يغزُ يُنتظر

ووجدت في تأبين الخنساء لصخر توجُّعًا كثيرًا بالبكاء عليه حيث تقول:

يُـــذكِّرني طلـــوع الشـــمس صـــخرًا ... وأذكـــره لكـــل مغيـــب شمـــس
ولـــولا كثـــرةُ البـــاكين حـــولي ... علـــى إخـــوانهم لقتلـــتُ نفســـي
ومـــا يبكـــونَ مثـــل أخـــي ولكـــن ... أُعـــزّي الـــنفسَ عنـــه بالتأسّـــي

وتقول في رثائه وهي تصفُ محاسنه:

إذا القـــــوم مـــــدُّوا بأيـــــديهمُ ... إلى المجـــــد مـــــدَّ إليـــــه يـــــدا
فنـــال الـــذي فـــوق أيـــديهمُ ... مـــن المجـــد ثم مضـــى مُصـــعِدا

وتقول، وهو أفخر بيت قالته العرب:

وإن صـــخرا لتـــأتمُّ الهُـــداةُ بـــه ... كأنـــه علـــمٌ في رأســـه نارُ

ولها من أمثال هذا الكلام شيء كثير(٩٠) يرفعها إلى مُساماة البلغاء من الرجال.

وقد أجاد المتقدمون في براعة الاستهلال إلى حيث يقف حد البلاغة، وهم يصفون الركبان والطيف، ويذكرون ربوع الأحباب وتعفية الرياح رُسومها ومُخاطبتهم إياها فيما مضى لهم من عهود الأنس، ويصفون ألم الفِراق، ووحشة الديار، وما يخالج قلوبهم من الصبابة في وقوفهم بالعِيس على أطلال الدِّيار(٩١) إلى أن يتخلصوا من هذا الاستهلال إلى ما يرون إنشاده فيما يأخذون به من المذاهب، ولكن على انحطاط يقع فيه الكثير بعد بلاغة الابتداء، إلا الذين يتوسطون بالبَلاغة في مطلعهم فيستمرون إلى آخر بيت على استواء، أو الذين يعلون علوًّا حسنًا ثم لا يزالون صاعدين في بلاغة تُعجِز الفصحاء، ولكنهم نفر قليل مثل: امرئ القيس، وزُهير بن أبي سُلْمى، والنابغة الذبياني؛ وهم المقدمون على جميع الشعراء، وموضعهم من البلاغة واحد،٩٢ إلا أنه غلب على ذي القروح التجمل بالمعاني وبديع الوصف، وعلى النابغة الاسترسال في البراعة، وعلى زُهير العناية بتقويم الألفاظ. وقد سمعتُ الأصمعيَّ يقول – وقد سئل:

مَنْ أشعر العرب الذين شَرَّق شعرهم وغرَّب؟ – فقال: «زُهير إذا رغِب، والنابعة إذا رهِب، وامرؤ القيس إذا طرِب، وعنترة إذا ركِب، والأعشى إذا شرِب.» (٩٣) ولئن يكن في تفضيل الشعراء بعضهم على بعض عسر لا يُؤمن معه الزَّلل ما أنا براءٍ في أبياتهم ما يسمو إلى كلام النَّابغة في الفخر حيثُ يقول: (٩٤)

ولا عيبَ فيهم غير أنَّ سيوفهم　　　بِهِنَّ فُلولٌ من قِراع الكتائب

ولا إلى براعة زُهير في المديح، وقد ألقى عن المادحين فضول الكلام بقوله: (٩٥)

وإن يك من خير أتوه فإنما　　　توارثه آباء آبائهم قبلُ

ولا إلى جمال الوصف الذي نظمه امرؤ القيس في معلقته نظم اللآلئ في شذور الذهب؛ فقد لا تحضر البُلغاء أنفسهم عباراتٌ يفصِحون بها عن محاسن كلامه الذي ذهب مذهب المعجزات، فإنَّ العرب لم ينفكوا عن الإعجاب بها وهي مُعَلَّقة في الكعبة إلى أنْ ظهر الإسلام، وذهبت فصاحة الشعر بما نزل من كلام الله – تعالى – على سيد ولد آدم سيدنا مُحَمَّد ﷺ.

وأمَّا الذين دون طبقة هؤلاء من الجاهليين؛ فإنَّ لهم من محاسن الشعر مَوضعًا لا يتعدَّونه إلى التصرف في المذاهب الواسعة كانفراد أبي داود بوصف الخليل، وعلقمة بوصف الوحش، وأوس بن حَجَر بوصف الخمر إلى غير ذلك (٩٦) وليس فيهم أقرب إلى طبقة الثلاثة المتقدمين من الأعشى بن جندل الأسدي؛ (٩٧) فإنَّ له أبياتًا حِسانًا، ذكر منها هذا البيت الذي هو أشجع بيت قالتْه العرب:

قالوا الطعانُ فقلنا تلك عادتنا　　　أو تنزلون فإنا معشر نُزلُ

ولكني وجدته إذا تعالى في شعره كثيرًا لم يُؤمن وقوعه في الانحطاط، (٩٨) ورُبما أتى مِنَ الألفاظ بالغريب الذي يبعد عن الأذهان، وهذا شيء يصحُّ أن نعيبه عليه وعلى غيره من الجاهليين، وإنْ كان بعضُ الناسِ يجدون له مخرجًا إلى السلامة من العيبِ إذ يجوزون للمُتقدمين ما لا يجوزونه للمُتأخرين.

ولقد وجدت في شعر الإسلاميين المتقدمين عُلوًّا كادوا يُسامون فيه أهل الجاهلية، ولذلك يصحُّ أن نعترف لهم بمحاسِن البلاغة مثل: الأحوص، وذي الرُّمَّة، وحسان بن ثابت، وعمر بن أبي ربيعة، والقطامي، وجرير، والفرزدق، والأخطل، وجميل، وكُثَيِّر، وكثير غيرهم؛ فإنَّ لشعرهم من رقة الديباجة والرونق والحلاوة ما لا نجد إلا في شعر البُلغاء من الجاهليين، ورُبما انتهى بعضهم في المذاهب التي كانوا بها آخذين إلى حيث تقف بلاغة الشعر كذكر الحماسة في كلام حسان بن ثابت حيث يقول:

لنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يلمعن في الضُّحا — وأسيافُنا يقطُرن من نجدة دما

وكالاستئثار بالفخر في شعر الفرزدق الذي يقول فيه: (٩٩)

ترى الناس إن سِرْنا يسيرون خَلفنا — وإن نحنُ أومأنا إلى الناس وقفوا

وكالتوجع في الرثاء في قصيدة الهذلي التي يجزع فيها على فقد أولاده، إلا طفلًا صغيرًا بقي له، ومن جُملتها البيت المشهور: (١٠٠)

والنفس راغبة إذا رغَّبْتَها — وإذا تُرَدُّ إلى قليل تقنع

وكالتشبيب في شعر جميل، وذي الرمة، وعمر بن أبي ربيعة(١٠١) بحيث إنَّ لهم في ذكر محاسن النساء من الأوصاف البارعة مع عذوبة الألفاظ وجودة السبك ما لا يُوجد مثله لأحد من شعراء العرب غير الثلاثة المتقدمين إلى غير ذلك.

ثم إنَّ الشعر يقع في الحضارة بعد هؤلاء المجيدين ويفقد كثيرًا من البلاغة التي كانت في لسان الجاهليين لإبراز المعاني في فصيح الكلام، إلا أنَّه لا ينحطُّ عنه في الأوصاف البارعة وتناول المعاني من حيث الشعر نفسه، فلقد نجدُ لبعض المحدثين من سعة التصرف فيه، وسرعة الخاطر إلى النظم ما يجعلهم لولا تأخر أيامهم في طبقات المتقدمين، على أنَّ كلامهم ليس من الفصاحة بالموضع الذي كان للجاهليين، والعُذر لهم في ذلك أنَّ شاعر البَادية إنما كانَ يلتمس الفَصيح من الألفاظ ليسمو كلامه على

كلام غيره من الشُّعراء، واللغات إذ ذاك كثيرة في عَشائرهم، أما اليوم؛ فإنَّ اللسانَ الذي نزل به القرآن معروف لدى كل إنسانٍ فلا يضطر الشاعر إلى التماس ألفاظ يفضُل بها لسان غيره لتوحد لغة قريش في الأمصار كافة، وإنما وجب عليه أن يبتدع المعاني التي لم يَسبِق إليها غيرُه دون تكلفة إلى تناول الغريب من الكلام؛(١٠٢) لأنَّ الألفاظَ السُّوقية لا تمنع(١٠٣) أنْ تكون القصيدةُ جيدة.

ولقد ينقسم الشعرُ في الإسلام(١٠٤) إلى طبقاتٍ ثلاثٍ، أقربها إلى فصاحة البداوة أبعدها عن حضارة الإسلام، أولها عصر عبد الملك، والشعر إذ ذاك في ثلاثة من تميم(١٠٥) وهم جرير والفرزدق، وهو مِن نَبَغَة(١٠٦) الشعراء، والأخطل النَّصراني، وهو المجيد في مدح الملوك(١٠٧) ووصف الخمر، وكان المقدَّمَ عليهم جرير، وقد فضَل الشعراء(١٠٨) بقوله في المديح:

ألستم خيرَ مَن ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

وقوله في النسيب(١٠٩)

إنَّ العيون التي في طرفها حَوَر ... قتلْنَنا ثم لم يُحيِين قتلانا

يصرعْنَ ذا اللُّبِّ حتى لا حَراك به ... وهن أضعف خلق الله إنسانا

وهذا من الكلام الذي تتناهى إليه رقة أهل الصبابة، ولم نجد من بعده مثله إلَّا في شعر جميل وكُثَيِّر وقد استرسلا في وصف حياة الشباب، وانقطعا إلى النسيب(١١٠) من مذاهب الشعر، يقول كُثَيِّر(١١١)

أريد لأنسى ذكرها فكأنما ... تمثَّلُ لي ليلى بكل سبيل

ويقول جميل:

وما زلتمُ يا بُثْنُ حتى لَوَ انني ... من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا

وما أحدَثَ النأيُ المفرِّق بيننا ... سُلُوًّا ولا طولُ الليالي تقاليا

علـــى أنـــني راضٍ بأن أحمـــل الهـــوى　　وأخلُـــص منـــه لا علـــيَّ ولا ليـــا

ومن كلامه: [١١٢]

خليلـــيَّ فيمـــا عشـــتما هـــل رأيتمـــا　　قتـيلًا بكـى مـن حـبِّ قاتلـه قبلـي؟

وأول الأبيات قوله:

لقـد فـرِح الواشـون أن صـرمتْ حبلـي　　بثينـــة أو أبـــدت لنـــا جانـــب البخـــل

يقولـــون مهـــلًا يا جميـــل وإنـــني　　لأقســم مــا بي عــن بثينــة مــن مهــل

والناس يستحسنون ذلك. ولا يُقاربه في النسيب إلا قول الأحوص: [١١٣]

إذا قلـــت: إني مشـــتفٍ بلقائهـــا　　فَحُـــمَّ التلاقـــي بيننـــا زادني ســـقما

وأما الطبقة الثانية فإنها عصر أبي جعفر – رحمه الله – وشعراؤه مَن تقدم لك ذكرهم.

والطبقة الثالثة هي زمن الرشيد والبرامكة، وشعراؤها أكثر من أن يأخذهم الإحصاء؛ ولكني لا أرى فيهم إلا أبا العتاهية، وأبا نواس، ومُسلم بن الوليد، وهم أشعرُ أهل هذا الزَّمان كما ستراه.

فأمَّا أبو العَتاهية فإنه انقطع في شعره إلى ذكر أحوال الآخرة[١١٤] وله أرجوزة حَوَتْ أربعة آلاف بيتٍ أودعها من المعاني الجليلة ما أبرزه في أحسن صورة، ومن ذلك قوله: «روائح الجنة في الشباب.» وهو قول يَقبله القلب ولا يُفسره اللسان[١١٥] والناسُ يقولون: إنه خرج عن العروض بوزن لم يذكره الخليل بن أحمد، ولكني لا أرى ذلك خطأ يعاب به كمن يتطاول على قواعد العلوم؛ لأن الخليل لم يستوفِ الكلام في هذا العلم الذي وضعه، ولا سيما في بحر المتدارك، فإنَّ من العروضيين من زاد فيه على ما ذَكَر،[١١٦] وقد كان أبُو العتاهية من الحظوة عند الرشيد بحيث لم يفارقه في حضر ولا في سفر،[١١٧] ثم آل أمرُه إلى الزُّهد[١١٨] فلبِس الصوف وعزفت نفسه عنِ

الدُّنيا، وكانَ يقولُ: (١١٩)

كـــأنَّ كـــل نعـــيم أنـــت ذائقـــه　　　　مـــن لـــذةِ العَـــيش يحكـــي لمعـــة الآل

فصار إذا دعاه إليه ليصف ما هو فيه من زخارف الملك يُبادره بالتذكير والموعظة(١٢٠) فيبكي الرَّشيد من ذلك؛ فيهُمُّ الجُلَّاس إلى مُعاتبته فيقول لهم الرَّشيد: دعوه؛ إنه يرانا في عمًى فيكره أن يزيدنا منه.

أما أبو نُوَاس فإنَّ مذهبه في الشعر مضاد لمذهب أبي العتاهية، وأكثر ما يتضمن شعره الغزل والزهو وذكر المنادمة والخمر، تبعًا لما نعرف له من ممازحة الملوك،(١٢١) فهو يذكر إبليس والخمر في شعره، كما يذكر أبو العتاهية الآخرة والجنة.

ومن استعاراته الفائقة قوله:

بَسَـــمَ الصـــباحُ لأعـــين النـــدماء　　　　وانشـــقَّ جيـــبُ غِلالـــة الظلمـــاء

وله في صفاتها ونعت طعمها وريحها ولونها وشعاعها وحال المنادمات عليها والاصطباح والاغتباق(١٢٢) ما توسع فيه إلى أدب ليس للشعراء حظٌّ منه، وهذا مما يدلُّ على اقتداره في الشعر، وإنْ كان مذهبه غير محمود عند أهل الصَّلاح، وهو عندي شاعر الشعراء حقيقة،(١٢٣) وإني أُفضِّل شعره على شعر أبي العتاهية؛ لأنَّ قصائده كُلها سالمة من العيب،(١٢٤) أمَّا أبُو العتاهية فإنه وإن كانت له استخراجات لطيفة ومعان ظريفة يقول البيت النادر، ثم يتبعه بالبيت السخيف البارد،(١٢٥) وقد ذكر لي ورَّاق في درب القراطيس(١٢٦) كنتُ آلف حانوته أنَّه مَرَّ به أبو العتاهية يومًا وعنده دِيوان لأبي نُواس فوقع نظره على هذا البيت: (١٢٧)

لـــن ترجـــع الأنفـــس عـــن غيهـــا　　　　مـــا لم يكـــن منهـــا لهـــا زاجـــر

فسألني لمن البيت، فقلت: لأبي نُواس، فقال: واللهِ إني أُحب أن يكون لي هذا البيت بنصف شعري(١٢٨) وأظنُّ أنه لو وقف على قوله:

لـــــيس علـــــى الله بمســـــتنكر　　　　أنْ يجمـــع العـــالم في واحـــد١٢٩

أو قوله، وهو أمدح بيت للمُحدثين:

وكلــتَ بالــدهر عينًــا غــير غافلــة بجــود كفــك تأســو كــلَّ مــا جَرَحــا

لقال فيهما مثل ذلك، ولقد لقيتُ إسماعيل بن نوبَخْت في مجالس البرامكة وقد وجرى الحديث بحضرتهم عن الشعراء، فقال: سمعت بعض الناس يقول: إنَّ الأصمعي أعلم الشعراء وأشعر العلماء، فوالله، ما رأيتُ أحق بهذا الوصف أنْ يُقال فيه من أبي نُواس؛ لأني ما رأيتُ في أهل الأدب مَن هو أوسع علمًا في كل شيء منه، وليس له في الشعراء من مبارٍ، يعلِق له بغبار، وكفى في تحقيق فضله عليهم أنَّ كلامه كله موزون[١٣٠] فإنَّ الشِّعر رسخت في صدره ملكته، وصار في نفسه طبيعة ترفعه على جميع الشعراء.

وأما مسلم بن الوليد الملقب بصريع الغواني؛ فإنه أرقُّ الشعراء غزلًا، وألطفهم صنعًا وأكثرهم من المعاني حظًّا[١٣١] إلا أنَّ ميله مع أهل البيت وقوله الشعر في مديحهم هو الذي جعله مُقصيًّا عن محاضرة الخلفاء، بل جعل في نفوسهم موجِدة عليه لما كانوا يرون من استمساك الناس بشعره، وقد أبدع مصاغه ورصَّعه بدُرر البَلاغة، ولقد ظفِر به الرَّشيدُ فحمِد اللهَ على ذلك بمحضر من الجلساء كأنما قد ظفر بملك من كبراء الملوك، فلما أخذ يُعاتبه قال: إيه يا مسلم، أنت القائل:

أنِــسَ الهــوى ببــني علــيٍّ في الحشــا وأراه يطمــــح عــــن بــــني العبــــاس

فأعمل فكرته أنْ يستبدل به مدحًا علَّه يشفع له عنده ويكون وسيلة لسلامته من القتل، وقال: بل أنا يا أمير المؤمنين الذي أقول:

أنــس الهــوى ببــني العمومــة في الحشــا مُستوحشًــــا مــــن ســــائر الإينــــاس

وإذا تكاملــــتِ الفضــــائل كنــــتم أولى بــــذلك يا بــــني العبــــاس

فعجِب الرشيد من سُرعة بديهته، وقال له بعضُ جُلسائه: استبْقِه يا أمير المؤمنين؛ فإنَّه من أشعر الناس[١٣٢] وامتحنْه فسترى منه عجبًا؛ فرقَّ له الرشيدُ وفي

نفسه من الميل إلى الأدب ما قد علمتَ، ثم قال له: أنشدنا أشعر بيت لك، فقال: يا أمير المؤمنين، أفرِخ رُوعِي أفرخ الله رُوعَك يوم الحاجة إلى ذلك؛ فإني لم أدخل على خليفة قطُّ، فأمره بالجلوس ثم شرع في الإنشاد وكلما فرغ من قصيدة قال له: التي تقول فيها «الوحل» فإني رويتها وأنا صغير، فأنشده شعره الذي أوله:

أديــرا علــيَّ الــراح لا تشــربا قبلــي ولا تطلبـا مـن عنـد قـاتلتي ذَحْلـي[١٣٣]

حتى إذا انتهى إلى قوله:

إذا مــا علَــتْ منــا ذؤابــة شــاربٍ تمشَّــت بنــا مشــي المقيَّــد في الوحــل

ضحك الرشيدُ وقال: عليك! أما رضيت أن تُقيِّده حتى يمشي في الوحل؟ ثم أمر له بجائزة وخلَّي سبيله.

هؤلاء الثلاثة أشعر الشعراء، وهم الذين زينوا الدولة العباسية، كما كان الثلاثة المقدم ذكرهم في الفصل السابق يزينون زمن الجاهلية، ولقد لقيت في بغداد كثيرًا غيرهم منَ الشُّعراء مثلَ العماني وأبي مُصعب وأبي الشيص وأبي عبد الرَّحمن العطوي وغيرهم، واتصلت بي أخبار جماعة ممن يتصرفون في فنون الشعر ويبتدعون القول الذي لم يشركهم فيه غيرهم إلى أن ينظموا القصائد التي ليس في أبياتها حرف معجم، إلا أنهم قد كانوا في أيام أبي نواس ومسلم بن الوليد، فضاع بينهما فضلهم، ولم يكن لهم ذكر في مجالس الخلفاء وأهل الأدب.

الغناء وتحريره وإصلاحه

قد مضى في بعض كتبي السالفة من الكلام عن الغناء ما يقضي بصحة ذوق العرب، وحُسن ما يصنعون من الأصوات، وكان أصله عندهم أربعة نفر[١٣٤] ابن سُريج، وابن محرِز، وهما مكيَّان، ومالك، ومَعبد، وهما مَدَنِيَّان، إذ كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القُرى من بلاد العرب ظاهرًا فاشيًا وهي المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودُومة الجندل واليمامة، وهذه البلاد مجامع أسواق العرب، [١٣٥]

وكانت النساء يُشاركنهم في صناعة الأصوات، وقد نبغ فيهن عزة الميلاء في الغناء الموقَّع إلى أن صارت أحسن الناس ضربًا بعود[١٣٦] وكان لها أستاذة يُقال لها رَائقة فاحتذتْ فنَّها في تنسيق الأنغام، ثم قدِم الحجاز سائبٌ ونشيطٌ وغنَّيَا بالفَارسية، فأخذت عزةُ عنهما نغمًا وألَّفتْ عليها ألحانًا كثيرة ليّنة كما نجد في غناء النّساء[١٣٧] ثم ظَهر طويس المغني فصنع الرَّمَل والهزَج[١٣٨] وأول ما غنى به على لحنٍ صنعه قوله[١٣٩]

قـــد بـــراني الشـــوق حـــتى   كـــدت مـــن وجـــدي أذوب

ثم غنى ابن مسجح الغناء المنقول من الفارسي[١٤٠] وشهره بين الناس، وكان ابن سريج يضرب بالعود على غنائنا إلى أن ظهر معبد في المدينة المنورة – على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التحية – فصنع من الأصوات البديعة ما فضل فيه غيره من أهل زمانه المعاصرين له.

وقد كان الغناء قبل نقله عن الفارسية مأخوذًا عندهم عن الأذان[١٤١] فلما نقلوه عن قومنا واستعانوا بكتاب لبطليموس في اللحون الثمانية[١٤٢] عرَّبوه في خلافة أبي جعفر[١٤٣] أجادوا تأليف الأصوات إلى أن فضلونا اليوم في الغناء، ونبغوا فيه النبغة التي ما كنت أحسبهم يصلون إليها في زمن من الأزمان، وما مكنهم من استكمال هذه الصناعة إلا أمران: الأول انفراد كل واحد منهم بلحن من الألحان، يفتنُّ فيه ويصنع فيه الأصوات الحسان حتى يفوق ألحان غيره من المغنين، كانفراد معبد بالثقيل[١٤٤] وابن سُريج بالرمل، وحكم الواديّ بالهزج[١٤٥]وأحمد النصيبي بالأنصاب[١٤٦] وفُليح بن أبي العوراء بلحن النواقيس، والموصلي باللحن الماخوري، أما خفيف الرمل فإنهم يشتركون فيه جميعًا بحيث لم أجد مغنيًا إذا تغنى لنفسه يكاد يغني إلا خفيف الرمل[١٤٧] والثاني ما كانوا يتناولونه من الخلفاء جوائز ومنَ الأُمراء وأهل النِّعمة أجرة واسعة على غِنائهم ممنْ يستدعيهم إلى فرح أو يجمعهم لمناظرات الصناعة ثم يخرج بِدَر الدنانير لإجازة المحسنين[١٤٨] منهم، ولقد سئل حنين المغني، وقد دُعي إلى مأدُبة لا يعهد في صاحبها السَّماحة، لم لا ترضى بالأُجرة اليسيرة؟ فقال: إنما

هي أنفاسي أقسمها بين الناس، أفتلومونني أنْ أُغلِي بها الثمن؟

ثم ظهر عصر البرامكة – أعز الله ملكهم – وهم محبون للعلم ومقرِّبون إليهم أهل الأدب، فكانَ ممن قربوه من المغنين إبراهيم الموصلي، وابنه إسحاق، وهما بمكان جليل من الأدب إلا أنه غلب عليهما الغناء بما وضعاه من الألحان، فاشتهرا به كما رأيت. وقد وضع أبو إسحاق اللحن الماخوري الذي لم يشركه فيه أحدٌ من المغنين، وكان يظنُّ لصعوبة المأخذ في ابتداعه أن إبليس هو الذي ألقاه عليه في المنام، فلقد طالما تهوَّس بالغناء وأمعن في تنسيق الألحان على أتم إبداع وأحسنه موقعًا في النفوس؛ حتى توهم أنَّ الأرواح هي التي كانت تظهره له وتعلمه الأصوات التي يعجز عنها غيره من الإنس، وقد قالت الشعراء في مدحه على موضعه الجليل من الغناء:

مـا لإبـراهيم في العلـم بهـذا الشـأن ثاني	إنمـا عمـر أبي إسـحاق زيـنٌ للزمـان
جنـة الـدنيا أبـو إسـحاق في كـل مكـان	منـه يُجـنى ثمـر اللهـو وريحـان الجنـان

وكذلك كانت إجادة ابنه إسحاق، وقد وضع ألحانًا لا يقدر شبعان ممتلئ ولا سقاء يحمل قربة على الترنم بها، وصنع غيرها مما لا يقدر المتكئ أن يترنم به إلا قعد مستوفزًا، ولا القاعد حتى يقوم[١٤٩] لأنه سما في اقتداره على الغناء إلى أن يجعل في نفس السَّامع تحركًا لما يغني بمعناه من الأشعار، فيَحملها على الكِبر في مَعرض المديحِ، وعلى الحمَاسة والإعجاب في مجال الفَخر، وعلى الرِّقة والصبابة في استرسال الهوى، وعلى البُكاء والغصة في موقف التذكير والوحشة، وذلك فضلًا عن إجادته في ضرب العود، ولقد كنتُ يومًا بدار الرشيد وفي مجلسه عشر جوار يضربن على العيدان؛ فوقع خلل في مجرى إصبع على بعض الأوتار فعرفه من بين أربعين وترًا[١٥٠] تتحرك بين أناملهن، فهذا اقتدار غريب على هذه الصناعة لا أظنُّ أنَّ اليونان قد بلغوه منها مع اتصال مُدتهم أزمانًا طوالًا يستعمِلونها ويمارسون طرائقها.

وقد كتب إسحاق رسالة مُطولة في الغناء صحح فيها أجناسه وأنغامه وطرائقه، وميزه تمييزًا لم يقدر عليه سواه[١٥١] حتى لقد خطَّأ يحيى المكي فيما دَوَّن من الغناء،

ويونس الكاتب في الرسالة التي نَسب فيها الأصوات إلى مَن ابتدعها من المغنين[١٥٢]غيرَ أنَّه كان يرى ليونس فيما سبق إلى تدوينه من الأغاني ونسبتها إلى أصحابها فَضلًا أعظم من فضل يحيى فيما حاول تمييزه من الغناء على فساد جعل كتابه كالمطروح؛ لكثرة تخليطه في رواياته[١٥٣] لأن هذا هو المذهب الذي يتعصب له إسحاق ويُناظر فيه مَن يقول بضده من أولاد الخلفاء وغيرهم كما مرَّ في موضعه من الكتاب.

ومن حذق إسحاق في صناعة الأنغام أنه أقام طرائق الغناء من نفسه دون نقل عن كتب اليونان، إلا فيما اقتبسه من تقسيمات إقليدس[١٥٤] وما هو إلا النزر اليسير في جانب الكثير من الواسع من علمه، فقد ميَّز[١٥٥]أجناسَ الغناء كله، وجعل الثقيل الأول أصنافًا، فبدأ فيه بإطلاق الوتَر في مجرى البنصر، ثم أتبعه بما كان منه بالبنصر في مجراها، ثم بما كان بالسبابة في مجرى البنصر، ثم فعل هذا بما كان منه بالوسطى على هذه المرتبة، ثم جعل الثقيل الأول صنفين، الأول ما ذكرناه، والثاني: القدر الوسط من الثقيل الأول، وأجراه المجرى الذي تقدم من تمييز الأصابع والمجاري، وألحق بذلك جميع الطرائق والأجناس، وأجراها على هذا الترتيب، وميزها على أكثر من عشرة آلاف صوت للمغنين لم يغير فيها لحنًا واحدًا، وذلك بخلاف الذين دوَّنوا الغناء قبله وبعده؛ فإنهم أضاعوا صناعة الغناء القديم إلا أحمد بن يحيى المكي، المقدم ذكره في كتاب له في الأغاني ونِسبها يقال له المجرَّد[١٥٦] فإنه أصل يُرجع إليه ويُعوَّل عليه، ولست أعرف كتابًا بعد كتاب إسحاق يقارب كتابه أو يقاس به، فكأنه قام على مخالفة أبيه ومَن ذهب مذهبه في تغيير أصوات المتقدمين، ورجع إلى الغناء القديم الذي سبق إلى التعصب له مغنٍّ يُقال له «سِياط» وفد على المهدي – رحمه الله – وأنا مُقيم في الرسالة بخراسان فلم أوفق إلى الاجتماع به، ولكن حسبي من تقدير موضعه الجليل من هذه الصناعة[١٥٧] أنَّ إبراهيم وإسحاق تلميذاه[١٥٨] وإليهما المنتهى في إجادة الغناء.

لُمْعة في علوم الفلسفة عند العرب

إن العلوم الفلسفية التي استخرجها العرب من كتب الأعاجم كانت مجهولة عندهم في صدر الإسلام، بل في صدر هذه الدولة كما تقدم لك من الكلام، إلا عند نفر قليل من أهل الشام ممن جاور الرُّهبان وتلقى عنهم(١٥٩) حكمة اليونان التي كانوا يحفظونها في خزائنهم بالأديار، أمَّا اليوم فإنا نجدها في سكان الأمصار من العراقِ ومصر والشام وبعض أهل الحجاز إلا أعراب البادية؛ لأنهم لا يُوجهون عنايتهم إلى العِلم، وإنما همتهم ارتياد المسارح والمزارع لحيواناتهم، كما سبق الإلماع إليه في صدر الكتاب.

وهذه العلوم الفلسفية تنقسم إلى أنواع أربعة(١٦٠) رياضية ومنطقية وطبيعية وإلهية؛ فأمَّا العلوم الرياضية وهي: النِّجامة، والعدد، والهندسة، والغناء؛ فإنهم نبغوا فيها النبغة التي لم تكن للمُتقدمين من أُمم الشرق، وقد تقدَّم في الكلام على النِّجامة ما يقضي بفضل المنجمين من أهل الموصل وخراسان وغيرهم فيما وقفوا عليه من علم الأفلاك وأرصادها، كما أنك رأيت في الكلام على الغناء أنَّ لإبراهيم وابنه إسحاق فيما ابتدعاه من الأصوات الحسان فضلًا تتزين به هذه الصناعة عند العرب.

واعلم – أرشدك الله – أنه لم يكن موضعهم من العلوم العددية وما يتبعها من الجبر والمقابلة، وهي صناعة استخراج العدد المجهول من قِبَل المفروض المعلوم(١٦١) إلا موضعهم من النِّجامة والغناء في تحريرها وإصلاحها والاعتبار في الأقسام التي تلتحق بها من فنِّ المناظرة والفرائض والمعاملات بتقدير الأوزان وغير ذلك، وهذه هي العلوم التي يمتازون بها عن غيرهم من الأُمم بما وضعوه لها من القواعد التي لا غَاية بعدها في الإصلاح.

وأمَّا علمُ الهندسة؛ فقد كان مرجعهم فيه إلى كتاب لإقليدس المهندس من حكماء اليونان، وكتاب آخر لبطليموس الذي أخرج الهندسة من القوة إلى الفعل(١٦٢) وقد عُرِّبت رسائلهما في خلافة أبي جعفر، ثم أُعيد تعريبها في هذه الأيام بمناظرة مُهندس

يقالُ له أبو كامل[١٦٣] جعلَ مقالات إقليدس في جلد كبير سماه كتاب الأركان[١٦٤] وفيه خمس عشرة مقالة يبحَثُ في الأربعة الأول عن السطوح، وفي الخامسة عن الأقدار المتناسبة، وفي السادسة عن نِسَب السطوح بعضها إلى بعض، وفي السابعة إلى التاسعة عن العدد، وفي العاشرة عن المِنطقات، والقوى على المنطقات، ومعناها الجذور، وفي المقالات الخمس الباقية بحث واسع في المجسمات، ثم ألحق العرب بهذا العلم فن الهندسة المخصوصة بالأشكال الكُروية نقلًا عن كتابين لميلاوش وتاودوسيوس من اليونان؛ وفيهما بحثٌ مسهب في الكرات السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر بأسباب الحركات، وألحقوا به أيضًا علم المخروطات نقلًا عن كتاب لأبولونيوس[١٦٥] من اليونان أيضًا فرفعوا ما يقع من الأشكال والقطوع في الأجسام المخروطة، وأفادوا النجارة والبناء[١٦٦] بما وقفوا عليه من كيفية رفع الأثقال وجرها وغير ذلك.

وأمَّا العُلوم المنطقية ومنها: الشعر، والخطابة، والجدل، والبُرهان، والمغالطة؛ وغير ذلك[١٦٧] فإنَّ إجادتهم فيها كانت دون إجادتهم في العلوم الرياضية؛ لأنَّ طَبائعهم ما تهيأت للعناية إلا بقولِ الشعر كما رأيت، وهو معدن حكمتهم وديوان آدابهم والمقيد لمحاسن كلامهم، وقد بلغوا فيه الغاية التي لا مَطمح وراءها إلا ما كان من كلام النبوة، وإن كان شعر الجاهلية جافيًا لمكان أهله من الخشونة ومقامهم في القفر بين الإبل والوحش والمنازل الخالية[١٦٨] فإن شعر المتمصرين ليس بخالٍ من رِقَّة الألفاظ وجمالِ الصور، وهُم القاطنون بين فرش الحرير، وأطباق الرّياحين، وآلات الطرب، والقيان، والنُّدماء.

ولقد نسمع عن أهل الأندلس أنهم يقُولون شعرًا أرقَّ من النسيم؛[١٦٩] وذلك لغزارة المياه في أراضيهم ونماء الرياحين في جناتهم وظهور ريح الصبا عندهم، حتى كان المرتحل منهم إلى المشرق إذا استقبل النسيم الذاهب إلى الغرب ذابت نفسه من الشوق إلى تلك الديار التي ينفح فيها الطيب على غُصن أندلسها الرطيب، فيقول:[١٧٠]

وإذا مـــا هبـــت الـــريح صَـــبًا صـــحت: وا شـــوقي إلى الأنـــدلس

وديار الأعراب قفر وإقليمهم محرق للأبدان ومجفف العقول، وذلك مما لا يولد فيهم من رقة القول وحلاوته ما نجده في شعر الأندلسيين.

أما علوم المنطق؛ فقد كان مرجعهم فيها إلى كُتب في المنطقيات لأرسطو الحكيم[١٧١] عُرِّبت في خِلافة أبي جَعفر[١٧٢] بمناظرة عبد المسيح الحمصي، وهو من أشهر النقلة بعد سلام الأبرش[١٧٣] وقد اشتملت على رسائل ثمانٍ، أربع منها في صورة القياس وأربع في مادته[١٧٤] ورُبما زادوا فيها بعض شرح وتفسير.

وأمَّا علوم الخطابة والجدل والمغالطة؛ فقد دونوا مما استخرجوه من كتب اليونان أسفارًا كثيرة، ولكن من غير تمحيص يرجع بهم إلى محاسن العِلم إلا ابن العلاف[١٧٥] خطيب هذا الزمان في رسالة له في الخطابة بدأ فيها بذكر سحبان، وقُسِّ بن ساعدة وغيرهما من بلغاء العرب وخطبائهم في الجاهلية والإسلام، إلى أن أتى على بيان القواعد التي تلزم الأُدباء في الخطابة؛ ليجدوا بلاغة القول مع تقويم الألفاظ وإكثار المعاني في قليل من الكلام.

وأمَّا العلوم الطبيعية وهي علم المبادئ وعلم السماء وما فيها، وعلم العالَم وعلم الكون والفساد وعلم المعادن والنبات والحيوان وفيه علم الطب؛ فقد كان مرجعهم فيها إلى كتب الأعاجم كمرجعهم إليها في جميع ما لم يكونوا يعرفونه من العلوم قبل أبي جعفر كما ترى، إلا ما وقفوا عليه بأنفسهم من حقيقة المعادن في علم الكيمياء، وهو النظر في المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة؛ فتوصلوا به إلى معرفة أمزجة المكوَّنات وحقيقة المعادِن والفضلات الحيوانية من العظام والريش والبيض وغير ذلك[١٧٦] وكان الناس من أهل الأدب يصبون إلى هذه الصناعة بما في منوَّعاتها وممزوجاتها من تسلية الخاطر، مع تنوير العقل وتوسيع نطاق المعرفة، حتى إنَّ الملوك أنفسهم كانوا يتمهرون في استخراج المركبات ومزجها على غير ترفع عنها.

فهذا خالد بن يزيد بن معاوية الأموي قد شغل نفسه بطلب الكيمياء ودوَّن فيها

الرسائل الكثيرة حتى أفنى عليها عمره[١٧٧] وهذا جعفر الصادق أحد الأئمة الاثني عشر، ومن سادات أهل البيت قد ترك فيما ترك أكثر من خمسمائة رسالة في علم الكيمياء، إلا أنَّ هذه الرَّسائل لم تكن حاوية من العلم إلا ما وقف عليه أصحابها بطريق التجربة والاختبار؛ فبقيت الكيمياء مفرقة غير مجموعة حتى قام جابر بن حيان الطرسوسي وهو تلميذ جعفر الصادق – رضي الله تعالى – عنه فكتب سفرًا جليلًا في علل المعادن()ودوَّن الكيمياء في سبعين رسالة؛ ربطها بأصول العلم ونبذ من مذاهب المتقدمين ما لم يؤيده التحقيق في مُجرباته، وقد قسَّم هذه الصِّناعة إلى قِسمين: منها: القوة النفسية وهي السيمياء، ومنها: القوة العلمية وهي الكيمياء.

وأدخل العلوم السحرية في السيمياء؛ وذلك لأنَّ إحالة الأجسام النَّوعية من صورة إلى صورة أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العلمية.

وقد وضع القواعد على منهاج لم يشركه فيه أحد، ولا قدر على مثله حُكماء اليونان أنفسهم؛ ولذلك نُسب إليه هذا العلم وصار علم الكيمياء يُسمى بعلم جابر[١٧٩] أمَّا الذين اشتغلوا فيها بعده فقد قصروا دون الغاية التي بلغها منها، ورُبما أكبَّ عليها جماعة بما طمعوا فيه من تكوين الذَّهب وإحرازه، ولذلك لم يُقيدوا مجرباتهم ومصنوعاتهم بالقواعد الثابتة، بل جرَوْا على مذاهب ضعفاء العقول من اليونان مثل طماوس وغيره، وزعموا أن لهم طريقة لاستخدام الجن[١٨٠] في هذه الصناعة؛ فلم يكن طائل فيما صنعوه، ولا فائدة مما دونوه ووضعوه.

وأما العلوم الإلهية وهي: السياسات، والحرب، والفلاحة، وعلم الأخلاق، وسياسة الأخلاق، وغير ذلك فلم يكن للعرب نبوغ فيما نقلوه منها عن كتب اليُونان والفُرس، وإنما ينفرد حسن نظرهم في علوم الدِّين كما رأيت وفي علم الكلام الذي وضعوه تحفظًا[١٨١] من العلوم الحكمية إذ كانت تخالف الشرع الشريف[١٨٢]وقد رأيت لهم كتبًا في السياسة المدنية[١٨٣] يذكرون فيها تدبير المنزل بمقتضى الحكمة ليحملوا العامة على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه، وذلك أحسن ما لهم من التآليف التي فيها رأي ونصيحة، أما غير ذلك من السياسات فلم يكن لهم منها إلا بضاعة

مزجاة؛ لأنهم لم يُعْنَوْا بها قبل هذا الزمان، ولا نعلم إلى أين يبلغون منها ولا ما تقرره في نفوسهم من الفائدة وفي معايشهم وآدابهم من المنفعة، والله – سبحانه وتعالى – أعلم، وهو وليُّ المؤمنين، لا رب غيره ولا معين سواه.

أدب السِّيَر والحكايات

نُفْرد هذا الباب لذكر الحكايات والقصص؛ فإنها فن، بل أدب قد هوت إليه أفئدة العرب، وأول من سبق إلى تدوينه عبد الله بن المقفع؛ وهو الكاتب المشهور بالبلاغة[١٨٤]والذي كان قائمًا بديوان الإنشاء في خلافة أبي جعفر[١٨٥] له كلام على الملوك يشهد بأنه كان عارفا بالسياسة[١٨٦]ومقالاتٌ في البلاغة تشير إلى أن الحكمة قد نطقت من نواحيه إلا أن أهل زمانه قد اتفقوا – وهم دونه في العلم – على أن يقولوا: إن كلامه كان أكثر من علمه؛[١٨٧] لأنهم ما أحبوا أن يرفعوا عقله إلى مساماة البلغاء الذين أوتوا الحكمة وانتهت إليهم البلاغة.

وقد كان تدوينه له في تعريب كتاب هندي يقال له: كليلة ودمنة[١٨٨] وهو يتضمن حكايات وُضعت على لسان البهائم والطير وأشير فيه إلى سلائقها من الحلم والمكر والجراءة والجبن والتيقظ والذهول والعقل والحمق إلى آخر السلائق؛ لتثقيف العقول ورياضة الأخلاق بهذه الطريقة من الفكاهة؛ لأنَّه يستخرج من الأقوال الهزلية ضروبًا من الحكمة البليغة، وهو يشتمل على غرضين سياسي وأدبي، فأمَّا السياسي فإنه داعٍ إلى العدل وزاجر عن البغي، وفيه بيان سلوك الملوك في آدابهم وتدبيرهم لأمور ممالكهم، وما يجب عليهم من العدول عن اللهو والغفول إلى التيقظ والسهر، وأنَّ الفاضل من الملوك حقيق بأن يعتبر بأقوال الحكماء ولا يقرب إليه أهل النميمة والفساد.

وأما الأدبي ففي بيان المعايش في ظروفها وألوانها وسائر أحوالها والاقتصاد في تدبير المنزل، والمعاملات بين الناس، وما ينبغي لهم في سلوك الأمور من مراعاتها بعين العقل والبصيرة؛ ولذلك يُعدُّ كتابه من كتب الحكمة، ونرى الفضلاء من الملوك قد

أقبلوا عليه وطمحوا بأبصارهم إليه، حتى إنَّ كسرى أنو شروان أنفذ طبيبه برزويه إلى بلاد الهند لاستنساخه فترجمه إلى الفارسية، ولم تزل الملوك تعظمه إلى هذا اليوم(١٨٩)

وقد وضع ابن المقفع في أول ترجمته فصلًا سماه «باب غرض الكتاب» وأودعه من صنوف البلاغة والحكمة ما ضارع به سائر أبواب الكتاب، وذكر أنَّ أغراض واضعه «بيدبا» الفيلسوف تنقسم إلى أربعة: فأحدها: ما قصد إليه من وضعه على ألسنة البهائم؛ ليسارع أهل الهزل إلى قراءته. والثاني: إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان؛ ليكون أنسًا لقلوب الملوك. والثالث: أن يشتد الحرص عليه للنزهة في صوره؛ فيتخذه الملوك والسوقة ويكثر بذلك استنساخه ولا يبطل. والرابع: وهو الغرض الأقصى مخصوص بالفيلسوف خاصة.

ولقد قرأت هذه الترجمة أكثر من مرة بل أكثر من مائة مرة، وأنا مشغوف بها لمكانها من البلاغة(١٩٠) وعهدي بجميع الكتب الأعجمية إذا عُرِّبت عريت إلا هذا الكتاب، فإني رأيته في العربية أفصح منه في الفارسية، وقد كان صِبية البرامكة – حفظهم الله – يُحاولون حفظه عن ظهر قلبهم ففطن لذلك أبان بن عبد الحميد(١٩١) ونظمه لهم بالشعر حتى يسهل عليهم استظهاره، ويقولُ في مطلع ذلك الكتاب: (١٩٢)

هذا كتاب أدب ومحنه وهو الذي يدعى كليلة ودمنه

فيه احتيالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته في الهند

إلى آخرِ الأبيات؛ فأعطاه يحيى عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضل نصف ذلك جائزة على هذا الاستخراج؛ لأنَّه كان بموضع جليلٍ من البَلاغة التي ورثها عن أبيه، فقد كان عبد الحميد من فُحول الكتاب الذين فتقوا أكمام البلاغة وفكوا رقاب الشعر(١٩٣) وكان فخرًا للمُسلمين بما آتاه الله – تعالى – من البلاغة التي جمعت سحر البيان، وأخذت بمجامع الجنان، يقال إنه لما ظهرت دعوة أهل البيت وكان عبد الحميد كاتبًا في دولة الأمويين قال لمروان: سأصدر عنك كتابًا إلى أبي مسلم فإن قرأه حصل عندنا وجه من الآمال وإن لم يقرأه ذهبت الدولة منكم، فلما وصل الكتاب

إلى إبي مسلم – رحمه الله – وكان عالمًا بمكان عبد الحميد من البلاغة قال: «أبقوا الكتاب على طيه؛ فإنما فيه سحر غالب.» على أني لو سئلت التفضيل بين هذين الاستخراجين لقُلت: إنَّ ترجمة ابن المقفع حقيقة بأن تكتب بماء الذهب وتتحف بها خزائن الملوك.

ولما رأى الأدباء إقبال الناس على الكتاب تسارعوا إلى تعريب غيره من غير كتب السير والخرافة، فترجموا عن الهندية كتاب وزره وشماس[١٩٤] وفيه أخبار ملوك الهند وبناتهم، وما يتخللها من الأمثال التي توسع العقول أدبًا مع فكاهة وترويضِ أفكار، وترجموا عن الفارسية كتاب هزار أفسان وسمَّوْه ألف ليلة وليلة[١٩٥] ومعنى هزار أفسان ألف خرافة، وكان السبب في وضعه كما هو معروف أنَّ ملكًا من ملوك الفرس كان إذا تزوج امرأة قتلها بعد يوم غَيْرة عليها من الرجال، فتزوج بجارية من بنات الملوك ممن لهن عقل ودراية يُقال لها شَهرزاد وفي بعض النُّسخ شيرزاد، فلما اتصلت به أخذت تُحدثه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها وسؤالها في الليلة الثانية عن تمام الحديث إلى أن أتى عليها ألف ليلة وليلة، وإلى أن رزقه الله منها بولد طرحتْه إليه، ووقفتْه على حيلتها عليه.

وكان للملك قهرمانة يُقال لها رسازاد أو دينار زاد[١٦٩] كانت موافقة لها على ذلك، وفي هذا الكتاب دون المائتي سمر؛ لأنَّ كل سمر كان يحدث به في ليال عدة، وهي من أظرف الحكايات التي وضعتْها الفُرس في غابر الدهر.

ولما راج سوق هذا الكتاب تداوله النُّساخ والكُتَّاب وأضافوا إليه حكايات كثيرة وضعوها على سبيل الفُكاهة بما يُعهد فيهم من طول الباع في وضع الحكايات، ولا سيما ما يتضمن أخبار الجان ووصف مَساكنهم تحت البِحار وتزويجهم بناتهم من ملوك الإنس وقصص العفاريت والهواتف، وغير ذلك إلى أن صار جملة ما في الكتاب حكاياتٍ عربية لا يخالطها من كلام الفرس إلا القليل، وهي وإن كانت بعيدة عن الصدق تُظهِر فضل العرب في أنهم يمتلكون فؤاد السامع، برقة مأخذهم في تجميلها ورونقها، كالذي زعموا أنَّ صيادًا ألقى شَبكته في البَحر وظلَّ نهاره طوله لم يظفر

بسمكة، فلما أزمع الانصراف وقد أعياه الملل وضاقت به الحيل جر الشبكة؛ فإذا هي ثقيلة فطمع أن تكون قد اشتملت على حوت يستعيض بثمنه عن نصبه في ذلك اليوم، فلما جذبها إلى الشاطئ وجد فيها قمقمًا من نحاس وعليه خاتم سيدنا سُليمان – عليه الصلاة والسلام – ففضَّ ختامه فصعد منه دخان خيَّم على السماء، فنظر في الدخان فإذا هو يجتمع ويتكوَّن إلى أنْ وضح منه جان من صفته كذا وكذا. فلما تدانيا جرى بينهما حديث يقبض النفس هيبة وفرقًا بحيث لا ينتبه السَّامع إلى أنَّ هناك خرافة، فإذا انتهت الحكاية إلى ما أصاب الصياد من الجوهر والمال بعد أن خامره الروع وأفزعه الهول انبسط منه الخاطر المنقبض، والتمس في نفسه مِثلًا لهذا المسكين فوجده كثيرًا في الناس فرجع إلى الحكاية فوجد فيها سرًّا يريده الكاتب من وراء الفكاهة.

وإجماع الرأي على أنْ ليس في حكايات الناس وقصصهم وأحاديثهم ما هو أظرف من هذه الحكايات وألطف صنعًا؛ فإنَّ فيها من الوصف البَارع، والتمثيل السَّاطع، ما ينطق بفضل العرب فيما تطرقوا إليه من وصف معايش الناس وأخلاقهم، وما يتقلبون فيه من الأحوال التي توسعوا في وصفها، إلى أدب جزيل الفائدة.

فأما الحكايات التي ذكروا وقوعها في الإسلام؛ فلا تبعد عن الأحوال التي تحدث ببغداد في أكثر الأيام اللهم إلا فيما كانوا يمزجون به أخبار الخلفاء من الخيال؛ لنكتة يشوقون إلى الوقوف عليها مما اتفق وقوعه للملوك، مثل حكاية الخليفة الثاني وحكاية الخليفة والصياد، إلى حكايات غيرها يظرِّفون بها الخبر عن الرشيد وجعفر.

أمَّا ما ذكروه عن طوافهما(١٩٧) مع مسرور ليلًا في الأسواق متنكرين عن أن يعرفهم أحد؛ فإن ذلك ليس بالموضوع، وقد ذكرتُ مثله في رسائلي السالفة إليك غير أني جردته عن المبالغة التي يزين الرواة بها أحاديثهم، كوقوف الرشيد في موضع الخطر أو ارتدائه بلباس الصياد على سبيل الفكاهة أو وقوعه هو وجعفر تحت سيف ذلك الرجل الذي كاد يقتلهما لولا أنهما تداركا أمره بحيلة وجدا بها السلامة والنجاة.

وأما الحكايات التي زعموا أنها وقعت في قديم الزمان وسالف العصر والأوان؛ فهي من الغرائب التي لا دلالة لها على الصدق، وإنما أقبل خَلْق من العوام على تصديقها لانقطاع أخبار الأمم عنهم بحيث يتعذر عليهم معرفة غثها من سمينها؛ ولأنَّ ناقل الرِّواية كان يُحدثهم بأنَّ كذا وكذا من الأمور الغريبة جرى في كذا من البِلدان البعيدة الشقة المتفاوتة السبيل، فلو حدثهم بأن في الشام مدينة من النحاس(١٩٨) أو بالعراق بلدًا صار غديرًا ثم انقلب ماؤه إلى عمارة وأسماكه إلى أناس ما صدقوا كلامه؛ لأنهم يطرقون هذه البلدان كل يوم وعهدهم بها على غير انقطاع، وإنما نُقِل إليهم أن ذلك كله في جزائر الوقواق وما وراءها من بلدان العجائب؛ فأوسعوا صدورهم لتصديق كلامه بما كانوا يتشوقون إلى الوقوف عليه من نعيم الناس، وهم بمكانهم من عيش البداوة.

ومن أظرف ما ورد في حكاياتهم قصص العشق والغرام فيما أعربوا به عن محاسن النساء بين كاعب حسناء، وغانية هيفاء، وشاعرة فصيحة، وعجوز ذات دهاء، وما توسعوا به في كلامهم عن العشاق ووصف هنائهم في التلاقي، وتوجعهم أيام الفراق، إلى وضع الحكايات التي ترتاح إليها القُلوب بما تصف من النعيم الذي يبعد عن أنْ يتمتع به الناس، وإنما هو صورة تتمثل في الضمير على سبيل التخيل، كالذي يحكونه عن فتًى من أولاد الملوك أنه وقع إلى جزيرة كل من فيها نساء وتجارها نساء وجندها نساء، وكلهن آية من آيات الحسن والجمال، وأنه قضى بينهن أيامًا من النعيم، أقلُّ ما أصاب فيها أنه كان إذا طرح الشبكة في البحر على سبيل التسلية خرجت له من الأصداف صبِية من بنات الجان، كأنها حورية من حور الجنان، إلى غير ذلك من الوصف الذي يحرك القلب ويملك الجنان.

وقد حلا لى من حكاياتهم أيضًا حكاية السندباد(١٩٩) وهي تشتمل على الحوادث التي وقعت له في أسفار سبعة أتى عليها جميعًا في طلب المال، وفي كل سفرة عجيبة لم يسمع أحد بمثل ما فيها من المتالف التي وجد الكاتب مَشقة عَظيمة لاستنباط الحيلة فيها على وجوه تدفع الناس إلى ركوب الأخطار لنيل العلا والفخار، بما تمتلك به

أنفسهم من ذكر جبال الماس وعيون العنبر، وعجائب البلدان التي نزل بها السندباد.

وعلى بعض ألسنة الأدباء أنَّ هذه القِصة ليست من وضع العَرب إنما نقلوها عن الهند واليونان، وأضافوا إليها ما يحسن أن يكون في كلامهم حتى نفوا العجمية عنها. وهذا كلام فيه بُعد عندي؛ لأني طالما سمعتُ رواتهم يحدثون بمثل ذلك، وفي مطلع الحكاية أنَّ الحمَّال لما اشتد به الحر فحطَّ حملته على باب التاجر في ظلٍّ يتردد فيه النَّسيم الرَّطيب، وتفوح منه ريحُ العِطر والطيب، وأنه كان يرى عزة ذلك التاجر في كثرة غلمانه، ويسمع تغريد القَمارِي والشحارير في جِنانه، وينشَق من طعامه ريحًا أحزنت منه النفس؛ لانقطاع أمله منه، وهو بمكانه من التعب وشقاء الحال مما يستوقف الطرف، ويشهد ببراعة الوصف فيما قصد إليه من بيان الفرق بين عيش الرَّخاء والنعمى، وعيش الشظف والبلوى.

ولست أظن في هذه الحكايات السندبادية إلَّا أن واضعها رجل قد عانى الأسفار، وتقلب على متون البحار، حتى عرف ما بالأمصار، من عجائب الآثار وغرائب الأخبار.

وهذا شاهد على صحة ما ذكرناه من تقلب الكتاب في أيدي الأدباء الذين عَزَّ علم جميعهم عن أن يضمه صدر واحد من الرِّجال، وإلا فإنَّ في وصف الحروب من ذكر الكرِّ والفر وحيل الفرسان ما لا يستنبطه إلا مَن طال وقوفه في ساحات القتال، وكذلك في نوادر الزواج والطلاق من المعميات ما لا يستخرج فتواه إلا فقيه مجتهد في الأحكام الشرعية أيما اجتهاد، ولو لم يكن هذا الاستدلال صحيحًا لوجدنا في اختلاف الأقلام دليلًا واضحًا على اشتراك الأدباء في تأليفه؛ لأنا نجد فيهم من يسترسل في المغالاة إلى أن يذكر عن فارس من الفرسان أنه قَتَل في معركة واحدة كذا وكذا من الخلق مما ليس في الإمكان إحصاء عددهم في يوم واحد فكيف بقتلهم؟!

ثم نجدُ من رسم قواعد الرِّواية على منهاج لم يتعدَّه إلى ذكر المبالغة التي بعدت دلالتها عن الصدق، وإنما ذكر الأخبار للنظر في عادات الناس وأخلاقهم، وكيف

يتقلبون بالزمان أو يتقلب بهم الزمان، وذلك مثل ما قصد الأدباء إليه في كلامهم عن العرب من ذكر المحاسن التي تفاخروا بها على جميع الأمم من الكرم والمروءة والعفاف، والمساوئ التي تفانَوْا لأجلها في طلب الثأر وإدراك الغنائم، أو مثل ما قصدوا إليه في حوادث زماننا هذا من ذِكر أخبار النِّساء كما هي، إلى غير ذلك من وصف العادات المترفة التي وقعت في بغداد لهذا العهد، وهذا هو النوع الخاص الذي أرتاح إليه من حكايات ألف ليلة وليلة؛ لأنه ينبئ عن أخبار العرب الخاصة، وفيه حسن وبراعة وصف لا مثيل لها في أدب الحكايات.

تدوين الأخبار وأيام الناس

إنما وضع العرب هذه الحكايات بعد أن توغلوا بالأسفار في أطراف البلدان؛ حتى تجاوزوا الصين إلى ما وراء فَرغانة؛[٢٠٠] فاستفادوا بذلك غير ما كسبوه من الأموال أحوالًا شاهدوها وعاداتٍ جروا على سُننها ومباني حاكوا منها الزينة والإحكام، وشرائع تفقهوا في استخراج ما فيها من أحكام.

وكانت عادة المسافرين بعد عودتهم إلى الديار، أن يحدثوا الحي بغريب ما نظروه، وعجيب ما سمعوه؛ فمن تلك الأخبار المنقولة ما اتصل بي من أنَّ في بعض الأمم رجالًا عراض الوجوه، سود الجلود، لا يزيد طول أطولهم على أربعة أشبار[٢٠١] وفي جلودهم نقط حُمْر وصُفْر وبِيض، وأن منهم مَن له أجنحة يطير بها، ومَن رأسه كرأس الكلب، ومَن جسمه كجسم الثور أو الأسد[٢٠٢]ولقد سمعتُ مَن يحدث أنَّ من البلغار من طوله أكثر من ثلاثين ذراعًا يأخذ الفرس تحت إبطه كما تأخذ الطفل الصغير، ويكسر بيده ساقه كما تقطع باقة البقل[٢٠٣] إلى غير ذلك.

ولستُ أظنُّ هذه الأساطير التي تناقلها الإخباريون من أهل الأسفار إلا أنهم رأوا رسومها على الآثار التي خلفها الهنود والفرس والقبط السالفة من قوم فرعون، وغيرهم من أهل الأعصر الخالية فحدثوا بها رجمًا بالغيب، أو تحصيلًا لليقين من الريب، ظنًّا منهم أن أمثال هذه الخلائق المشوهة عاشت في قديم الزمان، أو أنها لا

تزال فيما قَصَا عنا من البلدان.

ولما دارت هذه الأساطير بين الناس وتناقلها النُّدماء والجُلَّاس، أشفق العُلماء على أخبار العرب وأيامهم من دخول الفساد عليها، أو امتزاج الحكايات الباطلة بها؛ فتسارعوا إلى تقييد التاريخ في الأوراق حتى لا يتشوه على تمادي الأيام، بتداول الرواية على ألسنة العوام.

وقد كان شعر العرب محفوظًا في صدور أهل العلم فنقلوه إلى الكتب للدلالة على ما يرومون إثباته من الأخبار مع بيان صحتها واستخراج الكثير من عقائدهم وعاداتهم من أمثال هذه الأسانيد المحفوظة، وهم يوقِّتون وقوع الحوادث السالفة مثل ما كان يوقِّته أهل الجاهلية بقولهم هذا جرى في أيام كسرى، وهذا في حرب البسوس إلى غير ذلك[٢٠٤] وأما الحوادث التي وقعت في الإسلام فقد أرَّخوها بالسنين والشهور والأيام، وكانت أصح في النقل والرواية من أخبار الجاهلية؛ لأنَّ شأن الرواة فيها من الخلاف والاختلاف والمخالفة أشهر من أنْ يُذكر، والحوادث إذ ذاك محفوظة بالأنواء وطلوع النجم، ولم يسلم لهم من الفساد إلا علم الأنساب الذي حفظتْه فيهم العصبية[٢٠٥] حتى اتصلت أنسابُ أشرافهم إلى أولاد إبراهيم – عليه السلام – مثل أنساب قريش وثقيف وغيرهم من البيوتات.

وأول من سبق إلى تدوين التاريخ مُحَمَّد بن إسحاق[٢٠٦]في كتابه عن المغازي والسير وأخبار المبتدأ[٢٠٧] ولم يكن التاريخ قبله مجموعًا ولا معروفًا ولا مصنفًا[٢٠٨] ثم أخذ أهل العلم في تدوينه بعد ذلك.

ووضع مُحَمَّد المعروف بالواقدي كتابًا في فتوح الشام ضمَّنه كثيرًا من سير الخلفاء الراشدين – ﷺ – وأتى على ذكر الحروب التي سُعِّرت نارها على عمال الروم، إلا أني رأيته يسوق الحديث في كلامه عن الجند والقتلى جزافًا، فيقولُ: إنَّه سار إلى قلعة كذا خمسون ألفًا من المسلمين، وإلى حصن كذا كذا وكذا رجلًا وإلى البلد الفلاني كذا خلقًا عظيمًا مما لو جمع إلى ما فرقه على سائر الحصون والقلاع لم نجد قدر نصفه في

جنود المسلمين كما ثبت عند أئمة النقل، وكذلك إكثاره في عدد القتلى من الروم كأن يقول: إنه قتل منهم كذا وكذا من الآلاف مما لم يكن في جندهم مثلُه في جميع ما لهم من البلدان، فربما انفرد الواقدي في علم الفقه والحديث، ولم يكن له باع فيما سواه من العلوم.

وقد دوَّن التاريخ بعد حماد الراوية وعبد الله الأصمعي وهما يعرفان أخبار العرب، وأيامهم، وأنسابهم، ويُمليانها عن ظهر قلبهما إلا أن الخلل في رواية حماد أنَّه يقول الشعر على لسان المتقدمين[٢٠٩]٢٠ فيما يروم إسناده إليهم من نكتة، أو من خبر؛ فهو إلى المؤاخذة بما يُدخِل على التاريخ من الأخبار الموضوعة أقرب منه إلى الثناء على ما يضعه من الشعر الذي لا يفترق عن كلام الجاهليين.

يُقال: إنه روى لهم ألفين وتسعمائة قصيدة، لكل حرف من الحروف الأبجدية مَائة قصيدةٍ كبيرة سوى المقطعات[٢١٠] وأمَّا الأصمعي فليس ثمة من الأمور التي ننتقدها عليه إلا أنه كثير الرواية واسعها؛ حتى يكون فيها بعض المِرْية عند كثير من أهل العلم، وليس ذلك لغرابتها أو لبُعدها عن الصِّدق بل لكثرتها فيما نقل بمدوناته، وهذا لا ينقص فضله في العلم، ولكنه من باب تعظيم الشيء الذي يزيد قدره على أن يكون مثله في صدر رجل.

ثم إني وجدت الأصمعي وحمادًا كليهما قد وقعا في الخطأ والقصور اللذين وقع فيهما أهل الرواية قبلهما وبعدهما:

فأما الخطأ: فهو إعراضهم جميعًا عن ذكر محاسن الأعاجم ممن هو خارج عن دين الإسلام، حتى لا يشغلوا كتبهم بذكر مذاهب كفرهم [٢١١] كما يقولون.

وأما القصور: فلكونهم يذكرون الحوادث من غيرِ أن يستوعبوا مبدأها وغايتها، ولا أن ينظروا في عِللها وأسبابها ولا أن ينتقدوا على الملوك معايبهم فيما سقطت به دولهم، بعد أن تسلموها بمكان عظيم من النفوذ والسلطان؛ ليكون في انتقاد الأشياء تذكرة للناس.

ويظهر فضل التاريخ على سواه من العلوم الأدبية ببيان المحامد التي يسترشد بها، والمساوئ التي ينبغي الاستنكاف منها والتنكب عن سبيلها.

هذا ما أعلقه في هذه الرسالة عن علوم العرب وآدابهم مما يشهد لهم بالفضل الجزيل؛ فيما تمهروا في استخراجه من كُتب الأعاجم ونظروا فيه نظر بصيرة واجتهاد من جميع العلوم والفنون والصناعات[٢١٢] إذ كان لهم غير مَن ذكرنا من العلماء كثير من النقاشين والمصورين والصُّناع مما يدلُّ على أنَّ لهم صورًا على الورق الصقيل[٢١٣]تظهر خارجة وليست بخارجة، وداخلة وليست بداخلة وفيها كل غريبة من الإبداع، ورأيت من رسومهم على الآنية والأعمدة والقِباب ما يبهر البشر في إحكام الصناعة مع الحلاوة وتمام الزينة مع الحسن والطلاوة، وهذا كله قد توصلوا إليه في عصر الرشيد وملوكنا البرامكة – أعزهم الله – وقد سمي بالعروس[٢١٤] لخصبه ونضارته وكثرة خيره وانتشار علمه في جميع البلدان الإسلامية.

ولَعَمْري، إنَّ فيما ذكرت بهذه الرسالة من آداب العرب لشاهدًا ناطقًا ببلوغ الغاية من العمران؛ إذ كان العلم مرآة يرتسم فيها حال الأمم في كل عصر ومكان.

وقد وقع تدوين هذا الكتاب في أول شهور السنة السادسة والثمانين بعد المائة من هجرة نبينا المكرم ﷺ والله نسأل أن يجمل حالنا بالستر الجميل، إنه بالمؤمنين رءوف رحيم، لا رب سواه.

الهوامش

(١) واحدها نوبة وقد ذكرها الأغاني (٢٠ : ٦٤) بمعنى الاسم من المناوبة، والناس اليوم يُطلقون اسم النوبة على ضرب المعازف وآلات الطرب.

(٢) الأغاني ٥ : ١٢٢.

(٣) الأتليدي ١١١.

(٤) الأغاني ٧ : ٣٦.

(٥) الأغاني ٤ : ٦٢.

(٦) المسعودي ٢ : ٥٦.

(٧) وجدت في بعض الكتب أن الرشيد كان يحب التفاح ويقول: هو أحسن الفاكهة؛ لأنه اجتمع فيه بياض الفضة ولون التبر، ويلذُّ به من الحواس العين ببهجته والأنف بريحه والفم بطعمه (العقد الفريد ٣ : ٣٧٥).

(٨) الأغاني ١١ : ٣٥.

(٩) العقد الفريد ٣ : ٣٠٠، والقناوي ٣٦.

(١٠) ابن خلكان ١ : ٢٣٦.

(١١) الفخري ٢٣٥، وابن عبد ربه.

(١٢) المقدمة ٣٦٨.

(١٣) راجع المقدمة، وكتاب حاجي الخليفة.

(١٤) المسعودي ١ : ٢٣٦.

(١٥) حاجي خليفة ٣ : ٩٢.

(١٦) ابن خلكان ١ : ٢٦٣.

(١٧) السيوطي، وأبو الفرج ٢٤٦.

(١٨) الأغاني ٥ : ٦٧.

(١٩) ابن الأثير ٦ : ١٦٦.

(٢٠) أبو الفرج ٢٠٠.

(٢١) في الأغاني ومقدمة ابن خلدون ذكر كثير من أطباء النصارى دون المسلمين.

(٢٢) المسعودي ١ : ٩٢.

(٢٣) حاجي خليفة ٣ : ١٢١.

(٢٤) أبو الفرج ١٣٧.

(٢٥) حاجي خليفة ٤ : ١٢٥.

(٢٦) أبو الفرج ٢٣٥.

(٢٧) أبو الفرج ٢٣٨.

(٢٨) المسعودي ٢ : ٥٨.

(٢٩) أبو الفرج ٢٩.

(٣٠) الكنز ١٣٩، والشبلنجي ١٠٢.

(٣١) ذكره القزويني وابن الأثير وغيرهما في استشارة أبي جعفر إياه في بناء الزوراء.

(٣٢) المسعودي ٢ : ٤٠٠.

(٣٣) المسعودي ٢ : ٤٠٠.

(٣٤) المسعودي.

(٣٥) ذكر ابن خلدون في المقدمة منجمًا من الروم يقال له تيوفيل الرومي وأنه كان في أيام بني أمية.

(٣٦) أبو الفرج ٢٢٨.

(٣٧) المقدمة ٥٣١.

(٣٨) الأغاني ١٥ : ٨١.

(٣٩) أبو الفرج ٢٤٨.

(٤٠) أبو الفرج ٢٤٨.

(٤١) ذكرها المسعودي ١ : ٢٧٨.

(٤٢) القناوي ٥١.

(٤٣) السيوطي.

(٤٤) ذكر صاحب الأغاني والأتليدي أن جعفرًا استشار الأصطرلاب يوم نكبة الرشيد.

(٤٥) العقد الفريد ٢ : ٧٨٥ و٢٤، المقدمة.

(٤٦) وقال: إن المأمون أول من اتخذها في الإسلام، وإنها كانت معروفة عند اليونان، كما يُستَدَل على ذلك من العقد الفريد.

(٤٧) المقدمة ٤٢٧، وحاجي خليفة ٣ : ٥٦.

(٤٨) الزرقاني ٥١ : ١٠.

(٤٩) الزرقاني ١ : ١٠.

(٥٠) ابن خلكان ١ : ٥٢، والأغاني ٥ : ٥٤.

(٥١) حاجي خليفة ٣ :٢٨، وذكر ابن الأثير وأبو الفداء وفاته سنة ١٥٧.

(٥٢) السيوطي.

(٥٣) ابن خلكان ١ : ٦٢٦.

(٥٤) ابن خلكان ٢٧٦.

(٥٥) العقد الفريد ١ : ١٩٩ و٢١٣.

(٥٦) السيوطي.

(٥٧) الدميري ١ :٩٨، والكشكول، والإتقان ١ :٦٨، وابن الأثير، والأتليدي ٢٤١، وغيرهم.

(٥٨) الإتقان في تفسير القرآن ١ : ١٤٩.

(٥٩) حاجي خليفة ٤ :٤٥٧.

(٦٠) الزرقاوي ١ :٩.

(٦١) حاجي خليفة ٤ : ٣٩٦.

(٦٢) ابن خلكان ١ : ٩٢.

(٦٣) كتاب حاجي خليفة.

(٦٤) العقد الفريد ٢ : ٢٠٦.

(٦٥) حاجي خليفة ٣ : ١٥٤.

(٦٦) ابن خلكان ١ : ١٥٧.

(٦٧) هو أول معجم كتب في اللغة العربية.

(٦٨) المسعودي ٣ : ٢١٣، والأبشيهي ٢ : ١٣.

(٦٩) وقَّت أبو الفداء (٢ : ١٦) وفاة سيبويه بسنة ١٨٠ للهجرة، وقال: إنه كان أعلم

المتقدمين والمتأخرين بالنحو، وجرى له مع الكِسائي البَحث المشهور في قولهم: «كنتُ أظنُّ لسْعَة العقرب أشد من لسعة الزنبور.» قال سيبويه: «فإذا هي هي.» وقال الكسائي: «فإذا هي إياها.» فانتصر الخليفة للكسائي؛ فحمل سيبويه من ذلك همًّا، وترك العراق وسافر إلى شيراز وتوفي هناك.

(٧٠) ابن خلكان ٢ : ٣٣٨.

(٧١) ذكر أبو الفداء أنه ولد في أيام يزيد بن عبد الملك وتوفي سنة ١٨٧ بعد البرامكة.

(٧٢) ابن خلكان ١ : ١٥٢.

(٧٣) يظهر هذا مما نقله الأصمعي وغيره من كلام العرب.

(٧٤) ذكر الأغاني كلام السوقة في زمن الرشيد (٣ : ١٧٣) في غير موضع، أما ابن خلدون فيقول في المقدمة (١٥): أما ملكة اللسان فكانت محفوظة في الأمصار إلى عهد الزمخشري وأمثاله من فرسان الكلام.

(٧٥) في القاموس: الوثب الطفر والقعود بلغة حِمْيَر.

(٧٦) قيد العلماء في كتب اللغة كثيرًا من الأفعال التي تشترك في معنى الشيء الذي له نقيض من نفسه؛ مثل: الهزال والسمن، والصعود والانحدار، والحضور والغياب، وغير ذلك، فرُبما عبروا عن الشيء ونقيضه من هذه الأسماء والأفعال والأوصاف بلفظة واحدة مشتركة بين المعنيين؛ باعتبار أنَّ الجبل مثلًا لا ينحدر منه الرَّجل إلا أن يكون قد صعد إليه ثم لا يعقب الصعود إلا الانحدار وكما أنَّ الرجل لا يغيب إلا بعد أن يكون حاضرًا، كما أنه لا يحضر إلا بعد أن يغيب، وهذه هي الألفاظ التي يَصِحُّ أن تُسمَّى بألفاظ المشاركة، وإنها لكثيرة في كلام العرب.

(٧٧) الأغاني ٢٠ : ٥١.

(٧٨) هي الأسواق الثلاث المشهورة عند العرب، وأعظمها سوق عكاظ، وكان يقام بين نخلة والطائف في موضع لا يبعد عن الطائف أكثر من عشرة أميال، وذلك في أول يوم من ذي القعدة الذي هو أول الأشهر الحرم، وكانت العرب تجتمع فيه للتجارة والتهيؤ للحج، ويتناشدون ويتفاخرون ويتسوقون إلى حضور الحج ثم يحجون.

(٧٩) الأغاني ٣ : ٢٥.

(٨٠) الأغاني ٥: ٢٥٢.

(٨١) الأغاني ٣: ١٦١، والموازنة، والمستطرف ١: ٧٧.

(٨٢) الأغاني ٣: ١٨٨.

(٨٣) الأغاني ١٦: ٩٦، والعقد الفريد ١: ١٠٨.

(٨٤) الأغاني ٣: ١٨٨.

(٨٥) العقد ١: ٣٧٥.

(٨٦) أبو عبيدة، والأغاني ٩: ١٧٨.

(٨٧) الأغاني ١٨: ٦٤.

(٨٨) العقد الفريد ٣: ١٢٢.

(٨٩) الأغاني ١١: ١٧.

(٩٠) الأغاني ٦: ٨٣ و٩: ١٦٣ و١٤: ١٦٤، والعقد ٢: ٢٣، وديوان الحماسة، والأتليدي ٢٥.

(٩١) إنما ابتدأ الشاعر بوصف الديار والدِّمَن والآثار؛ فبكى وشكا وخاطب الرَّبع واستوقف الرفيق؛ ليجعل من ذلك سببًا لذكر أهله الظاعنين من ماء إلى ماء وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقطَ الغيثِ حيثُ كان، ثم فصل ذلك بالنسيب وأبدى شدة الوجْد، وألم الصبابة والشوق؛ لتميل نحوه القلوب وتنصرف إليه الوجوه ويستدعى إصغاء الأسماع، فإذا استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له شكا السهر والتعب وسرى الليل، وقرر ما لقي من المكاره في المسير، ثم بدأ في المديح فبعث في ممدوحه الميل إلى المكافأة، وفضله على الأشياء وصغرها في جنب قدره الجزيل، وهزه إلى الفعل الجميل (الحصري ٢: ٢٧٤).

(٩٢) الأغاني، وكتاب الموازنة.

(٩٣) الأغاني.

(٩٤) خزانة الأدب ٥١١، والأغاني ٩: ١٥٨.

(٩٥) الأغاني.

(٩٦) الأغاني١٥ : ٩٥ و٩٦.

(٩٧) الأغاني ٩ : ١٤٠.

(٩٨) الموازنة، والأغاني.

(٩٩) العقد، والأغاني، والكشكول.

(١٠٠) العقد، والأغاني.

(١٠١) صاحب الأغاني يفضله على شعراء زمانه، وربما فضله في النسيب على شعراء الجاهلية.

(١٠٢) ذكر الأغاني (٣ : ١٤٥) أنَّ الشعُّراء يستعملون الغريب من الألفاظ (وذلك في زمن الرشيد).

(١٠٣) الأغاني ٣ : ١٣٣ و١٧٣.

(١٠٤) أي في المتمصرين من الشُّعراء دون أهل البادية.

(١٠٥) الأغاني ١٩ : ٦.

(١٠٦) الأغاني ٩ : ١٤٧.

(١٠٧) الأغاني ٩ : ١٤٧.

(١٠٨) الأغاني ١٠ : ٢، وفي غير موضع، والوطواط ١١١، وابن خلكان ١ : ١٤٣، والعقد الفريد ١ : ١٥١.

(١٠٩) الموازنة ٤.

(١١٠) الأغاني ٤ : ٥٨، والكشكول، والعقد الفريد ٣ : ١٧٢.

(١١١) الأغاني، وتزيين الأسواق، وابن خلكان، والمستطرف.

(١١٢) الأغاني، والعقد الفريد ١ : ١٤٦، والحصري ٢ : ١٦٣.

(١١٣) الأغاني ٤ : ٥٧.

(١١٤) الأغاني ١١ : ٣٢.

(١١٥) الأغاني ٣ : ١٤٣.

(١١٦) المسعودي ٢ : ٢٦٥.

(١١٧) الأغاني ١١ : ٣٢.

(١١٨) الأغاني ١١ : ٣٢.

(١١٩) الأغاني ٢ : ١٦٢.

(١٢٠) ابن الأثير ٦ : ٧٩، والفخري ٢٣٠، والرطوشي ١٧، والكشكول.

(١٢١) الأتليدي، وحلية الكميت، وتزيين الأسواق.

(١٢٢) المسعودي ٢ : ٤٢٢.

(١٢٣) ذكر صاحب العقد الفريد في باب من الرقائق من المجلد الثالث أن أبا نواس من أقدر الناس على الشعر وأطبعهم فيه.

(١٢٤) القيرواني، وابن خلكان.

(١٢٥) الأغاني ٣ : ١٨٠.

(١٢٦) من شوارع بغداد ذكره ابن خلكان ١ : ١٦٥.

(١٢٧) ذكر صاحب العقد الفريد هذا البيت في الأمثال السائرة وأبدل بالشطر الثاني قوله: «حتى يرى منها لها واعظ.»

(١٢٨) الطرطوشي ١٠.

(١٢٩) الأغاني، واليتيمة ١٠٢، وخزانة الأدب ٥٠٠.

(١٣٠) ابن خلكان.

(١٣١) ذكر له ابن الأثير (٦ : ٥٢) بعض أبيات في عرض التاريخ، وقال: إنها حسنة جدًّا، وذكر الحصري أيضًا جملة أبيات، وقال: إنَّ الطائي كان يعول عليه وعلى أبي نُواس وإنَّ مُسلمًا أول من لطف البديع، وكسا المعاني حلل اللفظ الرفيع.

(١٣٢) كان مسلم بن الوليد من أشعر الناس، ولكني لم أرَ له ترجمة في الأغاني ولا في ابن خلدون، وما نقلتُه هنا مأخوذ من كتاب العقد الفريد ١ : ٩٠.

(١٣٣) في المجلد الثالث من العقد الفريد (١٧٦) سبعة أبيات أخر من هذه القصيدة.

(١٣٤) الأغاني ١ : ٩٨.

(١٣٥) العقد الفريد ٣: ٢٤٧.

(١٣٦) الأغاني ١٦: ١٣.

(١٣٧) الأغاني ٥: ٥٧.

(١٣٨) الأغاني ٤: ٣٨.

(١٣٩) الأغاني ٤: ٣٧.

(١٤٠) المستطرف ٢: ١٨٨، والعقد الفريد ٣: ٢٣٧.

(١٤١) ابن خلكان ١: ٥٧١.

(١٤٢) الأغاني ٨٩٥.

(١٤٣) ابن نباتة.

(١٤٤) الأغاني ٦: ٦٦.

(١٤٥) الأغاني ٥: ١٤١ و٦: ١٣.

(١٤٦) الأغاني ٥: ١٦١.

(١٤٧) الأغاني ٧:٣٦.

(١٤٨) الأغاني ١٤: ٥٥.

(١٤٩) الأغاني ٣: ٧٩.

(١٥٠) الأغاني (١: ٢٠)، وفي الحصري (٢: ٢٠٦) قال إسحاق: إنما يُجيد الغناء من يَقرع مسمع كل واحد من الناس بالنحو الذي يوافق هواه.

(١٥١) الأغاني ٦: ١٨.

(١٥٢) الأغاني ٥ و٦.

(١٥٣) الأغاني ٦: ١٧.

(١٥٤) الأغاني ١٥: ٨.

(١٥٥) الأغاني ٥: ٥٢.

(١٥٦) الأغاني ١٥: ٦٥.

(١٥٧) الأغاني ٦ : ٦٥.

(١٥٨) الأغاني ٦ : ٩.

(١٥٩) المقدمة ٤١٩.

(١٦٠) حاجي خليفة ٤٦٢.

(١٦١) المقدمة ٤٢٢.

(١٦٢) ابن نباتة.

(١٦٣) هو مهندس ذكره الأغاني ٦ : ١٩١.

(١٦٤) المقدمة ٤٢٤.

(١٦٥) المقدمة ٣٥٩.

(١٦٦) المقدمة ٣٥٨.

(١٦٧) حاجي خليفة ٤ : ٤٦١.

(١٦٨) الكشكول، والأغاني.

(١٦٩) راجع كتاب المقَّري وغيره من تواريخ الأندلس.

(١٧٠) المقَّري.

(١٧١) كتاب أرسطوا الخاص بالمنطق يُسمى النص، يشتمل على ثمانية كُتب، أربعة منها في صورة القياس، وأربعة في مادته، وهي كتاب: المقولات، وكتاب العبارة، وكتاب القياس، وكتاب البرهان، وكتاب الجدل، وكتاب السفسطة، وكتاب الخطابة، وكتاب الشعر. ثم إنَّ حُكماء اليونانيين بعد أنْ تهذبت الصناعة ورتبت رأوا أنه لا بد من الكلام في الكليات الخمسة المفيدة للتصور؛ فاستدركوا فيها مقالة تخص بها فصارت تسعًا (المقدمة ٤٢٩).

(١٧٢) المسعودي ٢ : ٤٠٠.

(١٧٣) حاجي خليفة ٣ : ٩٧.

(١٧٤) المقدمة ٤٢٨.

(١٧٥) ذكره ابن خلكان ٩٢.

(١٧٦) الأغاني ١٦ : ٨٨، والعقد الفريد ٢ : ١٤٣.

(١٧٧) ابن خلكان ٥ : ١٤٦.

(١٧٨) حاجي خليفة ٤ : ٢٤٦.

(١٧٩) المقدمة ٤٦٣.

(١٨٠) المقدمة لابن خلدون.

(١٨١) ابن خلكان ١ : ٦٨٧.

(١٨٢) حاجي خليفة ٣ : ١٠٠.

(١٨٣) ذكر هذا ابن خلدون في المقدمة ٣٢، وابن خلكان ٢ : ١١٢ و١١٤.

(١٨٤) العقد الفريد في باب الكتاب، وابن خلكان، والمقدمة، والمستطرف ١ : ١٥٩.

(١٨٥) المحاضرة ٣ : ١٣٢.

(١٨٦) الفخري ٣١.

(١٨٧) ابن خلكان، والأغاني ٨:٧٦.

(١٨٨) ذكره المسعودي ١ :٣٨، والسيوطي، وذكر المسعودي أن عبد الله بن المقفع كان عالمًا باللغة الفهلوية، وأنه ترجم منها إلى العربية غير كتاب كليلة ودمنة كتبًا كثيرة.

(١٨٩) ذكر الحصري أن سهل بن هارون ألف في زمن المأمون كتابه المسمى «ثعلة وعفرة» يُعارض به كتاب كليلة ودمنة وأنه كان ظريفًا عالمًا حَسَن البيان له كتب ظريفة صنعها معارضا بها الأوائل في كتبهم بما لا يقصر به عنهم حتى قيل له بزرجمهر الإسلام (٢ : ١٨٦).

(١٩٠) المقدمة ٢٥٧.

(١٩١) ذكر في العقد الفريد (٢ : ٢٢٨) أن أبان بن عبد الحميد كان من ندماء البرامكة، وله قصيدة أنشدها للفضل بن يحيى فيها حلاوة شمائله وبراعة أدبه، يقول:

أنا مــــن بغيـــة الأمـــير وكنـــز ... مــــن كنـــوز الأمـــير ذو أرباح

كاتـــب حاســـب أديـــب لبيـــب ... ناصـــح زائـــد علـــى النصـــاح

شـــاعر مفلـــق أخـــف مـــن الريـــ ـــش إذا مـــا يكـــون تحـــت الجنـــاح

لي في النحـــــو فطنــــــة ونفـــــاذ أنا فيـــــــه قـــــــلادة لوشـــــــاح

لـــــو رمـــــى بي الأمـــــير أصـــــلحه الله رماحًـــــا صـــــدمت حـــــدَّ الرمـــــاح

بم أروي عـــــن بـــــن ســـــيرين في الفقـــــ ـــــه بقـــــول منـــــور الإفصـــــاح

لســـت بالضـــخم في روائـــي ولا الفـــد م ولا بالجعـــــــــد الدحـــــــــداح؟

لحيـــــة كثـــــة وأنـــــف طويـــــل واتقـــــاد كشـــــعلة المصـــــباح

وكثـــير الحـــديث مـــن ملـــح النـــا س بصـــــيرٌ بخافيـــــات مـــــلاح

كـــم وكـــم قـــد خبـــأت عنـــدي حـــديثًا هـــــو عنـــــد الأمـــــير كالتفـــــاح

أيمـــن النـــاس طـــائرًا يـــوم صـــيد في غـــــــدو أو بكـــــــرة أو رواح

أعلـــم النـــاس بالجـــوارح والصيـــ ـــد وبالخـــرد الحســـان المـــلاح

كـــل هـــذا جمعـــت والحمـــد لله علـــى أنـــني ظريـــف المـــزاح

(١٩٢) الأغاني ٣٠ : ٧٣.

(١٩٣) العقد الفريد، والمسعودي ٢ : ١٦٣، وذكر أنه أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب واستعمل الناس ذلك بعده.

(١٩٤) المسعودي ١ : ٢٩٦.

(١٩٥) المسعودي ١ : ٢٩٦.

(١٩٦) كتاب الفهرست.

(١٩٧) الأتليدي ١٢٦، والأغاني ٦ : ١٣٧، وغيرهم.

(١٩٨) المسعودي، وذكرها ابن خلدون في المقدمة ٣٢ في معرض الانتقاد على المؤرخين.

(١٩٩) ذكرها المسعودي في موضعين من كتابه؛ أحدهما في صحيفة ٢٩٦ من المجلد الأول ولم يذكر عنها شيئًا، والثاني في صحيفة ٣٨ وقال: إنه كان في عصر كورس ملك الهند، وذلك قبل زمن عيسى – عليه السلام – بثلاثمائة سنة، سندباد دون له كتاب الوزراء السبعة، والمعلم وامرأة الملك، وهو الكتاب المترجم بالسندباد.

(٢٠٠) يستدل على ذلك مما دونه رحالة العرب وعلماؤهم في الجغرافيا.

(٢٠١) ابن خرداذبة ٦٣.

(٢٠٢) القرماني ٥ : ٥٤.

(٢٠٣) المستطرف ٢ : ١٦٢.

(٢٠٤) راجع كتاب الأغاني.

(٢٠٥) راجع مقدمة ابن خلدون، والعقد الفريد.

(٢٠٦) حاجي خليفة ٣ : ٦٤٣، وذكر أبو الفداء وابن الأثير أنه مات سنة ١٥٠.

(٢٠٧) المقدمة ١٧٠.

(٢٠٨) المسعودي ٢ : ٤٠١.

(٢٠٩) الأغاني، وابن خلكان.

(٢١٠) الأغاني ٥ : ١٦٥.

(٢١١) المقدمة ٢٠٣، وابن حوقل، وغيره.

(٢١٢) راجع مقدمة ابن خلدون، وكتاب حاجي خليفة.

(٢١٣) كليلة ودمنة.

(٢١٤) المسعودي ٢ : ٤٠١، والشرقاوي ١٢٢، وفي الحصري (٢ : ١٠٣) كانت أيام البرامكة روض الأزمنة.

الرسالة الثامنة

رسالتي إلى قيصر الرُّوم

هذا تاسع كتبي إليك أفرده لذكر الرِّسالة إلى أنبرذور الفرنجة، وأنا أكتبه اليوم على متن السفينة في البحر الفاصل بين الروم وإفريقية.

كان الرَّشيد يوم وصل رسول الأنبرذور إلى الحضرة[1] قد استدعاني إليه فأصبته في مجلسه مُتنقلًا كأنه يريد أمرًا عظيمًا؛ فاستدناني[2] إليه وقال: إنا أتانا من ملك الفِرنجة رسول يُقرئنا منه السَّلام، ويلتمس جميل رعايتنا بمن يحج إلى بيت المقدس من ملته، فرأينا أن نوجهك إليه بلطائف نروم منه أن يتقبلها في سبيل المودَّة لغاية نرغب فيها إليه هي التعصب على بني أمية الذين يُمزقون الأندلس فيما هو ناشب بينهم من الحروب[3]فإذا وافقنا على ما نروم من الاستيلاء على ديارهم؛ فهو المقصود من إنفاذك إليه في هذه الرِّسالة، واجهد في أن تسترِق قلبه بخلابة لسانك، وتقدمْ إليه بالوعد الجميل في أننا نُوفيه حقَّه يوم الفتح. ونصرف له نفقة الحرب من بيت مالنا، ونجري الأرزاق الواسعة على جنده ونقاسمه ما تحوي خزائن الظالمين من المال والجوهر، واستصحب معك هذا اليهودي الذي جاء به رسوله فهو يترجم عنك إليه، وخذه بالتعظيم الكثير؛ لأنَّه شيخ مُترف جليل القدر فيما نقل الرسول إلينا، وقد قدَّمنا إلى مسرور أن يصحبك بالخدام مع الدواب والخيام إلى بيروت من ساحل الشام، فإذا عدت إلينا وأنت آخذ على مصر أَمَرْنَا الليثَ أن يوجه معك طائفة من الحرس إلى عَيْذاب فتوافينا إلى البلد الحرام حيث توافقنا حاجِّين، فسِرْ على بركة الله، وإياه نسأل أن يتولاك بعين الحراسة، ويهدي قلبك الصواب وهو ولي التوفيق.

فلمَّا أذِن لي بالانصراف أتيت البرامكة؛ لأستطلعهم رأيهم في المصلحة فلقيت جعفرًا متنزها في البستان، وبين يديه جماعة من الندماء؛ فلما أقلبت عليه قال: اخرج

عما بنفسك وحدثنا عن سفر البحر، فقلت: وأنَّ ذلك؟ فقال: علم الله إني أنا الذي أشار على الرشيد بأن يوجهك إلى ملك الفرنجة رسول خير ومودة وسلام، ثم أومأ إلى الجلاس فتنحوا عن موضعنا فاستدناني إليه وقال: بمَ أوصاك؟ فقلت: بكذا وكذا من الأمر، فوجم ساعة ثم قال: سبحان الله! إلامَ يتمادى به تغرير القتال؟ لقد أشرت عليه بأن يعدل عن مُناجزة الأمويين؛ لأنَّ لنا في الشرق ما يشغلنا عن قتالهم، وفي الخوارج الذين يُقارعونه على الخلافة في كل حين ما إنْ ضعفنا عنهم مرة واحدة فسدت دولته فسادًا لا تقوم لها من بعده قائمة.

وإن يكن الرشيد عن موعظتي غنيًّا بما عنده من العقل والعلم؛ فإن الملوك قد تطمح نفوسهم إلى ما وراءه الشر من طمع الاستيلاء، وقد قال – تعالى: لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ(٤) فما لنا وللأمويين وقد كفانا الله شرهم، فإن كانوا في شقاق فلندعهم ينادون بالويل والحَرَب إلى ما وراء البحور، وليس لنا أن نُلقي برجالنا في المواضع المجحفة ونوردهم موارد الهلاك، فإني أرى الجند يفنَوْن قبل الإشراف على تلك المتالف، كما أني أحسب الأنبرذور على ما يؤثر عنه من إيثار الرفق ولزوم التؤدة بعيدًا عن موافقته على ما يروم من الإيقاع بملوك أمية، وهم مُطمئنون في ديارهم مُعتصمون في قلاعهم، وقد عَمروا أمصارهم، ودوَّنوا دواوينهم وشكُّوا في حصونهم واتخذوا الأهبة لهم والعُدة والكُراع، ودون الاستيلاء على ديارهم شيب الغراب(٥)ولقد كان أولى بالرشيد أن يرى دول الأندلس درعًا منيعًا للإسلام وسيوفًا مشهورة على الروم؛ لأنها لو دخلت في حوزته لم يأمن إن أرسل الجند أن يخونه القواد أو مات الأنبرذور عن خلف لا يرعى العهود أن يوجه من يقبِض على عمالها من لدنه، وقد بدا لي أن أعاوده في هذا الشأن فإن رغب عما فرط منه وإلا فليفعل ما كان فاعلًا لبلوغ أمنيته.

فلما كان الغد بكر جعفر إلى الرشيد وخلا به ساعة جيدة يقلب عليه الكلام، ويمحضه الرأي والنصيحة ولكن من غير أن يقوّم ما بنفسه من الميل ويعدِل به عن عن ركوب هذا المركب الوعر؛ فاستدعاني إليه وسلمني كتابه إلى الأنبرذور وأمرني بأن

أتجسس أخبار العمال، وأتفقد أمرهم حيث مررت، وأوصاني برجل من الأمويين في دمشق كثير المال كبير الجاه أن أتحقق حاله حتى إذا كان يخشى منه استمالة أهل الشام إلى الفتنة رفعتُ ذلك إليه لتدبير أمره[٦] ثم قال: وإذا مثلت بين يديه – يريد قيصر الروم – فقل له عن أُمية: إنهم قومٌ قد كفروا بالنعمة، وتركوا فروض العبادة، وسَعَوْا في الأرض فسادًا وأنا أحق بالملك منهم لمكاننا من قرابة النبي ﷺ.

ثم أذن بالانصراف، وكان يظهر من الميل إليَّ وجميل العطف عليَّ بحيث كان يدعوني بلفظة الحبيب[٧] كلما بدأ بالكلام بعد انقطاعه.

وكان في لطائف الخليفة إلى الأنبرذور فيل عظيم أبيض كان عند المهدي – رحمه الله – أرسله له بعض ملوك الهند[٨] وثياب فاخرة من الوشي المنسوج بالذهب، وبسط ديباج من طَبَرِستان، وأعطار من اليمن والحجاز، ومسك وصندل وأعواد نَد من الهند، وسُرادق عظيم مُجلل بأنواع الحرير وكلاليبه من الذهب الملبَّس بالوشي، ومِزْولة كبيرة تدلُّ على الأوقات في ليل ونهار، وهي من عمل صناع بغداد، وشِطْرَنج بديع الحسن قد اتخذت أدواته من العاج المنقوش، صنعه نقاش من النَّصارى اسمه يوسف الباهلي ورسم اسمه على الأداة التي تمثل الشاه، وهي من الحسن بحيث إن الناظر إليها يكبر صناعتها، وقد مثل فيلًا يلف خرطومه على فارس وعلى رأسه جندي قد أخذ بزمامه، ومن حوله ثمانية فرسان يُراد بهم الرَّمز إلى البيادق الثمانية الذين يناضلون عن الشاه، وعلى ظهره هودج مُزخرف بأنواع الرسوم، قد استوى فيه ملك على رأسه تاج مثل تيجان ملوك حمير،[٩] وقد أظهر هذا الرسام في تصويره من الحذق ما يستحق عليه الثناء؛ لأنَّه مثل أصحاب الفيلة كما هم، وجعل في آذانهم أقراطًا وعلى زنودهم أساور وعلى أبدانهم القراطق وهي لباس الهنود، واتخذَ عدد الخيل مُزخرفة وصنعَ لها السُّروج والأزمة، وقلَّد الفرسان شيئًا من السلاح ما عدا الجندي الذي أخذه الفيل بخرطومه؛ فإنه يُعالج نفسه للخلاص مما هو فيه، وقد طرح سِلاحه على الأرض وعليه سمة التوجع والانكماش[١٠] مما يشهد للممثل بأنه من مهرة الصناع.

المرور بالكوفة وبلاد الشام

لقد رسم لي طريق الوجهة بأن أسير إلى الكوفة، ثم إلى دِمشق، ثم إلى بيروت على ساحل البحر، وكانَ مسيرنا في غاية البُطء؛ رفقًا بالفيل والدواب المثقلة بالأحمال، فاجتزنا بعد الانفصال عن الحضرة بمدينة النيل التي مصَّرها الحجاج[١١] وهي بمنتصف ما بين بغداد والكوفة[١٢] ثم عطفنا إلى الأنبار[١٣] ثم إلى مدينة الكوفة فنزلت بها في رحبة خُنَيْس الأنصاري من أجداد أستاذي أبي يوسف – رحمه الله،[١٤] وهي في مُقابلة الباب الكبير المعروف بباب الفيل،[١٥] وقد طاب لي المقام بين أهلها لما وجدت فيهم من الحبِّ لأهل البيت[١٦]– شرَّفهم الله – ولا سيما في قوم كِنْدة من ملوك النصرانية، وهم من غلاة الشيعة[١٧] وأكثرُهم عالم وحكيم وأديب كان بيتهم معدن العلم ومظهر الحكمة، وقد لقيت منهم إسحاق الكِندي وهو عامل الرَّشيد على الكُوفة، قلَّده الإمارة بإيعاز البَرامكة الذين يُحافظون على تأييد الشيعة[١٨]ويبغون من إلف الرَّعية فيما بينهم تعظيم الإسلام في انتفاعه بحكمة الأمم وعلومهم وصناعاتهم، وقد جروا في ذلك على سنة أبيهم خالد – رحمه الله – وهو الذي قرَّب بعض النصارى إلى أبي جعفر كما تقدم في موضعه من الكتاب.

ولقد وجدت الكُوفة من أعظم مُدن العراق[١٩] وهي ذات ماء وشجر ونخيل[٢٠] وقدَّرتُ أن تكون في الكبر كنصف بغداد، فحق تسميتها بالكوفة؛ لاجتماع الناس فيها، من قولهم: تكوَّف الرمل، إذا ركب بعضه بعضًا[٢١] وقد زارني فيها كثير من أدبائها المشهود لهم بالفضل والاجتهاد، ولكني لم يتهيأ لي زيارتهم لقِصر الوقت، ولقد وجدتُ إسحاق أميرهم من العلم والعقل بالموضع الذي أكتفي من الدلالة عليه بأنْ آسف لبُعده عن الإسلام، وهو يسكُن دارًا مُباركة تعزى إلى عقيل بن أبي طالب[٢٢] وهي بإزاء المسجد المبارك، الذي قال فيه بعض الصالحين: إن ركعتين فيه تعدلان عشرًا فيما سواه من المساجد، وإن البركة منه إلى اثني عشر ميلًا من حيث أتيته[٢٣] وقد زرته قبيل الانفصال على المدينة ولم أرَ في عمد المساجد كلها ما هو أطول من عمده[٢٤] ثم زرت مشهد عليٍّ – عليه السلام[٢٥] وتبركت به وقرأت عنده

شيئًا من القرآن.

ولما انفصلت عن الكوفة تخلفت عني الدوابُّ المحمَّلة، فانقطعت في الفلاة مع جماعة من الحرس، ورُحنا نقطَع القفر بعد القفر، حتى إذا عَظُمت عليَّ مشقة السفر تذكرت طِيب بغداد وظرائفها[٢٦] وحننت إلى مجالس البرامكة والدارُ عندهم جامعة، وأوقات الأنس بها رائعة، فكنتُ أقولُ مُتمثلًا بكلام إسحاق النديم: [٢٧]

على أهل بغداد السلام فإنني أزيد بسيري عن ديارهمُ بُعدا

إذا ذَكرتْ بغدادَ نفسي تقطعت من الشوق أو كادت تذوبُ بها وجدا

ولم أزل مجدًّا في السير حتى بلغت دِمَشق في اثنتي عشرة ليلة[٢٨] ولو أني سرتُ تحت جناح الليل لبلغتها في ثمانية أيام[٢٩] فما دونها، فنزلت فيها عند قاضيها الإمام عمر بن أبي بكر بن تميم القرشي العدوي[٣٠] في دار بناها عويمر أبو الدرداء، وهو أول من ولي القضاء بدمشق، وكان القُضاة فيها يسكنون قصر الحجاج[٣١] المعروف بالقصر الكبير.

أما الشام؛ فإنها بلاد مُباركة كثيرة الخيرات، وافرة الغلات، إلا أنها نكدة الحظ في تغلب الأمم الغازية عليها؛ ولذلك قلَّتْ عمارتها إلى هذه الغاية بعد تغلب الكلدان عليها والفرس الأولى والفراعنة واليونان والروم والفرس الثانية، ولا سيما قبيل أن يظهر الإسلامُ، وقد كانت تُمزقها الحروبُ التي تسعرت نيرانها بين بني عامرٍ المتغرضين للفرس، وآل غسان المتغرضين للرُّوم، فانتقض عمرانها ودرست سُبلها وتداعت أحوالها إلى الانحلال بعد أن كانت في عظمة لم يكن مثلها في الدول إلا قليلًا، وكانت فيها التجارة كأعظم ما يكون من النَّفاق وللعلوم والصنائع سوق رائجة رابحة، فدرست تلك المحاسن، وتقلصت تلك الرسوم حتى لم يبقَ اليوم من مَصانعها غير رسوم شاخصة وآثار ناقصة.

وإنما دعا أهلها إلى الفساد وجلب عليهم المذلة وطمح بأبصار الملوك إلى التهامهم ما وقع بينهم منَ الشِّقاقِ وما كان في نفوسهم من التحزب الذي هو أشد

من الفتنة[٣٢] فكان ظهور المرسلين فيهم سببًا لتعصب بعضهم على بعض، وإن كانت مواعظهم داعية إلى المحبة والاتحاد، وهذا هو الأمرُ الغريبُ الذي لم يُسمع بمثله في البلدان، فلقد كانت الشامُ مهبِط الوحي ومَسقط النبيين وموطِن الأولياء الطاهرين الذين كانوا يتخذون الأنصار لنفوسهم ويرومون إدخال الناس في شيعتهم؛ ليجمعوا ما كان شتيتًا من شملهم ومتفرقًا من كلمتهم وأغراضهم، إلا أنهم لم يبلغوا من ذلك الغاية التي كانوا يرومونها من أمرهم؛ فإنما الواجبُ على أهل الوطن الواحد أن تكون فيهم جامعة الألفة وألا يتعصبوا بميولهم إلى غير ما يقصدون منه الوحدة؛ فإنَّ عظمة الأمم لا تحصل إلا بالاجتماع والعَصبة، سنة الله في خلقه.

انظر إلى الدول الرومية كيف عبِث بها العدو حين وقع فيها الانقسام والتجزؤ، وانظر إلى الدولة الأموية لم يقارعها أبو مسلم على الخلافة إلا عندما تخالف عليها صِبيتهم[٣٣] فيما يرومون إليه من طمع النَّعيم، وانظر إلى أهل البيت السلالة الشريفة والذرية الصالحة كيف وقعت بهم الشدَّة يوم تفرقوا على أغراض لا تجمع بينهم إلى الوحدة، فلما اجتمعوا في المغرب إلى إدريس بن إدريس – ﷺ – قام لهم مُلْك يرجف له الشرق، فإن تنظر إلى ذلك كله وإلى كثير مما وقع وما هو واقع في الممالك تجد أنَّ الأمم لا تقوم دولهم إلا برابطة الاجتماع والعصبية، ومتى تسقط من روابطهم تلك الأوصال ينذر أمرهم بالانحلال وتتداعَ أحوالهم إلى الاضمحلال.

وصف دِمَشْق وأنها بهجة البُلدان

ولما وفدتُ على دمشق وسرحتُ الطرف ناحية الغُوطة امتلأتْ عيني من خضرة الأرض؛ حتى تخيلت نفسي في جنة من جنات السماء؛ ولا غرو فإنَّ مياهها وأشجارَها ورَياحينها لأفضل ما في الدُّنيا من المتنزهات[٣٤] يسيرُ الرَّجل في رياضها يومه لا تصيبه أشعة الشمس لالتفاف شجرها بعضه على بعض، وهي في أسمى مقام بين مدن الإسلام، بعد دار السلام.

قد اشتبكت فيها العِمارة[٣٥] وتنزهت عن المثل في النضارة؛ لكنها ليست

بالمفرطة في الكبر، وربما كانت إلى الطول أميل منها إلى العرض(٣٦) وهي لا تخلو من السقايات(٣٧) في أسواقها ولا بيوتها، ومبانيها طبقات فوق طبقات(٣٨) وتحتوي من الخلق على العدد الكثير، والناس على مذاهب فيمن بناها من الأولين؛ فمنهم من يقول: إن عادًا أول من نزلها من الناس وإنها هي إرم ذات العماد(٣٩) ومنهم من يذهب إلى أن بانيها الغادر غلام نمرود(٤٠) أو دمشاق بن كنعان، ومنهم من يزعم أن الذي اختطها هو دمشقس مولى الإسكندر الرومي(٤١) ومنهم من يرى غير ذلك. إلا أنه ليس فيما يقولون حجة ترجع بهم إلى محاسن التحقيق في وثائق الآثار، ولا سيما عند الذين يعزون بناءها إلى الروم، فإن الرد عليهم واضح لا يحتمل التأويل بعد أن أتى موسى كليم الله على ذكر دِمَشق في غير ما آية من كتاب التوراة.

ومهما يكن من اختلاف المؤرخين في ذلك؛ فإن هي إلا مدينة أوَّلية(٤٢) قد صحبت الملوك من الكنعانيين والروم وآل جفنة وبني أمية دهرًا طويلًا ونالت من العزة والعمارة ما قلَّ أن يناله غيرها من المدن، ولو كان البناء الذي شاده فيها الملوك من الحجر الصلد، ثم بقي ماثلًا إلى هذه الأيام لكانت دمشق زينة الدنيا، ولكنه شيّد من طينٍ ولَبِن فأتى عليه الانحلال ومحت الأيام آثاره(٤٣) فلم يبقَ منه إلا قلعة من الحجر تُعزى إلى الروم(٤٤) وقصر يُقال له قصر جيرون عليه أبواب عجيبة من النَّحاس(٤٥) وبناء يُقال له البريص فيه كثير من العمد، وتزعم العامة أنَّه كان يجري منه الشراب في قديم الزَّمان غير أنَّ أركانه اليوم قيام وقعود. وحيطانه ركع وسجود(٤٦) وقصران من الحجر لعمر بن عبد العزيز(٤٧) وللوليد بن عبد الملك(٤٨) وهما جميع ما تخلف عن ملوك بني أمية؛ لأنَّ ما نجا من معول الزمان لم ينج من معول أبي جعفر(٤٩) كما مر في موضعه من الكتاب.

ولقد وجدت أهل دِمشق أحسن الناس خَلْقًا وخُلُقًا، يُكرمون الفقراء ويتلمسون منهم أن يتقبلوا صدقتهم؛ حتى يكونوا هم في صورة السائل(٥٠) ولو أنَّ فقيرًا أعرض عن كِسرتهم لقالوا: ويحنا! لو علم فينا خيرًا لتناول من طعامِنا(٥١) وقد بلغني عن فضلائهم أنهم يزهدون في الدنيا، وينقطعون إلى الله – تعالى – متبتلين في جبل

لُبنان[٥٢] غير أني لا أطلق هذه الرواية إلا على فئة قليلة من الصالحين؛ لأن جمهورهم مائل إلى اللهو والطرب، ولا سيما في يوم السبت، فإنهم لا يشتغلون فيه إلا بالمجون والتهتك، لا يبقى فيه للسيد حَجْر على المملوك، ولا للوالد على الولد، ولا للرجل على المرأة[٥٣] وهذا أمرٌ غريبٌ لم أرَه في غير دمشق ولا أعلم هل النصارى يشاركونهم في ذلك؛ لأني رأيتهم مُنقطعين عن مُخالطة المسلمين في المنازل والأحياء، قد تألَّبوا على كنيسة معظَّمة عندهم تُعرف بكنيسة مريم[٥٤] ويُقال: إنها من أعظم بِيَعهم بعد بيت المقدس.

وبقيت في دمشق ثمانية أيام إلى أن وفد الغلمان بالدواب المحملة، وكنتُ قد استقصيت البَحث عن هذا الأمويّ الذي أتعب خاطر الرَّشيد أمره فلم أجد له غرضًا في السياسة، ولا هو طامح إلى ملك ولا إمارة، ولا يُحدِّث نفسه بشيء مما يُقلق بال الرشيد حتى يخافه على أمره، فأمسكت عن السِّعاية به؛ لأني رأيته وهو خِلو من هذه الأغراض مثل التاجر الكثير المال والجاه ليس إلا، وقد تهيأ لي باستطلاع خبره أن أقف على سِيَر غيره من أقارب الخلفاء مُتابعة لما نُقِل إليَّ من خبره فوجدتُ في الأولين عقلًا وسياسة إلا أنه لما صار الأمر إلى صِبيتهم المترفين استرسلوا في القصف والتهتك[٥٥] وعكفوا على اللَّذَّات واستخفُّوا بأمر الرعية، وغفلوا عن مصالح الملك؛ فأزاله الله – تعالى – عنهم وألبسهم ثياب الذل بذنوبهم.

وقد انتهى ترف مُلوكهم إلى الوليد ين يزيد[٥٦] وهو الذي أَخذتْ الخلافة في الانحلال بين يديه، وتحرَّك الدُّعاة في خُراسان بما وجدوا فيه من قلة الخبرة بأمور الملك، وعكوفه على اللهو والطرب[٥٧] وقيام خلافته بين الكأس والوتر[٥٨] وقد استرسل في التبذير حتى أنفق ما جمعه أجداده في بيت المال؛ لأنه أفرط في الكرم إفراطًا فاحشًا؛ حتى إنه لم يقل: «لا» في سؤال سُئِله[٥٩] وكان إذا وصل الشعراء عدَّ أبياتهم وأعطاهم عن كل بيت ألف درهم[٦٠] وكان يتأنق في صنوف الملاذِّ من المطعم والمشرب والملبس، فيُقال إنَّه لبس القلنسوة من الوشي[٦١] مُذهبة، واتخذَ العُقود من الجوهر كالنساء يُغيِّرها في اليوم مرارًا[٦٢] لشغفه بها، وكان يتختم بالياقوت، ووقع من

خواتمه إلى بني العباس[٦٣] خاتم يُساوي أربعين ألف دينار، ويُقال في حسنه: إنَّه كان إذا أخرج من محبسه أضاء المكان من شدَّة لمعانه.

وكان يسترسل في الطرب إلى أن يوجه رُسله[٦٤] في طلب المغنين من الحجاز وغيره، فتجد أنَّه لم يثقل أمره على الرَّعية من وجه واحد، وإنما هُناك وجوه قد ساقت عليه الفتنة، فقام الناس عليه وقتلوه شر قِتلة. هذه نتف من أخبار حدثْتني بها مُغنية كانت له يُقال لها برق الأفق[٦٥] وهي اليوم عجوزٌ تكاد تنال الأرض بوجهها من الكِبَر، وقد أخبرتني في بعض حديثها أنَّ الجوهر كان في صباها مُتداولًا بين الناس، فلمَّا جمعه الوليد بن يزيد من كل وجه وغالى به؛ غلا ثمنه منذ ذلك الحين[٦٦] وهذا شيء من الإفراط في الترف لم نسمع بمثله عن أحد من الملوك المترفين. ومن نظر إلى ما كان عليه ملوك بني أمية من العزة والصولة وما صاروا إليه من الذلة علم أنَّ الله – سبحانه وتعالى – لا يُغير ما بعبده من نعمة حتى يغير العبد ما بنفسه بارتكاب المعصية.

ولما طال مُقامي بدمشق تهيأ لي أن أزور أماكنها المشهورة، فزُرت موضعًا يُقال إنَّ هابيل وقابيل نزلا فيه[٦٧] ومَوضعًا يُقال له باب الساعات[٦٨] يزعم أهل الأخبار أنه كانت فيه قارة تقدم عليها القرابين، فما يقبله الله منها تبتلعه نار من السماء وما لم يقبله يبقى في موضعه على الصخرة.

وزرت مشاهد جماعة من أهل البيت المشرفين والصحابة والتابعين والأولياء الصالحين[٦٩] في جبل قاسيون ومقابر الشهداء[٧٠] وجبَّانة الباب الصغير[٧١] وبينها قبور ملوك بني أمية[٧٢] مُتهدِّمة والرُّخام عليها مُتكسر[٧٣] وزرتُ قرية في سفح الجبل المذكور يُقال لها بَرْزة[٧٤] يزعمُ الناسُ أنها مولد الخليل إبراهيم عليه السلام[٧٥] حضينِ الملائكة، وإلى ما فوقها حِجارة مَصبوغة بشيءٍ يُشبه أن يكون أثر دم عتيق، يقولونَ: إنها الحجارة التي رضَّ بها قابيل رأسَ أخيه هابيل[٧٦] ثم جرَّه إلى مغارة هُناك يُقال لها مغارة الدم[٧٧] وفي حضيض الجبل مغارة أخرى تُسمى مغارة الجوع، يزعمون أنَّ سبعين نبيًّا ماتوا فيها من الجوع، وإني لأستحيي أن أنقل حديثهم كما قالوه؛ فإنهم يقولونَ:

إنهم سبعون ألف نبي[٧٨] – كأنَّ كل مَن عاش في الشام نبي أو ولي – وفي طرف الجبل مما يلي الغرب ربوة[٧٩] يقول المفسرون: إنها هي المذكورة في قوله – تعالى: وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ويرد عليهم آخرون بأن المراد بها ربوة في الإسكندرية[٨٠] من ديار مصر.

وهناك مَسجد يقولون: إنَّ المسيح – عليه السلام – أوى إلى مغارة بجانبه، وفيه حجر قد انفلق إلى شطرين، ولم ينفصل أحد الشقين عن الآخر بل اتصلا كرمان مشقوق[٨١] ولهذا المكان منظر حسن من البساتين والخضرة في جميع جوانبه، ولا إشراق كإشراقه حُسنًا وجمالًا واتساع مسرح للأبصار، وفيه تنقسم مياه المدينة إلى أنهار سبعة[٨٢] أكبرها نهر يزيد ونهر ثَوْري[٨٣] وهما فيه نهر واحد يعرف بنهر بَرَدَى وهناك بعض قرى مثل نَيْرب ومز[٨٤] والسهم وسَطْرَى[٨٥] وفيها الجوامع والمرافق والحمَّامات إلا أنه لا يظهر منها إلا ما سما بناؤه لتطاول الشجر عليه، وفيها من الفواكه والتفاح والخوخ وسائر الثِمار ما ليس في البلاد مثله صحة وطيبًا[٨٦] وإلى ما يليها من طرف الجبل موضعٌ يُقال له عين برما[٨٧] كان معمورًا لأيام معاوية بن أبي سُفيان بجماعة من أهل خراسان ثم توالى عليه الخراب لظلم الخلفاء بعده حتى أصبح إلى هذه الغاية كليل العين، وبقي الأثر من عمارته وذهبت العين.

ولقد كانت دِمشق فيما خلا من الزَّمن الغابر ممزوجة بصنوف غير مُحصاة من فضلات العمران، ويعيبها كثرة الوحول في أزقتها وتراكم الطين في ساحاتها، فلما أقام فيها الأمويون شرعوا في إزالة الأقذار[٨٨] منها وقاية من الطاعون الذي كان يقع بها تباعًا في السنين السَّالفة[٨٩] وهذا هو الأثر الذي تشهد لهم البِلاد به كما تشهد لهم الآثار الباقية عنهم بتشييدهم البناء على الهندسة التي لا نجد أعظم منها وقعًا في القلوب، ولا أَتَمَّ حُسنًا وجمالًا في العيون، كالذي يَبْلُغنا عما بنَوْه في الأندلس[٩٠] من القصور التي حارت في جمالها عقول الفرنجة، فقد شاهدت دار الوليد بن عبد الملك من قصورهم في دمشق فوجدتُها بَدِيعة الحسن مبنية بالحجر والصُّفَّاح والأعمدة، مفروشة بالرُّخام الأخضر[٩١] وهي تتناهى في البَهاء والإشراق إلى أن يضرب بها

المثل[٩٢] في إحكام رسومها وجلالة بنيانها، ولو لم يكن من تمام زينتها إلا الأعمدة المزخرفة مَنصوبة في أروقتها فُرادى وأزواجًا لكفى البصائر روعًا ووسع الأبصار ابتهاجًا، وأذكر أنه لما أدخلني صاحب الوقوف رياضها لمشاهدة ما فيها منَ الأشجار الغريبة[٩٣] لم يتحول نظري عن القصر لما راعني من حُسنه المفرط، وأعجبت به من الزينة التي يُكبرها الناظر، ويقف عندها وِقفة الذَّاهل الذي به عقدة من السِّحر، وهو بين أساطين دقيقة وقِباب رفيعة ورواشن[٩٤] مخرمة وخرجات مُزينة وطيقان مُجسمة بالجصِّ المنقوش وبينها من الرسوم العجيبة ما تجول فيه الأفكار فتجِلُّه وتميل إليه الأبصار فلا تَمَلُّه.

جامع الوليد المعروف بالجامع الأموي

هو أفخر مأثُرة لملوك بني أمية، بناه الوليد بن عبد الملك صاحب القصر المتقدم ذكره، وكان ذا هِمة في تشييد العمارات والمساجد[٩٥] والقصور، وقد شملت عنايته جميع البلدان في تسهيل الثنايا وحفر الآبار وإصلاح الطُّرق، حتى كانَ الناسُ في أيامه إذا تلاقوا في الأسواق والمجالس، تساءلوا عن العِمارة وعن أي بناء شرع فيه خليفتهم، كدأبهم في التساؤل عن الخير والصلاة في أيام عمر بن عبد العزيز، وعن الطَّعام في أيام سُليمان بن عبد الملك، وعن اللهو في أيام الوليد بن يزيد، وليس في بلاد الإسلام كلها مثلُ هذا الجامع حُسنًا وإتقانًا[٩٦] وجمال رسمٍ وتمام زخرفة وزينة، وهو مائل إلى الجهة الشمالية من المدينة، وقد سمعت عن سفيان الثوري أنَّه قال: الصلاة فيه بثلاثين ألف صلاة. [٩٧]

كان موضعه قبل الإسلام بِيعة للنَّصرانية تُعرف بكنيسة ماريحنا،[٩٨] ومن قبل ذلك كان بيت عِبادة لأهل جاهليتهم، فلما دخل المسلمون المدينة عَنوة تحت قيادة خالد بن الوليد أخذوا نصف الكنيسة، ثم دخل أبو عبيدة بن الجرَّاح صلحًا فانتهى إلى نصفها الآخر، وقد وقع الصلح بينه وبين النصارى فبقي نصفها في أيديهم، وقد كانوا يزعمون أنَّ الذي يهدم بيعتهم يُجنُّ، فلما صارت الخلافة إلى الوليد قال: أنا

والله أول مَن يُجنُّ في سبيل الله، ثم بدأ الهدم بيده[٩٩] فبَادر المسلمُون وأكملوا تخريبها حتى هاجت النَّصارى وعلا صياحهم، فعوَّضهم الوليد عنها مالًا جسيمًا وأرضاهم بكنائس عدَّة صالحهم عليها[١٠٠] ثم وجَّه إلى ملك الروم[١٠١] في إشخاص اثني عشر ألفًا من العَمَلَة والصناع المرخمين، وتقدم إليه بالوعيد إن هو توقف، ثم أكمل هدمها سوى حيطانها، وأنشأ فيها القناطر وحلَّاها بالذَّهب وعلَّق فيها الأستار من الوشي والإبريسم، وبَقي العملُ فيها نحو تسع سنين، وكان يعملُ فيها ألف مُرخم يجلب إليهم الرُّخام[١٠٢] والمرمر من كنيسة أخرى لأُمم النصرانية بمدينة أنطاكية تعرف بمزور.[١٠٣]

وقد غرِم الوليد في هذا الجامع من الدنانير المضروبة زنة مائة وأربعة وأربعين قنطارًا[١٠٤]بالدمشقي، وذلك يُعادل عشرة آلاف ألف دينار،[١٠٥] وقرأتُ في بعض الكتب أنَّ جملة المنفق عليه كان أربعمائة صندوق، وفي كل صندوق ثمانية وعشرونَ ألف دينار، ففي القَدر الحاصل منه توافق بين الروايتين.

وكان المتولي على النفقة عمر بن عبد العزيز[١٠٦] قبل أن يلي الخلافة، وقد اتخذ في المسجد ستمائة سلسلة من الذهب[١٠٧] للقناديل والثُّريَّات، وزيَّن جدرانه بفصوص من الذهب والفُسَيْفِساء ممزوجة بأنواع من الأصباغ العَجيبة تُمثل أشكالًا من الرسوم لم يُرَ أبهج منها في العيون، ورفع عُمده من الرُّخام المجزع طبقة فوق طبقة،[١٠٨] واتخذ الأساطين الضخمة فيما يجاور الأرض، والسواري الدقاق فيما يعلوا الحنايا والقِباب، وفي خلال ذلك صور المدن والأشجار بالألوان والذهب، وكتب في حائط المسجد بالذهب على اللازورد: «ربنا الله، لا نعبد إلا الله، أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين.» [١٠٩]

أمَّا طولُ هذا الجامِع – وذلك منَ الشرق إلى الغرب – فهو مئتا خُطوة أو ثلاثمائة ذراع،[١١٠] وعرضه من القِبْلة إلى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة. وأبوابه أربعة؛ أولها: الباب الشرقي ويعرف بباب جَيْرون، وعليه عمودان من الحجر في غاية الإفراط في الطول والعرض، يُقال: إنهما من بقايا الكنعانيين؛[١١١] إذ ليس في وسع

أهل هذا الزَّمان قطعهما ولا نقلهما. ثم الباب الشمالي ويُعرف بباب الناطفيين، وكان مدخل الكنيسة قديمًا. ثم الباب الغربي ويُعرف بباب البريد. ثم الباب الجنوبي ويُعرف بباب الزِّيادة وهو يُفضي بالخارج منه إلى دار مُعاوية(١١٢) المعروفة بالخضراء، وكان قد نزلها مروان بن الحكم بعد واقعة مرج راهط كما هو معروف.

وفيه ثلاث مقصورات، أشرفها المقصورة التي اتخذها مُعاوية – ﷺ – عندما كان للمسلمين نصف الكنيسة، وتُعرف بالمقصورة الصحابية، وهي أول مقصورة صنعت في الإسلام،(١١٣) بناها هذا الرجل العظيم وقاية لنفسه من الخوارج أن يغتالوه في أوقات الصلاة كما اغتالوا عليًّا – عليه السلام – فكان إذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف(١١٤) وإلى جانب هذه المقصورة خزانة مُغشاة بالنقوش فيها المصحف الكريم الذي وجهه عُثمان بن عفان – ﷺ – إلى الشام(١١٥) وأخرج إليَّ منها صاحب الوقوف خاتمًا من الفضة للوليد بن عبد الملك، قد نُقش عليه: «يا وليد، إنك ميت ومُحاسَب.» وآخر لأخيه سُليمان وكلماته: «آمنتُ بالله مُخلصًا.» (١١٦) فأخذتهما لأطرف بهما المأمون عند عودتي إلى بغداد ليضيفهما إلى ما لديه من خواتم الخلفاء، وعلى هذا الجامع قبة دورها ثمانون خطوة عليها رَصاص يمتد منها إلى أن يُغطي سُطوح الجامع كلها بألواح طولها أربعة أشبار في عرض ثلاثة، ورُبما اعترض فيها نقص أو زيادة.

وهيئة السُّقوف من الخارج هيئة نسر قد نشر جناحيه، وكأنما القبة رأسه، وهي في سمو الارتفاع بحيث تراها من أي موضع استقبلت دمشق. أما صحن المسجد فإنه من أجمل المناظر، وعلى جُدرانه آيات من القرآن الكريم، ورسوم بالذهب تدهش البصر والبصيرة وهُناك مجتمع الدمشقيين ومتُنزههم، لا يزالون فيه بكرة وعيشة يقرءون ويتحادثون.

ولهذا الجامع ثلاث صوامع(١١٧) واحدةٌ بالجانِب الشمالي، وهي مُذهبة من أسفلها إلى أعلاها،(١١٨) وفيها مقاعد ومجالس، واثنتان بالجانب الغربي وإحداهما أكبر الصوامع الثلاث.

وقد وجدتُ في أروقته ودهاليزه وصحنه وفي المساجد المتشعبة منه ماء يجري بلا انقطاع، وشاهدتُ في البلاط القِبلي قُبالة الركن الأيمن من المقصورة الصحابية تابوتًا مُعترضًا من الأسطوانة وفوقه قنديل مُوقد أبدًا في الليل والنهار، يُقال إنه مشهد رأس يحيى بن زكريا – عليهما السلام[١١٩] ومِن حوله عمد عجيبة قد ظهرت فيها عروق أخرى من غير ألوانها تتخيلها العين منزلة فيها بأيدي الصُّناع، إلى غير ذلك من المحاسن التي حواها هذا الجامع المبارك، وعظمت عن أنْ يُحيط بها وصف، فإني لأحسب الزائر لو تردد إليه زمانه لرأى كل يوم ما لم يكن قد رآه قبل[١٢٠] من جمال الرَّسم وإحكام الصَّنعة، كما أحسبُ أنه لا يزوره أحد إلا وهو يجدِّد الدعاء لبانيه[١٢١] وإن لم يكن له ميل في السياسة مع الأمويين.

المرور ببعلبك وركوب البحر من بيروت

رَجْعٌ إلى قصِّ الرحلة، ركبتُ من دمشق في غد اليوم الذي سافرت فيه الغلمان إلى بيروت، فوصلت في منتصف الطريق إلى بلدة غنَّاء ذات سور قديم، يُقال لها: بعلبك «ومنها إلى الزَّبَداني؛ وهي مدينة على طرف وادي بَرَدَى ثمانية عشر ميلًا[١٢٢] وهي ذات أشجار وأنهار وعيون وخيرات كثيرة[١٢٣] وفيها الكرم الخصيب، ولقد لقيتُ فيها فيلسوفًا من النَّصارى يُقال له قسطا بن لوقا[١٢٤] صاحبني في زيارة الآثار التي فيها وأخبرني عنها بأشياء كثيرة، رُبما أتيت على بعضها في سياق الحديث.

وقد أخذت هذه الآثار العظيمة بمجامع قلبي حيرة وإعجابًا، وأعظمها هيكلان كبيران أحدهما أعتق من الآخر[١٢٥] وفيهما من النُّقوش العجيبة المحفورة في الحجر ما لا يتأتى حفر مثله في الخشب، مَع ارتفاع جُدرانهما وضَخامة حِجارتهما وطول أساطينهما وعجيب بنيانهما[١٢٦] مما يذهب العقول تعجبًا من اقتدار الرجال على مثل هذه العظائم.

وقد أخبرني قسطا هذا الفيلسوف أنَّه لا يرى إلا هذين الهيكلين من بناء أُمَّة ماهرة في فن الهندسة، كما أنه لا يرى الحنايا التي تُقِلهما إلا أعتق من الآثار الظاهرة،

وفي ظنه أنها وضعت في أيام سُليمان بن داود – عليهما السلام، ولما جاءت الروم الأولى هدموا المعبد العتيق، ورفعوا الهياكل الماثلة مكانه.

أما الحجارة الثلاثة العظيمة التي تُعد من عجائب الدنيا؛ فقد رفعها الرُّوم بأيدي عبيدهم على ما جرت به عادتهم من استخدام الأسرى في البنيان، وليس كما تزعم العامة من أن الجن هم الذين بنوها لسُليمان – عليه السلام – كدأبهم فيما يحدثون عن كل أثر(١٢٧) من آثار الأولين فيه معجزة للآخرين.

وإنما رفعها الروم بالحِيَل الهندسية والقوة الآدمية(١٢٨) يدلنا على ذلك ما نجد في أطرافها من النُّقَر التي تقضي بأنها كانت ترفع جرًّا بالأمراس، بأن يمهد لها في الأرض سطح من التراب يرتفع شيئًا فشيئًا مع امتداده إلى أن ينتهى إلى حيث هي مرفوعة، ثم تجر بالسلاسل على عجلات لها بكرات من الفولاذ عريضة الأطراف حتى لا تغوص في التراب صغيرة الجرم حتى تحتمل الثقل، وتكون أشد من البكرات الكبيرة التي لا بدَّ أن تلتوي تحت هذه الحجارة العظيمة، ولا تأتي بالمقصود من استعمالها لرفع الأثقال.

وقد كانت سياسة الروم مع الأمم التي يتغلبون عليها أن يأخذوا دينها بالتعظيم والتبجيل ليستميلوها إليهم ويبيتوا في أمن من تحركها للفتنة على غير اضطرار إلى حِراستها بالجند، إذ تنبئ الأخبار السالفة أنهم كانوا يملكون مُعظم العالم، فلو دعاهم حفظ البلدان إلى إقامة الجند فيها للزمهم آلاف الألوف، وهذا بعيد عن أنْ تقوم دولة من دول العالم بكفالته؛ فلما دانت لهم الشام وكان بعل(١٢٩) معبودًا فيه من الصابئة وغيرهم كما قال – تعالى: أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ بنَوْا لعبادته هذا الهيكل العظيم على شكل غريب يقصدون به الإعجاز؛ ليظهروا ضخامة ملكهم لأهل المشرق واقتدارهم على عظائم الأمور، إذ ليس للظن بأنهم قصدوا إلى المَنَعة موضع في نظر العقلاء.

فهذا أحد اللولبين اللذين يُفضيان بالراقي عليهما إلى سطح الهيكل قد اتخذ

أعلاه بما هو زائد على النصف من حجر واحد فُصِلت منه الدرجات والسقف والحائط الدائر من جميع جهاته، وكذلك الحجارة الثلاثة العظيمة قد اتخذت في أعلى الجدار؛ لتظهر للوافد على بعلبك من حيث هو مُستقبل للهيكل، فلو أنه أريد بها المنعة لاقتضى ذلك أن تكون في أسفل الجدار لا في أعلاه، كما أنه لو أريد ذلك من اللولب لكان النصف المتخذ من قطعة واحدة قائمًا فيما يُداني الأرض أو يماسها، حتى إذا وهَى أعلاه بقي هو في موضعه، أو تداعى جدار السور بقيت الحجارة الثلاثة مردًّا لهجوم العدوِّ.

ثم إنَّه لما انقرضت الروم الأولى وانفرد ملك الروم الثانية بالقسطنطينية وسائر المشرق، وقد أخذوا في تعظيم النصرانية رأوا أن بقاء هذا الهيكل محجةً للناس تنشغف أفئدتهم بما فيه من الغريب، ولا يقصدون الكنائس وهي دونه في البهاء والإشراق مضرٌّ بالنصرانية، وحابس لها عن أن تعم الشام؛ فعمدوا إلى تخريبه ومحو الأثر الماثل منه، وكان في القسطنطينية بطرك ذو عقل ودهاء يُقال له فم الذهب يحنا، فأشار على القيصر أن يتخذه كنيسة لعبادتهم؛ لتحصل المنفعة منه مع حفظ الأثر الجميل، فاتخذه كذلك. وفي رواية أنه أشار عليه بأن يُعمِل فيها الفئوس ففعل أو يُقال إنه لم يفعل. فانظر إلى هذا الهيكل كيف تقلبت به أغراض الأمم فقد شادتْه الروم الأولى لغرضهم في الدنيا، ثم خربته الروم الثانية لغرضهم في دينهم، ثم مثلت آثاره لهذا الزمان ناطقة بعزة الله، شاهدة أن لا باقي سواه.

ولما انفصلتُ عن بعلبك مررتُ بسهلٍ أفيحَ يُقال له البِقاع وعرَّجت فيه على موضع يُسمى بكَرخ نوح،[١٣٠] يزعم أهْله أنَّ فيه قبر صاحب السفينة – عليه السلام.

وكنتُ أرى بمقرُبة من كل قرية من قراه ردومًا قد تراكمت أمثال التلال؛ كأنها من بقايا أمة قد خلت، وصرفتُ من بعلبك إلى بيروت يومين في جبل لُبنان لصعوبة مسلكه، وكنت أميل إلى عيون القرى لتنزيه النفس وإرواء الظمأ، وإنها لكثيرة في هذا الجبل المبارك وهي تمذَع في شعفاته.

وأقمتُ في بيروت – حرسها الله – ثلاثة أيام أنتظر هبوب الريح الموافقة، وهي مدينة جليلة[١٣١] على ضفة البحر، طيبة الإقليم، عليها سور من حجارة[١٣٢] تحف بها عمارة مُشتبكة في سفح لُبنان كان يستجيدها الوليد بن يزيد المقدم ذكره فيقول:[١٣٣]

رُبَّ بيـــت كأنـــه مـــتن ســـهم   ســـوف نأتيـــه مـــن قُـــرى بـــيروت

ثم يقول[١٣٤] والنفس تائقة إليها والقلب مَشغوف بحماها:

ألا يا حبـــــــذا شـــــــخص   حِمَـــــى لُقْيـــــاه بـــــيروت

وهي فرضة دمشق ومعظم الشام، وفي مرساها مجتمع كثير من سفن التِجارة، ويُجلب منها حديد[١٣٥] لبنان إلى ديار مصر، وفي شرقيها نهر يُغلظ في الشتاء قد بنى له قدماء أهلها قناة[١٣٦] يُجرون الماء فيها إليهم، وإلى غربيها مشهد الأوزاعي – رحمه الله – وميلاده ببعلبك،[١٣٧] وهو فخر المحدِّثين من أهل الشام، وله في علم الحديث[١٣٨] مدونات جمع فيها الصحيح المروي عن الصحابة والتابعين ومن سمع منهم، واستخرج الأحكام الشرعية على مذهب انفرد به أهل تلك البلاد.

وقد كان لبيروت شأنٌ عظيمٌ في غابر الأيام، وكان عليها ملوك من الكنعانيين، ومن قام بعدهم بأعباء الدول الجِسام، وكان للعلوم فيها سوقٌ ليس بعدها غاية في الرواج، حتى إنها دُعيت بمدينة الحكمة، وكان للروم فيها منازل وهياكل هجروها بعد الفتح وجلوا عنها جلاء لم يرجعوا بعده، إلى أن عاد إليها العمران في الإسلام بقيام الخلافة في دمشق؛ إذ كانت المدن لا تصلح إلا بقيامها بالملك أو قيام الملك في جوارها حيث تتوارد الخيرات وتتقاطر الوفود ويحصل الأمن للتجارة.

وإن كنتُ قد شهدتُ لهذه المدينة بطيب الهواء؛ فإني لا أُنكر ما في ريحها الشمالية من الرطوبة التي تحدث في الرأس ألمًا لا يشعر به إلا الغريب الزائر،[١٣٩] غير أن هُبوبها فيها ليس بالمتواصل حتى نعدَّه من عيوب الأقاليم؛ بل الغالب على بيروت ريحُ الصَبا التي تنعش النفس، تأتيها من ناحية الرِّمال المنبسطة على شاطئ البحر،

فرُبما وجدت هذا الموضع أصلح للسُّكنى من البلد العتيق.

وفي ظني أنه إذا توافر العمران فسيضطر الناسُ أن يحدثوا بناءهم في هذا الموضع؛ إذ هو أقرب وجهًا إلى نسيم الصبا منه إلى ريح الشمال.

وركبتُ البحر من هذا الثغر المحروس في أول يوم من شعبان، وجرى مَركبنا بهواء شمالي لطيف ليس بالثقيل ولا بالخفيف، أرسله اللهُ إلينا بكرمه ولطفه، واستمرَّ سيرُنا في البحر نحو عشرين يومًا إلى أن أقبلنا على مالِطَة، وهي جزيرة في أول بلاد الفرنجة، وبها كنائس مُعظَّمة لأمم النصرانية، فلبثنا يومين في مرفئها نتسوق منها الزاد، ثم غادرنا إلى مرسيلية في ساحل الديار الرُّومية إلى غرب اللنبردية. (١٤٠)

لقاء القيصر والمنصَرف من الرسالة

ولما أقبلنا على مُرسيلية لم نرَ لها شيئًا من زخارف البُنيان، ولا وجدنا في أهلها أثرًا من محاسن العمران؛ لأنهم كانوا قبل دخولهم في ولاية هذا الأنبرذور أهل جاهلية وخشونة، تستعبدهم طائفة طاغية من أنفسهم، تُجري فيهم القضاء بحسب هوى النفس، فلمَّا استولى على ممالكهم أقام عليهم أميرًا فوَّض إليه أمر الجند والقضاء وجباية الأموال، وجعله بمنزلة الوزير في الإسلام. وأقام تحت يده طائفة من العمال يتولون المناصب في ولايته، ولهم ألقاب معروفة عندهم مثل المركيس وغيره.

وليس في مرسيلية من البنايات المزخرفة سوى قصر مبني على عَلياء تُشرف على المدينة، يَظهر أنه كان مسكنًا لبعض أمراء الجاهلية، وكنيسة عليها قباب مرفوعة نصبها هذا الأنبرذور الذي نصر أُمَّته ونصر القسيسين والرُّهبان كما هو معروف، وقد نظر بعين العِناية إليهم وأحسنَ بالنعم الطائلة عليهم، واتخذ منهم أولياء يستشيرُهم في أموره ويرجع في السياسة إلى رأيهم، إذ كان القومُ من دونهم همجًا لا يعرفون القِراءة ولا أميطت عن بصائرهم غشاوة الجهل، ومعظمهم عبيد للمتمول من التجار، يموتون جوعًا بين يديه وهم يبللون أرضه بعرق تعبهم وشقائهم ثم لا يحصُلون على كِسرة تُمسك رَمقهم، فأينَ هذا من حضارة العرب وصلاح أمرهم واتِّساع المعايش بين

أيديهم واحتذائهم أشرف السُنن العادلة؟ فكأن الله – تعالى – قد خص هذه الأمة من الفضل والنعم[١٤١] بما حرم مثلَه أمم المغرب، فإنَّ العرب أحلى منهم وأحلم، وأعلى وأعلم، وأقوى وأقوم، وأعطى وأعطف، وأحصى وأحصف، وأشرى للفخار وأشرف، وأنفى للعار وآنف، وحسبي بما نقلت إليك من أخبارهم في هذا الكتاب دليلًا على ما ركَّب الله في طبائعهم من الأنفة وعزة النفس، وما آتاهم الإسلام من المحاسن التي تُشرفهم وتُعلي ذكرهم.

وقد شاهدتُ في ديار القوم كثيرًا منَ الأمور التي أخاف إن أتيت على بيانها أن تجرَّ الحديث إلى الخروج عمَّا أنا بصدده من ذكر الرسالة.

وقد وجدتُ عاداتهم غير مُنطبقة على عادات الشرقيين، بل كثيرها مُستهجن أو باقٍ على خُشونة جاهليتهم، ومِنَ الغريب المألوف عِندهم أنَّ النِّساء يمشين في الأسواق بلا نقاب، ويجلسن مع الرجال سافرات الوجوه، وهذا استرسال لا أظن أنْ تُصان معه الأعراض صيانتها في المشرق من وراء الحجاب.

وقد وقع بيني وبين الأمير الذي صحبني في مرسيلية مذاكرة في هذا الأمر، وكان يظنُّ أنَّ المرأة ذليلة في ملتنا، وأنَّ منع ظهورها إلى الرجال ناشئ من جهة استصغارها وتحقيرها، فذكرتُ له أن الله – تعالى – قد وفَّاهن حقوقهن[١٤٢] في الدنيا والدين، ووعد الصالحات منهُنَّ نعيمًا مُقيمًا في الآخرة وأمر بأن تُجرى عليهن الوراثة التي لم تكن لهن قبل الإسلام.

وكان أمير مُرسيلية عندما اتصل به خبر وصولي بالرسالة قد أخرج إليَّ الجند، ولم يترك شيئًا من مظاهر الاحتفاء إلا أجراه في سبيل تعظيمها وإجلالها، فلمَّا سألته عن الأنبرذور أخبرني أنَّ له غيبة في رُومة لأمرٍ بينه وبينَ الباب[١٤٣] الذي هو خليفة الأمم النصرانية، وأنه يمكث عنده أربعين أو خمسين يومًا، فاستطلت هذه الغيبة منه، وخِفت فوات الحج إن بقيت متنظرًا رجوعه، فرأيت أنْ أوافيه برومة، فركب معي من لدن الأمير رسولٌ إلى القيصر وجزنا عباب هذا البحر الذي لم تجُزْه بعدُ سفن المسلمين إلى

أن منَّ الله – تعالى – علينا بالوصول إلى رومة بأيمن طائر وألطف ريح، والحمد لله على جميل ما يولينا من النعمة ويتداركنا به من اللطف.

ولما أقبلنا على رُومة أبلغ الرَّسُول الأنبرذور خبر قدومي من لدن الرَّشيد فسيَّر إليَّ أمراء دولته وأهل حاشيته وبطانته، فساروا بي إلى حيث هو مُقيم في دار الباب، وهو قصر بل قصور جمعت بين الضخامة والإحكام، وعُنِي البابون من خلفاء بطرس كبير الحواريين بتجميلها وتزويقها حتى صيروها نزهة جمعت الجمال والحسن، وكنت حين جاوز بي الأمراء مقصوراتها إلى مجلس الأنبرذور قد رأيتُ على جُدرانها صور مُلوك وأئمة وعباد قد طحنتهم رحى المنون، فلمَّا دخلت عليه وجدته جالسًا على مِنصة من فوقها قبة عليها كتابة بالرومية، وهي مجللة بالذهب، وعلى رأسه تاج مرصع باللؤلؤ والياقوت والزبرجد، وفي يده قضيب الملك، وعليه حُلَّة من الوشي كأعظم ما يكون من حلل الملوك، وبين يديه حرس قد وقفوا بالسيوف المشهورة والحراب والأعمدة، وبينهم جماعة من العلوج وأشراف العساكر وطائفة من الجثالقة والرُّهبان المقدمين قد لَبسوا الوشي الذي يُقيمون به الصلاة في أعيادهم ومواسمهم، ولكن لم نرَ مثله على مَن يجاورنا منهم في المشرق حُسنًا يُعشِي الأبصار بريقه ولمعانه.

فلما مثلتُ بين يديه قمتُ بما وجب عليَّ من الإجلال له، وبلغته سلام الرشيد على لسان المترجم، فكلمني بترفُّع الملوك الذين توقع جلالتهم مهابة في قلوب الوافدين عليهم، ولكن من غير أن يكون في نفسه جبروت، وشكر للرشيد مودته وأثنى عليه ثناء جميلًا، وكان الأمراء والرهبان يمدون إليَّ أعناقهم ويحدقون فيَّ بأبصارهم كأنهم لم يرَوْا من قبلي مشرقيًّا على دين الرسول ﷺ.

ثم أشرتُ إلى الترجمان أنْ يذكر له هدية الرشيد، وأنه يُطرف بها جلالته لارتباط المودة بينهما، فشكرني على ذلك مرة ثانية، ثم استدناني منه وأمرني بالجلوس، وأخذ يسألني عن رحلتي إليه عطفًا مال إليه بعد الترفع الذي استقبلني به، فكنت أجيبه بما تقتضيه الرسوم من حمد الله على ما آتاه من الملك العظيم، والثناء عليه لما أوجد لرعيته من أسباب الخير والراحة، ثم سألني عن الدولة في المشرق وأنه يروم أن يكون

الدهرُ للرشيد في صفاء، فأجبته بما في الإشارة إليه تحفُّظ عن ذكر بني أُمية، والملأ من الأعيان والرُّهبان حاضرون، ثم سألته أنْ يأذن لي بالدخول عليه في خلوة وانفراد فأجابني إلى ذلك وهو يُظهر ائتناسه بي وتَوسمه الخير مما وقع بينه وبين الرَّشيد من التوادِّ.

ولما انصرفتُ من حضرته وقف لصحبتي أميرًا من عظماء دولته مَلك قلبي برقة نفسه، وأحسن مُنقلبي بلطيفِ أُنسه، وأحل كرامتي عنده بالمحل الأرفع، لم يترك أثرًا مشهورًا في رومة من قصر منيف ولا منزل مزخرف ولا موضع ذي حسن وبهاء إلا سار بي إليه وأرانيه؛ ليعظم في عيني أمر الفرنجة، فما كنتُ لأُكبِر من مبانيهم إلا الكنائس التي يُعظمونها ويتأنقون في تنميقها بالرسوم التي تتناهى في الحسن وجمال الزينة، وهذا الرسم أثر لهم من الصناعة ينفردون به دون المشارقة[١٤٤] الذينَ ينهاهم الدِّين عنه،[١٤٥] وإنما يَكونون في حَاجةٍ إلى صناعتهم إذا بنو مَسجدًا أو قصرًا مُزخرفًا كما علمت، إلا أنَّه لا يصحُّ انفرادهم بالحِذق فيه دونهم لبطلانِ الموازنة فيما يتركه فريق ويأخذ فيه الآخرون.

وفي نفسي أنَّ المسلمين لولا نهي الشرع عن التصوير ما بَعُد أن يفوقوا فيه الروم، فقد رأيتُ من عمل الرسامين في المشرق الأقصى ما يقرب أن يكون في جودة عمل الروم، ورأيتُ صورًا من بلاد الصين وصلت إلى البرامكة، وهي تمثل رجالًا ونساء وأولادًا بحيث إن الناظر إليها يميز بين الضاحك والباكي، حتى لقد يميز بين ضحك السرور وضحك الشماتة،[١٤٦] وهذه غاية في المهارة لم يبلغها إلا كبراء أرباب العقول من صناع الروم.

وأعظم ما شاهدتُ من كنائس رُومة بِيْعة بطرس حواري المسيح عيسى – عليه السلام – وهي من عجائب الدُّنيا،[١٤٧] وفيها منَ الرسوم والنقوش والأصباغِ والأعْمدة والذهب[١٤٨] ما أذكرني جامع دمشق في بهائه وجماله، وهي أَبدع ما شاهدته من مَباني الروم، وامتدادها مع مقصوراتها نحو سِتمائة ذِراع[١٤٩] فيما سَمعت، وامتداد الكنيسة يبلغ نصف ذلك،[١٥٠] وهي مسقوفة بالرصاص مفروشة بأفخر

أنواع الرخام.

وعلى يمين الداخل من آخر أبوابها حوض عظيم للمعمودية يجري فيه الماء دائمًا من نهر يشق هذه المدينة(١٥١) كما تشق دجلة مدينة الزوراء، وفي صدرها كُرسي مُذَهَّبٌ يجلس فيه الباب في أيام المواسم والأعياد، وتحته باب مُصفح بالفِضة(١٥٢) يوصل إلى سرداب فيه مشهد بطرس فيما يزعم أهل هذه البلاد، ولكني علمتُ أن أهل المشرق من أمم النَّصرانية يردون ذلك عليهم، ويذهبون إلى أن بطرس إنما قبض في أنطاكية لا في رُومة، وأن كُرسي أنطاكية عندهم هو المقدَّم على كرسي رومة، وفي هذه الأقوال نظر لا محل لذكره في هذا الكتاب، وفي خارج الكنيسة عمود من رخام قائم على قواعد أربع من النحاس، وفي أعلاه عمود من الصُّفْر قد رفعت على رأسه كرة مذهبة يراها كل مَن في رُومة كأنها عَلَمٌ لموضع الكنيسة.

ولما كان الغد أذن القيصر لي بالدخول عليه، فلقيته في ثياب من الديباج، وعليه تاج من الجوهر أعظم مما كان عليه بالأمس، كأنه أراد أن يظهر لي عظم سلطانه(١٥٣) بما يحوي خزائنه من الجوهر والمال، ولما أمرني بالجلوس بلَّغته ما أوصاني الرشيد بتبليغه من أمر بني أمية بالأندلس، وما يروم من موافقته عليهم، ولكن بإيجاز أبعدتُ فيه التأكيد ليَكون له إشارَة إلى المصلحة ليس غير، فخاطبني بما يقرب معناه من كلام وَزيرنا جعفر – أعزه الله – فأكبرتُ ذلك من غير أن أعجب منه، إذ كنت أعلم أن عقول الحكماء قد تتوارد على الشيء الواحد ولو على اختلاف الآماد، وتتلاقى ولو على بُعد البلاد.

ولما ذكرتُ له قرابة العباسيين من النبي ﷺ فكَّر في نفسه؛ حتى ظننتُ أنه سيقول لي: إنَّ من الناس من هم أقرب منهم ومن بني أمية إليه، ثم انبسط له مجال الحديث، فقال: إني لأرى الإسلام اليومَ أقل اجتماع عصبةٍ منه في أيام الخلفاء الرَّاشدين – ﷺ – لتجزئته بين المشرق والمغرب، على أَنِّي أرى دولة صاحبك أعظم هذه الدول وأوسعها رُقعة مملكة.

وأما أمر الأمويين؛ فإنه وَعْر المرام لا يناله إلا على تمادي الأيام؛ إذ لا يدل الشقاق بين السلطان وعمَّيْه على ضعفهم عن ردِّ العدوِّ، فلو شدَّ صاحبك عليهم لحوطوه بأطرافهم، وقاتلوه بغرض واحد تدعوهم إليه الحالة التي يقعون فيها جميعًا من الغَرَر والإشراف على الخطر، ولقد كنتُ أرى تغَلُّبه قسرًا على الأندلس من قبل أن يُوافيها الأمويون، وقد كانت قُضاتها على أغراض مُتضاربة أفضت بعدَ الحروب فيما بينهم إلى تغَلُّب الحيرة عليهم، أمَّا اليوم وقد وافَوْها بالأموال[١٥٤] فليس من السداد أنْ يُبادِئهم بالقتال على حين يأتون من إفريقية بالمرتزقة من الرجال «وهم الذين يُكرون أنفسَهم للحروب»[١٥٥] ورُبما تعذر عليه مُقاتلتهم من المغرب لما هو ناشبٌ من الفرقة بينه وبين العلويين فيكون له عدوَّان من الأمويين وأهل البيت جميعًا، وقد قيل في الأمثال: «إنَّ الزِّئبر إذا جُمع منه حبل يُوثق به الفيل المغتلم.» ثم إنَّه ذكر لي عِندما استنهضته إلى مُظاهرة الرَّشيد أنَّ بينه وبين الأندلس مُلوكًا يجب أن يبقى معهم على عهد المسالمة والموادعة، وأنَّه يوجه همته إلى مُناصبة الملوك الذين هم في ناحية المشرق كأنه يُريد أن يستولى على القسطنطينية.

هذا ما وقع بيني وبينه من الحديث، وقد قال لي في خاتمة المفاوضة: قل لأمير المؤمنين: إني عنيت بحاجته، وسأكون ظهيرًا له فيما يروم، واقرأ عليه السلام.

ذلك ما كان من أسرار الرسالة، لم تتوسع المصلحة منها إلى ما وراء التوادِّ الظاهر من السياسة كما رأيت، ولبِثت في رُومة ثلاثة أيام مُتواليات، وكان الأنبرذور قد اتخذ لي وليمة دعا إليها عُظماء دولته، وتكرم عليَّ بخاتم من الياقوت في سبيل التعطف، ثم طلب إليَّ أن آخذ الطريق إلى تُونس لأوجه إليه مِنها بِرِمَّة عظيم من عظماء النصرانية، يقولون إنه من أهل الجنة،[١٥٦] فأجبته بالامتثال إلى ذلك، فسير في صحبتي مركبًا من أسطوله ليحملها إليه، وغادر مركبنا ساحل رومة في يوم شديد الحر من شهر رمضان كأنَّ الحرارة فيه تشمل الأقاليم المرتفعة أيضًا، وقد حَقَّ تسميته برمضان من الرَّمَض وهو شدة الحرِّ. [١٥٧]

وكان الفراغ من تقييد هذا الكتاب وأنا على متن السفينة وبيني وبين تونس مسيرة

يوم وليلة. واللهَ أسأل أن يبلغنا المقصِد بالسلامة، وهو الكفيل بالتيسير والتسهيل، لا رب سواه.

الهوامش

(١) هذه اللفظة لقب رومي للقياصرة وقد وردت في كتب العرب ووجدت في ابن خلكان (١ : ٨٤) لفظة انبرور بحذف الذال وهي تشبه أن تكون منقولة عن الفرنسية.

(٢) في الأغاني (٤ :٤٨) أن الخليفة يستدني من يحبه.

(٣) راجع المقَّري، وابن الأثير تجد كلامًا مطولًا في هذه الحروب.

(٤) سورة المائدة.

(٥) نقلت الأخبار السالفة عن ملوك أمية أنهم لما هربوا من دمشق إلى الأندلس ووجدوا اليمانية فيها غير مذعنة لدولتهم قاتلوهم قتالًا أحبوا معه الموت، أو يحصلوا على لقمة تُبقي الرمق، وبلغ استقتالهم في سبيل الملك إلى أن يقتل أحد ملوكهم ابنه من أجل أنه تراجع عن العدو، وقد هاله كثرة جموعهم فقال لأحد أصحابه بعد أن ضرب عنقه: اكسروا جفون السيوف فالموت أولى أو الظفر (ابن الأثير ٦ : ٤).

(٦) ذكر الأتليدي (١٢١)، والأبشيهي (١ :٨٤) قصة ظريفة عن هذا الأموي فليراجعها هناك من أحب.

(٧) ذكر الأغاني (٦ :٥٧) أن الخليفة لا يترفع عن أن يدعو بعض خواصه: يا حبيبي، ونقل صاحب العقد من نوادر إسحاق أنه لما دخل على المأمون استدناه إليه فدنا منه، قال إسحاق: فرفع المأمون يديه فاتكأت عليه فاحتضنني بيديه وأظهر من إكرامي ويرى ما لو أظهره صديق لي مواسٍ لسرني (٣ : ٢٤٠).

(٨) ذكره الأغاني ٩ : ١٣٦.

(٩) ذكر تيجان ملوك حمير صاحب مروج الذهب ٢ : ٢١٥.

(١٠) هذه الأداة لم تزل إلى هذا اليوم محفوظة عند الفرنجة وقد رأيت صورتها فوصفتها كذلك.

(١١) القناوي ١٣٥.

(١٢) ياقوت ٢٤ : ٨٨٣.

(١٣) المسعودي ٢ : ١٤.

(١٤) ياقوت ٢ : ٧٦٢.

(١٥) الأغاني ٥: ١٦٦.

(١٦) هذا معروف في كتب المؤرخين وذكر أبو الفداء (٢ : ١٤) أن كبير علماء الكوفة كان يميل مع الإمام عليٍّ، كرم الله وجهه.

(١٧) الوطواط ١٢٥.

(١٨) المحاضرة ٢ :٨.

(١٩) ابن جبير ٢١٣.

(٢٠) القناوي ١٣٦.

(٢١) تقويم البلدان ٣٠١.

(٢٢) الأغاني ٤ : ١٨٢.

(٢٣) ياقوت ٤ : ٣٢٥.

(٢٤) ابن جبير ٣١٣.

(٢٥) تقويم البلدان ٣٠١.

(٢٦) القزويني، والأغاني ٥ : ٩٤ و١٧ :٧، وفي غير موضع.

(٢٧) الأغاني ١٧ :٧٥، وذكر ياقوت في صحيفة ٦٨٨ من المجلد الأول أنَّ الرَّشيد أنشدَ البيت فربما لم يكن الشعر له بل كان من نظم إسحاق؛ لأنه كثيرًا ما كان يذكر بغداد ويتشوق إليها وهو في أسفاره مع الرشيد ويقول:

ذكـرَ الأحبـة فاستحنَّ وهاجـه ... للشـوق نـوح حمامـة وحمـام

لم يُبـدِه في الصـدر إلا أنـه ... حيـا العـراق وأهلـه بسـلام

(٢٨) الأغاني ٥ : ١٦٦

(٢٩) الأتليدي ٢٦٣.

(٣٠) قضاة الشام.

(٣١) الأتليدي، والمستطرف ١ : ٢٨٧.

(٣٢) هكذا كانت الشام في زمن الجاهلية والإسلام، فإن مصعب بن الزبير لما خطب الناس قال: بسم الله الرحمن الرحيم طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ أشار بيده نحو الشام،

وهو يريد أن به إلى يومه مثل ذلك.

(٣٣) ذكر صاحب العقد الفريد أنه قيل لبعض بني أمية: ما كان سبب زوال ملككم؟ قال: اختلاف بيننا، واجتماع المختلفين علينا.

(٣٤) تقويم البلدان ٣٥٣، وابن خرداذبة ١٢٤، وياقوت ٢ : ٥٨٩.

(٣٥) القزويني ٢٦.

(٣٦) ابن جبير ٢٨٥.

(٣٧) المقَّري ٣٠، وابن جبير، وابن بطوطة، وياقوت ٢ : ٥٩٠.

(٣٨) ابن جبير ٢٨٥.

(٣٩) ابن خرداذبة ٧١، والقرماني ٥ : ١١٨، والشريشي ١ : ٢٠٧.

(٤٠) الكنز ٢٣.

(٤١) القرماني ٥ : ١٩٣.

(٤٢) تقويم البلدان ٣٥٣.

(٤٣) قلائد العقيان ٥.

(٤٤) ابن جبير ٢٩٠، وتقويم البلدان ٢٥٣.

(٤٥) المسعودي ١ : ٢٤٢.

(٤٦) المسعودي ١ : ٢٩٧.

(٤٧) ابن جبير ٢٩٣.

(٤٨) المقدمة ١٥٤.

(٤٩) ابن الأثير، والمسعودي ٢ : ١٤٣، والخميس ٢ : ٣١٤.

(٥٠) الأبشيهي ١ : ١٢.

(٥١) ابن جبير ٣٨٨.

(٥٢) ابن جبير ٣٨٩.

(٥٣) القزويني ١٢٨، وابن بطوطة ٢ : ١٩٧.

(٥٤) ابن جبير ٣٨٥.

(٥٥) الأغاني ١٣ : ١٦٥، والمقدمة، والعقد الفريد، وابن الأثير، وغيرهم.

(٥٦) الدميري ١ : ٩٠.

(٥٧) المسعودي ٢ : ١٤٦.

(٥٨) ابن خاقان ٤٤ في قصيدة ذكرها هناك.

(٥٩) أبو الفرج ٢١٠.

(٦٠) الأغاني ٦ : ١٤٨.

(٦١) الأغاني ٦ : ١٤٦.

(٦٢) الأغاني ٦ : ١٢٩.

(٦٣) المستطرف ٢ : ١٩١.

(٦٤) الأغاني ٦ : ١٠٧، والعقد الفريد جزء ٢، والمسعودي ٢ : ١٤٦.

(٦٥) الأغاني ٣ : ٨٧.

(٦٦) الأغاني جزء ٦.

(٦٧) القزويني ١٦٢.

(٦٨) ياقوت ٢ : ٥٨٨.

(٦٩) ابن جبير، والشريشي ٢ : ٢٣٦، والطبقات ١ : ٢٩، والمسعودي ٢ : ٤٢.

(٧٠) قضاة الشام.

(٧١) ذكرها ابن خلكان.

(٧٢) الخميس ٢ : ١٤.

(٧٣) المسعودي ٢ : ١٤٣، وابن جبير ٢٨٣، وابن الأثير ٥ : ١٣٠.

(٧٤) ابن جبير ٢٧٥.

(٧٥) ياقوت ٢ : ٥٨٩.

(٧٦) القزويني ١٢٦.

(٧٧) ياقوت ٢ : ٥٨٨.

(٧٨) القزويني.

(٧٩) ابن بطوطة ١ : ٢٢٣.

(٨٠) المحاضرة ٢ : ٣.

(٨١) ابن جبير ٢٨١، والقزويني.

(٨٢) تقويم البلدان ٣٥٢.

(٨٣) ذكره ابن خلكان ١ : ٢٧٨.

(٨٤) ابن جبير ٢٧٩.

(٨٥) كليات ٢٠٢.

(٨٦) الكنز ١٤٤.

(٨٧) المسعودي ٢ : ٨٣.

(٨٨) أبو الفداء ١ : ٢٠٧.

(٨٩) راجع ابن الأثير، والمسعودي، والعقد الفريد، وفي مروج الذهب من كلام عن الكوفة أنها ارتفعت عن البصرة وحرِّها وسفلت عن الشام ووبائها (٢ : ١١٦).

(٩٠) راجع المقَّري، والعقد الفريد، وابن الأثير.

(٩١) الوطواط ١١١.

(٩٢) المقدمة ١٥٤، والفتح بن خاقان ٩٤.

(٩٣) الوطواط ١١١.

(٩٤) ذكرها الأغاني ٥ : ١٠.

(٩٥) ابن جبير، وياقوت ١ : ٥٩١، وابن الأثير ٥ : ٤، والفخري ١٥١، وأبو الفداء ١ : ٢٠٩، والمقدمة ٣١٠، والقزويني ١٢٧.

(٩٦) ابن جبير ٢٦٣، والشريشي ١ : ٢٠٨، وتقويم البلدان ٢٣٠، وابن بطوطة ١ : ١٩٧.

(٩٧) ابن بطوطة ١ : ٢٠٤، وابن جبير.

(٩٨) ابن الأثير، وأبو الفداء ١ : ٢١٠، وياقوت ٢ : ٥٩١، وابن جبير، وابن بطوطة ١ : ١٩٨.

(٩٩) ابن جبير ٢٦٤.

(١٠٠) الخميس ٢ : ٣١١.

(١٠١) المقدمة ٢١٠.

(١٠٢) تقويم البلدن ٢٣٠.

(١٠٣) المسعودي ١ : ٢٧١.

(١٠٤) الخميس ٢ : ٣١١.

(١٠٥) ابن جبير ٢٦٣.

(١٠٦) المسعودي ٢ : ١١٩.

(١٠٧) ياقوت ٢ : ٥٩٥.

(١٠٨) ياقوت ٢ : ٥٩٣.

(١٠٩) القزويني، وياقوت، والمسعودي.

(١١٠) ابن بطوطة ١ : ١٩٩.

(١١١) القزويني ١٢٧.

(١١٢) أبو الفداء ١ : ٢٠٤.

(١١٣) ابن جبير ٢٧٥، وأبو الفداء ١ : ١٩٩.

(١١٤) الفخري ١٢٩.

(١١٥) ابن بطوطة ١ : ٣٠٣.

(١١٦) المسعودي ٢ : ١١٩، والخميس ٢ : ٣١٤.

(١١٧) ابن بطوطة ١ : ٢٠٣.

(١١٨) الشريشي ١ : ٢٠٨.

(١١٩) ابن جبير ٥٧٥.

(١٢٠) القزويني ١٢٧.

(١٢١) ابن جبير.

(١٢٢) تقويم البلدان ٢٥٥.

(١٢٣) ابن بطوطة ١ : ١٥٨.

(١٢٤) المقَّري في ترجمة يعقوب الكندي.

(١٢٥) المسعودي ١ : ٢٩٦.

(١٢٦) المسعودي ١ : ٢٩٦.

(١٢٧) نجد في كثير من كتب العرب نسبة المباني العتيقة إلى الجن.

(١٢٨) المقدمة ٣٥٨.

(١٢٩) المسعودي ١ : ٢٩٦.

(١٣٠) ابن بطوطة ١ : ١٣٣.

(١٣١) تقويم البلدان ٢٤٧.

(١٣٢) الإدريسي.

(١٣٣) الأغاني ٦ : ١٢٢.

(١٣٤) الأغاني ٦ : ١١٧.

(١٣٥) الإدريسي، وابن بطوطة ١ : ١٣٣.

(١٣٦) تقويم البلدان ٢٤٧.

(١٣٧) أبو الفداء ٢ : ٧، والطبقات ١ : ٥٠.

(١٣٨) ابن خلكان.

(١٣٩) القزويني.

(١٤٠) تقويم البلدان ٣١٩.

(١٤١) المسعودي ١ : ٢٣٦.

(١٤٢) قد أوصى النبي ﷺ بالنساء بقوله: «إن لنسائكم عليكم حقًّا، وإن لكم عليهن حقًّا.» إلى أن قال: «فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرًا.»

(١٤٣) كنية البابا بالباب مَذكورة في تقويم البلدان ولفظها بتفخيم الباءين وتشديدهما.

(١٤٤) لم يكن للمشارقة في زخرفة مبانيهم إلا أن يتخذوا أشكال الخطوط دون الصور، وقد ابتدعوا من رسومها أشكالًا تقيد الأبصار في الحسن والبهجة، مع أنه ليس أصعب على الرسام من ابتداع شكل لا يتوسع فيه بغير الخطوط المتماثلة، وبذلك يعلم مقدار فضلهم في الصناعة بما وضعوه من هذه الخطوط وما علقوا عليها من الكتابة التي اتخذوا فيها طريقة التزويق لتملأ العين بهجة وارتياحًا.

(١٤٥) المقدمة ٢٢٨.

(١٤٦) القرماني ٥ : ٢٢٤.

(١٤٧) المقريزي، والمحاضرة ١ : ٣١، والقرماني ٦ : ٥٥.

(١٤٨) القزويني.

(١٤٩) تقويم البلدان ٩٩.

(١٥٠) ابن خرداذبة ٩٣.

(١٥١) تقويم البلدان ٢١١.

(١٥٢) كذا وجدت وصف هذه الكنيسة في أسفار العرب من أهل الأسفار وغيرهم وذلك قبل الحروب الصليبية.

(١٥٣) ذكر صاحب الأغاني (٢ : ٢١): أن كسرى لما أنفذ رسوله إلى قيصر الروم عامله على البريد؛ ليريه سعة أرضه وعظم مملكته فذكرتُ عن هذا القيصر مثل ذلك.

(١٥٤) المقدمة ١٥٨.

(١٥٥) المسعودي ٢ : ٤٠٩.

(١٥٦) هو قبر يانوس فيما يقولون شهيد من شهداء النصرانية.

(١٥٧) الكنز ١٤٦.

الرسالة التاسعة

المرور بتونس من بلاد العرب

كتبت إليك الرسالة التاسعة بعد الانصراف من الرسالة، واليوم أكتب إليك من المشاعر المباركة بعد إبلاغها إلى الرشيد، فإني لما قفلتُ من ديار الروم عرَّجت على تونس من بلاد المغرب؛ فأكرم عاملها من لدن ابن الأغلب وفادتي، وأخرج إليَّ زورقًا حملني عليه إلى المدينة؛ لأنَّ البحر يبعُد عنها نحو عشرة أميال،(١) وبينهما بحيرة قريبة الغور فسبق اهتمامي بإخراج الرمة التي أوصاني بها القيصر إلى مركب الروم لإبعادهم عن مرفأ المسلمين اهتمامي بما سواه من الأمور.

ثم إني نظرتُ في شأن ابنِ الأغلب إبراهيم وانقطاع أهل الشيعة إلى حَوزة إدريس بن إدريس – ﷺ – من غير أنْ أكشف عمَّا بالنفس من الميل مع أهل البيت، إذ كنتُ أوجبت على نفسي أنْ أقومَ بصدقِ الخدمة للرَّشيد في هذه الرِّسالة التي حملني مجاشمها واستودعني فيها أمانته، فاتصل بي من أخباره معهم جسيم حملت خبره إلى ملوكنا البرامكة – أعزهم الله. وقد أذكرني حال العلويين في المغرب أيام عليٍّ وأبي بكر وعُمر بن الخطاب – رضي الله تعالى عنهم – من الصَّلاح والخير والبركة، يتبعون الرسومَ التي حفظوها عنِ النَّبي ﷺ ولا يُقيمون أُبهة الملك إلا ما تدعوهم إليه حاجة الخلافة، وكذلك أهل الشيعة من التزام الخير واتباع السنن العادلة والمحافظة على القراءة التي قرأها عليٌّ – عليه السلام – إلا أن الأغلبي – دمَّر الله ملكه – ينقِم منهم أمر الدنيا والدين، ولا ذنبَ لهم إلا أنهم يحرصون على الخير والصلاح ويميلون مع أهل السلالة الشريفة الطاهرة.

وهذه القراءة التي ينقمها الأغلبي من أهل الشيعة، قد كان لها شأنٌ عظيم في صدر الإسلام، وأسالت من دماء المسلمين بحارًا بما تعصبوا له من الأغراض، كان

صدور الخلاف فيما بينهم على قراءة ابن مسعود وقراءة أُبيّ بن كعب، وكان أهلُ الشام في خلافة عثمان – ﷺ – قد انقطعوا إلى قراءة يعارضون بها قراءة أهل العراق، وزعموا أنهم أخذوها عن المقداد بن الأسود، وكان عثمان في خلافته قد عقد مجلسًا من الصحابة على أن يحمل الناس على قراءة واحدة في جميع الأقاليم والأطراف، فجمع الرقاع والأدراج واللخاف والعُسْب التي كان مكتوبًا فيها القرءان الكريم، وأمر بأن تُحرق كلها وأنْ يُنسخ من الصُّحف التي كتبت في خلافة أبي بكر – ﷺ – وكانت مُودعة عند حفصة[2] زوج النبي ﷺ أربع نُسخ[3] يبعث بها إلى الدِّيار الإسلامية، فتولى نَسخها زيدُ بنُ ثابتٍ الأنصاري[4] وعبدُ الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي. وقيل: عبد الله بن عباس، ومُحمَّد بن أبي بكر. [5]

وقال لهم عثمان: إنْ اختلفتم في شيء أو كَلمة فاكتبوها بلسان قريش؛ فإنما نزل القرآن بلغتهم. [6] ولم تزل هذه المصاحف المنسوخة محفوظة في مكة والشام والكُوفة إلا المصحف الذي كان في المدينة؛ فإنَّه فُقد في الحرب التي أثارها يزيد بن معاوية.

ولما انفصلتُ عن تُونس ركبتُ البحر توًّا إلى الإسكندرية وفي نفسي أن أبلغها في عشرين يومًا، فلما توسطنا البحر غلبتنا الرياح العاصفة، ونكصت بنا السفينة على الأعقاب مسيرة بضعة أيام إلى أن هدأ ثائر النوء وطابت لنا الريح، فسرنا بمعونة الله، إلى أن شاهدنا منار هذا الثغر المحروس، والقطر المأنوس، لليالٍ خلون من شهر شوال، فلما طلع النهار انتصب أمامنا في عِظَمِه وهول مرآه[7] حتى كأنه عمود يلقى القبة الزرقاء، ويصل بين الأرض والسماء.

رسا أصله تحت الثرى وسما به ... إلى النجم فرع لا يُنال طويل

فهو من سمو الارتفاع بحيث يهتدي به أصحابُ السفن على بُعد سبعين ميلًا، ورُبما قدَّر النَّاسُ ارتفاعه بنحو مائة وخمسين باعًا،[8] وهم يقولون: إن بانيه الإسكندر الرومي الذي ملك معظم الدُّنيا أو مَلِكٌ من خلفائه يُقال له بطليموس، قاسى مع

رومة حروبًا صعابًا في البر والبحر، فبناه لارتقاب جندهم والاستعداد لمراكبهم قبل وصولها.

ويحدثون عن الوليد بن عبد الملك الأموي(٩) أنَّه سوَّل له جَهَلَة قومِه أنْ يهدمه طمعًا في الوصول إلى ما حوى جوفه من الكنوز المخبأة؛ فشرَع في الهدم والدَّمار حتى قوَّض جانبًا من هذا المنار، ثم تعاظمت عليه النفقة، ولم يجد ما يستعيض به عنها، فكفَّ عن عجز لحِقَه ولومٍ نراه يستحقه.

وكان مُقامي في الإسكندرية عند عاملها الليث بن الفضل الأبيوردي(١٠) ثلاثة أيام، وكنتُ أُحبُّ مع ما لقيتُ من أُنسه ووجدتُ فيها من سعة العمران واستبحاره أن أمدَّ فيها بساط الإقامة، لولا أني خفت فوات الحج؛ فانصرفت عنها في اليوم السابع من شوال، وكنتُ قد استقرَيْتُ كثيرًا من أماكنها المشهورة، ووقفتُ على ما اتسع لأهلها من طرق المعاش؛ فرأيتُ أن أُجمِّل الكتاب بذكره ليبقى فخرًا للمُسلمين في استيلائهم على هذه المدينة التي ليس في بلاد الروم ما هو أعظم منها.

في ذكر الإسكندرية

الإسكندرية مدينة تجارة من أعظم مدائن الدنيا وأقدمها وضعًا وأحفلها بنيانًا، وإليها المنتهى في المَنَعة والحصَانة، إذ كانت مبنية على لسان من الأرض، والبَحر مُحيط بها من جميع جهاتها؛ ولذلك يصعب منالها على العدو، وإن لم يكن وراءها وعر ولا هضابٌ يتعزز بها جانبًا من البر،(١١) ولقد كانت في قديم الزمان خاملة الذكر، يقال لها رقودة(١٢) فلما تبوَّأها الإسكندر الرومي(١٣) وصارت كُرسي الملك بعده؛ تجللت بجلال الحضارة، وتحلَّت بحُلل النَّضارة، واتصلت عَمَائرها تحت الأرض(١٤) آزاجا يجتمع فيها الماء كاتصالها فوق الأرض، وأُقيمت أسواقها في نهاية من الإبداع(١٥) وشوارعها في غاية من الاستقامة والاتساع، بحيثُ إن الغريب الزائر يسيرُ فيها نهاره أَجمع فلا يضل.(١٦)

ولقد لقيتُ في كثير من أماكنها وطرقاتها عمدًا وألواحًا من رخام تحمل العامة على

الظن بأنها هي إرم ذات العماد(١٧) التي لم يخلق مثلها في البلاد، وأعظم ما شاهدتُ فيها العمود المعروف بعمود السواري(١٨) وهو ماثل للعيان في طرف المدينة تحف به غابة من النخيل، وهو حجر صلد من الصوان الأحمر، يبتدئ من قاعدة غليظة، وينتهي إلى تاجٍ مُكلل بالرسوم، والناس يقولون: إنه كان في أعلاه قصر مُعلق في الجو لأهل العلم والرياسة(١٩) وإنه كانت فيه خزائن أحرقها عمرو بن العاص(٢٠) بإشارة عمر بن الخطاب – رضي الله عنهما – إذ كتب إليه: «الكتب التي ذكرتَها إن كان فيها ما يُوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنها غنًى، وإن كان فيها ما يُخالفه فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها.» ولكنَّ هذا قول بعيد عن التدقيق والنظر. وظني بهذا العمود أنَّه نصبه الروم معارضة للعمد التي اتخذها الفراعنة أمثال المسلات، وطمعًا في تخليد آثارهم في مصر إلى انقضاء الدهر.

وقد رأيتُ أهل الإسكندرية أصحاء الذوق، لطاف الطباع والخلق؛ لقُرب مدينتهم من البحر، وظهور الصَّبا عندهم واعتدال الحر والبرد في إقليمهم، على أنَّ أكثرهم مهزولو الأجسام وُهْنُ البنية.(٢١) ووجدتُ لهم تصرفًا واسعًا في التجارة؛(٢٢) لأنَّ المال موفور عندهم، والخيراتُ تأتيهم من مصر وجميع الأمصار، فيتصرفون في الليل بالبيع والشراء كتصرفهم بالنهار،(٢٣) وسمعتُ أنهم بلغوا من سعة العيش إلى أن بنَوْا في مدينتهم ألف حمام وأربعمائة مَلهًى واثني عشر ألف دكان،(٢٤) وهذا شيء من الكثرة لم يُسمع بمثله في البلدان.

أما المسلمون في هذه المدينة؛ فإنهم على رأينا من القول بخلافة أهل البيت، ويتعبدون على مذهب الإمام مالك،(٢٥) ولكنهم يجهرون بالبَسملة في صلاتهم، ويبتدئون بها عند الخطبة(٢٦) كأني بهم قد اقتدوا في ذلك بأهل الشام؛ إذ كان الاتصال فيما بينهم مُستمرًّا على غير انقطاع.

وأمَّا أهلُ الذِّمة فإنهم يزيدون على أربعمائة ألف(٢٧) بين نصارى ويهود، وهم يؤدون جزيتهم إلى الرشيد دينارًا واحدًا ميمونيًّا(٢٨) بعد أن ضربها عليهم عمرو بن العاص دينارين، واستمرت على ذلك في عهود الخلفاء السالفة.

وفي الإسكندرية وسائر الديار المصرية ملل كثيرة من النَّصرانية إلا أنَّ معظم سوادهم[٢٩] روم يرجعون في أمورهم إلى بطركهم بالقسطنطينية، وقبط ينكرون على الباب خلافته للمسيح، ويرجعون في ملتهم إلى بطرك لهم يُسمى مُرقص[٣٠] كرجوع المشارقة إلى بطركهم في أنطاكية[٣١] كما مرَّ في موضعه من الكتاب.

وهؤلاء القبط هم أهل مصر الأوَّلون، وفي أيديهم الكنائس المعظَّمة التي لا يوجد مثلها عند الروم، إذ كانوا السابقين إلى تشييدها والحافظين عليها تحت ظل الإسلام.

وأعظمها بيعتان؛ إحداهما: كنيسة مرقص[٣٢] وهي بجوار الدار التي بناها الزبير بن العوَّام،[٣٣] فيها رسوم عجيبة وصور تمثل الحواريين والعظماء الذين ظهرت لهم الكرامات في ملتهم. والثانية: كنيسة يوحنا المعمدان[٣٤] قد مُوِّه سقفها بالذهب، وصورت فيه ملائكة الله محفوفة بالسحاب. وفي جوارها دور كثيرة لهم قد رفعت على طبقات ثلاث،[٣٥] وارتفعت على دور المسلمين، مع أنَّ المطاولة عليهم في البناء محظورة على أهل الذمة، وهذا أمر يتغاضى عنه الولاة كما يتغاضَوْن عن مجاهرتهم في ملتهم بأشياء لو بدت منهم في العراق أو الحرمين لجلبت عليهم الحَيْن في أسرع من طرفة عين. وذلك مثل مجاهرتهم بالإنجيل وإخراج آنيتهم إلى الأسواق وحمل صُلبانهم على رءوس الرماح[٣٦] وغير ذلك مما لا ينقمه منهم المسلمون،[٣٧] وكأنهم إنما يَتسامحون في أمرهم؛ تجنبًا لإثارة السواكِن، أو طمعًا في استمرار الخلطة التي وقعت بينهم وأشبهت أنْ تكون أُلفة وصفاء، بل مودة وإخاء.

وقد وقع لهم وأنا في الإسكندرية موسم عظيم يسمونه عيد الميلاد، يتخذونه في اليوم الذي ولد فيه المسيح – عليه السلام – وهو اليوم التاسع والعشرون من شهر كيهك،[٣٨] وعادتهم في هذا الموسم أن يحيوا ليلهم كله بالسرور، ويخرجوا آنيتهم إلى الأسواق، وينوِّروا كَنائسهم بالشموع المليحة الأصباغ، فكنتُ أرى كثيرًا من المسلمين يبتاعون لأولادهم من هذه الشموع المسماة بالفوانيس ويحرقونها في أزقة المدينة، كأنهم يُشاركون النصارى في أفراحهم، ويظهرون الأُنس بهم إلى انقضاء العِشاء الآخرة.

وقد وجدتُ القوم من الروم والقبط وسائر ملل النصرانية يتأنقون في صنوف الملابس من الخز والديباج والوشي الذي يصنعونه في مدينتهم، ويضرب به المثل في جميع البلاد،[٣٩] ونوعٍ من الكَتان يتنافسون في لبسه إلى أن يبيعوا الدرهم من الثوب المخيط منه بدرهم فضةٍ[٤٠] وكنت أُحبُّ أن تظهر آثار النعمة في لباس المسلمين[٤١] مثل ظهورها في أهل الذمة، فقد حدَّث الرواة عن النبي ﷺ أنَّه اتخذ جُبة مَكفوفة بالحرير،[٤٢] ولبس ثيابًا بأربعة آلافِ درهم وصلى فيها،[٤٣] وكذلك حدَّثوا عن عائشة أنها خلعت على عبد الله بن الزبير ثوبًا من الخزِّ[٤٤] وعن جماعة من العُلماء والفقهاء أَنهم لبسوا الثياب المهذَّبة،[٤٥] فلا أرى موضعًا بعد هذا لأن يكون لبس الحلل الفاخرة محظورًا في الشرع.[٤٦]

الديار المصرية والنيل

توسع بي الكلامُ إلى ما خرجتُ به عن قصِّ الرحلة، ولكني أعود إلى ذِكر الأُمور التي شاهدتها في ديار مصر، فإني ركبتُ من الإسكندرية أُريد الفُسطاط ثم أسوان ثم عَيْذاب إلى طرف الصحراء من ساحل البحر؛ فمررتُ بدمنهور وصا وبِرما وطنتِدة وقليوب في أسرع مُدة من الزمان؛ إذ ليس في مصر جبل ولا مسلك وعر يعترض الركبان.

وكانت العِمارة مُتصلة في طريقنا إلى الفُسطاط، ومن حولها اخضرار في السهل يمتد مع البصر إلى أن ينقطع، فأخبرني مَن كان يصحبني مِن لدن الليث أنَّ البلاد يتنوع فيها هذا المنظر أربعًا في كل سنة، فتكونُ ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء،[٤٧] أولها شهر أبيب المعروف بتموز عند المشارقة، يركبها النيل إلى أن تصير ضِياعها في بحر من الماء لا سبيل إليها إلا في الزوارق؛ وثلاثة أشهر مِسكة سوداء أولها شهر بابه وهو معروف بتشرين أو أقطوبر،[٤٨] ينكشف الماء عن الأرض ويترك عليها طينًا عَلِكًا أسود فيه دسومة صالحة للزراعة يُقال له الإبليز،[٤٩] وثلاثة أَشهر زُمردة خضراء أولها شهر طوبة الذي يمرُّ بنا اليوم ينجم فيه الزرع، ويظهر ربيع الأرض حتى لا يبين الثرى

من خلاله، ثم ثلاثة أشهر سبيكة حمراء تبتدئ من برمودة المعروف بأبريلس عند الروم، فيتورد الزَّرع ببلوغ الحصاد؛ ويكون كسبيكة الذهب في المنظر.

وإنما يجلب الخيرات إلى مصر ويخرج الزرع اليانع من أرضها الجُرُزِ ما يحمل إليها النيل من الطين، ويفيض عليها من الماء في أيام من السنة معلومات، فكأَنَّما تستعيض بالمنفعة منه عن المطر الذي يحبسه الله عنها رفقًا بمصالحها أنْ تختل ومَساكنها الطينية أن تبتل.

وقد قال – سبحانه وتعالى – في مُحكم كتابه: (٥٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ فجعل الله – عز وجل – النيل من الغمورة والاستبحار بحيثُ يكفي البلاد كلها من غيرِ أنْ يكون فيها نهر ولا عين ولا مسيل ماء غيره، والناس يجمعون محاسنه في ثلاثة: (٥١) الأول: في غمورته إلى أن يكون بحرًا تسير فيه السفن. والثاني: بُعد منفجره إلى ما وراء الخط من جبال القمر. والثالث: طيب مسلكه على رمال تروّقه وتأخذ الممزوجات الغريبة منه.

وإني وجدتُ له خَلَّة من الخير والبركة أفضل من هذه المحاسن هي أنَّه يُزدرع عليه ما لا يُزدرع على نهر غيره من أنهر العالم(٥٢) فكأين من نهر تجتمع فيه محاسن الغمورة وبعد المنفجر وطيب المسلك ثم لا تحصل المنفعة منه مثل ما يحصل لأهل مصر من بركة نيلهم.

وشأن هذا النهر المبارك في الفيضان أنَّه يبتدئ بالزِّيادة في شهر أبيب، والقِبط يقولون: إذا دخل أبيب؛ كان للماء دبيب. (٥٣) ثم يغلُظ في مسرى وهو شهر آب، ويزيد بعد ذلك زيادة عظيمة إلى أن يقف حدُّها في منتصف توت، وهو شهر أيلول المعروف بسبطمبر عند الروم، ثم لا يلبث بعد ذلك حتى يتراجع بالانحسار، وقد كفى الناس سِقاية زرعهم بمدوده على حد قولهم: (٥٤)

كـــأنَّ النيـــل ذو فهـــم ولـــب   لمـــا يبـــدو لعـــين النـــاس منـــه

فيأتي حين حاجتهم إليه ويمضي حين يستغنون عنه

وصفوة القول في هذا الفيضان أنَّ منشأه السحب الماطرة[٥٥] إلى ما وراء خط الاستواء من تلك البِطاح، وللقبط فيه أقوال كثيرة لا موضع لها في هذا الكتاب،[٥٦] وهم يزعمون أنهم يعرفون قدر فيضه «قبل حدوثه» من هبوب الرِّيح في أول يوم من بئونة وهو شهر حزيران عند المشارقة.

وقد قرأتُ في بعض الكتب أنَّ هذا النهر هو نهر العسل في الجنة،[٥٧] وأنَّ حائدًا اليهودي الذي تاه في الأرض دهرًا لم يستقر فيه بموضع وصل إلى الجنة مما وراء السودان[٥٨] وجد أرضًا ذهبًا وترعًا ذهبًا وتلاعًا ذهبًا،[٥٩] ورأى النيلَ ينساب فيها من طيقان قد ارتفعت مثلَ قوس السحاب، وهذا تصورٌ لطيفٌ كُنت أقرأ مثله في دواوين الشعراء؛ فأحببت أن أذكره لك حتى إذا كنت بعيدًا أن تعجَب منه من حيث الحقيقة؛ فلا أقلَّ من كونك تعجب به من حيث المجاز.

ولما وصلتُ إلى الفُسطاط نزلت على قاضيها عبد الرحمن بن عبد الله من ولد عمر بن الخطاب – ﷺ،[٦٠] فلما أصبحتُ وكان يوم الجمعة جمَّعتُ في جامع عمرو بن العاص الذي قاد الجيوش الإسلامية إلى هذه البلاد وانتزعها من يد المُقَوْقِس كما هو معروف، وهو من المساجد المشهورة في الإسلام حُسنًا وتزويقًا وإحكام صناعة، وجدت على حائطه القرآن الكريم مكتوبًا على ألواح بيض من الرُّخام يقرؤه الإنسان وهو قاعد،[٦١] ثم زُرت مَشاهد كثيرة من مَشاهد آل البيت والصحابة والأولياء والشريفات العلويات.

ولما مالت الشمسُ ركبتُ إلى موضع غربيِّ المدينة يُقال له الجزيرة وهو مُجتمع اللهو والنُّزهة لإحاطة الماء به، وهُناك المقياس الذي يُعتبر به قدر زيادة النيل،[٦٢] بناه سُليمان بن عبد الملك الأموي في آخر المائة للهجرة النبوية المشرفة، وهو عمود رُخام أبيض مفصَّل على اثنتين وعِشرين ذراعًا من الأَذرع القديمة التي كان يتعامل الناس بها قبل أنْ يضع الرَّشيد الذراع السوداء التي تزيد عنها بإصبع وثلثي إصبع،[٦٣] وهو

مبني في موضع ينحصر الماء فيه فإذا انتهى الفيض إلى ثماني عشرة ذراعًا مُنغمرة فيه كان ذلك الغاية في طيب العام. [٦٤]

وقد أخبرني عبد الرحمن هذا القاضي النبيل أن ما يغمره النيل بمصر يبلغ مائة ألف ألف فدان، [٦٥] والفدان عندهم أربعمائة قصبة، والقصبة عشر أذرع، [٦٦] «وهو القدر الذي وجده هشام بن عبد الملك عندما مسح البلاد»، وكلها ذات خيرات كثيرة، وغلات وافرة مما يحمل الإنسان على أن يظن في أهلها اتساعًا في النعمة واسترسالًا في الطيبات من بسطة العمران، غيرَ أنَّ الأمرَ على خلاف ذلك عند أهل الزراعة بالأرياف إذ غلب على عامتهم الخمول[٦٧] وتَولاهم الشَّقاء، ولم ينفقوا المال الذي أعطاهم الله في مطالب السعة، بل دفنوه تحت أطباق الأرض، وتظاهروا لدى ملوكهم بالمسكنة وعُسر الحالِ؛ ليسترقوا القلوب رفقًا في جباية الأموال، فما كانت هذه الحيلة لتفيدهم شيئًا من الرحمة، ورُبما انقلبت الغاية إلى التثقيل عليهم في الخراج لما تسومع عنهم من تخبئة الكنوز بحيثُ رأينا لحكامهم اقتدارًا في تكثير الجباية ما عرفنا مثله لغيرهم من ملوك الأمم.

في وصف الأهرام

وفي غد اليوم الذي وصلتُ فيه إلى الفُسطاط ركبت إلى أهرام الجيزة، [٦٨] وهي ثلاثة كبار موضوعة على خط مستقيم[٦٩] غربيَّ النيل، وهي من أهوَل ما بناه المتقدمون وأجلِّه خطرًا، وأبقاه على الأيام أثرًا، والعهد بجميع الأشياء يخشى عليها من الأيام إلا هذه الأهرام، فإنها صبرت على طوارئ الحدثان حتى راح يُخشى منها على الزمان.

اثنان منها عظيمان وواحد دونهما في العظم، وهذان الهرمان الكبيران مُتناهيان في السموِّ، يُخيل للرائي أنهما نهدان قد نهدا في صدر الديار المصرية، [٧٠] وهما مبنيان بحجارة بيض صلدة قد اقتُلعت من مغاور تحت الأرض بعيدةٍ يدخلها الفارس برمحه فيرتاح فيها، وقد تقدمتُ إلى بعض من كان يصحبني من لدن السلطان أن يُطلق

سهمًا إلى أعلى الهرمين فرمى به عن قوس غليظةٍ وساعدٍ قويٍّ فسقط السهم دون ثلثي المسافة. [٧١]

أما وصف الهرم فهو بناء مخروط مضلَّع مثلث الزوايا مربعها، يبتدئ من قاعدة عريضة ويضيق قليلًا قليلًا كلما ارتفع إلى أن ينتهي إلى سطح صغير يكون مبرك بعيرين في الهرم الصغير ومبرك ثمانية في الهرمين الكبيرين، وهذا نمط في البناء يزيده متانة يقوى بها على ممرِّ الليالي.

أما السبب الذي دعا الفراعنة إلى نصب هذه الأهرام فلم يزل مستترًا تحت ظل الإبهام، فمن قائل: إنها بُنيت مستودعًا للعلم، ومن قائل: إنها اتخذت لتحجز الرمال الثائرة من القفر على الفسطاط، وفي وجه من التاريخ أنها بنيت لدفن الكنوز[٧٢] واحتكار الحبوب لأيام يوسف – عليه السلام،[٧٣] إلا أن ما يذهبون إليه من هذه الآراء بعيد عما لدينا من القياس الظاهر للأشياء، فإن العلم لا تحفظه الحجارة إن لم يستودع صدور الرجال، والرمل لا يحجُزه سد غير متصل العمارة، وبين الهرم والآخر فرجة واسعة المجال، والحَب لم يحتكره فرعون إلى دهر لا انقضاء له، وفي موضع لا يقدر منه أن يتناوله، ولست أظن إلا أن هذه الأهرام قد بُنيت لحودا[٧٤] للفراعنة الذين كانوا يدينون بالرجعة إلى هذه الدار، ويُعْنَوْن بتحصين مدافنهم من عبث الأدهار؛ ليحفظوا فيها حليهم وأموالهم إلى يوم النشر كما كان يصنع في جاهليتهم أهل مصر إذ يحملون مع الأموات مالهم وأشياءهم؛ ليجدوها بين أيديهم يوم رجعتهم إلى هذه الدار كما كانوا يزعمون. [٧٥]

وقد قرأت في بعض الكتب أن باني الهرم الكبير من الفراعنة ملك يقال له سوريد، وجَّه زواياه إلى بعض الأبراج السماوية تيمنًا بالبركة في اعتقادهم وكتب عليه: «أنا سوريد الملك أكملت بناء الهرم في ست سنين فمن جاء بعدي وزعم أن له ملكًا فليهدمه في ستين سنة «وفي رواية ستمائة سنة»، والهدم أيسر من البنيان، وقد كسوته بالديباج الصرف فليكسه بالحصير والحصير أهون من الديباج.» [٧٦]

أما توجيه زواياه إلى بعض الكواكب كما يعتقدون فهو افتراض ليس للرد عليه موضع مع ما نعلم من عبادة المتقدمين للنجوم وتعظيمهم إياها، وأما الكتابة التي يعزونها إلى فرعون فإني لم أجد لها أثرًا على الهرم الكبير ولا الصغير ولا أعلم على فرض أنها مرسومة فيه أحدًا من الناس يقرؤها؛ حتى لو جاز أنها كتبت وقرئت ما صح أن تكون كسوته بالحصير مما يُعجز عظماء الملوك، وسعته من الركن إلى الركن الآخر ثلثمائة وستون خُطوة، إنما المعجز في هذه الآثار هو إحكام بنائها[٧٧] بهذا الشكل البالغ النهاية في الاستواء دون أن يتخلل الحجارة شيء تتلاصق به من الكِلس وغيره من المواد، ولو أن نجارًا اتخذ صندوقًا من الخشب ما أحكم عمله[٧٨] ووصل قِطَعه مثل وصل هذه الحجارة الضخمة بالتصاق لا تنفذ فيه الإبرة الصغيرة.

ورب زائر يقف بهذه الأهرام؛ فتشغله الدهشة بعظمها وهولها عن تأمل ما هو حقيق أن نعتبر فيه من آثار السلف، فأنا لا أنكر أنَّ الذين رفعوها من الفراعنة كانوا ضِخام السلطة عِظام الصول والحول، غير أني تمثلتهم في نفسي ملوكًا عُتاة قد ظلموا الرعية بما آتاهم الله من السلطان، واستخدموا العباد في مشاقَّ لا فائدة منها، ولا طائل تحتها سوى أن تنطق بظلمهم على ممر الأزمان، أو أني أتمثلهم جبابرة قد كثر المال تحت أيديهم فلم ينفقوه في البر والإحسان، ولا انتفعوا به في غرض من العمران، بل رفعوا به جبالًا شاهقة من الصوان؛ وليس في أحد الأمرين منصرف عن لؤم بهم أو لوم أوقِعه عليهم، فلئن أنفقوا المال في غير سبيله لقد أسرفوا في الملك، ولئن قبضوا الأجور عن العَمَلَة بعد أن نهكوا أبدانهم بالعنت الشديد لقد ضلوا سواء السبيل وباعوا رعاياهم بأبخس الأثمان.

ورأيت على مقربة من الهرم الكبير صورة عجيبة من الحجر قامت كالصومعة[٧٩]ومثلت رأس آدمي وعنقًا بارزة من الأرض في غاية العظم يسميها الناس بأبي الهول، ويزعمون أنها طِلَّسْم الرمل لئلا يغلب على أرض الجيزة،[٨٠] وهي تشهد لصناع ذلك الوقت من القِبط بحذقهم في فنون الرسم وصحة التمثيل؛ لأنهم اتخذوا صورة الوجه متناسبة الأعضاء على كبره، وجعلوا عليه حمرة لا يزال دِهانها محفوظًا مع

الحجر،[٨١] وكأن الزمان يُعيره رونقًا وجِدَّة، حتى إنه ليخيل للناظر إليه أنه ذو مسحة من جمال وأن شفتيه تنفتحان للابتسام، وقد أخبرني حاجب الليث أنه كانت له لحية تكسرت على تمادي الأيام، وأن جثته مدفونة تحت الأرض، ويقتضي القياس بالنسبة إلى رأسه أن يكون طولها سبعين ذراعًا،[٨٢] إلى حديث طويل مما يتعلق بهذا الصنم وبغيره من آثار فرعون، فيقول وهو أعرف الناس بالبلاد: [٨٣] إن بمصر ثمانين كورة في كل كورة مدينة عظيمة وفي كل مدينة آثار حسان، ورسوم باقية على ممر الزمان. [٨٤]

إلى عَيْذاب فجُدة فالبلد الحرام

كان انفصالنا من الفسطاط في بكرة يوم قارسٍ برده، وكانت العمارة متصلة في طريقنا على شاطئ النيل، فاجتزنا بلدًا يعرف بمُنية ابن خصيب[٨٥] فيه الأسواق والمرافق والحمامات، ثم اجتزنا بلدة يقال لها أنصنا وهي تبعد عنه بمرحلة طويلة[٨٦] فيها شجر اللبخ[٨٧] الذي تصنع منه السفن، وكثير من العمد والصخر المجمَّل بالنقوش والرسوم، وفي بعض الكتب أنها كانت مسكنًا لسحرة فرعون،[٨٨] ثم اجتزنا بمحاذاة حائط عتيق البنيان يقال له حائط العجوز[٨٩] وهو يمتد من الفسطاط فما فوقه إلى جهات أسوان يزعم أهل الأخبار أنه بنتْه ملِكة يقال لها دلوكة وقاية لابنها من الوحش أن يُهاجمه في مزاولة القَنْص،[٩٠] مع أن الأقرب إلى العقل أنْ يكون بناؤها له خوفًا من الآدميين وغزواتهم لا من الوحوش التي يصح أن تكون في هذا الجانب منه كما هي في الجانب الآخر. ثم مررنا بمنفلوط في البر الغربي[٩١] وفيها قمح مشهور برزانة حبه،[٩٢] ثم بأسيوط وهي من النيل على ثلاثة أميال، فيها الأفيون المصري الذي يحمل إلى سائر البلاد[٩٣] وهو عصارة الخشخاش الذي يُزرع فيها[٩٤] وفيما جاورها من البلاد، ثم ركبنا مرحلتين إلى إخميم، وهو بلد مشهور فيه البَرْبا العظيمة التي صور فيها ملوك مصر[٩٥] وصورت فيها الأفلاك والكواكب حين كان النسر الطائر في برج العقرب،[٩٦]وهي مرفوعة من صخور منحوتة، وفيها أربعون سارية مزينة بالرسوم والنقوش،[٩٧] وعليها سقف من الحجر مغشًّى بالأشكال العجيبة حتى لا يخلو مغرِز إبرة فيه من رسم أو نقش أو رمز بالخط المسند لا يُعلم ما هو،

فسبحان مَن أباد أمة اقتدرت على عظائم الأمور، لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

ثم تمادى بنا السير من هذه البلدة إلى دندرة، وهي مدينة عتيقة يُقال إنها من بناء قفطريم بن مصرايم بن حام بن نوح – عليه السلام – وفيها بربا عظيمة من آثار الفراعنة يحف بها نخل كثير،(٩٨) وقد تحققتُ فيما رأيتُ بها وبغيرها من آثار القِبط صحة ما نقلتْه الأخبار عن قُدمائهم من بلوغهم الغاية القصوى من الحضارة في زمن كان به ظلام وجاهلية للناس، حتى إنَّ الذين كانوا يطلبون العلم من اليونان أنفسهم لم تستكمل آدابهم إلا باقتباس الحكمة عنهم واستخراج الفلسفة من كتبهم، وكذلك قوم موسى – عليه السلام – لم تكن لهم معرفة بالعلوم إلا بعد مُقامهم في مصر ومحاضرتهم أهل العلم من رجالها.

فتجد أن للقبط في فلسفة التاريخ نكتة شغلت عقول الحكماء من كل عصرٍ وأمة، حتى ذهب أفلاطون في بعض كتبه إلى أنه يلزم أن يكون أتى عليهم عشرة آلاف سنة حتى تمكنوا من بلوغ الغاية التي بلغوها من الأدب والصناعة ودلت عليها الآثار الباقية عنهم إلى هذا اليوم.

وإن كان قد غاب عنا معرفة كثير من سِيَرهم وأسرارهم فلا لوم نوجهه عليهم من قبيل التقصير أو الإهمال؛ لأنهم لم يغفُلوا عما وجب عليهم نحونا من تأدية علمهم إلينا، بل اجتهدوا أن يستَبِقُوه على الأيام صلة دائمة فيما بيننا وبينهم؛ إذ حفظوه لنا فيما هو أصبر الأشياء على الزمان «الحجر» ليأمنوا اتصاله بنا، وإفادتنا به الغرض الذي شغلهم قبلنا من الحكمة والغوص على أسرار الطبيعة؛ وإنما أفسد هذه الصلة علينا العَفاء الناشئ من سنة الغلب في الناس، إذ يتعاقبون في الأرض دولًا بعد دول وأجيالًا تحيا بموت أجيال.

وتحتاج لحفظ نوعها أن تبيد الجيل الذي كان من قبلها وتسبل على آثاره ستر المحو والعفاء، وهذا هو السبب الذي قطع الآخرين عن الأولين، وعمَّى علينا قراءة رموز لهم إنْ تبدُ لنا غوامضها تُفِدْنا علمًا واسعًا من حكمتهم، ونبأً صادقًا من سِيَرهم

وأعمالهم.

فكم رأيت لهؤلاء القبط من صور على الحجارة مودعةٍ هذا العلم تنظر إلينا بعيون قد غابت تحت غبار القدم، وتبتسم بشفاه تكاد تنطق لو لم يصمتها الوَجَم كأني بها تنتظر أن نخاطبها بلسان تعرفه، وإشارة تفهمها من رموز أهلها؛ لتبيح لنا بما استودعوها من هذه الأسرار الثمينة.

على أنَّ أكثر ما وجدت في آثارهم من الصور – غير الأوثان التي كانوا يعبدونها والحيوان الذي دخل في ملتهم بطريق التكريم إلى أن صار له تعظيم يشبه أن يكون عبادة والعياذ بالله من جاهلية الناس – إنما هو رسوم هيئات مختلفة لملوك وسوقة منهم تمثلهم في معايشهم وأعمالهم، وفروض دينهم وصنائعهم وسائر أشيائهم، وليس بينها صور تمثل أناسًا غيرهم من الأمم مثلما نرى في آثار الفرس الذين صوروا اليهود والنَّبَط والكنعانيين والقبط والروم والهنود وغيرهم.

فيظهر أنه لم تكن لهم خُلطة مع الأمم، ولا اتسعت لهم الفتوح في دولتهم اتساعها للفرس والروم من بعدهم، وكأنهم خَلَدوا إلى السكون والدعة بما كثر لديهم من الخيرات، وأغناهم مصرهم عما سواه من الأمصار، وهذا مما يخالف طبائع العرب الذين يطمحون بأبصارهم إلى بلدان الخصب؛ ليتوسعوا فيما لا تثمره باديتهم الجدباء من نعمة العمران.

عَوْدٌ إلى الحديث عن الرحلة: ثم ركبنا من دندرة إلى قوص من البر الشرقي، وهي من أعظم مدائن مصر،[٩٩] فيها قبائل من عرب عدن وغيرهم،[١٠٠] وليس بمصر أرض يسكنها العرب إلا قوص وأسوان وجهات بلبيس،[١٠١] وربُما كانوا في أسوان أكثر منهم في بادية قوص، إذ كان يمازجهم فيها قبائل من قريش وقحطان ونزار بن معد من ربيعة ومضر،[١٠٢] وليس هذا أول عهد العرب بمصر، فقد نبَّأَتِ الأخبار السالفة[١٠٣] أنهم غزوها في عهود الفراعنة الأولين واستقرُّوا بها زمنًا فيما لا كفاء له من عز الدولة ونفوذ السلطان.

وقوص هذه المدينة فرضة التجار اليمنيين والمصريين والحبشيين، وفيها جبال وحجارة يجري فيها النيل من غير أن يكون ثمة سبيل لجريان السفن عليه،[١٠٤] «وهي المعروفة بالجنادل والصخور» فتنقل بضاعات المسلمين إلى مراكب الحبشة، وتنقل بضاعات الحبشة إلى مراكب المسلمين، فوقع فيها العمران من هذا القبيل باجتماع التجار فيها وتوارد الحجاج إليها في ذهابهم وإيابهم على مراكب النيل.

ولما انفصلنا عن قوص ابتدأت صحراء عيذاب بالامتداد وهي مفازة قاحلة لا عمارة فيها البتة، فكنا نبيت فيها حيث جنَّ الليل علينا[١٠٥] ثم نفوّز إلى ورود الماء من آبار أو مناهل لا نكاد نترك فيها جرعة ماء بعد سِقاية دوابنا، وكنت إذا أصابنا رَقدة من حرٍّ أجلس في هودج على ظهور الجمال وأرخي عليه الأستار محركًا للهواء فيهون عليَّ احتمال عنتها الشديد.

إلا أن صحبي من لدن السلطان كان يبرِّح بهم العطش ويجهد دوابهم في الأيام الآبِتَة؛ لأن السَّموم كانت تنشف المياه في الأسقية؛ فكانوا يحتالون لذلك بأن يستصحبوا أبعرة فارغة من الأحمال ويعطشوها قبل الورود ثم يوردوها على الماء نَهَلًا وعَلَلًا حتى تمتلئ أجوافها، ثم يشدُّو أفواهها كيلا تجتر فتبقى فيها الرطوبة فإذا نشفت الأسقية نحروا بضعة أبعرة من هذه الجمال وسقوا خيلنا مما في بطونها،[١٠٦] وفي هذا من المشقة ما لم ينزل بنا أشد منه في جميع ما طرقناه من البلاد، ولم نزل في مكابدة عنائه الشديد، وقد أضرَّ بنا الحرُّ وأخذ منا مأخذه حتى سهل الله وصولنا بالسلامة إلى عيذاب، والحمد لله على جميل ما أولاه، حمدًا يبلغ رضاه، ويستفيض النعمة من علياه.

وهذه المدينة هي آخر بلاد مصر،[١٠٧] وعاملها مفوَّض من لدن الليث بن الفضل الأبيوردي، وهي موسعة بأسباب الكسب من الحجاج إلا أن مبانيها أشبه ببيوت القرى منها ببيوت المدن،[١٠٨] وكل ما فيها مجلوب إليها حتى الماء،[١٠٩] وليس لأهلها حرفة للتعيش إلا تعمير سفن للحجاج يسمونها الجُلُبات واحدها جُلْبة وهي ملفقة الإنشاء، ولا يستعملون فيها المسامير، وإنما يخيطون الخشب بالليف، ويضعون

خلالها دُسُرًا من عيدان النخل ثم يطلونها بالشحوم والنورة،[110] فتستمر عرضة للخطر وآفة لحجاج البيت، يغرق الكثير منهم بسببها في بحر فرعون ذي الأهوال الموصوفة.[111]

ولما أخذتُ فيها نصيبًا من الراحة ركبت البحر ثلاثة أيام إلى جدَّة، وهي قرية كبيرة تجتمع فيها مراكب الحجاج، وفيها آثار كثيرة تدل على قدم اختطاطها وتنطق بأنها دخلت في ولاية الفرس، وفيها قبة مشيدة يُقال إن موضعها كان منزلًا لحوَّاء – عليها السلام – ومسجد بناه عمر بن الخطاب – ﷺ – وجامع بناه الرشيد منذ ثلاث سنين،[112] وهو أحفل بناية في المدينة، فمكثت فيها بقية النهار، ثم ركبت عنها تحت الليل إلى القرين وهو محط رحال الحجاج؛ «إسراعًا في موافاة الرشيد بالمدينة المنورة – على ساكنها أفضل السلام وأزكى التحية»؛ إذ كنت علمت بركوبه إليها من مكة في صباح اليوم الذي وصلت فيه إلى جدَّة، فبلغته في جوف الليل ثم سريت منه إلى مكة المكرمة مهوى الأفئدة الصالحة، فقضيت الواجب من زيارة المشاعر المباركة وابتهلت إلى الله – تعالى – في موضع استجابة الدعاء[113] من البيت العتيق، والحمد لله – عز وجل – على أن شرفنا بالوفادة إلى هذا البيت الكريم.

في ذكر المشاعر المباركة

أما مكة – شرفها الله – فإنها بطن وادٍ[114] بين الجبال تسع من الخلق ما لا يعلمه إلا الله – سبحانه؛[115] لأنَّ الحجاج الوافدين إليها قد يزيدون على مائتي ألف في الموسم، إذ كان الحج مفروضًا على المسلم المستطيع في العُمر مرة؛ لقوله – تعالى: وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا[116] فلو قدَّرنا عدد الرجال بثلاثين ألف ألف، وقدَّرنا العمر بأربعين سنة لاقتضى أن يكون نصيبها منهم في كل سنة أكثر مما ذكرنا، فما بالك بمن يحج أكثر من مرة في عمره، ويُقال في اجتماع الناس إليها من جميع الأطراف إنه لو جمع ما يباع ويشترى بها من السِّلع والمآكل والبضاعات في ثمانية أيام وقت الموسم لأقام الأسواق[117] في العراق كله ونال كل

واحد من أهله نصيبه من حاجته.

ولها – كرمها الله تعالى – ثلاثة أبواب، أولها باب المعلى[١١٨] وهو إلى الشرق الشمالي، ومنه يذهب الذاهب إلى الحَجون وهو جبل بأعلى مكة له ذكر في الأشعار، وفيه صَلَب الحَجَّاج بن يوسف جثة عبد الله بن الزبير لما غلبه على الخلافة التي كان يناصب عليها الأمويين، ثم باب المسفل وهو إلى الجنوب، ومنه دخل خالد بن الوليد يوم الفتح، ثم باب العمرة وهو إلى الغرب على طريق الشام وأمامه جبال مكة قد مثُلت بلا ارتفاع وكأنها أهوتْ تواضعًا لبيت الله، أشهرها جبل حِراء وهو الذي اهتزَّ حين كان فوقه النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر بن الخطاب – رضي الله عنهما – فقال له: «اثبت حراء فما عليك إلا نبي وصدِّيق وشهيد.» [١١٩] وكان صلى الله عليه وسلم يختلف إليه ويتعبد فيه، وعليه نزلت أول آية من القرآن الكريم وهي قوله – تعالى: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. [١٢٠]

وكفى هذه البلدة شرفًا أن بناها آدم – عليه السلام[١٢١]– وهبط إليها جبريل الملك الكريم، ونزل فيها الوحي على النبيين، وخصها الله بالمشاهد المباركة والمواضع التي هي معدن الطهارة، ومظهر نور الملائكة؛ مما ليس مثله في جميع العالم.

فمما تبركت بزيارته من مواضعها الميمونة محل مولد النبي ﷺ وقبة الوحي[١٢٢] التي فيها بنى النبي ﷺ بخديجة أم المؤمنين – ﵂ – والموضع الذي كان يقعد فيه سيد ولد آدم مُحَّد ﷺ تبركتُ بلمسه وتقبيله، وزرتُ دار أبي بكر ودار جعفر بن أبي طالب ذي الجناحين ودار الخيزُران التي قدَّمتُ لك ذكرها في الرسائل السالفة، وهي على باب زقاق الخيزران بمقربة من القصر المعروف بمنزل الأبجر،[١٢٣] وكنت أحب أن أزور المشاهد المباركة التي في الجبال والغار الذي أوى إليه النبي ﷺ المسمَّى بغار ثَوْر[١٢٤] الوارد ذكره في القرآن، ولكن لم يتيسر لي ذلك لقصر الوقت كما لم يتيسر لي مزار بعض المواضع الميمونة التي هي في نفس البلدة.

وأما البيت الحرام فقد بناه إبراهيم – عليه السلام – حضين الملائكة لقوله –

تعالى: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ(١٢٥) وقد أخذ الناس في تعظيمه والحج إليه من الجاهية والفرس والعماليق والتبابعة وغيرهم ممن دنا ونأى، ثم صارت الولاية عليه بعد ولد إسماعيل إلى جُرْهم، وكانت سدانة البيت ومفاتيحه معهم، وإلى ذلك يُشير مُضاض بن عمرو بن الحارث الجرهمي بقوله: (١٢٦)

وكنا ولاة البيت من بعد ثابت نطوف بذاك البيت والأمر ظاهر

كأن لم يكن بين الحَجون إلى الصفا أنيس ولم يسمُر بمكة سامر

ثم صارت ولايته إلى خزاعة ثم إلى قريش بعدهم، وكانت صورة إبراهيم وإسماعيل ماثلة(١٢٧) فيه لأيامهم، فأحسنوا ولايته وجددوا بناءه، كما أشار إلى ذلك زهير بن أبي سُلمى في قوله:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

ثم صارت ولايته بعد الخلفاء الراشدين – ﷺ – إلى عبد الله بن الزبير – رضي الله عنهما – فنزع عن كسوته المسوح والأنطاع وكساه الديباج الملون، واتخذ له المفاتيح وصفائح الأبواب من الذهب، وكان يُطيّبه حتى يوجَد ريح المسك من خارج الحرم،١٢٨ فلما رماه يزيد بن معاوية بالمنجنيق بعث إلى صنعاء في الفضة والكِلس فحملهما، ثم شرع في البناء على أساس الخليل إبراهيم – عليه السلام – فما كاد يستكمل بناءه حتى وفد الحجاج لقتاله بعد يزيد وحاصره بالزحف والترامي، وأحرق مكة ورماها بالمنجنيق حتى تصدَّعت جدران الكعبة – نسأل الله السلامة من شرور الأنفس وسيئات الأعمال – فكتب إليه عبد الملك بن مروان أن يُعيد بناءها على الصفة التي بنتْها عليها قريش(١٢٩) في أيام النبي ﷺ قبل النبوة،(١٣٠) فبناها على ذلك الرسم، وهي باقية عليه إلى أيامنا.

وهذا البيت المكرم مبني بالحجارة الصُّمّ السود مفروش بالرخام المجزَّع، وفيه عمد ضخمة من الساج، وسقف مغشًّى بالحرير الملون، وهو قريب من التربيع، ونصفه الأعلى من الفضة المذهبة(١٣١) وله أركان أربعة؛ أولها: الركن الشرقي الذي فيه الحجر

الأسود، ومنه ابتداء الطواف، ولا يُدرى قدر ما استتر من الحجر في الركن،(١٣١) وسعته الظاهرة ثلثا شبر وطوله شبر واحد، وقد وضعه النبي ﷺ بيده(١٣٣) على ما هو معروف عند الكل، ثم الركن العراقي، وهو شمالي. ثم الركن الشاميُّ وهو غربيٌّ. ثم الركن اليمانيُّ وهو جنوبي.

وارتفاع هذه الأركان ثمانٍ وعشرون ذراعًا، إلا الركن الشرقي فإنه يزيد عليها ذراعًا في الارتفاع(١٣٤) لانصباب السطح إلى الميزاب،(١٣٥) وطول الكعبة سبع وعشرون ذراعًا،(١٣٦) وبابها في الصفح الذي بين الركن العراقي والركن الشرقي على أحد عشر شبرًا من الأرض. وهو من الساج الملبس بالفضة والذهب المنقوش(١٣٧) وطوله ست أذرع وزيادة، وعرضه أربع أذرع، وهو قريب من الحجر الأسود ويسمى ما بينهما المُلتَزَم، وهو موضع استجابة الدعاء يتزاحم الناس فيه عند طوافهم بالبيت؛ بحيث لا يخلو منهم ساعة من نهار أو ليل، وقد أخبرني أميرُ مكة أنه لا يوجد مَن يخبر أنه رآه خِلوًا من طائف به أو مصلٍّ، وأخبرني – وهو غاية ما يكون من احترام الدين وشعائره المقدسة – أنَّ في مكة من الصالحين مَن لم يدخل الكعبة تعظيمًا لها؛(١٣٨) إذ كانت أول بيت وضع للناس فيه آيات بينات «مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ» ومن دخله كان آمنًا.

وفي الركن العراقيّ المذكور باب يسمَّى باب الرحمة ينتهي بالراقي عليه إلى سطح البيت، وتحته قبو فيه حجر مغشًّى بالفضة(١٣٩) تبركت بزيارته ولمسه وهو مقام إبراهيم الخليل – عليه السلام، وتحت الميزاب المذهب في صحن الحِجر قبر إسماعيل – عليه السلام – وموضعه رخامة بل رخامتان خضراوان فيهما نُكت يميل لونهما إلى الاصفرار(١٤٠) حتى يخيل للناظر أن ذلك تجزيع بأيدي الصناع، وإلى جانبه مما يلي الركن العراقي قبر هاجر أم إسماعيل – عليه السلام – وموضعه رخامة خضراء أيضًا، وفي مقابلة ركن الحجر الأسود الميمون قبة بئر زمزم،(١٤١) وهي البئر التي شرب منها الخليل – عليه السلام،(١٤٢) وداخلها مفروش بالرخام، وعمقها – فيما يقال – إحدى عشرة قامة، أربع فضاء وسبع ماء، وماؤها لمن شربه كما ورد عنه: «طَعَامُ طُعْمٍ، وَشِفَاءُ سُقْمٍ.»

أما الحرم فإنه يحدق بالبيت العتيق من جميع جهاته، وهو قائم على عمد من الرُّخام،[١٤٣] وله صوامع سبع، أكبرها في دار الندوة[١٤٤] وأصغرها على باب الصفا، وهو أكبر أبواب الحرم، ثم بعده باب السلام وباب السِّدرة وباب الندوة،[١٤٥] وشاهدت في بعض مقاصير الحرم الشريف مُصحفًا بخط زيد بن ثابت الأنصاري،[١٤٦] نسخه بأمر عثمان بن عفان – ﷺ – سنة ثماني عشرة للهجرة كما تقدم بيان ذلك، ولا أدري في أي موضع كان قبل أن يوضع هناك؛ لأنه لم يكن للحرم في تلك الأيام جدار، وإنما كان موضعه دورًا[١٤٧] لم تتم زيادتها فيه إلا في خلافة الوليد بن عبد الملك، كما أنه لم يتم بناؤه على ما هو عليه اليوم إلا في خلافة المهدي – رحمه الله – وهو الذي زيَّنه بالرسوم[١٤٨] وكتب اسمه في مواضع كثيرة منه تبرُّكًا بالخير الذي صنع، ومما كتب على سارية منه خارج باب الصفا: «أمر عبد الله محمَّد المهدي – أصلحه الله – بتوسعة المسجد الحرام مما يلي باب الصفا؛ لتكون الكعبة في وسط المسجد، في سنة سبع وستين ومائة.»

موافاة الرشيد بالمدينة

وكان انفصالي عن مكة المكرمة لسبع بقين من ذي الحجة، ومررتُ في طريقي إلى المدينة المنورة بمنازل أعراب لم يتغربوا بالأسفار، ولا سبق لهم عهد بحضارة الأمصار، فوجدتهم[١٤٩] يقولون بالقِيافة والزَّجْر والعنقاء والبُومة التي تأخذ بثأر المقتول، وغير ذلك مما كان يقول به أهل الجاهلية، وبلغني أنَّ بجوارهم أعرابًا لم يدخلوا في دين الإسلام لا يختلفون عنهم إلا بتعظيم عيسى – عليه السلام – وينطقون بالجيم كافًا مخففة، فينادون الرجل: يا ركل.[١٥٠]

فوصلتُ من مكة إلى بطن مر[١٥١] وهو وادٍ خصيب ذو عين فوَّارة، ثم عطفتُ إلى عسفان وهي مدينة تحف بها الجبال وفيها كثير من شجر المُقْل وآبار منسوبة إلى عثمان بن عفان[١٥٢] – ﷺ، ثم ركبتُ إلى الخُلَيص وهو موضع في بسيط من الأرض، وفيه خيامٌ لقبيلتين كبيرتين من العربِ يُقال لهما كِنانة وخزاعة وهم متقاربون في المنزل

وبينهم نسبٌ لم تُرْمَ فيه العصا،[١٥٣] ثم امتد بنا السير من خليص إلى بدر وهي قرية كثيرة الخيرات كانت بإزاء موضع من مواضعها يُقال له القليب وقعة النبي ﷺ المباركة التي أعز الله – تعالى – بها الدين وقهر المشركين.[١٥٤]

ثم اتجهتُ إلى الصفراء في صدر النهار، وهي تبعد من بدر بريدًا، ثم إلى الرَّوحاء وهي موضع بئر يُقال في الحكاية: إنَّ عليًّا – عليه السلام – قاتل فيها الجان،[١٥٥] ثم رحتُ أفوز في الهضاب والبِطاح حتى أقبلت على المدينة المنوَّرة، حرسها الله وزادها شرفًا بمنه وكرمه.

وبعد أن تبركتُ بزيارة المسجد المكرم وصليتُ في الروضة التي بين القبر المقدس والمنبر الذي كان موطئ الرسول ﷺ، ركبتُ إلى قصر الإمارة حيث حلَّت ركاب الرشيد، فأصبته إلى مجلس يُشبه أن يكون من مجالس قصر له في بغداد يُقال له قصر الفُرْجة، وهو مزخرف بالصدف[١٥٦] الأبيض وفيه كتابة بالصدف الأحمر والأخضر كأنها لعين الناظر ياقوت وزبرجد،[١٥٧] فلما وقفت بين يديه بادرني بالسؤال عن أمر الرسالة وما كلمني به الأنبرذور، فأخبرته بما توسَّم في غايتها من الخير في البلاد من عدل العمال، ودعائهم له في مساجد مصر والغرب، وذكرت له من كلام القيصر ما اقتضتْه جلالة الخلافة؛ فشكرني على حسن القيام بهذه المهمة، ولكنْ من غير أن يُظهِر إليَّ ذلك الصفاء الذي كان يُشرفني به من قبل، ولما أذن لي بالانصراف ذهبتُ إلى موضع البرامكة؛ فوجدتُ في نفوسِهم ما وجدتُ في نفس الرشيد، ليس من تجافيهم عن المصافاة، بل من إدمان فكرتهم في أمر ظننتُ أنه وقع بينهم وبينه في المشاعر المباركة بحيلة المدالسين التي تصادف محلًّا في قلوب العباسيين.

هذا ختام رسالتي إليك عن رسالتي إلى القيصر، وأحبُّ قبل أن أُفارق هذه المواطن المقدسة أنْ أذكر لك شيئًا عنِ المدينة المنوَّرة تبركًا بذكره، فأقولُ: إني وجدت المسجد المكرم قائمًا على أعمدة من الحجارة اللامعة، وسقفه من الساج المزين بالرسوم،[١٥٨] وجدرانه منزلة بفصوص من الفُسَيْفِساء[١٥٩] تمثل أشجارًا وثمارًا وأزهارًا بأبدع ما يكون من الصناعة، وهي من عمل الروم والقبط[١٦٠] فيما رَسم لهم عمر بن

عبد العزيز بأمر الوليد بن عبد الملك.[١٦١]

ووجدتُ الروضة التي تجاور القبر المقدس مؤزَّرة إلى ثلثها برخام بديع النحت غريب النعت، وأعلاها مُضمَّخ بالمسك والطيب،[١٦٢] ورأيت القبر المقدس مبنيًّا برُخام يُقال إنه من عمل وردان،[١٦٣] وعلى رأسه صندوق من الآبنوس مخَتَّم بالصندل مُصفَّح بالفضة طوله خمسة أشبار في ارتفاع أربعة وعرض ثلاثة، وإلى طرف القبر مما يلي أقدام النبي ﷺ رأس أبي بكر، أما عمر بن الخطاب فمدفون عند رجلي أبي بكر – رضي الله عنهما – وعليهما قناديل من فضة وذهب،[١٦٤] وبين الركن الجوفي والركن الغربي من المسجد موضع عليه ستر مسبل يُقال إنه مهبِط جبريل[١٦٥]– عليه السلام.

أما المدينة المنورة؛ فإنها بمكان من العظم والاتساع وتدل تسميتها بيثرب بن وائل من ولد سام[١٦٦]بن نوح مع ما هو فيها من الآثار العتيقة على قِدم اختطاطها وعلوّ شأنها بين مدن الحجاز؛ ولها أربعة أبواب؛ أعظمها: باب الحديد، وهو من الحديد[١٦٧]ثم باب البقيع؛ حيث الآثار المذكورة والمشاهد المباركة الميمونة،[١٦٨] وفيها قصور لا يُوجد فيما نقله السَفْر المخبرون ما هو أعظم منها في ديار العرب، وأعظمها قصر للمقداد بن الأسود في الموضع المعروف بالجرف،[١٦٩]وهو مجصص الظاهر والباطن[١٧٠]وقصر لعثمان بن عفان مُشيد بالحجر والكِلس، وأبوابه من الساج والعَرْعر[١٧١]وفيها مشاهد كثير من الصحابة والتابعين والأنصار وأهل البيت الكريم – شرفهم الله تعالى[١٧٢]– وقد زرتُ منها قبر السلالة الطاهرة إبراهيم ابن النبي ﷺ وقبور أوزاج النبي ﷺ وأولاده ومشاهد أولاد عليٍّ – عليه السلام – وفي موضع هذه القبور رخامة مكتوب عليها:[١٧٣]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله مُبيد الأمم ومُحيي الرِّمَم، هذا قبر فاطمة بنتِ رَسول الله ﷺ سيدة نساء العالمين، وقبرُ الحسن بن علي بن أبي طالب – رضي الله عنهما – وعلي بن الحسين

بن علي بن أبي طالب، ومُحَمَّد بن علي وجعفر بن مُحَمَّد، ﷺ أجمعين.

فيالها من قبور ما أشرفها وأكرمها!

وإلى مَقْرُبة من المدينة المنوَّرة موضع يقال له قُباء[١٧٤]وفيه كان مبرك الناقة بالنبي ﷺ وموضعه المسجد المبارك الذي أُسس على التقوى والرضوان،[١٧٥] وفي صحنه شِبه محراب على مصطبة يُقال إنه أول موضع ركع فيه[١٧٦]النبي ﷺ وفي قِبْلته بئرٌ معروفة ببئر أريس يُقال إن النبي ﷺ تَفَلَ فيها فعاد ماؤها عذبًا صافيًا بعد أن كان آجنًا أُجاجًا، وفيها سقط خاتمه ﷺ من يد عثمان بن عفان – ﷺ.

هذا بعض الخبر عن المشاعر المباركة والمواطن المقدَّسة، والقليل دليل على الكثير. وقد خصَّ الله – تعالى – تلك البقاع المباركة من الشرف والتكريم بما لم يخص به غيرها من البلاد، وهو مالك الملك، لا رب غيره، ولا معبود سواه.

الرشيد والبرامكة في مكة

هذا ذيل للرسالة أكتبه إليك من ظاهر الحيرة، وأنا منفصل عن البرامكة في كتاب أحمله إلى الرَّقة من لدن الرَّشيد؛ لأعلمك ما بينه وبينهم من الأمر العظيم.

كان انفصالنا عن المدينة المنوَّرة في غد اليوم الذي كتبت فيه هذه الرسالة، وعلِمتُ فيما نقل إليَّ أبو زنج الهمذاني صاحب جعفر[١٧٧] – أيَّده الله – أنَّ الرشيدَ إنما تحول عن البرامكة خوفًا من ميل الناسِ إليهم بما أغدقوا عليهم من الجود والكَرم؛ فإنه كان إذا جَلسَ في مكَّة للعطاء جلسَ معه يحيى فأعطى مثل عطائه، وإذا جلسَ الأمين جلس معه الفضل فأعطى مثل عطائه، وإذا جلس المأمون جلس معه جعفر فأعطى مثل عطائه، ثم استرسلوا هم وأولادهم من بعدُ في سعة الهبات حتى ذهبت أعطياتهم مثلًا بين الناس؛ فانصرفوا عن مديح الخليفة إلى صوغ الشعر في مديحهم بالكرم، وكانوا يقولون: والله هذا عام الأعطِيات[١٧٨]وينشدون:

إذا نزلـــوا بطحـــاء مكـــة أشـــرقت	بيحـيى وبالفضـل بـن يحـيى وجعفـر

فمـــا خُلِقـــت إلا لجـــودٍ أكفُّهـــم وأقـــدامهم إلا لأعـــواد مِنـــبر

فأحدث ذلك في نفس الرشيد غيظًا من تمام النعمة عليهم؛ وانطلق المجال لأخصامهم من آل الربيع فيما كانوا يرتقبون من فرصة لتهويل أمرهم على الرشيد؛ فخوَّفوه استقواءهم بالمال والرجال، واستعانوا برُقعة رفعوها إليه وزعموا أنها تدور بين الناس وفيها هذه الأبيات: (١٧٩)

قـــلْ لأمـــين الله في أرضـــه ومَـــن إليـــه الحـــلُّ والعقـــدُ

هـــذا ابـــن يحـــيى قـــد غـــدا مالكًـــا مثلـــك مـــا بينكمـــا حـــدُّ

أمـــرُك مـــردود إلى أمـــره وأمـــرُه لـــيس لـــه ردُّ

وقـــد بـــنى الـــدار الـــتي مـــا بـــنى الْـ ـــفُرسُ لهـــا مِـــثلًا ولا الهنـــدُ

الـــدر واليـــاقوت حصـــباؤها وتربهـــا العنـــبر والنَّـــدُّ

ونحـــن نخشـــى أنـــه وارث مُلكـــك إن غيَّبـــك اللحْـــدُ

فأدخلوا عليه الخوف منهم على سلطانه؛ فاستدعى مَن كان بمكة من بني هاشم، وبعث إلى المدينة يستقدم أهل الحل والعقد، وجدَّد البيعة بمحضرهم للمأمون بعد الأمين، وكتبها من بعدهما لمحمد القاسم، ولقَّبه بالمؤتمن فصيَّر ولاية العهد إلى ثلاثة من أولاده يتعاقبُون فيها كما قالت الشعراء في مديحهم له: (١٨٠)

أبـــو أمـــين ومـــأمون ومـــؤتمن أكـــرِمْ بـــه والـــدًا بـــرًّا ومـــا ولـــدا

ثم إنه ولَّى المأمون خراسان وهمذان إلى أواخر المشرق، وأحضر القضاة والشهود وأشهدهم أن جميع ما في عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكراع وغير ذلك للمأمون وليس له فيه شيء،(١٨١) وضمَّ إلى القاسم الجزيرة والثغور والعواصم، وفرَّق في الناس نحو ألف ألف دينار؛(١٨٢) ليظهر اقتداره على العطاء الكثير ويحطُّ من قدر البرامكة وما وقع في نفوسِ النَّاس من انفرادهم بسعة العطاء دون غيرهم من خليفة أو

سُلطان، وهو يظن أنه يفعل هذا أمنًا لمكروه من ناحيتهم وردًّا لمكيدة خافها من وراء ما كانوا يعارضونه من قبل في قسمة المُلك بين المأمون والمؤتمن، مع أنهم إذا لم تجرِ لهم موافقة على هذه القسمة فلم يكن ذلك إلا حبًّا فيه، ومنعًا لوقوع الشقاق بين أولاده.

وكان مع ما في قلبه من المَوْجِدة يُصانعهم ويُظهر استرسال نفسه إليهم؛ حتى لا يفطُنوا إلى ما يُريد من المكروه، فإذا جلسوا إليه أظهر الرضا عنهم وأقبل بالعطف عليهم؛ ليوهمهم أن الأمر على غاية الصفاء، فكان يغرُّهم ذلك منه إلا جعفرًا – حفظه الله – لأنَّه كان أعلم الناس بما في نفسه من حب الأَثَرَة، حتى إذا أهداه مَسروقًا غلامه[١٨٣] قال لي: والله، إن في إهدائه إليَّ هذا الغلام لحيلةً لم يخفَ عليَّ أمرها، فإنه يُوهمنا برضاه حتى لا نظن به سوءًا فيما داخله من الحسد، وقد أخبرني جبريلُ بن بختيشوع أنَّ الرَّشيد إنما تحوَّل عنهم بتمحُّل الفضل بن الربيع الذي كان يذكر له ما على بابهم من الجيوش والأعوان، ويخوِّفه استقواءهم في فارس وخراسان، وتعميرهم خِطط الدولة بمَن يعرفون فيه حبًّا لأهل البيت، ويتهمهم لديه باحتياز مال الجباية[١٨٤]وتصرفهم في الأمور بما يشاءون، والملوك لا تصبر على مثل ذلك فأوغر صدره خوفًا منهم بعد أن ملأ قلبه عداوةً لهم[١٨٥]

هذا ما اتصل بي في مكة من أمر الرشيد بالبرامكة[١٨٦]وقد تحوَّل عنهم لأمرين لا أرى له مندوحة في أحدهما؛ فأما استفحال ملكهم في الإسلام وتزلُّف الملوك إليهم بالهدايا الفاخرة والأموال الطائلة؛ فإنه غير مضرٍّ بالرشيد، وله بهم سند للدولة وفخر في الملة، إلا أن يكون ضعيف البصيرة فاتر الهمة، وقد مضى لهم من تعظيم شأنه وتقويم سُلطانه ما يشهد بأنَّ سيفهم خادم لنصره.

وأما وفور المال تحتَ أيديهم وانبساط الجاه لديهم وكثرة الضياع عندهم فذلك لهم بعد أن تولَّوا المراتب خمسين سنة في الوزارة والولاية وقيادة الجيوش، وليس فيه فيء من أموال المسلمين كما يزعم الواشون بهم إلى السلطان، فكان أولى بالرشيد وأكرم لنفسه أن يذكر بلوغه المجد والصولة بهم؛ لا أن يدِبَّ فيه الطمع ويمدَّ عينه إلى

ما ادخروا لولدهم بعد أن دبروا دولته هذا التدبير العظيم.

ولما اجتمعتُ بالبرامكة بعد ذلك وخلوت بجعفر النفس الزكية، علمتُ مقدار النُّفرة التي وقعت بينه وبين الرشيد، فقال لي جعفر: انظر كيف أنَّه يركب هذا المركب الوعر؟ ما كفاه أننا أقمنا ملكه ومهَّدنا أمره حتى صار يحسُدنا على ما آتانا الله من النعمة، فوالله، لئن لم يرجع عن غيِّه ليكونن ذلك وبالًا سريعًا عليه(١٨٧) فقلتُ: يا سيدي، ليس للرشيد عنكم مَرغب ولا أظنه يحرم دولته عنايتكم، فقال: تمهل على نفسك، إن لنا فارس وخراسان، فإن يُجاهرنا بالعدوان يقُمْ في وجهه مَن يُغالبه على السلطان.

فلما رأيتُ ما بنفس جعفر من التأثُّر أخذتُ في تهدئة خاطره، وقد كنتُ أعرفه سريع الرجوع عن غضبه، فلم يهدأ ثائر صدره، وإنما أدمن الفكرة فيما يشغله من القلق، وأمرني بألا أفارق بابه في ذلك الوقت.

وكان الفضلُ بن الرَّبيع لا يفتُرُ عن السعاية إلى الرشيد ساعة من ليل أو نهار، ويخوفه منه اشتراكه في مؤامرة جارية بينه وبين الفرس، فكان الرشيدُ يحتال باستبقاء جعفر عنده، والميل إليه بتصنع العطف؛ ليوهمه زوال ما بنفسه من الموجدة، وكان جلوسي إليه في ذلك الوقت قد أقلقه كل القلق، فرأى أن يفصلني عن البرامكة بوجهٍ لا يُرَدُّ على الملوك بأن يوجهني إلى الرَّقَّة في كتاب من لدنه إلى عاملها، وهو يقول لي: إن بنا من جميل الاعتقاد بك ما نرتاح فيه إلى إنفاذك برسائلنا، فكن عند رجائنا فيك، فأدركتُ الحيلة من ذلك الأمر، ولكنْ أشار إليَّ البرامكة ألَّا أُخالف أمره حتى نطمع في حسن النجاح ونحصل من المراد بما تم عليه العزم من إثارة خُراسان والمناداة بخلافة أهل البيت.

فانفصلتُ عن البرامكة بالحيرة في اليوم الذي نزل الرشيدُ فيه السفن إلى العُمْر الذي بناحية الأنبار(١٨٨) وكان الرشيد قد غلب عليه الخوف في ذلك الوقت؛ حتى كان إذا تناول الطعام يخشى أن يكون فيه سُمٌّ(١٨٩) فاستبقى الأطباء على مائدته ممن

كان مخالفًا للبرامكة إلا جبريل بن بختيشوع[١٩٠] وقد طوى عنه سرَّ ما عزم عليه من إقصائهم عن المراتب إلا كلمة حسد قالها له حين رأى إقبال الملوك على بابهم[١٩١] وأنا اليوم أسير حثيثًا حتى لا يفوتني الرجوع إلى بغداد قبل وصول جعفر بموكب الحُجَّاج.

الهوامش

(١) تقويم البلدان ٣٨ و١٤٣.

(٢) أبو الفداء ١ : ١٦٦.

(٣) الفخري، وابن جبير ١٩٥.

(٤) أبو الفداء ١ : ١٦٦، وابن جبير ١٠٢.

(٥) الكندي.

(٦) أبو الفداء ١ : ١٧٦.

(٧) ابن بطوطة ١ : ٢٩، وابن جبير ٣٧، وعبد اللطيف ٦٤.

(٨) تقويم البلدان ١٠٥، وابن جبير ٣٧، وربما كانت المنارة قبل أيامهم أكثر علوًّا مما ذكراه، يقول ابن الأثير في حوادث سنة ١٨٠: إنه كانت بمصر زلزلة عظيمة سقط منها رأس المنارة، ورُبما ذكر المقريزي شيئًا من ذلك في كتاب الخطط والآثار. ويقول القرماني (٦ : ٦٤): إنَّ طولها ألف ذراع، إلى غير ذلك.

(٩) المقريزي، والمحاضرة ١ : ٤٣، والمستطرف ٢ : ١٧٨، وتقويم البلدان ١٠٥.

(١٠) ذكر أبو المحاسن (١ : ٥٢٢) أنه كان عامل مصر في ذلك الوقت وهو سنة ١٨٦ للهجرة.

(١١) يقول ابن خلدون في المقدمة (٣٠٥) ضد ذلك وإنه يسهل وصول العدو إليها.

(١٢) المقريزي ١ : ١٤٧.

(١٣) القزويني ٩٦.

(١٤) ابن جبير، والمقريزي ١ : ١٥٠.

(١٥) ابن جبير ٣٦.

(١٦) تقويم البلدان ١١٣.

(١٧) المقريزي، والمسعودي، وياقوت، وابن جبير.

(١٨) ابن بطوطة ١ : ٣٠، والقزويني ٩٧.

(١٩) المقريزي ١ : ١٥٩.

(٢٠) أبو الفداء، وأبو الفرج ١٨١، والمقريزي.

(٢١) المقريزي ١ : ٤٤.

(٢٢) المحاضرة.

(٢٣) ابن جبير ٣٩.

(٢٤) المقريزي، والمحاضرة ١ : ٥٩، والقرماني ٥ : ١٣٧.

(٢٥) المقريزي.

(٢٦) المقريزي ٣٣٤.

(٢٧) ابن خرداذبة ١٢١، والمحاضرة ٥٩، والمقريزي ١ : ١٦٢.

(٢٨) ذكر صاحب الأغاني أنَّ هذه الدنانير سميت بالميمونية نسبة إلى ميمون بن عامر (١ : ٧٢٧).

(٢٩) المقريزي ٢ : ٤٩٢.

(٣٠) ذكره المقريزي ٢ : ٤٩٣.

(٣١) المسعودي ١ : ٢٧١.

(٣٢) المقريزي ٢ : ٤٩٢.

(٣٣) ذكرها ابن خلدون في المقدمة ١٧٨.

(٣٤) المقريزي ٢ : ٥١٩.

(٣٥) القرماني، والمقريزي ١ : ١٦٢.

(٣٦) المقريزي.

(٣٧) المقريزي ١ : ٤٩٤.

(٣٨) المسعودي ١ : ٢٧٢.

(٣٩) الأغاني ٧٦٥.

(٤٠) المقريزي ١ : ١٦٣.

(٤١) تزيين الأسواق ٢ : ٥١.

(٤٢) مجمع الأنهر ٩٤.

(٤٣) مجمع الأنهر (٧٩٤)، ونقل الشيباني عن ابن جريج أن عباس كان يرتدي برداء قيمته ألف درهم (العقد الفريد ٣ : ٣٤٣).

(٤٤) الزرقاني ٤ : ١٠٤.

(٤٥) البخاري وغيره.

(٤٦) ابن عابدين ٥ : ٣٤٤.

(٤٧) المنوفي.

(٤٨) في المسعودي (١ : ٢٧٢) أسماء الأشهر الرومية مثلما هي اليوم عندنا.

(٤٩) عبد اللطيف ٣.

(٥٠) المنوفي.

(٥١) المقريزي ١ : ٦١، وتقويم البلدان ٤٥.

(٥٢) ابن بطوطة ١ : ٧٧.

(٥٣) المقريزي.

(٥٤) المقريزي.

(٥٥) تقويم البلدان ٤٥.

(٥٦) راجع المجلد الأول من خطط المقريزي.

(٥٧) المقريزي ١ : ٥١، والزرقاني ١ : ٣٧٥.

(٥٨) الإسحاقي ٢٦١.

(٥٩) المنوفي.

(٦٠) المحاضرة ٢ : ٨٩.

(٦١) القزويني ١٥٧.

(٦٢) المقريزي، وابن جبير ٥١، والمسعودي ١ : ١٦٤.

(٦٣) ابن خرداذبه ١٦١، والمسعودي ١ : ٤٠، والمقريزي ١ : ٥٩.

(٦٤) ابن بطوطة ١ : ٧٨.

(٦٥) المقريزي ١ : ٨٠.

(٦٦) المحاضرة ٢ : ١٩١.

(٦٧) المقريزي (١ : ٤١) قول الرحالة: مائة ألف ألف فدان، انتقده ابن المدبر بأنَّ ما يُزرع في مصر هو أربعة وعشرون ألف ألف فدان.

(٦٨) عبد اللطيف ٥١، والشريشي ٢ : ١٠١، والمقريزي.

(٦٩) هذا تشبيه لطيف ذكره عبد اللطيف وغيره من الكتَّاب.

(٧٠) تقويم البلدان ١٠٨.

(٧١) ابن بطوطة ١ : ٨٢.

(٧٢) المقريزي ٢ : ٢٢.

(٧٣) المحاضرة ١ : ٣٤.

(٧٤) المقريزي، وتقويم البلدان ١٠٨.

(٧٥) عبد اللطيف، والمحاضرة.

(٧٦) ابن بطوطة ١ : ٨٢، والمقريزي، والمحاضرة.

(٧٧) عبد اللطيف ٥٣.

(٧٨) الأبشيهي ٢ : ١٧٧.

(٧٩) المقريزي ١ : ١٢٢، وابن جبير ٥٠.

(٨٠) القرماني ٦ : ٥٥.

(٨١) عبد اللطيف ٥٩.

(٨٢) عبد اللطيف ٥٩.

(٨٣) المقريزي، وكتاب المحاضرة للسيوطي.

(٨٤) قال الجاحظ وغيره: عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة، عشر منها في سائر البلاد، وباقيها في مصر (المقريزي، والمحاضرة، والقرماني ٦ : ٥٥).

(٨٥) ابن جبير ٥٤.

(٨٦) تقويم البلدان ١١٥.

(٨٧) المقريزي ١ : ٢٠٤.

(٨٨) ذكر المسعودي (١ : ٢٨٤) الإسرائيليات من الأخبار بمعنى الحكايات التي لا طائل تحتها، وربما كان هذا الخبر لاحقًا بها.

(٨٩) المسعودي ١ : ١٧٢، والقرماني ٥٧٦.

(٩٠) المقريزي ١ : ٣٨.

(٩١) المسعودي ١ : ٢٧٢.

(٩٢) تقويم البلدان، وابن جبير ٥٧.

(٩٣) القزويني ٩٩.

(٩٤) تقويم البلدان ١١٥.

(٩٥) القرماني ٦ : ٥٦.

(٩٦) ابن بطوطة ١ : ١٠٤.

(٩٧) القزويني ٩٤، وابن جبير.

(٩٨) المقريزي ١ : ٢٣٣.

(٩٩) المقريزي ١ : ٢٣٦، وابن بطوطة ١ : ١٠.

(١٠٠) تقويم البلدان ١١١.

(١٠١) المقريزي ١ : ٨٠.

(١٠٢) ١ : المسعودي١٩١.

(١٠٣) المسعودي.

(١٠٤) المسعودي ١ : ٤٧، وابن جبير ٦١.

(١٠٥) ابن جبير ٦٣.

(١٠٦) القزويني ١٢.

(١٠٧) ابن جبير، وابن بطوطة ١ : ١٠٩.

(١٠٨) تقويم البلدان ١٢١.

(١٠٩) المقريزي ١: ٢٠٣.

(١١٠) ابن جبير ٦٨، والمسعودي ١: ٧٨.

(١١١) المقريزي ١: ٢٠٣، وابن جبير ٧١.

(١١٢) أي سنة ١٨٣ للهجرة، وقد ذكره ابن جبير ٧٣.

(١١٣) ابن بطوطة ١: ٣٠٠، وابن جبير ٨٠.

(١١٤) ابن بطوطة ١: ٣٠٣، وتقويم البلدان ٨٧.

(١١٥) ابن جبير ١٠٨.

(١١٦) سورة آل عمران.

(١١٧) ابن جبير ١١٩.

(١١٨) ابن بطوطة ١: ٣٠٤، وابن خلكان ١: ٣٩٨.

(١١٩) ابن جبير ١١٢.

(١٢٠) المسعودي ١: ٣٠٧، وأبو الفداء ١: ١١٧.

(١٢١) وربما لم يجده ابن خلدون خبرًا صحيحًا كما في المقدمة ٣٠٦.

(١٢٢) ابن جبير، والأزرقي.

(١٢٣) الأغاني ٣: ١١٦.

(١٢٤) ابن جبير، والأنس الجليل.

(١٢٥) المقدمة ٣٠٦، والمسعودي.

(١٢٦) الأغاني ١٣: ١٠٨، وأبو الفداء ١: ١٢٠، وابن جبير ١٠٩، والعقد الفريد ٣: ٢٧، وفي مروج الذهب (١: ٢٠٣) أنه ثابت بن إسماعيل، ولعل في إحدى الروايتين أو كلتيهما تحريفًا، وفي هذه القصيدة بيت آخر مشهور وهو قوله:

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قرَّ عينًا بالإياب المسافر

وفي العقد الفريد (١: ١٣٩) أن راشد بن عبد الله أنشد هذا البيت وكان في زمن النبي ﷺ.

(١٢٧) المسعودي ١: ٣٠٥.

(١٢٨) الأبشيهي ١ : ١٥.

(١٢٩) المقدمة ٣٠٧.

(١٣٠) أبو الفداء ١ : ٢٠٨.

(١٣١) ابن جبير ٨١.

(١٣٢) ابن بطوطة ١ : ٣١٣.

(١٣٣) المسعودي ١ : ٣٠٥.

(١٣٤) ابن بطوطة ١ : ٣٠٧.

(١٣٥) ابن جبير ٨٠.

(١٣٦) الكنز ١٢١.

(١٣٧) العقد الفريد ٣ : ٣٥٩.

(١٣٨) القزويني ٧٧.

(١٣٩) الماوردي ٢٧٨.

(١٤٠) ابن جبير ٨٦.

(١٤١) تقويم البلدان ٨٧، والشريشي ٢ : ١١٤.

(١٤٢) في العقد الفريد (٣ : ٣٦٠) أن سقفها قبو مزخرف بالفسيفساء على أربعة أركان، تحت كل ركن منها عمودان من رخام متلاصقان.

(١٤٣) في العقد الفريد (٣ : ٣٥٨) أن بين كل عمودين نحو ١٠ أذرع.

(١٤٤) ذكرها الأتليدي ٧٦.

(١٤٥) ابن جبير ٨٩، والكنز ١٠٣.

(١٤٦) الكندي، وابن جبير ١٠٢.

(١٤٧) المقدمة ١٠٨.

(١٤٨) ابن الأثير، والخميس ٢ : ٣٢٠، وابن جبير ١٠٧.

(١٤٩) راجع مروج الذهب، والأغاني، وتزيين الأسواق.

(١٥٠) الأغاني ٩ : ١٣٩.

(١٥١) تقويم البلدان ٩٤، وابن جبير ١٨٥.

(١٥٢) ابن جبير ١٨٦، والأزرقي.

(١٥٣) تزيين الأسواق ١١٤.

(١٥٤) ابن الأثير، وأبو الفداء، وابن جبير ١٨٩، والقزويني ٥١.

(١٥٥) ابن جبير ١٩١.

(١٥٦) المقدمة ٣٥٧.

(١٥٧) ابن خلكان ١ : ٣٨٣.

(١٥٨) ابن جبير، والسيوطي.

(١٥٩) العقد الفريد ٣ : ٣٦٢.

(١٦٠) القزويني ٧١.

(١٦١) ابن الأثير ٥ : ٤، وأبو الفداء ١ : ٢٠٩، وابن بطوطة ١ : ٢٧٢.

(١٦٢) ابن جبير ١٩٢.

(١٦٣) الأغاني ١٧ : ٨٤.

(١٦٤) ابن جبير، وابن بطوطة ١ : ٢٦٤، وتقويم البلدان ٨٧.

(١٦٥) ابن جبير ١٩٣.

(١٦٦) الإتقان في تفسير القرآن ٢ : ١٦٧.

(١٦٧) ابن جبير ٢٠٠.

(١٦٨) ابن بطوطة ١ : ٢٦٨.

(١٦٩) المسعودي ١ : ٣٣٣.

(١٧٠) المقدمة ١٧٨.

(١٧١) المسعودي ١ : ٣٣٥.

(١٧٢) ابن جبير ١٩٧ و١٩٩، والمسعودي ٢ : ١٨٢.

(١٧٣) ابن جبير ١٩٨.

(١٧٤) ياقوت، وتقويم البلدان.

(١٧٥) أبو الفداء ١ : ١٣٢.

(١٧٦) ابن جبير ١٩٩.

(١٧٧) الأغاني ١٧ : ٢٣.

(١٧٨) الفخري.

(١٧٩) ابن خلكان ١ : ١٥٢.

(١٨٠) السيوطي.

(١٨١) ابن الأثير ٦ : ٦٨.

(١٨٢) ابن الأثير ٦ : ٦٢.

(١٨٣) الأغاني ٣ : ١٤٠، والأتليدي ١٦٨.

(١٨٤) المقدمة ١٤.

(١٨٥) ابن الأثير ٦ : ٦٢.

(١٨٦) في الأغاني (٥ : ١١٣) أن الناس كانوا يتحدثون بتحول الرشيد عن البرامكة قبل نكبتهم بأيام.

(١٨٧) الأتليدي.

(١٨٨) ابن خلكان ١ : ١٥١.

(١٨٩) المسعودي ٢ : ٢١١.

(١٩٠) ذكر ابن خلدون في المقدمة (١٦) أنه كان ينظر في طعام الرشيد.

(١٩١) الأتليدي، والفخري.

الرسالة العاشرة

أُصِبْتُ بِسَادةٍ كانوا عيونا　　　بهم نُسقَى إذا انقطع الغَمامُ

أكتب هذه الرسالة إليك والدمع جارٍ في الآماق، ليس على البرامكة وهم أحياء في الناس، ولكن على الدنيا التي ذهب خيرها وعفَّت البلية رسوم محاسنها، حتى كأنها طلل من هذه الأطلال التي يهجرها الأنس ولا يقف عندها إلا الباكون النادبون.

كنتُ قبل الوصول إلى الرَّقَّة وافاني مِن قِبَل البرامكة رسولٌ يَستقدمني إليهم، ويُعلمني أنَّ الكتاب الذي أحمله إلى عاملها يأمره فيه الرشيد بأنْ يستبقيني عنده، ويمنعني من الرجوع إلى الحضرة لما داخَلَه فيَّ من الريبة، ففضضتُ الكتاب فوجدتُ فيه تلك الإشارة؛ فأصابني من الانقباض ما يُصيب الرَّجل المستسلم للحَيْن؛ لأني ما كُنتُ أُراني ناجيًا من وقوع الغدر بي ووصول المكروه إليَّ، ووقفتُ أتساءل فيما قام بنفس الرَّشيد من سوء المظنة بي بعد أن أدَّيْتُ رسالته حقها من الإخلاص، وخدمته خدمة الناصح الأمين، فلم أجد في نفسي علة إلا المودة التي بيني وبين البرامكة،[1] فأتاني أن أنضمَّ إليهم، فقمت لساعتي وتبدلت بزيي زيَّ الحجاز الجاف، ثم ركبت إلى بغداد مُتنكرًا كيلا يعرفني أحد من الناس.

فلما وصلتها وجدت في أهلها ذلك الخمول الذي يقع في الجماعة من هول عظيم، فاستدللتُ بذلك على وقوع الأمر بينهم وبين الرشيد؛ فأسرعتُ إلى منازلهم فوجدتها مغلقة وعلى أبوابها حرس الخليفة قد وقفوا بالسيوف؛ فاسودَّت الدنيا في عيني، وامتلأ قلبي من الوحشة، وكدت أفقد إحساس رجليَّ من الجَهد، إلا أنه لم يكن لي – وأنا طَلِبة الخليفة – أن أُطيل الوقوف تِلقاء دورهم، فرجعت أمشي على غير دراية لعلِّي أصادف صديقًا أتوجع إليه، وأستطلع أخبارهم من قِبَله، حتى وصلتُ إلى

دار إسحاق النَّديم[٢] فدخلتُ الدار وحسرتُ اللثام عن وجهي، فلمَّا عرفني ترقرقتْ عيناه دموعًا، وقال: بمَ أندُب البرامكة؟ أأُعزِّيك أم أُعزي نفسي أم أُعزي الأيام بفقدهم؟ وبكى حتى خنقتْه العَبْرة؟ وكنت في ذلك الوقت لا أعي من شدة الهول، ولم يكن إسحاق يُكلمني عن أمرهم مع الرشيد إلا كلامًا متقطعًا ممزوجًا بالزفرات.

قد علمتَ مما مضى إليك في الرسالة السالفة موقِف البرامكة من الرشيد، هو يحاول الإيقاع بهم حسدًا على ما صار إليهم من النِّعمة، وهم يسلكون معه مَسلك المودة؛ ليرجع عما قام بنفسه من الحقد وإلا أثاروا الخراسانيين خروجًا عليه في دعوة أهل البيت، وعلمتَ أنَّ الفضل بن الربيع كان موقنًا بزوال النعمة عنه مع بقاء البرامكة، وأنه كان يخوِّف الرشيد مؤامرتهم مع الفُرس ويذكر له أن الخلافة في موقِف بعيد عن التخلص من دهائهم؛ إذ كانت الملوك طَوْعَ أمرهم وأموال الدولة كلها بأيديهم، حتى ملأ صدره من عدواتهم.

ثم علمتَ أن الرشيد كان قد أهداهم مسروقًا غلامه؛ ليوهمهم رضاه، ولكنك تعلمُ أنه كان بينه وبين هذا الغلام مُواطأة على نقل أحاديثهم إليه، وعدِّ أنفاسهم عليهم ومراقبتهم في جميع حركاتهم خديعة منه، حتى إذا نقل إليه الكلام الذي كان يُحدِّثني به جعفر في المشاعر المباركة عمد إلى هدر دمه الزكي، ووجهني إلى الرَّقة مثل المجرمين الذين في نفوسهم تَبِعةٌ من شر، نعوذ بالله من سخطه.

وقد حدثني إسحاق أنَّ الرَّشيد كانَ قبل اليوم الذي نكبهم فيه قد ركب إلى أرباض المدينة ومعه إسماعيل بن يحيى الهاشمي وجماعة من أقاربه، وبينما هو يسير إذ نظر إلى موكِب عظيم قد اعترضه عن بعد، فقال لإسماعيل: يا إسماعيل، لمن هذا الموكب؟ قال: لأخيك جعفر، فالتفت يمينًا وشمالًا وإلى من معه؛ فإذا هم شِرذِمة قليلون، ثم نظر إلى الموكب الذي فيه جعفر فلم يره، فقال: يا إسماعيل، ما فعل جعفر وموكبه؟ فقال: يا سيدي، قد مضى أخوك في طريقه ولم يعلم بموضعك، فقال: ما رآنا أهلًا لأن يُزيِّننا بموكبه ويُجمِّلنا بجيشه، فقال: عفوًا، يا أمير المؤمنين إنه لو علم بموضعك ما تعدَّاك ولا سار إلَّا بين يديك، ثم سار حتى انتهى إلى ضيعة عامرة ومواشٍ

كثيرة وعمارة حسنة، فقال: يا إسماعيل، لمن هذه الضيعة؟ فقال: لأخيك جعفر، فسكت الرشيدُ، وتنفس في كمد، ثم سار، وما زال بضياع بعضها أعمر من بعض، وكُلما مرَّ بضيعة سأل إسماعيل عنها فيقول:

هي لجعفر ولإخوته، حتى وَصل إلى الحضرة، فلما خلا مجلسه قال: يا إسماعيل، انظر إلى البرامكة أغنيناهم وأفقرنا أولادنا وأهل بيتنا، فإني لا أعرف لأحد من أولادنا ضيعة من ضِياع البرامكة[٣] على طريق واحد بقرب هذه المدينة، فكيف بما هو لهم من غير ذلك على غير هذه الطريق في جميع البلدان؟ فقال إسماعيل: يا أمير المؤمنين، إنما البرامكة عبيدك وخدمك والضيعات وأموالهم وجميع ما يملكون هو لك، فنظر إليه نظرة جبَّار، وقال: والله يا إسماعيل، ما عدَّ البرامكة بني هاشم إلا عبيدهم، وإن الدولة لهم، ولا نعمة لبني العباس إلا وهم المنعمون بها عليهم، فقال: أميرُ المؤمنين أَبْصَرُ مِن غيره بخَدَمِه ومواليه، فقال: والله يا إسماعيل، إنك لتعلم أني قلتُ هذا وكأني بك تُخبرهم به فتتخذ به يدًا عندهم، وإني آمرك أن تكتم هذا الأمر؛ فإنه لم يعلم به أحد غيرك، ومتى بلغهم شيء مما جرى بيني وبينك علمتُ أنه ما أفشاه إلا أنت، فقال: يا أمير المؤمنين، أعوذ بالله أن مثلي يُفشي سرك.

ثم ودعه وجاءه من الغد وهو في محل من قصره يُشرف على دِجلة وبإزائه منازل البرامكة التي كانت محفوفة باليمن والبركة، فقال: يا إسماعيل، هذا ما كنا فيه بالأمس، انظر كم على باب جعفر من الجيوش والغلمان والقواد والمواكب، وليس على باب داري أحد، فقال: يا أمير المؤمنين، ناشدتك الله ألَّا يعلقَ بنفسك شيء من هذا؛ فإنما جعفر خادمك ووزيرك وصاحبُ جيوشك، وبابه باب من أبوابك؛ فإذا لم يكن الجند على بابه فعلى باب مَن يكون؟ فقال: والله، إنَّ البرامكة قد ملكوا الدولة واحتجفوا أموال الجباية وانصرفوا عن خدمتي إلى محبة العلويين وتعزيز شيعتهم، وأنا لا أصبر على ذلك. [٤]

وكان جعفر في ذلك الوقت قد عزم على الركوب إلى خراسان[٥] وهو عالم بما أضمر الرشيد له ولأهل بيته من السوء، فما أحب أن يتركهم بغير حِراسة، وإنما أبقى

في يد الفضل رجالًا يعرِف فيهم الأمانة؛ ليقيهم مَكايد الرَّشيد غيرَ أنَّ الرشيد قد فطن لما كان يُباشره من تعبئة الجند؛ فأيقن بالإشراف على الخطر، إلا أن يتمحل في أمر يغلبه به قبل ركوبه إلى خُراسان، فأرسل إلى بني هاشم تحت الليل أن يضموا إليهم جماعتهم، وأمر الفضل بن الربيع أنْ يحوِّط دور الخلافة بما بين يديه من الحرس والغلمان وأرسل إلى يزيد بن مزيد الشيباني(٦) أنه إذا ركب جعفر من الغد إلى دور الخلافة يبعثُ بمن يحوط البرامكة ويقبض عليهم،(٧) واستبقى الأمر سرًّا لم يستخدم في قضائه إلا جماعة من أقاربه(٨) دون الغِلمان الذين كان يغمرهم جودهم وكرمهم، ثم أرسل في تلك الليلة إلى جعفر من يقول له: إنه يمكِّنه من بيوت المال أن يتناول منها ما يشاء، ويأخذ من الجند إلى خراسان مَن ينتخبه ويريده، وإنَّ أمانته فوق كل أمانة وأمثال هذه المصانعة حتى لا يفطنوا لما أخذ في تدبيره من اغتيالهم.

وكان جعفر يعلم بما في تمحُّل الرشيد من المصانعة والرياء، ولكنه ظنَّ أنه يُريد استمالتهم ورُجوعهم إلى الثقة به لا أنه يُريد نكبتهم في صباح تلك الليلة.

ولما أصبحَ الرَّشيد استدعى خادمه مَسرورًا(٩) وقال له: قد انتخبتك لأمر لم أرَ له محمدًا ولا عبد الله ولا القاسم(١٠) فحقِّق ظني فيك، واحذر أن تخالف فتهلك، فقال مسرور: لك عليَّ إمرة مُطاعة، فمرني بقتل نفسي أفعل، فقال: امضِ الساعة إلى الحديقة وحوِّطها بالحرس وضُم إليَّ جماعة من الغلمان ثم اذهب إلى جعفر وجئني به وقل له: إنه وردت كُتب من خُراسان، فإذا دخل الباب فلا تدع مَن معه يدخل بعده، فإذا تمكنتَ منه فخذ رأسه ولا تراجعني في ذلك، وإيَّاك إياك أن يفوتك الأمر. فسار مسرور إلى جعفر فأصابه في داره قد طرح نفسه ليستريح، فقال له: يا سيدي، أمير المؤمنين يدعوك لرسائل وردت الساعة في خريطة البريد من خراسان؛ فلبس جعفر ثيابه وتقلَّد سيفه ثم ركب في جماعة من الحرس والجند؛ لأنه لم يكن بمأمن من غدر العباسيين به، فلما دخل الباب طلع عليه مَن في الحديقة من الحرس وحاولوا ردَّ غلمانه، وهم غير مأمورين بالقتال، فانفرد به مسرور وبضعة عشر رجلًا دخلوا معه الباب فجرَّد عليه السيف، وصاح بمَن معه من العبيد فأهدروا دمه.

وإني لستُ أنسب الشر إلى مسرور هذا الخادم اللئيم، فما هو إلا ذنب مَن استرعاه وهو الرشيد، ومَن استرعى الذئب فقد ظلم، ومع ذلك إني لا أبرئه من تَبِعة ذلك الإثم الفظيع، ولا أرى بينه وبين شديد العقاب إلا الموت الذي يُساق بعده إلى دار العذاب.

هذا ما بلغني من إسحاق، ثم سمعتُ في أحاديث الناس أن جعفرًا لما صار في وسط الحديقة، ولم يرَ معه الجند ارتاع وندم على ركوبه في تلك الساعة، فقال لمسرور: يا أخي، ما القضية؟ فقال: يا سيدي، إن أمير المؤمنين أمرني بقتلك، فيقولون: إنَّ جعفرًا بكى حينئذٍ وجعل يُقبِّل مسرورًا ويقول له: أنت تعلم إكرامي لك دون خدم الرشيد، وأن حاجاتك عندي مقضية في جميع الأوقات، وأنت تعرف مكانتي عند الرشيد وما يوجه إليَّ من الأسرار، ولعلَّ أن يكونوا بلَّغوه عَني باطلًا، وهذه ألف ألف دِينار، وفي رواية عَشرة آلاف ألف دِينار أدفعها إليك الساعة وخلِّني أهيم على وجهي، فقال: لا سبيل إلى ذلك، فقال: احملني إليه وقفني بين يديه، ولعله إذا وقع نظره عليَّ تدركه الرَّحمة فيصفح عني، فقال: وهذا أيضًا لا سبيل إليه،(١١) ولا يُمكنني مُراجعته، فقال: توقف عني ساعة وامضِ إليه، وقل له: إنك فرغت مما أمرك به واسمع ما يقول ثم عُد وافعل ما تُريد، وإني أشهد الله وملائكته على أني أشاطرك نعمتي وأوليك من الأمور جسيمًا إن فعلتَ ذلك وسلمتَ لي نفسي، ولم يزل به وهو يبكي فيما يقولون طمعًا في الحياة حتى قال له رُبما يكون ذلك، ثم إنه وَكَل به غلمانًا من السودان يحفظونه ومضى إلى الرَّشيد وهو جالسٌ يقطر غضبًا، فلما رآه قال له: ثكلتْك أمك ماذا فعلت؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قد أنفذت أمرك، قال: فأين رأسه؟ قال: في قبة الحديقة، قال: فأْتِني به الساعة،(١٢) فرجع مسرور وجعفر يُصلي وقد ركع ركعة فلم يُمهله أنْ يُصلي الثانية بل سلَّ سيفه وضرب عنقه وأخذ رأسه وطرحه بين يدي الرشيد يشخُب دمًا، فيقولون: إنَّ الرشيد تنفَّس الصُّعَداء وبكى بكاءً شديدًا، وجعل يقول كالمعاتب: يا جعفر، ألم أحلَّك محلَّ نفسي؟ يا جعفر، ما كافأتني ولا عرفتَ حقي ولا حفظت عهدي ولا ذكرتَ نعمتي ولا فكرت في

صلاح أمري، يا جعفر، قد غرتك نفسك فدار عليك الدهر، وكان يقول ذلك وهو يقرع أسنانه بالقضيب بعد الكلمة والكلمة، وكان ذلك بين سَلْخ المحرم[١٣] وأول صفر. [١٤]

وقوع التواني في الدولة بعد نكبة البرامكة

ولما اتصلت بي هذه الأخبار الفاجعة؛ انهملت عيناي بالدموع لقتل جعفر النفس الزكية، بقضاء لا حيلة بعده إلا اللوعة والنَّدم. فكنتُ مثل الرجل الذي يرى في منامه هولًا ينزل به وهو لا يُدرك سره، ولا يجد لنفسه مردًّا يتقي به شره، وإن كان يسُوءني من الرشيد احتياله في مُصانعة البرامكة[١٥] قبل ركوب جعفر إلى خراسان ليذهَلوا عن تدبير ما يتقون به مكايده ظنًّا بزوال ما عنده من الموجدة، مع أنه كان يُضمر قتلهم،[١٦] (والعياذ بالله من شرور النيات). فإني ليسوءني أكثر من ذلك تتبعه النقمة فيمن أخذه منهم – كشف الله الغمة عن قلوبهم – فقد بلغني عن يحيى والفضل – وا حُرقتاه – جهد شديد يُقاسيانه في الحبوس، فإنهما ليطلبان الماء الفاتر للوضوء فلا يحصلان عليه، ويَشتهيان الطعام تأتيهما به الحراس فلا يجدان مَن يطبخه لهما فيتوليان طبخه بأنفسهما ويقومان على القِدْر[١٧] مع جلالة قدرهما، فيا رحمتَا لهؤلاء الملوك الذين أخذهم الرَّشيد غدرًا[١٨] تنعاه عليه الأيام، ويُسأل عنه في يوم القيام. وإني لأحسبُ جعفرًا مع ما أصابه من الأمر الفظيع أكبر حظًّا من أبيه وإخوته، إذ قَدِم على ربه شهيدًا في دعوة أهل البيت، ولم يَصِرْ إلى هذا الهوان[١٩] الذي صاروا إليه وهم الذين عرفتهم عظماء الملة، والرؤساء من أهل التجِلَّة، والذين آتَوا الرشيد بحكمتهم مَنَعة لم يكن مثلها لدولة من دول الإسلام.

ولقد كنت أحب أن أتوصل إلى موضع البرامكة أو أستنبط حيلة لإنقاذهم، مما يُعانون من الشِّدة، غير أني رأيتُ الأمر لا يتم على الوجه الذي أرومه إلا بالقوة التي تُغالب الحرس، ولما كانت جماعتُنا في بغداد فئة قليلة من الرجال، وأكثرهم داخل في جيش الخليفة وتحت إمرة العباسيين أيقنتُ أن مجاهرة الرشيد بالعدوان قبل العودة إلى

فارس ليست من الرأي الصواب، ولم يكن إحجامي عن ذلك خوفًا على نفسي من القتل؛ لأنَّ النفوسَ لا يعظم بذلها في سبيل البرامكة، ولكن رحمة بهم من جور الرشيد الذي يضيِّق عليهم بقدر ما يرى من ميل الناس إلى الوصول إليهم أو الثأر بدمهم، فقد بلغني أنه لما قام عثمان بن نهيك ليثأر لجعفر؛ وهو يقول والسيف صَلْت في يده: يا ضُلَّ ما تجري به العصا، واجعفراه، واسيداه. والله، لأقتلن قاتلك ولأثأرنَّ بدمك،[٢٠] عزم الرشيد بعد قَتْل عثمان هذا المبرز سيفَه، الكريمةِ نفسُه على التضييق عليهم وتفريقهم في الحبوس المنقطعة وقبض ضياعهم عن أهل بيتهم[٢١]حتى يقتلهم بالشدة التي هي أمرُّ من القتل.

وقد مضى عليَّ اليوم في بغداد وأنا مُتقطع النفس سبعة وأربعون يومًا لم آلُ فيها جهدًا للوصول إليهم؛ فلم أحصل على ذلك مع وفور ما بذلته من المال، وكنتُ أحبُّ أن ألقى أحدًا من خدمهم وحُجابهم فلم أظفَر بواحد منهم في بغداد، وكأني بهم قد تصدَّعوا في الآفاق[٢٢] في جملة مَن هرب من غِلمانهم وجواريهم ومُغنياتهم[٢٣] ومن هو معروف بمخالطتهم من العُلماء والشُّعراء والندماء وأهل الأدب، غير أني رأيتُ فيمن بقي من الطامعين فيهم دموعًا يسترونها عن العُيون، وما وجدت منهم إلا منقبض النفس، ومَن يُذيبه الأسف عليهم حتى كأنهم صدع واحد في لوم الرشيد على قتلهم،[٢٤] فما أذكر أني نزلتُ مرة إلى السوق إلا نظرتُ رقاع الأشعار مُعلقة على الحيطان رثاء لجعفر وندبًا للدنيا لما لحق أهله من النَّكبة الفظيعة.

ومما بقي في ذهني من هذه الأشعار قول بعضهم، وأظنه الرقاشي أو أبا نواس:[٢٥]

الآن استرحنا واستراحت ركابنا ... وأمسك من يُجدي ومن كان يجتدى

فقل للمطايا قد أمِنتِ من السُّرى ... وطيِّ الفيافي فدفدا بعد فدفد

وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر ... ولن تظفَري مِن بعده بمسوَّد

وقل للعطايا بعد فضلٍ تعطلي ... وقل للرزايا كل يوم تجددي

ودونِــك ســيفًا برمكيًــا مهنــدًا أصــيب بســيف هــاشمي مهنــدِ

وقولهم: [٢٦]

يا منــزلًا لعِــب الزمــان بأهلــه فــأبادهم بتفــرق لا يُجمَــعُ

إن الــذين عهــدتَّهم فيمــا مضــى كــان الزمــان بهــم يضــر وينفــعُ

أصــبحتَ تُفــزِع مَــن رآك وطالمــا كنــا إليــك مــن المخــاوف نَفــزَعُ

ذهــب الــذين يُعــاش في أكنــافهم وبقــي الــذين حيــاتهم لا تنفــع

وقرأت رقعه مكتوبًا عليها هذه الأبيات، وأظنها من نظم أنس بن أبي شيخ النصري[٢٧] صاحب جعفر برَّد الله مَضجعه وسقى ضريحه صيَّب الرحمة والرضوان:

لعمـرك مـا في المـوت عـار علـى الفـتى إذا لم تصــبه في الحيــاة المعــاير

ومــن كــان ممــا يُحـدث الـدهرُ جازعًـا فــلا بــد يومًــا أن يُــرى وهــو صــابر

فــلا يبعــدنك الله عــنيَ جعفــرًا بروحــي ولــو دارت علــيَّ الــدوائر

فآليــت لا أنفــك أبكيــك مــا دعــتْ علــى فــننٍ ورقــاء أو طــار طــائر[٢٨]

وقال علي بن أبي معاذ: [٢٩]

يا أيهــا المغــتر بالــدهر والــدهر ذو صَــرْف وذو غــدر

لا تأمــن الــدهر وصــولاته وكــن مــن الــدهر علــى حِــذْر

إن كنــت ذا جهــل بتصــريفه فــانظر إلى المصــلوب بالجِســر

وخــذ مــن الــدنيا صــفا عيشــها واجْــرِ مــع الــدهر كمــا يجــري

كــان وزيــر القــائم المرتضــى وذا الحِجــا والفضــل والــذكر

وكانــت الــدنيا بأقطارهــا إليــه في الــبر وفي البحــر

يشــيِّد الملــك بآرائــه وكــان فيــه نافــذ الأمــر

فبينمـــــا جعفــــر في ملكـــــه عشـــــية الجمعـــــة بالقصـــــر
يطــــير في الــــدنيا بأجناحـــــه يأمُـــل طـــول الخلـــد والعمـــر
إذ عثـــر الـــدهر بــــه عثــــرة يا ولينـــا مـــن عثـــرة الـــدهر
فغـــودر البـــائس في ليلـــة السَّـــ ـــبْت قتـــيلًا مطلـــع الفجـــر
وجــــــيء بالشـــــيخ وأولاده يحـــيى معًـــا في الغُـــلِّ والأســـر
والبرمكيـــــــين وأتبـــــــاعهم مَـــن كـــان في الآفـــاق والمصـــر
كأنمـــا كـــانوا علـــى موعـــد كموعـــد النـــاس إلى الحشـــر
وأصـــبحوا للنـــاس أحدوثـــة ســبحان ذي الســلطان والأمـــر

وقال سَلْم الخاسر:

خـوت أنجـم الجـدوَى وشُـلَّت يـد النـوى وغاضــت بحــار الجــود بعــد البرامــك
هــوت أنجــم كانــت لأبنــاء برمــك بهــا يعــرف الهــادي طويــلَ المناســك

وقال أشجع السُّلَمي:

ولَّى عـــن الـــدنيا بنـــو برمـــك فلـــو تـــوالى النـــاس مـــا زادوا
كأنمـــــا أيامهـــــم كلهـــــا وهـــي لأهـــل الأرض أعيـــاد

وقال فيهم أيضًا:

قـــد ســـاد دهـــرٌ ببـــني برمـــك ولم يـــدع فـــيهم لنـــا لُقْيـــا
كـــانوا أولي الخـــير وهـــم أهلـــه فـــارتفع الخـــير عـــن الـــدنيا

وقال فيهم صالح الأعرابي:

لقــد خــان هــذا الــدهر أبنــاء برمــك وأيُّ ملـــوك لم تخنهـــا دهورهـــا
ألم يـــك يحـــيى والي الأرض كلهـــا فأضـحى كمـن وارتْـه منهـا قبورهـا

وقال واحد من بيت البرامكة في رثائهم، وقيل بل هو سليمان الأعمى أخو مسلم بن الوليد:

أُصِبتُ بسادة كانوا عيونا ... بهم نُسقى إذا انقطع الغمام

فقلت وفي الفؤاد ضريم نار ... وللعَبَرات من عيني انسجام

على اللذات والدنيا جميعًا ... ودولة آل برمك السلام

جزِعتُ عليك يا فضلُ بنَ يحيى ... ومَن يجزع عليك فلا يُلام

هَوَتْ بك أنجُم المعروف فينا ... وعزَّ بفقدك القوم اللئام

وما أبصرتُ قبلك يا ابن يحيى ... حسامًا قدَّه السيفُ الحسام

إلى أن يقول:

أألْهُو بعدكم وأَقَرُّ عينًا ... عليَّ اللهوُ بعدكم حرامُ

وكيف يطيب لي عيش وفضلٌ ... أسيرٌ دونه البلد الشآم

وجعفر ثاويًا بالجسر أبلت ... محاسنه السمائم والقَتام

أمرُّ به فيغلبني بكائي ... ولكنَّ البكاء له اكتتام

أقول وقمت منتحبًا لديه ... إلى أن كاد يفضحني القيام

أما والله لولا خوف واشٍ ... وعين للخليفة لا تنام

لطفنا حول قبرك واستلمنا ... كما للناس بالحجر استلام[٣٠]

فكان الرشيد يخاف من كثرة البكاء عليهم وقوع الفتن في الدولة؛ فلذلك منع الشُّعراء من رثائهم[٣١] وجعل عقاب مَن يُقدم على ذلك القتلَ،[٣٢] وأمر الحراس أن ينزعوا الرقاع التي عُلقت في الأسواق؛ لئلا يثور ثائر الشغب من الشعب[٣٣] ولكنه لم يبلغ من ذلك الغاية التي كان يرُومها من محو ذكرهم[٣٤] وطمس معالمهم بعد أن زينوا الخلافة بمحاسنهم خمسين سنة وانطبعت في قلوب الناس محبتهم[٣٥] بما صنعوا من

المعروف، وبذلت أيديهم من العطاء.

ثم إن خوفه من غوائل هذا الأمر لا يقف عند ما كان يراه من وقوع الفتن في الدولة فرُبما وصل إليه أنَّ فارس قد قامت فيها القيامة، وأن خراسان(٣٦) قد عصفت فيها ريحُ الفتنة، والمغرب قد تضعضع حُكمه في يد ابن الأغلب، والروم قد جاشوا في بلدهم وامتنعوا عن تأدية الجزية لعلمهم باختلال الدولة بعد نكبة البرامكة وضعف آل الربيع الذين تولَّوا الوزارة بعدهم، ولا أرى لهم بها استمتاعًا طويلًا كما يُشير أبو نواس إلى ذلك بقوله:(٣٧)

ما رعى الدهر آل برمك لما ... أن رمى ملكهم بأمر فظيع

إن دهرًا لم يرع عهدًا ليحيى ... غير راعٍ ذمامَ آل الربيع(٣٨)

حتى إذا اتصل بهم خبر الروم والتوائهم عن الخراج لم ينبههم العزم ولا الحزم على إبلاغ الرشيد بأنفسهم،(٣٩) بل اتخذوا طريقة البلاغ على ألسنة النُّدماء، وفي ذلك يُقول الشاعر استخفافًا بالأمر، وهذا بعيد عن سياسات الدول: (٤٠)

نَقَض الذي أعطاكه نفقور ... فعليه دائرة البوار تدور

أبشر أمير المؤمنين فإنه ... غنم أتاك به الإله كثير

فتأمل –رعاك الله – هذه الدولة التي كانت زينة الدنيا في أيام البرامكة(٤١) كيف صارت إلى رجال لا رأي عندهم ولا عزيمة، فإنْ يبلغك عن وهنها خبرٌ فيما بعد؛ فاعلم أنَّ صدور هذا الفتور ناشئ عن فتور الصدور، وهذه الجنود التي تراها في قبضة الرَّشيد لا تنفع دولته ما لم يكن عنده عقل يُدير به سياسته، فكم رأينا من دولة كانت في العالم عظيمة؛ فأعمى ساستَها الجهلُ؛ فانحطتْ لفقدان الحكمة، ودولة كان أمرها في توانٍ فتولاها رجال كبراء أصلحوا ما فيها من الاختلال، وصعِدوا بها من العزة المقام الذي لا ينال.

وتأمل الدولة الأموية كيف قامت بمعاوية بطل السياسة والتدبير، إذ ضم الإسلام إلى مصلحة واحدة من طرف المشرق إلى أقصى المغرب،(٤٢) ثم أقام دولته على هذا

الأساس المتين، ثم تأمل ما صنع الحجاج بن يوسف وكيف أصلح ما فسد من العراق، وأزال ما وقع بين أهله من الشقاق؛ حتى جعل الجزيرة والحرمين أقرب إلى طاعة الأمويين من الشأم ومصر.

ثم انظر إلى الدولة العباسية كيف قامت على أثر تلك الدولة بتدبير أبي مُسلم – رحمه الله – وكيف عجز أبو جعفر بعد مقتله عن رد الفُرس والأكراد إلا بسياسة خالد البرمكي، الذي ضمن له الكفاية عليهم بالرأي(٤٣) دون الجنود.

وانظر إلى دولة الرَّشيد كيف زَهَتْ في وزارة البرامكة بما لم تَزْهَ به دولة(٤٤) الهادي، ووزراؤه أغفال من آل الربيع.

فهذه دول لم تزهَ بقُوةِ الجند كما يسبق إلى وهم الناس؛ لأنه لم يكن لأبي مُسلم من الرجال ما كان لملوك بني أمية، ولم يكن للرشيد ما كان للهادي قبله، وإنما كان المعزز لها رجالًا يُرسلون من عقولهم على الناس أشعة كأشعة الشمس بها يستنيرون، وفي ضوئها يسيرون، ولا سيما هؤلاء البرامكة الأمجاد الذين حرَم الرشيد دولتَه مشاركتهم له فيها وتدبير شئونها، ولستُ أعلم ما يكون من أمره مع صُهْب السِّبال(٤٥) ولقد قام به اليوم من الندم والأسف(٤٦) على جعفر والتلهف على ما سبق به القضاء ما يشغله عن الدنيا قاطبة، فقد أخبرني مَن هو مقرَّب إليه أنه يذكره لكل طلوع شمس، ويبكي عليه بتحرُّق نفس، ولا يستطيع الخلوة بنفسه على انفراد بعد مصرعه، إلا أن يكون عنده جماعة يلهو بمسامرهتم عما فرط منه في أمره(٤٧) وإذا خلا مجلسه أمر الحُجَّاب أن يُدخلوا عليه مَن يَجِدونه من الندماء؛(٤٨) ليستأنس بهم ويتسلى بمنادمتهم عما هو فيه من البلاء، وقد رأى خلل السياسة في دولته وكثرة الأراجيف.

فيما يتحدث به الناس من أسباب نكبة الرشيد للبرامكة

ولما كان الحديثُ عن هذه النَّكبة الفظيعة دائرًا على ألسنة الناس اختلفت آراؤهم فيما دعا الرَّشيد إليها، وإنْ كانت خواطرهم متوافقة في لومه والبكاء على

جعفر؛ فمِن قائل: إنه نكبه وأهل بيته؛ لاستبدادهم بأمر الدولة واحتجافهم أموال الجباية، حتى لقد كان يطلب اليسير من المال فيما يزعمون فلا يصل إليه، ومِن قائل: إنه حَنِق على جعفر لتطاوله عليه في الكلام؛ إذ كان يقول لي: لئن لم يرجع الرشيد عن سوء ظنه بهم؛ ليكونن ذلك وبالًا سريعًا عليه،(٤٩) ومِن قائل: إنه تنغص من الفضل أن يكون أكرم من أولاده، ومن جعفر أن يكون أفصح منهم لسانًا وأحكم سياسة، ومن مُحَمَّد أن يفضُلهم في المروءة، ومن موسى أن يغلبهم في الشجاعة فنكبهم لذلك.

ولستُ أطيل عليك الكلام في أمر هؤلاء الملوك الذين رماهم الدَّهرُ بالأرزاء وسحب عليهم أذيال الفناء، ولو أَنِّي كتبتُ إليك غير ما ذكرتُ ما بقي لديَّ إلا البُكاء والنحيبُ، على أني أحب أن أختم رسالتي إليك عنهم بذكر مأثُرة من بعض ما صنعوا إلى الورى من الجميل. وهي: أن الرشيد(٥٠) مع تشديده في النهي عن رثائهم بلغه أنَّ رجلًا يحضُر ليلًا إلى دورهم وينشد أشعارًا ويذكر مَحاسنهم ومَآثرهم ويندبهم ويبكي عليهم ثم ينصرف، فدعا مسرورًا هذا الخادم اللئيم وسارَّه بالأمر وأمره بأن يمضي تحت الليل حتى يرد تلك المنازل الدارسة التي كانت مظهر الأنس بما آتى الله أهلها من سعة الملك، وأن يستتر خلف بعض الجدران هو واثنان من الخدم سماهما له، وأظنهما ياسرًا ومروان، حتى إذا جاء ذلك الشيخ وبكى وندب وأنشد الأشعار قبضوا عليه وجاءوا به إليه؛ فأخذ مسرور الخادمين ومضى بهما آخر الليل إلى تلك المنازل، فإذا هم بغلام قد أقبل ومعه بساط وكرسي حديد، وأقبل بعده شيخٌ له جمال وعليه مهابة وآثار نعمة، فجلس على الكرسي وجعل يبكي وينتحب ويقول:

ولما رأيت السيف جدَّل جعفرًا ... ونادى منادٍ للخليفة في يحيى
بكيتُ على الدنيا وزاد تأسفي ... عليهم وقلتُ الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها، فلمَّا فرغ قبضوا عليه، وقالوا له: أجب أمير المؤمنين؛ ففزع فزعًا شديدًا، وقال: دعوني حتى أوصي بوصية؛ فإني لا أُوقن بعد اليوم بحياة، ثم تقدَّم

إلى بعض الدكاكين واستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصيته وسلَّمها لغلامه، ثم سار به مسرور إلى دار الرشيد، فلمَّا مَثَل بين يديه زجره وقال له: مَن أنت؟ وبِمَ استوجب البرامكة منك ما تفعل في خرِبات دورهم؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن للبرامكة أياديَ خطيرة، أفتأذنُ لي أن أُحدِّثك بحالي معهم؟ قال: قل، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك، وقد زالت عني نعمتي كما تزول عن الرجال، فلما ركبني الدَّين واحتجتُ إلى بيع ما على رأسي ورءوس أهلي، وبيع بيتي الذي ولدتُ فيه أشاروا عليَّ بالخروج إلى البرامكة فخرجتُ من دمشق ومعي نيف وثلاثون امرأة وصبيًّا وصبية، وليس معنا ما يُباع أو يُوهب، حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد فدعوتُ بثياب كنتُ أعددتها لأستتر بها فلبِستها وخرجت وتركتهم جياعًا لا شيء عندهم، ودخلت شوارع بغداد فإذا بمسجد مزخرف وفي جانبه شيخ متزيٍّ بأحسن زي وزينة، وعلى الباب خادمان، وفي الجامع جماعة جلوس فطمِعتُ في القوم، ودخلتُ المسجد وجلستُ بين أيديهم، وكنتُ أقدِّم رجلًا وأؤخِّر أخرى، والعرقُ يسيل مني؛ لأنها لم تكن صناعتي، وإذا بخادم قد أقبل ودعا القوم، فقاموا وقمت معهم حتى دخلنا جميعًا دار يحيى بن خالد، وإذا هو جالس على دكة في وسط بُستان فيه أطيب الرياحين فسلَّمنا عليه فردَّ علينا السلام وهو يعدُّنا مائة وواحدًا، وبين يديه عشرة من ولده وإذا بغُلام أمرد قد عذَّر خداه قد أقبل من بعض المقاصير وبين يديه مائة خادم مُتمنطقون في أوساطهم بمنطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال، ومع كل واحد مجمرة من الذهب، في كل مجمرة قطعة من العود كهيئة الفِهْر قد قرن بها مثلها من العنبر، فجلس الغلام بجانب يحيى ووضعتْ تلك المجامر بين يدي الغلام، ثم قال يحيى للقاضي: زوِّج بنتي عائشة من ابن عمي هذا، فخطب القاضي خُطبة الزواج وأجرى صيغة العقد وشهد أولئك الجماعة، وأَقبلوا علينا بالنِّثار من بنادق المسك والعنبر، فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كُمي، ونظرتُ فإذا الحاضرون بالمجلس ما بين يحيى وأولاده والمشايخ والغلام مائة واثنا عشر رجلًا، وإذا بمائة واثني عشر خادمًا قد أقبلوا يحمل كل واحد منهم صينية من فضة عليها ألف دينار، فوضعوا بين يدي

كل واحد منا صينية، فرأيت القاضي والمشايخ يصبون الدنانير في أكمامهم، ويجعلون الصواني تحت آباطهم، ويقُومون واحدًا بعد واحد حتى بقيتُ وحدي لا أجسر على أخذ الصينية فغمزني خادمُ؛ فجسرتُ على أخذها، وجعلتُ الذَّهب في كُمي وأخذت الصينية بيدي، ثم قمتُ وجعلت ألتفت خلفي مخافة أن أُمنع من الذهاب، فبينما أنا كذلك في صحن الدار ويحيى يلحظُني إذ قال للخادم: ايتني بهذا الرجل، فرُدِدتُ إليه، فأمرني بصب الدنانير والصينية وما في كمي، ثم قال: اجلس فجلستُ، فقال لي: ممن الرجل، ولِمَ تلتفت خلفك؟ فقصصت عليه قصتي، فقال للخادم: ايتني بولدي موسى، فأتى به، فقال: يا بني، هذا رجل غريب فخذه إليك واحفظه بنفسك ونعمتك، فقبض موسى عليَّ وأدخلني إلى دار من دوره وأكرمني غاية الإكرام وأقمتُ عنده يومي وليلتي في ألذِّ عيش وأتمِّ سرور، فلمَّا أصبح دعا أخاه محمدًا، وقال له: إن الأمير قد أمرني بالعطف على هذا الرجل وغير خافٍ عليك اشتغالي اليوم في دار أمير المؤمنين، فاقبضه إليك وحوطه بنعمتك، ففعل ذلك وأكرمني غاية الإكرام، فلمَّا كان من الغدِ تسلمني أخوه العباس فبتُّ ليلتي عنده بين غِناء وأنوار وبهجة ثم تسلمني أخوه خالد(٥١) ولم أزل في أيدي البرامكة يتداولونني مدة عشرة أيام لا أعرف خبر عيالي وأهلي أفي الأموات هم أم في الأحياء؟

فلما كان اليوم الحادي عشر جاءني خادم ومعه جماعة من الحشم والغلمان، فقالوا لي: قم فاخرج إلى عيالك بسلام، فقلتُ: وَيلَاه سُلِبْتُ الدنانير والصينية وأخرج إلى عيالي على هذه الحالة، إنا لله وإنا إليه راجعون، فرفع الستر الأول ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع، ولما رفع الخادم الستر الأخير قال لي: مهما يكن لك من حاجة فارفعها إليَّ فإني مأمور بقضاء جميع ما تأمرني به، ثم بدت لي حجرة كالشمس بهاءً وإشراقًا، واستقبلتْني منها رائحة النَّد والعود ونفحات المسك، وإذا بصبياني وأهلي يتقلبون في الحرير والديباج، وحمل إليَّ ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار ومنشوران بضيعتين من عمل السواد، وتلك الصينية التي كنتُ أخذتها بما معها من الدنانير والبنادق، وأقمتُ يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم

الناس أأنا من البرامكة أم رجلٌ غريبٌ اصطنعوه؟

فلمَّا نزلتْ بهم الفاجعات أجحفني عاملك على العراق وألزمني في هاتين الضيعتين ما لا يفي دخلهما به، ولما تحامل عليَّ الدهر كنت في آخر الليل أقصد منازلهم، فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إليَّ وأشكر عطفهم عليَّ.

فقال الرشيد: كم أخذ منك هذا العاملُ؟ قلتُ كذا وكذا، قال: هو مردود عليكَ وستبقى أنت وعيالكُ من بعدك على ما كان لك في أيام البرامكة؛ فعلا نحيب الرجل حتى كاد يقع من شدة بكائه، قال له: يا هذا، قد أحسنَّا إليك بردِّ ما قد سُلب منك، فما يبكيك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، وهذا أيضًا من صنائع البرامكة، إذ لو لم آتِ منازلهم فأبكيَهم وأندُبَهم حتى اتصل خبري بأمير المؤمنين وفعل بي ما فعل ما كنتُ أصل إلى أمير المؤمنين؛ فدمعت عينا الرشيد وظهر عليه الحزن، وقال: لَعَمْري هذا من صنائع البرامكة فعليهم فابْكِ وإياهم فاشكر،[٥٢] ولله دَرُّ أبي نواس حيث يقول في وداع الدنيا التي أُوحِشت لفقدهم:

سـلامٌ علـى الـدنيا إذا مـا فُقِـدتُمُ بـني برمـك مـن رائحـين وغـادِ٥٣

الهوامش

(١) ذكره الأغاني (١: ٢٥ و٢: ١٢٣)، وقبض الرشيد على صنائع البرامكة ومَن هو مشهور بمخالطتهم مذكور في كتب التاريخ.

(٢) في الأغاني (٥) أن إسحاق بقي ميالًا مع البرامكة بعد مقتل جعفر.

(٣) الدميري١ : ٥٤، والعقد الفريد ٤ : ٣١.

(٤) أبو الفداء ٢ : ١٧.

(٥) ذكر الأتليدي أن جعفرًا كان عازمًا على الركوب إلى خراسان في ذلك الوقت.

(٦) وقد تقدم أنه كان منحرفًا عن البرامكة.

(٧) ابن الأثير، وأبو الفداء، والعقد الفريد.

(٨) ابن خلكان ١ : ١٥٢.

(٩) الأتليدي، والأغاني ١١ : ٥٤، وابن خلكان ١ : ١٥٢، وابن الأثير ٣ : ٦٣.

(١٠) قوله: مُحَمَّد وعبد الله والقاسم، يريد بهم الأمين والمأمون والمؤتمن أولاده.

(١١) الأغاني ١١ : ٥٤، والأتليدي ١٣٧.

(١٢) ابن الأثير ٦ : ٣٦.

(١٣) ابن خلكان ٢ : ١٥٢.

(١٤) أبو المحاسن ١ : ٥٢٦.

(١٥) في الأغاني (١١ : ٥٤) وغيره أن الرشيد كان يصانع البرامكة.

(١٦) في العقد ٣ أنه كان يريد قتلهم.

(١٧) الأتليدي ١٧٨.

(١٨) الفخري.

(١٩) ذكر هوان البرامكة في محبسهم ابن الأثير وابن عبد ربه والأبشيهي والأتليدي وأبو الفرج وغيرهم.

(٢٠) ابن الأثير ٦ : ٦٦.

(٢١) أبو الفداء ٢ : ٨، والأغاني ٨:٧٩، والأتليدي ١٧٤، وابن الأثير ٦ : ٣٦.

(٢٢) الأتليدي ١٧٤.

(٢٣) الأغاني ٣ : ١٨٣.

(٢٤) أبو المحاسن ١ : ٥٢٧، والفخري، وابن الأثير ٦ : ٧، والعقد الفريد، والأتليدي.

(٢٥) ابن الأثير ٦ : ٦٤، وأبو الفداء ٢ : ١٨، والمسعودي ٢ : ٢٧٩.

(٢٦) الأتليدي ١٨٠.

(٢٧) ذكره صاحب الأغاني (١٧ : ٣٣)، وقال صاحب العقد الفريد: إن الرشيد قتله بعد نكبة البرامكة ١ : ١٨٨.

(٢٨) الأغاني ١٥ : ٣٦.

(٢٩) المسعودي ٢ : ٢٢٩.

(٣٠) الأغاني ١٥ : ٣٦.

(٣١) الفخري، والنواجي، والأتليدي.

(٣٢) الإسحاقي ٩٨.

(٣٣) أعلام الناس ١٧٤.

(٣٤) ابن الأثير ٦ : ٧٥، والعقد الفريد ٣ : ٢٦، وابن خلكان.

(٣٥) الأتليدي، وابن الأثير، والفخري، وأبو الفداء.

(٣٦) الأتليدي ١٧٤.

(٣٧) كان أبو نواس منحرفا عن الفضل بن الربيع، وفيه يقول:

أيهـــا الراكـــب المُجِـــدُّ إلى الفضْـــ ـــل ترفَّـــقْ فـــدونَ فضـــلٍ حِجـــابُ

ونعـــم، هَبْـــكَ قـــد وصـــلتَ إلى الفضـــ ـــل فهـــل في يـــديك إلا الـــترابُ

(٣٨) المحاضرة ٢ : ١١٤.

(٣٩) الأغاني ١٧ : ٤٦.

(٤٠) السيوطي، وابن خلدون، وابن الأثير ٦ : ٦٦، والأغاني ١٧ : ٤٥، والمسعودي ١ : ١٥٨.

(٤١) الأتليدي.

(٤٢) نذكر هنا أنه ما توطد للإسلام ملك في إفريقية إلا في خلافة معاوية بن أبي سفيان.

(٤٣) ابن خلكان ١ : ١٤٩.

(٤٤) الزمخشري في ربيع الأبرار.

(٤٥) هي لقب للروم.

(٤٦) الأغاني ١٧ : ٧٤.

(٤٧) العقد الفريد ٣ : ٢٨.

(٤٨) ابن خلكان ١ : ٣٢، وذكر غيره أن الرشيد كثيرًا ما كان يُوجِّه خادمه في طلب بعض خواصِّ الدولة ومَن يكون عندهم حينما يطلبهم.

(٤٩) الأتليدي ١٦٨.

(٥٠) هذه القصة قد وقعت للمأمون لا للرشيد، وإنما ذكرناها ها هنا تتميمًا لمحاسن البرامكة.

(٥١) ذكره صاحب العقد الفريد (٣ : ٢٨) من أولاد يحيى بن خالد.

(٥٢) الفخري، والأتليدي ١٩٩، والأبشيهي ١ : ٢٤٣.

(٥٣) الوطواط ١١٣.

خاتمة الكتاب

أودعت رسالتي اليوم إليك سطورًا قد كتبتها بدموع العين، وأنا بين حزنٍ على هؤلاء الشُّهداء، وخوفٍ من الرشيد أن يُعلمه بموضعي الرقباء؛ فيقطعني ما ينالني منه عن الاستصراخ إلى دعوتهم في خراسان وفارس، وسائر بلاد الخير واليُمْن؛ لأني علمت من بعض المقربين إليه أنَّه يطلبني طلبًا حثيثًا، وقد جعل لمن يأتيه بي مالًا جزيلًا، ورُبما كان هذا الكتاب آخر عهدي بمراسلتك بعد اليوم...

وإن كنتَ قد رأيتَ فيما تقدَّم إليك من الكُتب السَّالفة أنَّ العرب قد حصَّلوا في زمامنا هذا ما لم يختلج في صدورهم زمن الخلائف، ونبغوا النبغة التامة في جميع الفنون والصناعات والمعارف، وتبحروا في حكمة الروم والفرس على اجتهاد، ودوَّنوا أصولَ الشريعة في مذاهب صحيحة المبدإ جميلة المعاد، فإنما الفضلُ في ذلك كله عائد إلى البرامكة، وهم الذين رفعوا منار العلم، وقربوا إليهم الأدباء وأجزلوا أعطِيَتَهم بالمال الكثير، وكان عصرهم تاجًا[1] على هامة الدهر ونورًا أضاء به المشرق حتى انقلب من الضعة إلى سمو الارتفاع، ومن عَماية الجهل إلى نور الاطلاع. فما هو عندي إلا الزمن الذي يبقى موسومًا عند العرب بالعلم والصلاح، وكثرة الخير وسعة أسباب المعاش والانتفاع بعلوم الأعاجم ومحاسن هؤلاء الملوك[2] الذين كانوا جمال المشرق وحصن الإسلام وزينة العالم[3] ومنعة هذه الدولة التي لم تقم من قبلهم إلا بالحِيَل والمكايد.

فإنَّك لتعلم أنَّ الدعوة التي قام بأعبائها أبو مسلم – رحمه الله – إنما كانت لذرية النبي ﷺ وهم أولاد الحسن والحسين – رضي الله عنهما – ولم يكن للعباسيين غرض في انضمامهم إليها إلا مُقارعة بني أمية في جملة مَن انضم إليها من أهل البيوتات، حتى إذا خدمهم السيف رأوا أن ينفردوا بالخلافة دُونهم، ويصرفوهم عنها بالحيلة التي كان يمزجها أبو جعفر باشتداده على العُمال وإرهاق الرَّعية في الخراج، حتى يوقع فيهم الفشل ويُقعِدهم عن الخروج عليه في دعوتهم، فكان عظماء الملة يرون ذلك منه، ولكنهم لم

يرَوْا أن يحملوا الأمة على الخلاف ضنًّا بالنفوس الصالحة أن تسيل دماؤها في قتال المسلمين بالمسلمين، فثبتَ له الملك من هذا الوجه، لم ينازعه فيه إلا جماعات مُتفرقة من أهل الدعوة ومَن كان لا يضمهم الغرض إلى جامعة واحدة في جميع الأنحاء، فلم يَستطيعوا مُقاومته ولا بلغوا مِن غرضهم إلا أن جعلوا له سبيلًا إلى غلب جماعة منهم بعد جماعة، فلمَّا تغلَّب عليه حبُّ الولد فخلع ابن عمه عن ولاية العهد وصيرها للمهدي من بعده لم يكن في الناس إلا من ينغِّص ذلك عليه، فخاف الربيع أن تذهب الخلافة من ولده، وله في مصيرها إلى المهدي مصلحة لا تكون في دولة غيره من أهل البيت ولا من العباسيين أنفسهم؛ ففتق له عقله تلك الحيلة التي تَسَارَع أهلُ الحل والعقد إلى تنفيذها خوفًا من أبي جعفر لظنهم أنه حيٌّ لم يمت، فلما استوثق له الأمر استهلَّ خلافته باستمالة الناس بالإحسان والمعروف حتى لا تنفر منه قلوبهم ولا يظنوا به متابعة لسيرة أبيه، وأقام لهم ديوان المظالم ورفع عنهم ضرائب الخراج ووسَّع لهم أسباب المعاملة بعدما ضاقت نفوسُهم حتى استمالهم لغرضه وصاروا طوع يمينه، فلم يبقَ عليه بعد ذلك إلا أن يأمن خروج أهل الدعوة في جمع غير مُتفرق، فرأى أن يستميل إليه الحرم الآمن وهو الموضع الذي ينادى فيه بالحقوق المقدسة لأربابها من أهل البيت؛ ففرَّق في أهله الأموال الجسام؛ ووالى على عامتهم جزيل الإنعام، وجدَّد لهم بناء البيت الحرام وعهد إلى عظمائهم بالولايات والإمارات، وأجرى الأرزاق الواسعة على مَن استخدم في الجند من أولادهم كما علمتَ.

فلما آلتِ الخلافة إلى الهادي وصارت إرثًا في بيت أبي جعفر رأى البرامكةُ برأيهم الصائب أن ليس للعلويين بعد ذلك كله مطمع في المشرق بإزاء العباسيين الذين يستخدمون الحيلة من وراء السيف لقهر أخصامهم؛ فانصرفوا عن تدبير أمر الحرمين إلى تمهيد الطريق لخلافتهم في المغرب، وراموا تعظيم دولة الرشيد بضم المشرق كله إلى جناحه حتى ينصرف عن مُقارعة أهل البيت في إفريقية ويقنع بما دبَّروا له من السُّلطان العظيم الذي لم يكن مِثله لأحد من الخلفاء قبله، فكان بعض ما أشاروا به عليه لتعميم هذا السلطان أنْ يأخذ الرعية باللين والعَطف بعد أن أمَّنوه خروجهم في

دعوة أهل البيت وبني أمية وغيرهم، فجرى على ما رسموه له من سياسة الرفق والحلم بُرهة من الزمان، ثم غلب عليه حبُّ الأَثَرَة فرجع إلى الشدة، ونكَّل بمَن كان أحبَّ الناس إليه.

هذه هي دولة العباسيين التي أشرقت شروق الشمس في البهاء والعظمة، وإنها لتحتاج إلى رجال عقلاء يُديرون سياستها؛ لأنها لو سقطت على يد خليفة قليل الخبرة بأمور الملك ما قامت لها قائمة بعد ذلك، فاليوم أترك الإسلام بين رايات خُضْر وسود وبيض. فأمَّا العلويون؛ فإنهم حائزون أمر المغرب، وهم أهل سيف شديد الوطأة. وأما الأمويون؛ فإنهم يرتقبون الخلافة من وراء البحار، ويرُومون إعادة الملك الذي ذهب من أيديهم بغفلة صبيانهم في دمشق، والمسلمون في عُرْض ذلك يتمزقون بالفتن والشقاق، فإذا كان هذا حال الدَّولة من العظمة وهي مُتفرقة على أغراض لا تضمها إلى الوحدة فما الظن لو جمعتْها عصبية الدين إلى جامعة الإسلام؛ ففي المسلمين ملوك عِظام أَحسبهم ينتبهون إلى ما بهم من الانقسام؛ ويُقيمون على أساس الجامعة دولة تهتز لها دول الروم، والله يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

الأسفار التي وجدتُ بين يديَّ وأسندتُ إليها روايةَ الرحَّالة

	الطبع	السنة
(علوم الدين والشرع)		
الإتقان للسيوطي	المطبعة الأميرية	١٢٨٧
الأحكام السلطانية للماوردي	بن	١٨٥٣
رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين	المطبعة الأميرية	١٢٨٦
مجمع الأنهر على ملتقى الأبحر لشيخ زاده	القسطنطينية	١٢٧٦
شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك	المطبعة الأميرية	١٢٧٩
كليات أبي البقاء	مصر	١٢٨٧
ومطالعات في صحيح البخاري وتفسيري الزمخشري والبيضاوي	—	—
(علم اللغة)		
صحاح الجوهري. المحيط للفيروزابادي. فقه اللغة للثعالبي	—	—
(الممالك والبلدان)		
أحسن التقاسيم في معرفة البلدان والأقاليم للمقدسي	ليدن	١٨٧٧
المسالك والممالك لابن حوقل	ليدن	١٨٧٢
الرحلة (إلى المشرق) لابن جبير	ليدن	١٨٥٢
معجم البلدان لياقوت	ليبسيك	١٨٦٦

	الطبع	السنة
تقويم البلدان لأبي الفداء	باريس	١٨٤٠
المسالك والممالك لابن خرداذبة	باريس	١٨٦٥
الفيض المديد في النيل السعيد لأحمد المنوفي	باريس	١٨٣٧
مسالك الممالك للإصطخري	ليدن	١٨٧٠
الخطط والآثار للمقريزي	المطبعة الأميرية	١٢٧٠
آثار مصرلعبد اللطيف	توبنك	١٧٨٩
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي	رومية	—
تحفة النظار في عجائب الأسفار لابن بطوطة	باريس	١٨٥٣
أخبار العباد وآثار البلاد للقزويني	غوتنغين	١٨٤٨
جواهر البحور ووقائع الدهور لإبراهيم بن وصيف شاه	خط	—
نشق الآثار في عجائب الأقطار لمحمد بن إياس	خط	—
(السير والأخبار وأيام الناس)		
الكامل لابن الأثير	المطبعة الأميرية	١٢٩٠
تاريخ الملوك وأعمارهم للطبري	ليدن	١٨٨٠
ديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون	المطبعة الأميرية	١٢٨٤
تاريخ أبي الفداء	القسطنطينية	١٢٨٦
الآداب السلطانية والدول الإسلامية للفخري	غريفزولد	١٨٥٨

	الطبع	السنة
مروج الذهب للمَسعودي	المطبعة الأميرية	١٢٨٣
نفح الطيب في غُصن الأندلس الرطيب للمقَّري	المطبعة الأميرية	١٢٧٩
وفيات الأعيان لابن خِلِّكان	المطبعة الأميرية	١٢٧٥
تاريخ الدول لأبي الفرج الملطي	أكسفود	١٦٦٣
أخبار الدول والإسلام (الخميس)	المطبعة الأميرية	—
تاريخ الخلفاء للسيوطي	خط	—
الأنس الجليل في تاريخ المقدس والخليل للسيوطي	مصر	١٢٨٣
حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي	مصر طبع حجر	—
النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة لأبي المحاسن	ليدن	١٨٥١
إعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بني العباس للأتليدي	المطبعة الأميرية	١٢٨٠
فتوح الشام للواقدي	خط	—
آثار الأول للقرماني	المطبعة الأميرية	١٢٩٠
فوات الوفيات لمحمد بن شاكر	المطبعة الأميرية	١٧٨٢
العقد الفريد لابن عبد ربه	المطبعة	١٢٨٣

	الطبع	السنة
	الأميرية	
المونس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار	تونس	١٢٨٦
قضاة الشام لشرف الدين الأنصاري	خط	—
لطائف الأخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول للإسحاقي	مصر	١٣٠٠
تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من السلاطين للشرقاوي	—	—
مطالعات في ابن الوردي والأزرقي	مصر	١٣٠٠
(العلوم الأدبية)		
الفهرست لأبي يعقوب الوراق:		
حاجي خليفة. كشف الظنون عن العلوم والفنون	لندن	١٨٦٣
الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني	المطبعة الأميرية	١٢٨٥
المقدمة لابن خلدون	بيروت	١٨٧٩
المثل السائر لابن الأثير	المطبعة الأميرية	—
أدب الدنيا والدين للماوردي	القسطنطينية	١٢٩٩
حياة الحيوان للدميري	المطبعة الأميرية	١٢٧٥
عجائب المخلوقات للقزويني	كوتنكن	١٨٤٩
خزانة الأدب لابن حجة	المطبعة الأميرية	١٢٩١

	الطبع	السنة
مقامات الحريري	بيروت	—
مجمع الأمثال للميداني	المطبعة الأميرية	١٢٨٤
قلائد العقيان للفتح بن خاقان	باريس	١٢٧٧
المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي	المطبعة الأميرية	١٢٧٩
نهج البلاغة للإمام علي كرم الله وجهه	حجر	—
طبقات الشعراء لأبي عبيدة	خط	—
شرح لامية ابن الوردي للقناوي	مصر	١٢٧٨
سراج الملوك للطرطوشي	المطبعة الأميرية	١٢٧٩
الطبقات الكبرى للشعراني	المطبعة الأميرية	١٢٨٦
مختصر كتاب الخراج لقدامة بن جعفر	باريس	١٢٦٢
الكنز المدفون والفلك المشحون للسيوطي	المطبعة الأميرية	١٢٨٨
شرح مقامات الحريري للشريشي	المطبعة الأميرية	١٢٨٤
الكشكول لبهاء الدين العاملي	خط	—
يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر للثعالبي	دمشق	—
زهر الآداب وثمر الألباب بهامش العقد الفريد للحصري	—	—

	الطبع	السنة
غرر النصائح الواضحة للوطواط	المطبعة الأميرية	١٢٨٤
سرح العيون لرسالة ابن زيدون لابن نباتة المصري	خط	—
تزيين الأسواق في أحوال العشاق لداود بن عمر	المطبعة الأميرية	١٢٩١
فاكهة الخلفاء لابن عمر شاه	الموصل	١٢٦٩
كتاب ألف ليلة وليلة	المطبعة الأميرية	١٢٥١
نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار للشبلنجي	المطبعة الأميرية	١٢٩٠
كليلة ودمنة لابن المقفع	باريس	—
حلية الكميت لشمس الدين النواجي	المطبعة الأميرية	—
الموازنة بين أبي تمام والبُحتري	القسطنطينية	١٢٨٧
مُطالعات في لطائف العرب، وربيع الأبرار للزمخشري، وغير ذلك	—	—

الهوامش

(١) العقد الفريد، والفخري، والسيوطي، وابن خلكان.

(٢) الزمخشري في ربيع الأبرار.

(٣) يقول الحصري (٢ : ١٠٣): إن أيامهم كانت روض الأزمنة.

الفهرس